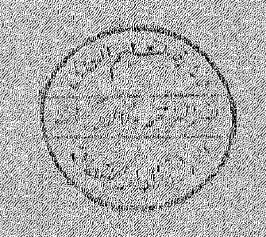


حضارة روما

تأليف

دونالد ر. ددلي

ترجمة

فاروق فريد و جميل يواقيم الذهبي

راجعه

دكتور محمد صقر خفاجة

الألف كتاب (٥٣٩)

حضارة روما

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

هذه الترجمة كتب :

THE CIVILIZATION OF ROME

تأليف

Donald R. Dudley

الفصل الأول

مقدمـــة

على بعد ما يقرب من ستة عشر ميلا من مصب نهر « التيبر » Tiber تجاه الداخل توجد مجموعة من التلال المنخفضة — عددها سبعة كما تناقلته الروايات — تشكل موقعاً مناسباً لاستيطان مبكر. وعلى التل الذى قد تكون قمته العريضة المستوية أكثر اجتذاباً للرعاة الوافدين من الجبال الشرقية تدل الحفريات على وجود بقايا سكنى تؤرخ بين القرن التاسع والقرن السابع قبل الميلاد — وقد عثر على جبانة هذه الجماعة فى الوادى الواقع أسفل التل، وأجريت أعمال التنقيب فى مقابرها ، وأكثر ماتحتويه هذه المقابر أهمية هو نموذج لأكواخ مستديرة ذات سقف مخروطى ، تشبه أكواخ «الكابنا» Capanna التى مايزال يبنيها الرعاة من غصون الأشجار والطين فى منطقة كمبانا الرومانية . وقد عثر على مثل هذه المكتشفات فى أماكن متعددة من إقليم «لاتيوم» Latium ولكن هناك اهتماماً خاصاً بهذا الاكتشاف بالذات ، إذ أن هذا التل ما هو إلا تل « البلاتين » Palatine والوادى هو « السوق الرومانية » Roman Forum ، وكما ورد فى الأساطير استوطن «رومولوس» Romulus مؤسس روما على تل البلاتين ، حيث أقيم كوخ مستدير ، هو منزل «رومولوس » وأحيط بتقديس حتى عصر الإمبراطورية باعتباره نصبا تذكارياً قومياً ، وقد جاءت تواريخ عديدة فى العالم القديم تحدد تاريخ تأسيس روما ، ولكن التاريخ الوحيد المعترف به رسمياً هو عام ٧٥٣ ق . م . ، وحتى يوم الإنشاء قد عرف بالتحديد فهو فى التقويم اللاتينى الذى عثر عليه فى بلدة «أنزيو» Anzio يقابل الحادى والعشرين من أبريل فى بداية «أعياد الباليس — عندما تأسست روما Parilia Roma Condita « والباليس »

Pales كانت إلهة قطعان الماشية وأسرابها ، وما يزال الواحد والعشرون من أبريل ينظر إليه باعتباره عيد ميلاد روما ، وهكذا نجد أن الحفريات والأساطير تجمع على أن أصل نشأة روما يرجع إلى استيطان حدث على تل البلاتين حوالى عام ٨٠٠ ق . م. قام به رعاة قادمون من الأراضى اللاتينية الداخلية. والرعاة والأكواخ المستديرة ومهرجان « الباليس » كلها تعطينا مثلا واضحاً لهذا التسلسل الذى يعتبر أحد مفاتيح التاريخ الرومانى .

ومهمة مؤرخ التاريخ الرومانى هى أن يقتفى أثر الارتباط المتصل لهذه البدايات الساذجة أطول من اثنى عشر قرنا بقليل . فما أن جاء عام ٦٠٠ ق.م . حتى كانت روما ، قياسا على مستويات تلك الأزمنة ، قد أصبحت مدينة غنية مزدهرة تخضع للملكية، من المحتمل أنها لم تكن من أصل قومى. وفى حوالى عام ٥٠٠ ق . م . أطيح بهذه الملكية وخلفتها جمهورية ، وفى عام ٢٧٢ ق.م. كانت الجمهورية الرومانية تسيطر على اتحاد كبير يضم كل شبه الجزيرة الإيطالية جنوب « جنوا » . وكان من نتائج الحروب التى استغرقت المائة والخمسين عاما التالية أن أصبحت روما هى القوة الوحيدة فى عالم البحر المتوسط وخليفة لإمبراطورية الإسكندر المترامية الأطراف . وخلال القرن الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد استمرت حركة التوسع حتى وصلت أقصى حد لها أثناء حكم الإمبراطور « تراجان » Trajan (عام ٩٨ م — ١١٧ م) إذ كانت فى ذلك الوقت « عظمة السلام الرومانى اللامحدودة » « Immensa Romanae Pacis Maiestas » تمتد من اسكتلندا حتى السودان ، ومن شواطىء المحيط الأطلنطى عند البرتغال حتى جبال القوقاز — وهى منطقة تساوى فى أيامنا هذه ثلثى مساحة الولايات المتحدة القارية ، وربما كان يسكنها أقل من نصف سكان الولايات المتحدة بقليل ، وفى هذه الإمبراطورية العالمية الواسعة كان كل التراث الحضارى للعالم القديم — سواء كان التراث اليونانى أو الشرقى أو السامى أو الغرب أوربى — قد اندمج

ثم انتشر . ولكن أعباء هذا التوسع — الأعباء الاقتصادية والسياسية والاجتماعية — قد هدمت البناء السياسى الذى تميزت به الجمهورية الرومانية هدما تاما . فمنذ عصر أوغسطس ١٣ق. م. - ١٤م) أصبح العالم الرومانى خاضعاً لحكم ملكية مركزية قوية تتحكم فى كل موارد الدولة. أما القرون الثلاثة التى تلت حكم « ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١م — ١٨٠م) فقد كانت سنوات التدهور والسقوط ، سنوات الغزو البربرى والتدهور الاقتصادى . وما أن جاء عام ٤٧٦ م — حيث ننهى هذا الكتاب — حتى كان الجزء الغربى من الإمبراطورية قد انهار تماما ، وعلى أنقاضه قامت الممالك البربرية التى انبثقت منها أمم أوربا الحديثة . ومع ذلك يجب أن نلاحظ أن الإمبراطورية الشرقية التى كانت تحكم من القسطنطينية لم تسقط ، إذ كانت أقوى دول العالم نفوذا وأكثرها حضارة خلال الجزء الأكبر من العصور الوسطى ، وأخيراً استسلمت للأتراك فى عام ١٤٥٣م عندما كان العالم على وشك اكتشاف الدنيا الجديدة . والأهمية الجوهرية لهذه القرون الاثنى عشر من التاريخ الرومانى هى فى حد ذاتها سبب يجذب اهتمام كل الرجال الأذكياء ، ولكن هناك ماهو أروع من ذلك ، فما خلفته روما من دساتير سياسية وقانون ولغة ودين وأدب وفنون وأعمال أخرى عديدة بجانب ذلك كان جداراً ثابتاً ، قد لا يتحطم أبداً ، فى البناء الذى شيدته الحضارة الغربية . وإذا كان لابد من أن نفهم أنفسنا فيجب أن نفهم ما هى روما أولا .

ومما يدعو للأسف أن الأجزاء الأولى من هذه القصة حتى القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل أجزاء غامضة بصورة مشينة . ولدينا مايعتبر سرداً تاريخيامسلسلا، وخاصة كتابات «ليفى» Livy و«ديونيسيوس الهاليكارناسى» Dionysius of Halicarnassus ولكنها ترجع إلى وقت متأخر ، كما أنها قد شوهت عمداً . وعمل ليفى الرائع (المسمى منذ تأسيس المدينة والمكون من ١٤٢ كتابا) ليعطينا صورة وطنية ، نصف ملحمية للتاريخ الرومانى ،

فيه قورنت الفضائل البطولية التي ترجع إلى روما القديمة بالانحطاط المنتشر في الأزمنة المتأخرة مقارنة مفصلة . في الكتب العشرة الأولى يسرد ليفي قصة روما حتى عام ٢٩٣ ق.م وفى مقدمته الشهيرة يعتبر صريحا فيما يختص بالمسحة الأسطورية لأجزاء هذا التاريخ الأولى على الأقل، أما كتاب الآثار والمخلفات الرومانية القديمة Roman Antiquities لمؤلفه « ديونيسيوس » الذى يؤرخ فيه الأحداث حتى الحروب البونية فهو أقل أهمية من ذلك بكثير ، ولكن ماوصلنا مما كتبه يصل إلى أحداث عام ٤٤٦ق. م . تقريبا ولكون هذا الكاتب يونانيا فهو يهتم اهتماما زائداً بالموازنة بين التاريخ اليونانى والتاريخ الرومانى — وفى الغالب ماتكون هذه الموازنة خيالية — ويصور الرومان على أنهم من سلالة اليونان. وقد عاش هذان المؤرخان فى عصر أوغسطس ، وبذلك يكونان قد عاشا بعد عصر روما الملكية بخمسة قرون . ولكن ما هى المصادر التى اعتمدا عليها ؟ إننا نسمع عن عدد من المؤرخين — أمثال فابيوس بيكتور » Fabius Pictor و « كنكيوس أليمنتوس » Cincius Alimentus وغيرهم — كانوا يكتبون فى روما فى القرن الثانى قبل الميلاد . أما بالنسبة لمصادر أقدم فترة من تاريخ روما ، فيبدو أنهم قد انكبوا كلية على دراسة تراث تاريخى يونانى كان قد تشكل فى صقلية وجنوب إيطاليا منذ القرن الرابع قبل الميلاد تقريباً . ولكن هذا لا يفى بالغرض تماما ، إذ كان اهتمام اليونانيين « بروما » اهتماما سطحياً فقط ، كما أن المؤرخين الرومان أنفسهم قد دفعهم ميلهم إلى تبجيل أصل نشأة المدينة والتغنى به وتفسير تاريخ روما القديمة على ضوء الأحداث السياسية لعصرهم إلى سلوكهم الطريق الخطأ بصفة مستديمة . وقد كان هناك بالطبع تقارير رسمية من نوع ما ، إذ كانت المعاهد الدينية منذ الأيام الأولى من عصر الجمهورية تحتفظ بقوائم أسماء الموظفين العموميين ، كما أضيفت إلى هذه القوائم ملحوظات عن الانتصارات التى أحرزت والمعاهدات التى أبرمت والمعجزات التى تحققت وما شابه ذلك ، وما إن أوشك القرن الرابع قبل الميلاد على

الانتهاء حتى كان قد نتج عن ذلك تقرير تاريخى يقابل تقرير الأنجلو — ساكسون الزمنى Anglo Saxon Chronicle ولكن عدد التقارير التى تخلفت بعد الغزو الغالى الذى حدث فى عام ٣٩٠ ق . م . ليس مؤكداً ، بل ومن المشكوك فيه تماما عما إذا كان أى مؤرخ رومانى قد استطاع أن يستغل مواد مثل هذه المصادر استغلالا منظما ومحكما ، إذا حدث أن وقعت بين يديه ، كما أن علم الحفريات لا يستطيع أن يصلح من أخطاء السرد التاريخى ، اللهم إلا إذا حدث ذلك بالصدفة ، ففى المدينة نفسها كانت مبانى الإمبراطورية الضخمة قد طمست مبانى المدينة ولم يتخلف إلا القليل من بقايا روما القديمة . وإذا حدث أننا تغاضينا عن الأساطير — وقد كان ليفى حكيما عندما سردها — فليس أمامنا سوى أن نعطى صورة عامة للتاريخ الرومانى والتشريعات الرومانية منذ البداية حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، نضاهيها بالمعلومات الجغرافية عن إيطاليا والشعوب التى سكنتها .

وعلى الخريطة تبدو معالم إيطاليا الطبيعية بسيطة ، فقوس جبال الألب الضخمة يعزلها شمالا عن وسط أوربا . وعند الحافة الغربية من هذا القوس تتصل جبال الألب البحرية Maritime Alps بجبال الأبنين . وبين جبال الألب والأبنين يوجد سهل وادى « البو » po الذى يصب فى رأس البحر الإدرياتيكى وتمتد أرض إيطاليا على شكل شبه جزيرة من جنوب خليج جنوا تجاه الجنوب الشرقى لمسافة أطول من ٥٠٠ ميل ولا يزيد عرضها فى أى نقطة على ١٥٠ ميلا . وفى طرفها الجنوبى الغربى يوجد مضيق ضيق يفصل شبه الجزيرة عن جزيرة صقلية . وجبال الأبنين عبارة عن عمود فقرى من الجبال يمتد على طول شبه الجزيرة ، يصل ارتفاعها فى مناطق عديدة إلى أكثر من ٨٠٠٠ قدم . وعبر مضيق مسينا تكملها جبال صقلية الأكثر ارتفاعا . ولكن هذه الوحدة الظاهرية تخفى بين طياتها تنوعا متبايناً فى المناخ ونوع التربة ، فقد كان التنوع الإقليمى يميز دائماً حياة إيطاليا . فمن الناحية الجغرافية ينتمى وادى « البو » إلى أوربا القارية . وجبال الأبنين عبارة عن مجموعة جبال وليست سلسلة

واحدة ، وقد ساعدت وديانها المتباعدة وأخاديدها العميقة وهضابها العالية على ظهور مجتمعات رعوية معزولة الواحدة عن الأخرى . وفى الغرب، بين الجبال والبحر توجد ثلاث مناطق تتكون كل منها من سهل وتل تكفل وجود ظروف ملائمة للزراعة، وهذا أمر شاذ . وهى «اترورويا Etruria» التى تنحصر بين نهرى ارنو Arno والتيبر ، و « لاتيوم Latium » وهى المنطقة المحيطة بروما، وكمبانيا Campania وهى المنطقة المحيطة بنابولى . والتربة البركانية التى تتكون منها المنطقتان الأخيرتان تربة خصبة بشكل ملحوظ ، فالمنتجات الوفيرة التى أخرجتها هاتان المنطقتان عندما زرعتا لأول مرة قد تعلل أسطورة « العصر الذهبى البدائى » فى إيطاليا حينما كانت الطبيعة والأرض تستجيب بتألق لكل احتياجات الإنسان . أما فى الشرق فالجبال أكثر انحداراً ناحية البحر والسهل الوحيد الفسيح فيها هو سهل « أبوليا » Apulia الشهير بماشيته وأغنامه ، وأنهار شبه الجزيرة أنهار قصيرة ونادراً ما تصلح للملاحة وعلى ذلك فالتنقل يجب أن يتم عن طريق البر أو البحر . وأكثر الموانى صلاحية تقع فى الغرب ؛ ففى أيامنا هذه تعتبر جنوا وليجهورن Leghorn ونابولى مراكز لعابرات المحيط من السفن ، كما أنه توجد موان أخرى صالحة تستخدمها السفن الأصغر حجما، وعلى شاطىء الإدرياتيكى تمكننا موانى خليج « تارانو » من القيام برحلة سريعة وسهلة إلى أرض اليونان والبحر الإيجى، أما فينيسيا فقد جاء إنشاؤها بعد الفترة الرومانية، واتصالاتها بالعالم الخارجى تفسر الكثير من تاريخ إيطاليا . وفى الشمال الشرقى توجد ممرات من السهل اجتيازها فى جبال « جوليان الب » Julian Alps توصل إلى وادى الدانوب ووادى السافا ، ومنهما إلى سهول المجر والبحر الأسود الواسعة . أما فى الشمال والشمال الغربى فالممرات التى توصل إلى فرنسا وسويسرا أكثر ارتفاعا إلا أنه ما يزال من الممكن اجتيازها ، وحتى ممرات جبال « بنين ألب » Pennine Alps العالية قد عبرتها فلول المهاجرين والجيوش الغازية . وتمتد إيطاليا جنوبا حتى صقلية ، وصقلية لا تبعد عن « رأس

بون » Cape Bon فى أفريقيا سوى ٩٠ ميلا فقط ، وكما تعلمنا من الحرب العالمية الثانية ، فقيام دولة بحرية قوية فى إيطاليا تستطيع أن تشطر البحر المتوسط وبالتالى تستطيع إيطاليا أن تغزو أفريقيا .

وجانب كبير من علم الحفريات وعلم الأجناس الخاصين بإيطاليا لا يزال غير موثوق به ، فمازالت هناك مساحات واسعة ، وخاصة فى الجنوب ، لم تكتشف بعد ، ومايهمنا الآن هو أن نكون فكرة عن الشعوب التاريخية التى اصطدمت بهم روما باعتبارهم حلفاء أو أعداء لها أثناء غزوها لإيطاليا ، وعن تطورهم ما بين ٧٠٠ ، ٥٠٠ ق . م . ومن المتفق عليه بصفة عامة أن أقدم السلالات — وهى من جنس بحر متوسط مثل « الأيبيريين » فى أسبانيا — كان فى بداية هذه الفترة قد ابتلعهم الغزاة الذين أتوا فيما بعد أو دفعوهم إلى أقل مناطق شبه الجزيرة ملاءمة للعيش . وقد ترك « الليجوريون » Ligurians آثاراً لاستعمارهم الأرض التى تحمل اسمهم ، ولكنهم يلعبون دوراً غير ذى بال فى التاريخ الرومانى . أما عن الغزاة فيبدو أن أقدمهم قد جاء عبر بحر الإدرياتيكى من « البلقان » حوالى عام ١٠٠٠ ق . م . واحتلت جماعة منهم وهم « الفنيتى » Veneti الأراضى الواقعة حول رأس بحر الإدرياتيكى ، وجماعة أخرى استقرت فى سهل « أبوليا » الفسيح وجزء كبير من « كالابريا » Calabria وهذه الشعوب كانت تشتغل بتربية الحيوانات ، شهيرة بالخيل وبآلهة الخيل عندهم ، ودراسة صناعة الفخار القومية فى الوقت الحالى هى المصدر الرئيسى لمعرفة الحياة فى « أبوليا » ، فما أن جاءت نهاية الفترة التى نحن بصددها حتى كانت بلدة « كانوسا » Canosa تنتج أوانى رائعة مزينة بالزهور ، من الممكن رؤيتها الآن فى متحف نابولى ، امتزجت فيها الأساليب الهلينية بالأساليب القومية . وكانت لغات هذه الشعوب لغات هندية — أوربية ويمكن دراستها من أسماء أماكن كثيرة وما يقرب من ٢٠٠ نقش . وقائمة الكلمات التى أخذتها اللغة اللاتينية عنها قائمة صغيرة ،

فكلمة « جندولا » Gondola فى اللهجة الفينيسية يرجع أصلها إلى الكلمة الفنتية « جانديا » Gandeia (ومعناها قارب صغير) .

والأهم من ذلك كان هؤلاء الغزاة القادمين من وسط أوربا والذين ما أن جاء عام ٧٠٠ ق.م حتى كانت كل الأراضى المرتفعة من جبال الأبنين فى حوزتهم بالفعل ، وهم يكونون فرعاً من الشعوب اللاتينية . ويبدو أنهم استقروا كرعاة فى إقليم « لاتيوم » فى فترة ليست سابقة على عصر الحديد ، أى القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ، وكانت المنطقة التى قاموا فيها بأول استيطان لهم هى « تلال ألبا » Alban Hills وهى إقليم مرتفع ذات جبال مخروطية الشكل وبحيرات قائمة كانت فوهات لبراكين ، وهى من أجمل المناطق فى إيطاليا ، وعبادة الإله « جوبيتر لاتياريس » Jupiter Latiaris المنتشرة على جبل « كافو » Cavo أعلى تل فى المنطقة وعبادة الإلهة « ديانا » Diana فى الغابة المقدسة الواقعة على بحيرة « نمى » Nemie والقصص التى تروى سيادة مدينة البا لونجا القديمة تؤيد الرأى القائل بأن هذه المنطقة كانت أول موطن للشعوب اللاتينية فى إقليم لاتيوم . أما الاستقرار فى القرية المقامة على تل البلاتين — والتى يمكن رؤيتها بسهولة عبر السهل — فقد كان متفرعا من هذا الموطن . ولكن اللاتين لم يستمروا فى اشتغالهم بالرعى فقط ، بل كانوا أول من استصلح سهل «لاتيوم» لزراعته ، والفضل فى ذلك يرجع إلى وضع نظام محكم للصرف . وما إن جاء القرن السادس حتى كانت بعض مدنهم تنعم بحياة رغدة كما دلت الحفريات فى هذه البقع مثل «برايندستى» Praeneste و « فدناى » Fidenae .

وتجاه الشمال الشرقى كان يسكن شعب « السابين » Sabines وهم سلالة خشنة مكونة من رعاة وفلاحين. وحالهم حال اللاتين، إذ كانوا يتطلعون إلى ما وراء التلال بحثاً عن سهل ، وقد أسسوا مقرهم على تل « الكويرينال » Quirinal أحد تلال روما فى نفس الوقت الذى تأسست فيه القرية اللاتينية

على تل البلاتين . وفيما بعد قامت هجرة سابينية على نطاق واسع إلى روما فى القرن الخامس قبل الميلاد، كما هو مأخوذ به . ونرجع إلى الشمال مرة أخرى فنجد شعوبا استقرت فى الأرض التى لا تزال تحمل اسمهم وتعرف هذه الشعوب فى مجملها باسم الامبريين Umbrians وقد أدى اتصالهم بشعوب أتروريا الأكثر تحضراً إلى رفع مستوياتهم الحضارية ، كما أدى إلى نمو المدن وازدهارها . وهناك شعوب تمت لهم بصلة القرابة وهم البيكنى Piceni التى كانت تستوطن ساحل بحر الإدرياتيكى مابين بلدة أنكونا Ancona ومصب نهر سانجرو Sangro ، وحضارتهم المادية يمكن التمعن فيها فى المتحف المقام فى بلدة أنكونا وهى تضم بعض منتجات الفن اليونانى الرائعة التى من الجائز أنها جاءت هذا المكان عن طريق « تارنتوم » Tarentum وتشير إلى وجود حركة تجارية نشطة على ساحل الإدرياتيكى فى القرن السادس والخامس قبل الميلاد . أما الأراضى الأكثر وعورة المعروفة الآن باسم « أبروتزى » Abruzzi فقد استمر يقطنها مجتمعات رعوية بدائية أثناء الأزمنة الرومانية .

أما الحزام العريض المكون من التلال فى المنطقة الواقعة شرق إقليم كمبانيا فقد كان موطن السامنيتز Samnites الذين أصبحوا فيما بعد أخطر أعداء روما أثناء الصراع من أجل السيادة على إيطاليا ، وقد كانت حضارتهم حضارة بدائية فى بداية الفترة ويشير نظامهم القبلى إلى بقايا الطوطمية Totemism فقد دفعهم ضغط السكان على المقومات الغذائية وأراضى المرعى إلى إيفاد جماعات من الشباب المحارب ليفتحوا أرضا جديدة بعد احتفالهم الدورى بالربيع المقدس ولكن اتصالهم بمدن كمبانيا اليونانية خلق منشطاً حضارياً ، فما إن جاء القرن الرابع حتى انفرج الستار عن اتحاد قوى بين السمنيين كما أصبح هناك مدن غنية ، حضارتها مزيج من الحضارة اليونانية والحضارة السمنية ، وبلدة كابوا Capua أوضح مثال على ذلك .

كانت كل هذه الشعوب تتكلم لهجات متقاربة تماماً ، انبثقت منها

ثلاث لغات أصبحت هي السائدة وهي : اللغة الامبرية، واللغة اللاتينية واللغة الاوسكانية ، والأخيرة كانت هي اللغة الرسمية لوسط وجنوب إيطاليا حتى القرن الأول قبل الميلاد . ومن الممكن دراسة صلة هذه اللغات باللغة اللاتينية بقراءة النقوش ووثيقتين طويلتين إلى حد ما ، « فلوحات إيجوفيوم Tabulae Iguvinae التي عثر عليها في بلدة جوبيو Gubbio أي « إيجوفيوم » Iguvium بإقليم أومبريا في القرن الخامس عشر سجل عليها أعمال جمعية من جمعيات الكهنوت مشابهة لجمعية « أرفال للأخوة » Arval Brethren في روما . ولوحة بانتينا Tabule Bantina التي عثر عليها في بلدة بانتينا في عام ١٧٩٤ ، عبارة عن تنظيمات محلية . وبمقارنة هذه اللوحات باللغة اللاتينية نجد من الواضح أن اللغة الأوسكانية واللغة الأومبرية أخوة ، بينما اللغة اللاتينية ابنة عم لهما .

وكانت الشعوب الكلتية هي آخر كل الشعوب التي غزت إيطاليا ، وسواء أتوا من بلاد الغال أو من الدانوب ، فقد عبروا جبال الألب إلى وادي البو في القرن السادس قبل الميلاد وطردوا الاتروسكيين من هذا المكان ، بينما دفعوا الهلفيتيين إلى ركن منزوى وتمت لهم السيطرة التامة على هذا الإقليم حتى إنه سمى « بلاد الغال القريبة » Gallia Cisalpina وكثير من المدن الشهيرة الواقعة في شمال إيطاليا مثل ميلان وفيرونا وبرسكيا — من الممكن إرجاع أصلها إلى المدن الكلتية Oppida التي قامت في هذه الفترة .

وكانت أرقى الحضارات في إيطاليا هي حضارة اليونان في جنوب إيطاليا وحضارة الأتروسكيين في وسطها وقد جاء وقت كان يبدو فيه أنه من المحتمل أن تكتسب الحضارة الأتروسكية مركز الزعامة على كل شبه الجزيرة ، والبقايا المادية التي تخلفت عن الحضارة الأتروسكية تعد من بين أجمل الآثار في إيطاليا ، وخاصة في هذه البقاع مثل «كايرى» Caere وتاركوينى»

Tarquinii وفولكى Vulci بجباناتهم الضخمة ومقابرهم الغنية بالزخارف .
ومن المحتمل أن تؤدى وسائل البحث الجديدة إلى خروج اكتشافات قد تكون أكثر روعة وأهمية من المناطق الأتروسكية التى لا يزال من الضرورى التنقيب فيها ، وأعمال الفن الأتروسكى معروضة عرضاً دقيقاً فى متاحف فلورنسة Florence وروما . وفى الأزمنة الحديثة أصبح التخصص فى الدراسات الأتروسكية أمراً شائعاً ، وعلى رأس هؤلاء المتخصصين يقف العلماء الإيطاليون . ومع ذلك لا يزال الكثير من المشاكل والألغاز بغير حل . فمن الممكن قراءة الحروف الأبجدية الأتروسكية التى هى قوية الشبه بالحروف اليونانية واللاتينية كما أن المقاييس الصوتية لحروفها الستة والعشرين معروفة لدينا ، إلا أن دراياتنا باللغة ضعيفة تماماً ، رغم أنه يمكن قراءة النقوش القصيرة إذ يبدو أنها لا ترجع إلى اللغات الهندية الأوربية الأخرى المنتشرة فى إيطاليا . والأهم من ذلك أن هناك مشكلة أصل الأتروسكيين. فهل أتى هؤلاء من آسيا الصغرى كما قال هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل كانوا أبناء لحضارة ازدهرت فى أناتوليا Anatolia فى نهاية المليون الأول ؟ أم كانوا من أصل إيطالى قومى كما يفترض ديونيسيوس الهاليكارناسى ؟ ما يزال النقاش مفتوحاً لمعالجة هذه المشاكل .

ولكن اهتمامنا يتركز فى الاتصال الذى كان بين أتروريا وروما وفى طبيعة الأثر الذى تركه الأتروسكيون فى روما . وفى هذا الأمر لدينا صورة واضحة إلى حد ما . ففى بدء تعرف روما على الأتروسكيين كان مصدر قوتهم هو الأراضى الواقعة بين نهرى أرنو والتيبر التى ما تزال تحمل اسمهم «أتروريا أوتوسكانى» Tuscany وحضارتهم كانت نوعا من حضارات المدينة الدولة، مثلها فى ذلك مثل بلاد اليونان القديمة أو إيطاليا فى عصر النهضة . فقد كان هناك اثنتا عشرة مدينة (وهو عدد مقدس) تشكل فى مجموعها الحلف الأتروسكى . ويبدو أن هذه المدن كانت من الناحية السياسية تحت

حكم الملوك ، وفى بعض منها كان حكم الأقلية يحل محل الأسرة المالكة ، وكانت ثروتهم قائمة على المصنوعات المعدنية وعلى التجارة ، فقد نقبوا عن الحديد فى البا Elpa والنحاس فى أتروريا . وكانوا صناعا مهرة فى صنع منتجات الذهب والفضة وكانت لهم اتصالات تجارية وثيقة ببلاد اليونان ، ومصر ، ولبنان ، واتصالات أكثر قوة بقرطاجة . ولما كانوا منافسين ليونان ماسيليا Massilia وصقلية فى مضمار النشاط التجارى فى غرب البحر المتوسط ، كان من الطبيعى أن يصبحوا حلفاء لقرطاجة . وكلما نمت ثروتهم امتد نفوذهم إلى ما وراء أتروريا . فقد وقعت كثير من المدن اللاتينية تحت نفوذهم بما فيهم روما وكانوا يسيطرون على وادى البو وكمبانيا لفترة ما مع أنهم قد طردوا من كليهما فيما بعد .

ولم يتخلف عنهم كتابات أدبية ، وتاريخهم معروف لدينا من مصادر أعدائهم ولا نستطيع أن نتصل بالأتروسكيين اتصالا مباشراً إلا عن طريق فنهم . ورغم أن هذا الفن لم يكن أصيلا فى صياغته وأسلوبه إلا أنه كانت له صفات مميزة معينة كانت من الممكن أن ينتج عنها قطع فنية رائعة ، وقد أبدع فنهم فى تصوير الأشكال الغريبة والخارقة للطبيعة — عبارة عن حيوانات خيالية مثل الكيميرا (له رأس أسد وجسم عنزة وذيل ثعبان) فى بلدة أريتزو Arezzo والذئب على الكابيتول وشخصيات مقدسة ذات حيوية فوق طاقة الإنسان مثل أبوللون فى بلدة « فيى » Veii . ونفس المواهب جعلت هذا الفن يبدع فى تصوير النزعة الواقعية البحتة . إن الفن الأتروسكى يصور بحيوية فائقة حياة كلها ترف ومتعة على الأرض ، وكآبة وقصاص بعد الممات .

والتراث الرومانى يؤيد الرأى القائل بأن فكرة الخارق للطبيعة كانت تسيطر على الأتروسكيين . فقد فاقوا كل الشعوب الأخرى فى فن التأليه — فى تفسير مشيئة الآلهة عن طريق البرق وقراءة أحشاء ذبائح القرابين والأنواع الأخرى من التنبؤ .

وهكذا كانت الحضارة الأتروسكية فى خطوطها البسيطة وهى حضارة كان لها أثر قوى على تاريخ روما الأول ولكنه كان أثراً وقتياً .

وكان استيطان اليونان فى صقلية فى جنوب إيطاليا جزءاً من حركة استعمارية واسعة قامت منذ القرن الثامن حتى القرن السادس قبل الميلاد ، وعن طريق هذا الاستعمار غرست فى سواحل البحر المتوسط من أسبانيا حتى روسيا أروع وأخصب ابتكار من الابتكارات التى توصل إليها العقل اليونانى ألا وهى المدينة الدولة اليونانية Polis . وكانت بلدة كوماى Cumae أقدم « مدينة دولة » فى إيطاليا ، إذ أنشئت فى عام ٧٥٠ ق . م . فى الوقت نفسه الذى أنشئت فيه روما نفسها . ومواقع هذه المدن الجديدة التى قامت حول خليج « تارانتو » وعلى سواحل كمبانيا وشرق صقلية قد اختارها باحثون حنكتهم التجربة بعناية فائقة . وكون الكثير منها مدناً وبلدان ذات أهمية فائقة فى أيامنا هذه يوضح مدى الإتقان الذى تم به إنجاز هذا العمل ، فهذا هو حال نابولى (نيابوليس) Neapolis وتارانتو (تارنتوم) Tarentum وسيراكوزه وريجيو (رجيون) Rhegion . وكلمة مستعمرة فى العالم الحديث لها معان معينة لا تنطبق إطلاقاً على هذه المدن التى أقامها يونان الغرب . ولما كانت هذه المدن منذ البداية مستقلة استقلالا تاماً عن المدينة الأم ، فقد فاقتها مراراً وتكراراً فى ثرائها وحضارتها . إذ أصبح ترف مدينة سيباريس Sybaris وثرائها مضرباً للأمثال . وما إن جاء القرن الرابع قبل الميلاد حتى كانت سيراكوزه أعظم مدينة فى العالم الهلينى . وهكذا نمت الحضارة اليونانية وازدهرت بعزم وقوة فى أرض إيطاليا حتى أصبح جنوب إيطاليا يعرف باسم « اليونان العظمى » Magna Graecia إن اسم فيثاغورس (عاش ٥٣٠ ق . م .) وامبدوكليس (عاش ٤٥٠) وأرشميدس (٢٨٧ — ٢١٢ ق . م .) قرائن تشهد على المساهمة الكبرى التى ساهم بها يونان الغرب فى ميادين الفلسفة

والعلوم . وقد احتضنوا الحركة السفسطائية التى ظهرت فى القرن الخامس، وهى حركة تدعو إلى التعليم والتثقيف . وقد تطور الأدب والفنون تطوراً فائقاً . أما بالنسبة لفن المعمار فإن بايستوم Paestum وسيجستا Segesta قد تقفان مع دلفى Delphi والومبيا Olympia لتكون أمثلة من أعمال اليونان الخالدة ، وهكذا فإن يونان الغرب كانوا مساهمين بمعنى الكلمة فى الحضارة الهلينية وهى أروع وأكثر الحضارات تقدماً فى ذلك العصر . ولما كان الأمر كذلك فهم ذوو أهمية قصوى باعتبارهم مؤثراً حضاريا فى إيطاليا من القرن السابع حتى القرن الثانى قبل الميلاد على الأقل، ولكن لم يكن هناك أى بادرة تدل على أنهم سيسيطرون على إيطاليا سياسياً، ففى الواقع لم يكن بينهم هم أنفسهم أى اتحاد ، وهم بذلك يشاركون تماماً فى ضعف الحضارة اليونانية بنفس القدر الذى يشاركون به فى قوتها — ألا وهو التنافس المهلك بين مدينة وبين أخرى والصراع العنصرى بين الطبقات فى المدينة نفسها . وحتى حكام سيراكوزه فى أوج سيطرتهم وسطوتهم لم يسيطروا أبداً على جزيرة صقلية كلها . إن مدن إيطاليا اليونانية لم تبرهن أنها قرين للمجتمعات الإيطالية النامية وهى مجتمع السمنيين فى بادىء الأمر ومجتمع روما فى آخر الأمر .

كانت شعوب إيطاليا قبل توسع النفوذ الرومانى من أصل ينتمى إلى أجناس مختلفة يتكلمون لغات مختلفة ، وتدور فى فلك حضارى يجمع بين الحضارات المدنية الرائعة والمجتمعات القبلية نصف الترحالية ، وكانت الوحدة السياسية لابد أن تفرض على مراحل متفاوتة ولم يحدث أن امتدت هذه الوحدة السياسية من جبال الألب حتى مضيق مسينا إلا عندما أدخلت «بلاد الغال القريبة» فى النهاية ضمن إيطاليا في أيام يوليوس قيصر . وبعد انهيار الإمبراطورية الغربية لم يحدث أبداً أن تحققت مثل هذه الوحدة مرة أخرى حتى عام ١٨٧٠ عندما تشكلت الدولة الإيطالية الحديثة . أما الوحدة الثقافية فقد كانت لا تزال أكثر بطئا . فى القرن الثانى قبل الميلاد نجد أن

الشاعر انيوس Ennius قال إن له ثلاثة قلوب، لأنه يتكلم اليونانية واللاتينية والاوسكانية ولم يكن فى وسع الرجال أن يتكلموا عن روما وإيطاليا باعتبارهما وحدة واحدة، يربطهما مصير مشترك إلا فى عصر أوغسطس. « هكذا ستكون عظمة Sit Romana Potens Italia Virtute Propago الجنس الرومانى وهو مرتبط بفضائل إيطاليا ».

لقد كان هذا فى رأى الشاعر فرجيل هو تفسير سيطرة الرومان على العالم وقد كان العمل التاريخى الخالد الذى حققته روما هو أنها خلقت إيطاليا. أما تحقيقها للوحدة السياسية والثقافية فى عالم البحر المتوسط كله فلم يكن إلا تكراراً لمهمتها على نطاق أكثر اتساعاً.

الفصل الثانى

روما القديمة حتى عام ٥٠٠ ق م

إن إقامة مستعمرة لاتينية على تل البلاتين ومستعمرة سابينية على تل الكويرينال لم يؤد حتى هذا الحين إلى وجود مدينة روما . والروايات المتواترة التى تقول بأن رومولوس Romulus قد أسس روما فى ٢١ أبريل عام ٧٥٣ ق.م تنطوى على الحقيقة التالية : هى أن إنشاء مدينة فى فجر تاريخ إيطاليا كان إجراء دينياً سياسياً يقوم بتنفيذه زعيم واحد طبقاً لطقوس دينية رسمية لا يحيد عنها. فبعد أن يوثق المؤسس البطل ثوراً وبقرة معا يجب عليه أن يشق بمحراث برنزى الأخدود المقدس Pomoerium الذى سيحدد رقعة المدينة . وفى داخل المدينة وفوق أعلى تل تخصص مساكن للآلهة الذين يصبحون فيما بعد حماتها . ثم يخطط الطريقان الرئيسيان وهما الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب Cardo والطريق الممتد من الشرق إلى الغرب Decumanus وبعد تحديد مساحة المدينة بهذه الصورة فإنها تصبح بذلك صورة مصغرة تتفق والبقعة المقدسة من السماوات بجهاتها الأصلية الأربع ، والأركان الأربعة السماوية . كانت هذه هى طقوس التأسيس ولكن إلى أى مدى كانت تمتد المدينة الأولى ؟ ومن كان البطل المؤسس ؟ لا يمكن الإجابة عن أى من هذين السؤالين إجابة مؤكدة ، على الرغم من أن علماء الآثار يزعمون أنهم قد اكتشفوا تخطيطات الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب Cardo والطريق الممتد من الشرق إلى الغرب Decumanus تحت أساس بعض المبانى التى أقيمت فى عصر متأخر وأنهم عثروا على نقطة التقاطع (على وجه التقريب) عند معبد فيستا Vesta القديم فى السوق الرومانى . والمعروف أن هذه الطقوس والأفكار الدينية الكامنة وراءها كانت إترسكية الأصل . وفوق الكابيتول ، أى قلعة روما ، دفن الثالوث الإترسكى العظيم جوبيتر Jupiter وجونو Juno ومينرفا Minerva .

ومن المؤكد أن طقوس تدشين مدينة روما قد أجريت تحت ظل نفوذ إترسكى ، وربما فى ظل حكم ملك إترسكى قام بدور المؤسس. ومنذ تلك اللحظة شقت حياتها الخاصة Fatum وسارت فى طريقها المقدر لها الذى كانت الآلهة على علم به ، والذى كان يتكشف للناس عن طريق العرافة . لقد كان هذا اتحادا بين العناصر اللاتينية والسابينية والإترسكية التى كان الكابيتول لها بمثابة القلعة ومركز العبادة المشتركة . ويمتد بين التلال الثلاثة وادى ملىء بالمستنقعات من الممكن صرف المياه عنه لإقامة مركز مشترك للحياة الاقتصادية والسياسية . ومن الممكن أن نرى حتى الوقت الحاضر ، كلوا كاما كسيما Cloaca Maxima وهو المصرف الكبير الذى كان ينزح مياه السوق الرومانية وهو يلتقى بالنهر عند جزيرة التيبر عن طريق بوابات مقدسة هائلة يرجع تاريخها إلى عهد أوغسطس .

وما إن تم إنشاء المدينة الجديدة ، حتى ازدهرت الحياة بها بفضل المزايا الأخرى التى يتمتع بها موقعها . وكانت جزيرة التيبر الواقعة فى مجرى النهر أسفل الكابيتول مباشرة تعتبر موقعا ممتازا لإقامة قنطرة . وفى ذلك المكان أقيمت القنطرة المقدسة المعروفة باسم قنطرة سوبليكوس على أيدى جماعة من الكهنة تباشر صيانتها وهذه الجماعة اشتق اسمها من تلك الوظيفة ألا وهى بناة القناطر ويمكن مقارنة روما الأولى وجزيرة التيبر بما كانت عليه باريس وجزيرة أيل دى لا سيتيه فى الماضى . وكان الطريق الذى يمتد عبر التيبر فى ذلك المكان على جانب كبير من الأهمية إذ كان يربط بين إتروريا وكامبانيا وهما أكثر المناطق ازدهارا فى إيطاليا . وكان بشمال شرقى المدينة طريق هام آخر يؤدى إلى وادى التيبر ومن هناك إلى وادى البو عن طريق ممرات سهلة فى جبال الأبنين . وفى أوستيا بالقرب من مصب النهر كانت توجد مناطق هامة لاستخراج الملح الذى كان من أهم السلع فى ذلك العصر . وهكذا ازدهرت روما كمركز للتجارة والصناعة

اليدوية فى نهاية القرن السادس ، وذلك على الرغم من أنها اضطرت إلى الاشتباك فى صراع طويل من أجل السيطرة على وادى التيبر وانتزاعه من غريمتها فيئى الإترسكية .

ولم يكن من المستطاع إقامة هذه الحياة الحضرية إلا على أساس الزراعة ، ومن الممكن الحكم على مساحة المزارع الأولى للشعب الرومانى بالموكب المقدس الذى كانت تقوم به جماعة إخوة آرفال Arval . وكان يسمى أمبارفاليا Ambarvalia لمباركة حاصلات كل عام . وتعرف أربع نقاط لوقوف الموكب تبعد خمسة أو ستة أميال عن المدينة فى الطرق المتفرعة إلى الجنوب والشرق . وعلى ذلك كانت هناك منطقة تقع على الضفة اليمنى للنهر يبلغ طولها حوالى ١٢ ميلا وعرضها ستة أميال تقريبا بها رأس جسر يقع شمالى النهر ويشتمل على تلال يانيكولوم والفاتيكان . وكانت هذه هى أول منطقة ريفية rus تمد روما بالمواد الغذائية . وقد اتسع نطاقها فيما بعد فشملت معظم سهل لتيوم Latium .

ولم تكن أرضا سهلة فى زراعتها . ولم يكن من المستطاع تجفيف تربتها لزراعة المحاصيل وملاءمتها صحيا للإنسان والحيوان إلا بعد إقامة نظام محكم للصرف . وفى نهاية القرن التاسع عشر اكتشف علماء الآثار نظام تخطيط القنوات المذهل cuniculi وهى القنوات المنحوتة فى الصخور التى تمتد فى معظم إقليم كامبانيا الرومانية . ويبلغ عمقها حوالى خمسة أقدام ويتراوح عرضها بين قدمين وثلاثة أقدام وتمثل عملا هندسيا هاما قامت بتنفيذه إدارة مركزية واستمر العمل به أجيالا متعاقبة . وكما أن الهولنديين انتزعوا أراضيهم من البحر بالصبر والكدح كذلك انتزع الشعب الرومانى أراضيه من المستنقعات .

وكانت حاصلات الغلال هى أساس هذه الزراعة المبكرة . وكانت تزرع الخضروات لتباع فى سوق الخضروات بالمدينة (forum Holitorium) ،

أما عن الفواكه فقد أتاهم التين فى وقت مبكر ولم يظهر الكرم والزيتون إلا فى فترة متأخرة ، وربما نشأ ذلك عن اتصالهم بالزراعة اليونانية. وكانت الماشية والأغنام ترعى بالمراعى ، بينما كانت تقتات الخنازير فى الغابات التى ما تزال تشغل رقعة كبيرة من الأرض. وكان أصحاب الأراضى والفلاحون الذين ظلوا يعملون فى هذه الأراضى خلال قرون متعاقبة هم عصب الأمة الرومانية التى بلغ عددها نحو عام ٥٠٠ ق م بضع مئات الألوف من الأنفس . وربما كان من بين هؤلاء سكان المدينة نفسها الذين كان يتراوح عددهم بين عشرين ألفا وخمسة وعشرين ألف نسمة .

وكانت الوحدة المنزلية هى الأسرة (familia) وتتكون من الزوج والزوجة والأبناء غير المتزوجين وعبيد الأسرة الذين كانو يعيشون سويا فى المنزل (domus) . وكان الموتى يقيمون هناك أيضاً إلى حد ما إذ أن الأجداد كانوا يكرمون فى احتفال سنوى كما كانت تماثيلهم الشمعية تحفظ فى المنزل وتتبع الموتى حتى القبر محمولة على أعناق المشيعين . وكان مصدر السلطة فى هذا المجتمع الصغير هو الأب (pater familias) الذى كان يعزز سلطاته (patria potestas) وهى فكرة قانونية لم تكن تمنحه حقوقا على الممتلكات التابعة للأسرة فحسب ، بل كان يتمتع بسلطة الحياة والموت على من يعولهم. وقد وضع التراث الرومانى فى مصاف أبطاله بعض الآباء القساة الذين لم يترددوا فى الحكم على أبنائهم بالموت لعدم ولائهم للدولة . ومن الناحية العملية يبدو أن هذه السلطة المطلقة كانت تحد منها مجالس الأسرة التى كانت تحال إليها أخطر القضايا . وعندما كان يشب الأبناء ويتزوجون كانوا يتركون المنزل ليقيموا أسرة جديدة فى منزل آخر .

وكانت الأسر التى تربطها صلة القرابة تؤلف العشيرة الرومانية gens وهى من المنظمات الاجتماعية الكبيرة الأخرى . وكانت العشائر الأرستقراطية

تفخر بنسبها الذى كان يرجع إلى مؤسس يحاط بالتكريم سواء كان بشراً أم إلها . فكانت عشيرة يوليوس gens Julia التى كان ينتمى إليها يوليوس قيصر ترجع إلى الإلهة فينوس عن طريق أينياس وبريام ملك طروادة . وقد يقال إن بعض شجرات النسب فى ويلز تمتد إلى بريام نفسه ، ولكنها تتعثر فى خطواتها الأخيرة . وعلى الرغم من أن العشائر لم تلعب دوراً رسميا فى السياسة الرومانية فقد كانت من الناحية العملية ذات وزن كبير . وكان التزاوج بين عشائر النبلاء وسيطرة هذه العشائر على الدولة فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد تعنيان أن عددا قليلا من الأسر العظيمة كانت تسيطر فى ذلك الوقت على روما بنفس القوة التى كانت تسيطر بها الأسر الأرستقراطية الكبيرة على انجلترا فى القرن الثامن عشر .

وكان وضع المرأة الرومانية متناقضا ، فطبقا لما كان يبدو أنه من أقدم أشكال الزواج الرومانى كانت العروس وكل ممتلكاتها تؤول كلية إلى قبضة زوجها (in manum) . ومن الناحية القانونية كانت علاقتها به علاقة الابنة بأبيها . وكانت تنبذ صلاتها بأسرتها كى تصبح عضواً فى أسرته . والحقيقة أنها باعتبارها سيدة رومانية matrona كانت تعامل على أنها شريكة فى الزواج . وكانت تدير شئون المنزل وتقوم بتربية الأطفال . كما لم تكن تلزم جناح الحريم من المنزل مثل نساء أثينا فى القرن الخامس . ولكنها كانت تتجول بالمدينة وتحضر الاحتفالات العامة وتجلس إلى مائدة الغذاء بوصفها المضيفة . وبالإضافة إلى ذلك انتشر شكل آخر من أشكال الزواج ، حيث لم تكن تطبق فكرة سيطرة الزوج على زوجته وجميع ممتلكاتها . وقد رأى البعض فى هذا الشكل بقاء للمجتمع الذى تسيطر فيه الزوجة ، أو أرجعوه إلى تأثير إترسكى . ومن المحتمل إلى حد بعيد أنه قد استمد من المعانى التى تنطوى عليها وجهة النظر الرومانية فى الزواج (matrimonium) . وكانت وجهة النظر هذه ترى أن الزواج اتحاد لمدى الحياة بين رجل واحد وامرأة واحدة عقد بينهما طواعية واختياراً من أجل إنجاب الأطفال ، ويقوم على

أساس المحبة المتبادلة affectio maritalis . ومثل واحد على ذلك خير من صفحات عديدة من الشرح . وفيما يلي نقش كتب على قبر زوجة وأم رومانية باللغة اللاتينية القديمة التي لا يمكن أن يتجاوز تاريخها القرن الثاني قبل الميلاد .

« أيها الغريب ، إنني أقول لك قولا موجزا ، قف واقرأ . هذا قبر غير جميل لامرأة جميلة أطلق عليها أبواها اسم كلوديا . وقد أحبت بعلها من صميم قلبها ، وأنجبت ابنين ، تركت أحدهما حيا على الأرض ودفنت الآخر تحت الثرى . كان حديثها مرحا ومظهرها لائقا . كانت تدبر شئون المنزل وتغزل الصوف . لقد قلت قولى فاذهب لحالك » .

Hospes, quod deico paullum est, asta ac pellege
Heic est sepulcrum hau pulcrum pulcrai feminae:
nomen parentes nominarunt Claudiam
Suom mareitom corde deilexit suo:
gnatos duos creavit: horunc alterum
in terra linquit, alium sub terra locat.
Sermone lepido, tum autem incessu commodo.
Domum servavit. Lanam fecit. Dixi. Abei.

وعلى الرغم من نزعة التحرر التي سادت الأزمنة المتأخرة ، فإن هناك أدلة كافية تثبت أن فكرة ذلك الزواج الذي تم بين كلوديا وزوجها ظلت قائمة حتى أواخر عصر الإمبراطورية . وقد ظلت هذه الفكرة منذ ذلك التاريخ وبعد أن ساندتها المسيحية ، قائمة دون انقطاع حتى العصر الحديث .

وتعكس الديانة الرومانية تجربة الشعب الروماني التاريخية في جميع فترات تاريخه . وهو في هذه المرحلة المبكرة يستلفت النظر لمظهرين هما الطابع البدائي لأفكاره والتنظيم القانوني لطقوسه . وقبل نشوء العقل والمنطق كان الإنسان البدائي يرى أن العالم من حوله خاضع لقوى غير مرئية يظهر نشاطها في الظواهر الطبيعية كالليل والنهار والمواسم والرياح والطقس ونمو

النبات والحيوان ثم تحللهما ، ومجريات الحياة الإنسانية من الميلاد حتى الممات. وكان الرومانى يطلق على هذه القوى اسم « الأرواح النشطة » numina وكان يواجهها فى علاقة شخصية . وقد وصفت وجهة النظر هذه فى حذق بالغ فى دراسة حديثة قام بها بعض علماء جامعة شيكاغو بأنها «علاقة الأنا والأنت» بالكون . وكان عدد مثل هذه الأرواح غير نهائى ، غير أن الإنسان لا يهتم إلا بتلك الأرواح التى يؤثر نشاطها عليه ، فهو يهتم بصفة منتظمة ببعض الأرواح مثل تلك التى تتحكم فى المحاصيل والماشية ويهتم فى بعض الأحيان ، بل على وجه الخصوص بأرواح مثل المعبود أيوس لوكوتيوس Aius Locutius (من وقف وتكلم) الذى كانت آيته الوحيدة أنه أطلق إنذاراً بمقدم الغال . وقد نظمت العلاقات بين الإنسان وهذه الأرواح كما وضعت مجموعة من القوانين التى تحدد الطقوس المعترف بها ، وحتى ذلك الوقت لم تظهر مسألة إقامة المعابد أو التماثيل العقائدية كما لم يكن هناك وجود للأساطير ، فالغرض من الطقس الدينى هو حث الروح على القيام بوظيفتها بطريقة مرضية للعابد أى أن تدخل فى مساومة معها ، والحقيقة أنها مسألة أخذ وعطاء do ut des (أى أعطيك شيئا لتعطينى شيئا) . وعلى ذلك فقد كان كل إنسان كاهنا لنفسه عند التعامل مع الأرواح التى تؤثر على منزله ومزرعته أى آلهة المنزل التى كانت ترعى الخزانة ، فكان يانوس Janus يحرس المدخل ، وترمينوس يحرس حدود المزرعة، وسيا Seia تحرس الغلال فى الأرض، وسيجيتيا Segetia تشرف على الغلال المخزونة، وفلورا Flora إلهة القمح النامى، ورونكينا Runcina التى كانت تشرف على اقتلاعه من الأرض ، وتوتيلينا Tutilina التى كانت تحرسه فى المخازن . وما كان يقدم للروح فهو تضحية كحيوان أو جزء منه ، أو تقدمة من اللبن أو عسل النحل أو الجبن أو كعكة مقدسة . وكانت قيمة كل منها تتوقف على مقدار النعمة المتوقعة . وفى الغالب لم تكن التضحية تكتمل إلا بعد أن يقدم الإله الخدمة المنشودة . وكانت التضحية يعرب

عنها على هيئة وعد « كنذر » Votum وعند إتمام هذه الشروط يجب الوفاء بالنذر . ومن هنا ظهرت الصيغة التى تتردد فى النقوش ألا وهى :

« لقد أوفى النذر برغبته إلى الإله الذى كان جديراً به » . وعلى أساس من هذه الروحانية القديمة ظهرت — تحت النفوذ الإترسكى فيما يبدو عبادة عدد من المعبودات التى كانت لها صورة البشر ، لاسيما تلك المعبودات التى تعبدها الدولة . فقد أقيمت عبادة جوبيتر وجونو ومينيرفا فى معبدهم الكبير على الكابيتول . وكما أن روما نمت وأصبحت إمبراطورية عالمية كذلك أصبح جوبيتر سيد السماء . وكان لساتورنوس Saturnus إله الزراعة فى الأصل معبد فى السوق الرومانى منذ زمن بعيد جداً . وكان لفولكانوس Vulcanus إله الزلازل والبراكين مكان مقدس بالقرب منه، وهى منطقة كثيرا ما أظهر فيها آيات قوية . وكان مارس يعبد على أنه إله بذر الحبوب والحرب فكلا العمليتان الموسميتان تبدآن فى شهر مارس . وكانت عبادة الإلهة فيستا أكثر أهمية من العبادات السابقة وربما أقدم منها ، ولم تتخذ هذه الإلهة قط صورة بشرية . ويقوم معبدها الدائرى القديم فى وسط السوق، وفى داخله يشتعل اللهب المقدس الذى كان يتحتم بقاؤه موقدا على الدوام. وكان يضم الأشياء الغامضة التى كان أينياس قد أحضرها من طروادة والتى كانت تتوقف سلامة روما على الاحتفاظ بها ، وكانت المحافظة على هذه العبادة البالغة الأهمية من واجب عذارى فيستا اللائى كانت بقايا مسكنهن وبستانهن بتماثيلها التى أقيمت تمجيدا لرئيسات هؤلاء العذارى virgines maximae من أمتع المشاهد . ولما كانت رعاية هذه الديانات الرسمية تتطلب قيام تنظيم مستمر فقد أنشئت كلية الكهنة الذين كان يبلغ عددهم فى الأصل تسعة ثم أصبح عددهم خمسة عشر فيما بعد ، وكان على رأسهم الكاهن الأعظم Pontifex Maximus . وكانوا يقومون بصوغ الصيغ المقدسة ويرعون جميع الواجبات الدينية العامة، ويضعون تقويم الأعياد الدينية الذى ينسب

إلى نوما Numa والذى يعتبر أقدم التقويمات الرومانية . وثمة كلية مقدسة أخرى وهى كلية العرافين التى كانت تفسر مشيئة الآلهة استنادا إلى البرق والطيور وإطعام الفراخ المقدسة ، ومن الحيوانات ذوات الأربع ، ومن العلامات المنذرة . وكانت مشورتهم تقدم إلى الموظفين العموميين قبل اتخاذ أى إجراء رسمى ، وكان من حق الموظف الرسمى قبولها أو رفضها . كانت هذه هى الديانة الرومانية كما نعرفها فى بدايتها ، فهى خالية تماماً من أى باعث على الإشباع الروحى لدى المتعبد ولا تقدم أية مجموعة من القواعد الأخلاقية . ومن ثم كان الرومان فى مرحلة متأخرة على استعداد لاعتناق عبادات أجنبية يمكن أن تفى بهذه الاحتياجات الإنسانية الأساسية .

ويتضح لنا مما سبق قوله إن النقد التاريخى الحديث لن يسمح بأى شيء يمكن أن يسمى تاريخا سياسيا أو روائيا لروما القديمة إلا إذا كان لذلك صيغة العمومية المطلقة . فقد تم تأسيس المدينة تأسيساً رسمياً . ولا يستبعد أن يكون ذلك قد وقع قرابة التاريخ التقليدى أى فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد . ولا شك فى أنه قد قام هنالك نظام ملكى ، وربما كانت الأسماء التقليدية للملوك السبعة تمثل شخصيات تاريخية بنفس الصورة التى يعتبر بها الملك آرثر البريطانى شخصية تاريخية . وكون بعض الملوك من اللاتين والبعض الآخر من السابين أو الإترسكيين إنما يتفق وما هو معروف عن البناء العنصرى للشعب الرومانى . ومن المعقول تماما أن يكون آخر الملوك الإترسكيين قد طردوا على يد ثورة أوليجركية نشبت فى نهاية القرن السادس . ومن الواضح أيضا أن هذا كان رد فعل للأرستقراطية التى تقيم فى البلاد ضد مصالح المدينة فى مجال التجارة ، وهو الصراع الذى قدر له أن يلعب دورا فى الصراع الطبقى الأخير الذى نشب فى أوائل عصر الجمهورية . وقد لا يكون فى الإمكان تجاوز هذه الخطوط الرئيسية فى التاريخ السياسى ، وتلك الصورة العامة للمجتمع الرومانى ونظامه . وهكذا فإنه ليس لدينا من

مصادر لهذا التاريخ عدا قناة كلوا كا ماكسيما ، بدلا من قصيدة اغتصاب لوكريتيا مثلا ، ثم قنوات صرف المياه من سهل كمبانيا الرومانى بدلا من قصيدة هوراتيوس عند القنطرة ، وقد يبدو هذا انتصارا غير ذى بال.

ومن ناحية أخرى فعلى المؤرخ الحديث أن يحيط علماً بالقصص الواردة فى كتب ليفى العشرة الأولى ، وفى كتاب ماكولى بعنوان « قصائد روما القديمة » مثل قصة كوريولانوس البالغة التأثير ، وقصة فرجينيا التى تفوقها تأثيرا على النفس والأسطورة البدائية التى تدور حول صرف مياه بحيرة ألبا ، والحرب بين فاليريوس كورفوس والعملاق الغالى وإلى آخر هذه القصص. وقد رسمت هذه القصص التى خلق منهـا المؤرخون الرومان رواية وطنية تقليدية ، الصورة الفكرية التى كانت لدى الرومان عن ماضيهم وطابعهم ، وأصبحت هذه القصص أسطورة اجتماعية حية . وبذلك كان لها تأثير عميق على النشاط السياسى فى العصور اللاحقة ، ومثـال ذلك قصة كاتو والحزب « الرومانى القديم » فى القرن الثانى قبل الميلاد . وبنفس الصورة تماما كانت القصص المعروفة أو المعتقد بها عن «الآباء المؤسسين» أو «حرب الاستقلال» تؤثر فى كثير من الأحيان على مجريات السياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية . كما لم تفقد هذه الأساطير الرومانية كل حيويتها إلى اليوم . فعرض مسرحية كوريولانوس فى فرنسا وقت أن بلغت فضائح ستافيسكى ذروتها أثار مظاهرات عنيفة فى شوارع باريس .

إن روما القديمة تقدم أنظمة سياسية يمكن مقارنتها بمثيلاتها فى إيطاليا واليونان على نطاق واسع ، كما أنهـا كانت منتشرة بين الشعوب الكلتية والجرمانية . فقد كان هناك أولا الملك (rex) . وحتى لو لم يكن التراث التاريخى مجمعا على القول بوجوده ، فمن الممكن استنباط هذه الحقيقة من كثير من النظم الباقية فى الدين والسياسة . فإن لقب « الملك » كان يحمله بعض الكهنة الذين تولوا عنه مهامه الدينية . وكان الكاهن الأعظم يعيش

فى القصر regia الذى كان المسكن التقليدى للملك المعبود « نوما » . كما أن أقدم نقش فى روما ، وهو النقش الموجود على القبرية cippus القديمة تحت الحجر الأسود Lapis Niger فى السوق الرومانى ، يقول : « إن حيوانات التضحية مقدسة للملك » . أما فى عهد الجمهورية فإذا مات قنصل أو اعتزل منصبه كان يختار مسئول يسمى الملك المؤقت interrex وتعرف فترة حكمه بالملكية الانتقالية interregnum ولكن إذا اعتبرنا وجود الملك حقيقة مؤكدة، فإن طبيعة سلطاته ومجالها موضع خلاف . ويبدو أن الملكية كانت انتخابية أكثر من كونها وراثية ، حيث كان يجرى الانتخاب بوساطة رؤساء الأسر الأرستقراطية الكبرى . ومن المحتمل أن الشعب هو الذى كان يصدق على انتخابه . وكان استطلاع مشيئة الآلهة يلعب دوراً رئيسيا فى هذا الانتخاب ، إذ كان ينبغى أن يتأكد رضاء الآلهة عن الملك . وبعد أن يتم انتخابه كانت سلطاته فيما يبدو بعيدة المدى إن لم تكن مطلقة ، فكان هو الذى يعلن الحرب ويعقد السلام ، وهو القائد الأعلى فى ميدان القتال . وكان هو مصدر القانون ورئيس دين الدولة الرسمى . وكان له سلطة الحياة والموت على المواطنين التى كان يرمز لها بالعصى والبلطة fasces التى كان يحملها أتباع الملك . وصدق من قال إن سلطات الملك فى الدولة تقابل سلطات رب الأسرة pater familias بين أفراد الأسرة . وقد أخذ القناصل باعتبارهم المسئولين الرسميين فى عهد الجمهورية الرداء القرمزى واحتفالات النصر والأتباع حملة الفئوس عن الحكم الملكى .

وكانت الطبقة الأرستقراطية تتألف من ملاك الأراضى الأغنياء الذين يزعمون أنهم من نسل رؤساء الأسر الكبرى (patres) ممن اشتركوا فى تأسيس الدولة . ونواة مجلس الشيوخ الرومانى هو المجلس الذى كان يضم من الناحية التقليدية مائة أرستقراطى ، ويقوم بإسداء النصح للملك . وكانت أول حقبة من الصراع الطبقى الرومانى — ولا شك فى أنه كان صراعا طويلا —

هى الصراع الذى نشب بين الملكية والأرستقراطية والذى انتهى بقيام الجمهورية . ويبدو أن لفظة الشعب populus كانت تعنى فى الأصل الشعب الرومانى كله ، دون النظر إلى طبقة بعينها ، منظما من أجل أغراض عسكرية أو سياسية . ويرجع أصل المجالس الشعبية المتأخرة إلى الاجتماعات التى كان يدعى إليها الشعب ليعلن عن موافقته على المقترحات الهامة ، مثل انتخاب الملك أو إعلان الحرب . وكان عامة الشعب plebs هم ذلك القطاع من المجتمع الذى كان الفقر أو ضعة الأصل تحول دون انضمامه إلى صفوف الأرستقراطية . ويبدو أنه ليس هناك ما يدعو إلى النظر إليهم على أنهم سكان المدينة الفقراء باعتبارهم طبقة مميزة عن الفلاحين ، أو أن ننسبهم إلى أصل جنسى مستقل ، كما يحدث فى بعض الأحيان . ومن الواضح أن جذور الصراع الطبقى الهائل الذى نشب فيما بين عام ٥٠٠ وعام ٣٠٠ ق م تكمن فى هذه الفترة ، غير أن نظام التبعية clientela الاجتماعى الغريب كان يقف بينهما . وفى هذا النظام يضع عدد من المواطنين الفقراء أنفسهم باعتبارهم تابعين تحت حماية رجل عظيم الثراء يصبح راعيا لهم patronus ويمدهم بالتأييد القانونى والعون المالى ، غير أن المزايا لم تكن كلها فى جانب واحد ، ففى استطاعة التابعين أن يقدموا إلى راعيهم خدمات هامة . وهنا أيضا تظهر البوادر السياسية للجمهورية . وقد كان هذا البنيان كله يقوم على أساس المصالح المتبادلة ، ولكن قيامه على أسس إنسانية هى الولاء fides والواجب ، إنما يبرز طابعه الرومانى البحت . وكانت أقسى العقوبات ، طبقا لتصوير فرجيل للعالم الآخر ، تفرض على أولئك الأثمة الذين خدعوا تابعا وهم على قيد الحياة .

إننا الآن نتحدث عن فترة تبعد قرنين عن طلائع الأدب اللاتينى فإن أحدا لا يؤمن فى الوقت الحاضر بالقصائد القبلية التى وصفها نيبور Niebuhr ذات مرة بأنها الوسيلة التى نقلت أساطير فجر التاريخ الرومانى . ولكن

هناك أدلة كثيرة على أن روما — تحت تأثير الحضارة الإترسكية — كانت في القرن السادس قبل الميلاد من أكبر مراكز التطور الفني شمالي ماجنا جرايكا Magna Graecia فإن تماثيل الآلهة وزخارف الطين الملون في معبد جوبيتر على الكابيتول من صنع الفنان الإترسكي فولكا Vulca . وقد أزيلت عند إعادة بناء المعبد في عهد سولا ولكن بليني أعرب عن إعجابه بعد مضي قرن على ذلك التاريخ بتماثيل مماثلة قديمة للآلهة التي ظل بعضها قائماً في روما والبلدان الريفية . ويبدو من الواضح أن هذه التماثيل كانت تستهوي أبناء جيله كما يروق فن المعمار الروماني والآثار الإيطالية البدائية أبناء جيلنا . وإن اكتشاف تماثيل مدينة فيي Veii وكونكا Conca في العصر الحديث تمكننا من تفهم مايعنيه . ويبدو أيضا أن روما في القرن الرابع قبل الميلاد كانت مركزاً لصناعة الأدوات البرونزية الجيدة ، مثل خوذة فيكوريني الموجودة الآن في فيلا جيوليا Villa Giulia ويحتمل أن أصل هذا الفن يرجع إلى قرن أو بعض قرن من هذه الفترة . وثمة تحفة فنية من الأعمال المفقودة التي ترجع إلى روما القديمة لم تزل باقية ، ألا وهي الذئب البرونزي الكبير الذي يحتمل بدرجة كبيرة أنه هو الذئب الأصلي الذي كان قائما فوق الكابيتول والذي يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد .

ونحن لا نعرف اللغة اللاتينية السابقة على الأدب اللاتيني إلا من عدد قليل من النقوش ومن الأناشيد مثل أنشودة ساليارى Carmen Saliare وأنشودة الأخوة آرفال ، ومن شذرات قليلة مكتوبة باللغة اللاتينية القديمة اقتبسها المؤلفون المتأخرون . وعلى الرغم من ضآلتها فإنها تؤيد ما يقوله بوليبيوس من أن اللغة اللاتينية القديمة تختلف اختلافا كبيرا عن لغة عصره (أي في القرن الثاني قبل الميلاد) بحيث كانت تكاد تغلق عن الأفهام . ولكن دراسة معنى الكلمات تبين كذلك أن اللغة اللاتينية القديمة وهي لغة مجتمع زراعي بسيط قد تطورت كما تطورت الديانة الرومانية بفعل التجربة .

التاريخية التى مر بها الشعب الرومانى . فقد كان لفظ laetus مثلا يعنى « سمينا » أو « غنيا » وكان توصف به الأرض أو المحاصيل ولفظ laetare يعنى « التسميد » ولفظ laetamen كان يعنى « الروث » . وفى لغة العرافة اصطلاح laetum auspicium ينبىء عن الرخاء ، ومن ثم كان لفظ laetus يعنى « مسرور » أو « ناجح » . وكان كل من egregius و eximius ومعناهما « ممتاز » يستخدمان فى الأصل للدلالة على حيوان يختار من بين القطيع ليكون جائزة . كما كانت كلمة cohors تعنى فى الأصل فناء بالمزرعة أو حظيرة ثم أصبحت تعنى قطاعا من معسكر حربى ثم باتت فى النهاية تتخذ للدلالة على الوحدة العسكرية التى ترابط فى ذلك المكان . وكانت لفظة Agmen تعنى فى الأصل أى قطيع من الدواب السائمة ، وأصبحت فيما بعد تتخذ للدلالة على طابور زاحف من الجنود . ولفظتا impedire و expedire كانتا تعنيان تقييد الحيوانات وفك قيدها ، أما فيما بعد فقد اكتسبتا معان عسكرية خاصة بالإضافة إلى المعنى العام وهو « العرقلة » أو « إطلاق السراح » وكلمة probus كانت تستخدم للدلالة على المحاصيل التى تنمو ريا . أما luxuria فتعنى النباتات التى تتحول إلى بذر ، أما كلمة pauper فكانت تعنى الأرض أو الحيوان الذى يأتى بإنتاج هزيل . ولم تكتسب هذه الكلمات دلالات أخلاقية وعامة إلا فى عصر متأخر . والغالبية العظمى من الأقوال اللاتينية المأثورة ، شأنها فى ذلك شأن أمثال إنجلترا والولايات المتحدة حتى وقت قريب ، كانت تعكس تجربة الأجيال المتعاقبة من سكان الريف .

الفصل الثالث

روما وإيطاليا حتى عام ٢٨٠ ق. م

ثمة مسألتان هامتان تشغلان القرنين الأولين من عهد الجمهورية الرومانية هما : الصراع الطبقي بين الأرستقراطية وعامة الشعب فى المجال الداخلى ، وتوسع السلطة الرومانية فى جميع أنحاء إيطاليا من خليج جنوة إلى مضيق مسينا فى المجال الخارجى . وليس من السهل بأية حال تفسير هذه الفترة ، إذ يسود المصادر التاريخية حتى زمن الغزو الغالى وما بعده طابع شبه أسطورى فإن كوريولانوس Coriolanus أقرب صلة إلى الأساطير منه إلى التاريخ . فلا شك فى أن كينكيناتوس وكاميلوس من الشخصيات التاريخية ، غير أن قصة أعمالهما قد نمقت لتتفق ودورهما كبطلين من أبطال التاريخ الوطنى والملحمى . ونحو أواخر القرن الرابع ينقشع الضباب ، فقد أطلق على أبيوس كلاوديوس كايكوس Appius Claudius Caecus الذى كان قنصلا لعامى ٣٠٧ و ٢٩٦ ، عبارة « أول شخصية محددة المعالم فى التاريخ الرومانى ». فى بداية هذه الفترة أحرز الرومان النصر فى معركة بحيرة ريجيلوس Regillus بفضل التدخل المباشر من جانب البطلين كاستور Castor وبولوكس Pollux وفى النهاية دخلا فى حرب مع بيروس Pyrrhus وهو أحد سلالة القواد العظام الذين أبرزتهم للعالم انتصارات الإسكندر . وما حدث يبدو أشبه بالأحداث التى مر بها التاريخ الإنجليزى خلال القرنين الممتدين من عصر الفريد Alfred العظيم حتى حروب مارلبورو Marlborough . ولكن نشوب الصراع السياسى بين الطبقات هو وجه الخلاف بينهما . ففى الكتابات التاريخية يكشف هذا الصراع عن نفسه فى مراحل متلاحقة منتظمة ، يتميز كل منها

بإصدار تشريعات تكشف تفاصيلها عن امتيازات جديدة ينالها العامة (plebs)، وقد أجبرت أجيال من التلاميذ على استظهار هذه القوانين كالو كانت قوانين محددة ومفصحة عن مكنونها شأنها شأن الهيكل العظمى للإنسان . ولكن مثل هذا الانتظام يثير فى الواقع أشد الارتياب . ففى الصراع الطبقى الهائل الذى نشب فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد واستغل الصراع القديم بين الطبقات للدعاية السياسية من جانب جميع الأطراف المتنازعة . وليس من اليسير أن نحدد مقدار ما تعكسه المصادر التاريخية من الفترة المتأخرة على الفترة الأولى . وبالإضافة إلى ذلك فإنه ليس من العسير فى كثير من الأحيان أن نتبين متى انتزع العامة تشريعا معينا باعتباره حقا لهم ، ومتى تنازل الأشراف عن هذا التشريع بوصفه قانونا . ولكنه من الممكن على أقل تقدير أن نقيم أهداف الجانبين واستراتيجيتهما ونشهد أجهزة الجمهورية وهى تعمل عملها خلال الصراع الطويل الذى قدر له أن يخصب الفكر السياسى والغربى فى كثير من الأوجه . وبالمثل فإننا فيما يتعلق بغزو إيطاليا سوف لانهتم بتفاصيل الحملات بقدر اهتمامنا بالمسائل الكبرى مثل معاملة روما لأعدائها المقهورين وبسط حقوق المواطنة الرومانية ووظيفة هذين النظامين الكبيرين ، ألا وهما المستعمرة الرومانية Colonia والمجلس البلدى الرومانى Municipium .

وكانت علاقات روما باللاتين ذات أهمية عظمى ففى خلال الحكم الملكى كان لها مركز الصدارة فى حلف لاتينى كان هدفه فى الأصل هو الاشتراك فى عبادة جوبيتر لاتياريس Jupiter Latiaris على جبل ألبا . ومن المحتمل أن هذا أصبح يدل على درجة معينة من السيادة السياسية ، وعندما طرد الملوك من روما وجد اللاتين فى ذلك فرصتهم ليزعزعوا من كيانها . ولا شك أن ذلك يرجع إلى أن معاهدة التحالف كانت قد أبرمت مع الملك . ولسنا على يقين مما إذا كانت الجمهورية الناشئة قد حاولت تأكيد حقوقها ثانية . ولو كان الأمر كذلك فإنها قد باءت بالفشل فى هذا المسعى ، ذلك لأن روما واللاتين قد عقدوا فى عام ٤٩٣ ق . م معاهدة كندين متساويين ، وهذه هى

« معاهدة كاسيوس Foedus Cassianum الشهيرة التى كانت ماتزال قائمة محفورة على لوحات برونزية فى السوق الرومانية فى عهد شيشيرون . ويعطينا ديونيسيوس Dionysius فى كتابه (٩٥،٦،١ — ٣) موجزا للمعاهدة فيقول :

« فلتقم دعائم السلام بين الرومان وجميع المدن اللاتينية طالما ظلت السماء والأرض قائمتين فى مكانيهما ، وألا يشن أحدهما الحرب على الآخر ، أو يستدعى أعداء أجانب ، أو يتيح طريقا أمينا لطرف ثالث يشن الحرب على أى منهما ، بل يجب أن يساعد كل منهما الآخر بكل ما له من قوة عند التعرض للهجوم ، وليتقاسما بالتساوى جميع الأسلاب والغنائم التى يستوليان عليها فى حروب مشتركة . ويجب الفصل فى جميع القضايا المتعلقة بالعقود الفردية خلال عشرة أيام بين الأشخاص الذين تم بينهم التعاقد ، ولا يجوز أن يضاف أو يحذف أى شىء من هذه المعاهدة إلا باتفاق جماعى بين الرومان وجميع المدن اللاتينية . هذا مثال رائع على معاهدة عقدت بين طرفين متساويين foedus aequum، على الرغم أن من الجدير بالملاحظة أن روما عقدت المعاهدة مع جميع المدن اللاتينية مجتمعة .

وعلى هذا الأساس الراسخ من التحالف اللاتينى استطاعت روما أن تدعم مركزها ضد المدن الإترسكية فى الشمال والسابين فى الشمال الشرقى وشعبى الأيكوى Aequi والفولسكى Volsci فى جبال الأبنين . وقد كان هذان الشعبان الأخيران أكثر الشعوب بربرية وأكثر الخصوم شدة وعنفا . وقد طال أمد الحروب وبطؤت عملية تقدمها ، ذلك لأن موسم الحملات اقتصر على أوائل الصيف . وكان من المحال من الناحية العملية الاستيلاء على مدينة محاطة بالأسوار . كما أن هناك بعض أجزاء من المصادر التاريخية يصعب فهمها . ومثـــال ذلك قصة هجرة أتوس كلاوسوس السابينى Attus Clausus وأتباعه إلى روما حيث فتح أرضا وانضم إلى طبقة الأشراف وأصبح الأصل الذى انحدرت عنه عشيرة كلاوديوس Gens Claudia

الشهيرة ، وهل يمثل ذلك طرد السابين لحزب موال لروما ؟ أم أنه يخفي وراءه قيام السابين بغزو لروما ؟ وأغرب من ذلك الأساطير التي تدور حول حصار كاميللوس لمدينة فيي Veii الذي دام عشر سنوات واستيلائه عليها في النهاية عام ٣٩٦ ق م . ومثل هذه الأساطير لا يمكن فهمها إلا بالتوغل في عالم السحر والتنجيم ، ومصير النظم الإترسكية disciplina Etrusca وكانت هاتان المدينتان اللتان كانتا تتنافسان لسنوات عدة على وشك الوقوع في أزمة في دورة حياتهما . وبالنسبة لمدينة فيي كانت قد مضت ثمانية عصور من العصور التسعة أو العشرة التي كان مقدرا للشعب الإترسكي أن يهلك بعدها . وكانت روما تقترب من رقم ٣٦٥ المشئوم ، وهو عدد السنوات التي تمر بها منذ تأسيس رومولوس لها . وأصبح كلاهما يواجه هلاكا مفاجئا ، ولكن قد تكتب الحياة لواحدة منهما مرة أخرى . وكانت هذه المدينة هي روما . والفضل في ذلك يرجع إلى قيادة كاميللوس الرائعة والمستنيرة . ولقد استدعيت الآلهة إلى خارج مدينة فيي بوساطة ذلك الاحتفال الرهيب المعروف باسم evocatio وتم الاستيلاء على المدينة ومحقت عن آخرها . وكل هذه القصة الغريبة برمتها قد أوضحها مؤخرا عالم بلجيكي [1] . ولقد كانت مليئة بالكوارث مثلها في ذلك مثـــل قصة غزو الكورتيين للمكسيك ، وبالرجوع إلى التاريخ الغفل من المبالغة يتضح لنا أن روما في الوقت الذي تم فيه غزو فيي ، كانت تسيطر بإحكام على وادي التيبر الأدنى وإتروريا الجنوبية وسهل لاتيوم Latium بأسره وجزء كبير من الأراضي الجبلية الواقعة إلى الشرق .

ولكن خلال سنوات قليلة حدثت كارثة مفاجئة هددت بالإطاحة بكل هذه المغانم . وكانت هذه الكارثة هي غزو الغال الكبير في عام ٣٩٠ ق م .

---

(١) ج . هوبو J. Hubaux في مؤلفه « روما والفيي » Roma et Veies

وقد أوضحنا فى فصل سابق كيف غزا الغاليون فى القرن السادس وادى « البو » بحثا عن أراض جديدة لاستيطانها . ولم تكن هذه هجرة لشعب بأكمله ، بل كانت لا تعدو إغارة للسلب والنهب على نطاق واسع . ووقع الهجوم الأول على مدينة كلوسيوم Clusium الإترسكية . وعندما حاولت روما حماية كلوسيوم انقض الغاليون عليها . وقد واجه لأول مرة جيش رومانى — على ضفاف نهر آليا Allia الذى يقع على بعد بضعة أميال شمالى روما — هجوم المحاربين الكلتيين الوحشى . وساد الذعر وحلت الهزيمة المنكرة وظل يوم ١٨ يوليو — وهو يوم أليا — فيما بعد ذلك يوما أسود فى التقويم الرومانى . وواصل الغاليون تقدمهم بقصد سلب المدينة وحرقها على الرغم من أن حامية الكابيتول من المحتمل أنها صمدت لهم . وأصبح برينوس Brennus أول من تمكن من البرابرة من فتح روما ، ولم يخلفه فاتح آخر لمدة ثمانمائة عام . وبعد أن فرض الكلتيون جزية مهينة انسحبوا نحو الشمال عبر الأبنين تاركين وراءهم اسما لم يفقد رعبه تماماً حتى غزو يوليوس قيصر Julius Caesar لبلاد الغال .

وقد أرجأت الأزمة الاقتصادية والصراع الداخلى اللذان أعقبا غزو الغال أية فتوحات لروما فى إيطاليا إلى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد . ثم أعقب ذلك سبعون عاما من الحروب التى تكاد لا تنقطع خرجت روما فى نهايتها منتصرة على جميع أعدائها ، وعلى استعداد أيضاً لأن تلعب دوراً هاما كدولة من دول البحر الأبيض المتوسط . وقد تحققت فى هذه الفترة أعمال عظيمة فى الحرب السياسية ، لا تكاد تقل أهمية عن الانتصارات التى أعقبت الحرب البونية الثانية . ولسوء الحظ لا تمدنا مصادرنا التاريخية إلا بالجانب الرومانى من القضية فحسب ، بل وعلاوة على ذلك فهناك غموض يكتنف نواحى كثيرة منها . ولو كانت معلوماتنا فى هذا الصدد أفضل مما هى عليه لما بدا لنا بعض القواد مثل لوكيوس بابيريوس

كورسور Lucius Papirius Cursor أو بوبليوس ديكيوس موس Publius Decius Mus أو أبيوس كلاوديوس كايكوس Appius Claudius Caecus أقل كفاية من القواد والساسة الذين ظهروا فى عصر شيشيرون . وظلت روما تواجه أكثر أعدائها عزما وأشدهم خطرا فى صورة اتحاد السامنيين القوى حتى قيام الحرب البونية الثانية ، لأن نفوذ السامنيين قد امتد زهاء عام ٣٥٠ ق . م من بلادهم الجبلية إلى السهول الساحلية فى الشرق والغرب . وقد أدى اتصالهم بالحضارة اليونانية إلى نمو مدن غنية فى إقليم كامبانيا Campania وأهمها كابوا Capua أكبر مركز صناعى فى إيطاليا وشهيرة بصناعة المنتجات البرونزية والحديدية والخزف . وقد كان هناك نزاع بين السامنيين المتأغرقين القاطنين للسهولة الساحلية وبنى جلدتهم الذين كانوا أكثر تخلفا من سكان التلال . بينما كانت المدن اليونانية مثل نيابوليس Neapolis تتطلع حولها بحثا عمن يحميها من سيطرة السامنيين قبل فوات الأوان . وكانت روما البطل الوحيد بالنسبة لكل منهما . وقد كان تدخل روما فى كامبانيا بناء على دعوة نيابوليس . ولا يعرف سوى القليل عن الحرب السامنية الأولى ، ولكن تمكن روما من السيطرة على كامبانيا — بغض النظر عن وقت حدوثه — كان بمثابة فوزها بجائزة عظيمة الخطر . ففضلا عما كانت عليه كابوا من ثراء فإنها كانت تضم أيضاً أكثر الأراضى الزراعية إنتاجا فى إيطاليا ، وهى بركانية التربة وتدر ثلاثة محاصيل رئيسية سنوياً فى أجود حقولها . وكانت توجد بمحاذاة الساحل سلسلة من المرافئ الطيبة — لا سيما بوتيولى Puteoli ونابولى Naples — ذات علاقات تجـــارية ثابتة فيما وراء البحار .

وكانت مدن الحلف اللاتينى التى ظلت تحالف روما فى إخلاص وولاء زهاء نصف قرن تتطلع نحو نفوذ روما هذا بعين الغيرة . فقد ظلت تمثل

الجانب الخاسر لفترة من الزمن . فعلى الرغم من أنها كانت مضطرة إلى الإسهام فى الحروب الرومانية إلا أنها لم تكن تحصل على نصيب عادل من تلك الانتصارات التى تحرزها روما . أما الآن فإن غزو روما لكامبانيا جعل فى إمكانها التفوق عليها ، وأتاح لها هذا الغزو تحقيق مكاسب اقتصادية من شأنها بمجرد تدعيمها ورسوخ قدمها أن ترجح كفة روما ضد هذه المدن ترجيحاً تاماً . ولكن فكرة الحرب لم تخطر لهم ببال فى بادئ الأمر . فقد تقدمت لروما بطلب إعادة النظر فى معاهدة كاسيوس ، وهى المعاهدة التى كان يقوم عليها التحالف . ولكنه من المحتمل وإن لم يكن من المقطوع به أن المقترحات التى تقدمت بها كانت تدعو إلى إقامة اتحاد فدرالى وأن يكون قنصل من القنصلين و نصف أعضاء مجلس الشيوخ فى روما من اللاتين . وما كان الرومان ليقبلوا شيئاً من هذا القبيل . فلجأ اللاتينيون إلى الحرب بعد أن خاب أملهم . وانضم إليهم شعب الفولسكى Volsci والأيكوى Aequi والهيرنيكى Hernici وبعض مدن كامبانيا التى منيت مؤخراً بالهزيمة . وواجهت روما ائتلافاً بشعاً يضم شعوباً من أصل واحد ، تحتفظ بجيوش مدربة ومسلحة على نفس النمط الذى كانت عليه جيوش روما وأعقبت ذلك ثلاث سنوات من القتال المرير الذى يمكن أن نتبين فيه لأول مرة خططا عسكرية رومانية قد أحكم رسمها وتم تنفيذها بدقة . وفى نهاية هذه الحروب سحق الاتحاد اللاتينى وأجبر على طلب الصلح . وقد أتاحت لنا التسوية التى تلت ذلك (فى عام ٣٣٨ ق م) أوضح دليل لدينا على سيادة روما على إيطاليا فى المجال السياسى . وقد رفضت روما التعامل مع الاتحاد اللاتينى باعتباره اتحاداً ، وبذلك انتهى أمر الاتحاد . ثم تفاوضت روما مع المدن اللاتينية كل على حدة بما يتفق ومقتضيات كل حالة فسمحت لبعض هذه المدن بالتمتع بحقوق المواطنة الرومانية كاملة ، بينما سمحت للبعض الآخر بحقوق المواطنة دون حق التصويت

أو تولى الوظائف فى روما . وقد دمرت استحكامات بعض المدن التى كانت أشد إصراراً من غيرها على مناصبة روما العداء ونفت كبار الساسة منها . ولكن الغالبية العظمى منها احتفظت بقوانينها وموظفيها العموميين . وكان مواطنوها ملزمين بالخدمة فى الجيش أثناء الحروب الرومانية ، غير أنها كانت تتمتع أيضاً بحق المشاركة فى انتصارات روما . وكان كل فرد من مواطنيها يتمتع بحق التجارة ius commercii مع روما وحق الزواج ius connubii من الرومان ، أى أنهم كانوا يستطيعون التعاقد مع المواطنين الرومانيين . وكانت هذه العقود تعد سارية المفعول فى ظل القانون الرومانى ، كما كان بوسعهم الزواج من الرومان دون أن يفقد أى طرف من الطرفين حقوقه . وبالإضافة إلى ذلك كانوا يستطيعون فى معظم الأحوال الحصول على حقوق المواطنة الرومانية كاملة بالهجرة إلى روما أو بالانضمام إلى مستعمرة رومانية . وكانت روح هذه التسويات روحاً كريمة على أية حال . وهى بالنظر إلى معايير العالم القديم تثير الدهشة حقاً . وربما استحق نظام الامتيازات على درجات ، والولاء الوثيق فى يوم من الأيام دراسة دول حلف الأطلنطى ، لكن روما كانت تحتل نقطة الارتكاز . ولا غرو فكل الطرق تؤدى إلى روما .

ولم يكن من المحتمل أن يسلم السمنيون بضياع كامبانيا ضياعا لا رجعة فيه طالما أن قوتهم العسكرية ما زالت باقية . وظلت روما طوال ثلاثين عاماً تقوم بسلسلة من الحملات ضدهم ، وقد عرفت هذه الحملات فى التاريخ القديم بالحرب السمنية الثانية (٣٢٦ — ٣٠٤ ق م والحرب السمنية الثالثة (٢٩٨ — ٢٩٠ ق م) . ولا يثق العلماء المحدثون كثيراً فى رواية « ليفى » عن تلك السنوات . ومن الصعب ألا نخرج بشعور مؤداه أن ليفى يعالج هذه الحروب على اعتبار أنها فاتحة حرب أشد منها هولا ضد قرطاجة ، وأن كثيراً من الأحداث التى وصفها هو صورة مشابهة لتلك

الأحداث التى وقعت فعلا فى الحروب البونية . وهكذا فإن كارثة ممرات كاوديوم Caudine Forks وما نتج عنها فى روما يماثلان كارثة كاناى Cannae وعواقبها ، والعداء المستعر فى قلب القائدين السمنيين جافيوس بونتيوس Gavius Pontius ، وجيليوس إجناتيوس Gellius Egnatius كان أشبه بعداء هاميلكار Hamilcar وهانيبال . ولكن سبب استطالة الحروب مع السمنيين واضح على الأقل ، لأن الرومان كان عليهم تعلم أساليب الحرب فى الجبال بشكل قاس ، وكان المقصود بالفرقة الرومانية أن تحارب فى السهول ، وكانت وحدات السمنيين المتحركة أكثر تأقلماً بطبيعة الحال . ولذلك وقعت كوارث مثل كارثة ممرات كاوديوم (عام ٣٢١ ق م) حيث أجبر جيش رومانى بأسره على الاستسلام ، ومعركة لاوتولاى Lautulae التى وقعت بعد بضع سنوات . وكان على الرومان أيضاً أن يتغلبوا على السمنيين جماعة بعد أخرى وأن يستولوا على أراضيهم أخدوداً بعد آخر ، من أخاديد الجبال . ولم يكن هناك مركز واحد يمكن أن يضع احتلاله حداً للحرب . وكانت خطة الرومان ترمى إلى محاصرتهم فى الجبال وتمزيق قواتهم والسيطرة على الممرات الرئيسية بإقامة القلاع ، وكان من أقوى إجراءاتهم أثراً حرمان السمنيين من مراعيهم الشتوية بالاستيلاء على السهول . وفى الحرب الثالثة حاول السمنيون الخروج من مأزقهم ونجحوا فى إقامة ائتلاف كبير معاد لروما . وكان الغاليون والأمبريون Umbrians والأتروريون الشماليون من أهم الحلفاء فيه . ولا بد أن جيليوس إجناتيوس الذى تعزى إليه هذه السياسة كان سياسياً حكيما وقائداً محنكا أيضاً . وكانت هذه هى المرحلة التى تعرضت فيها روما لأشد الأخطار ، ولكنها أطاحت بالائتلاف الشمالى فى معركة يائسة خاضتها فى سنتيوم Sentinum بإقليم أومبريا Umbria (عام ٢٩٥ ق م) وكانت الجولة الأخيرة على وشك البدء . وقد رسم ليفى صورة مؤثرة للجهود التى بذلها السمنيون لتكوين جيش ، وللقسم الرهيب الذى أخذه

جنودهم على أنفسهم بالانتصار أو الموت . ولقد وضع انتصار روما في أكويلونيا Aquilonia على هذا الجيش الأخير من جيوش السمنيين، (عام ٢٩٣ ق‌م) حداً للحرب . ومنح العدو المنهزم المرتبة الثانية من مراتب المواطنة الرومانية . وقد ترك الصراع مع السمنيين ذكرى مؤلمة وقاتمة ، لا تزول فى التراث الرومانى . فقد كانت هذه هى الحرب التى لا يمكن تعويض خسائرها . وظل الكثير من السامنيين على عدائهم لروما . وقدر لهم أن يكونوا عصب المقاومة ضد روما فى الحرب الاجتماعية التى نشبت بعد ذلك بقرنين .

وبصورة مخالفة تماما يصور لنا التاريخ الحرب مع تارنتم Tarentum وبيروس ملك إبيروس Epirus (٢٨٠—٢٧٥ ق م) . وقد أفزع انتصار الرومان على السمنيين المدن اليونانية الواقعة على خليج تارنتم ، فاستغاثت تارنتم وهى أكبر هذه المدن وأكثرها ثراء ببيروس ليكون مخلصها . وكان العالم اليونانى بعد الإسكندر — مثل أوربا بعد نابليون — يغص بالقواد الأكفاء ذوى المواهب العظيمة والطموح الأعظم . وكان بيروس ملك إبيروس من بين هؤلاء . لقد كانت تراوده بالفعل أحلام للانتصار على مقدونيا نفسها ، أما الآن فقد بعث ارتباط تارنتم به الأمل فى نفسه لإقامة إمبراطورية غربية عظيمة ، تضاهى انتصارات أجاثوكليس Agathocles أوديونيسيوس السيراكوزى. وهكذا توجه بيروس إلى إيطاليا بجيش من المرتزقة يضم ٢٠,٠٠٠ يونانى ، وهم أقدر المحترفين على القتال فى زمنهم ، وعشرين من الفيلة الحربية بالإضافة إلى معلوماته عن كيفية استخدام الفيلق المقدونى الذى لا يقهر . وقد جاء ورأى وانتصر فى معركتين (وكان على شفا الهزيمة فى الثانية أكثر من الأولى) وفاز فى إحداها وخسر الأخرى ثم انسحب . وكان أول قائد هلينستى عظيم واجه الرومان وهزموه فى النهاية. وليس هناك ما يدعو إلى العجب فى أنه حظى فى التاريخ الرومانى بمكانة

العدو المحبب للنفوس . ومنذ ذلك الوقت أصبحت السيادة فى إيطاليا مبدأ جوهريا فى سياسة روما . وقدر له أن يلعب دورا هاما كالذى لعبه مبدأ مونرو فى العالم الجديد .

وكان الصراع فى الجبهة الداخلية قاسيا قسوة حروب الغزو التى نشبت من أجل إيطاليا . وكانت الثورة التى أدت إلى قيام الجمهورية من عمل الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض . وكانت سلطات الملك التنفيذية وهى نشر العدالة وقيادة الجيش والقيام بالمهام الدينية قد أصبح يتولاها نفر من الموظفين العموميين الذين كانوا هم أنفسهم من الطبقة الأرستقراطية ويسيطر عليهم مجلس الشيوخ الرومانى سيطرة فعالة ، وهو لسان حال الطبقة الأرستقراطية . لكن هذا التغيير قد أثر على حريات الشعب . ولا عجب أن بقية المواطنين الرومان لم يكونوا على استعداد لاحتمال حكومة تحكم عليهم بالانحطاط فى كل من الميادين الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والسياسية . وهكذا بدأ صراع الطبقات فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد . وظل قائما أكثر من مائتى عام حتى حقق عامة الشعب جميع أهدافهم . وكانت عامة الشعب الرومانى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، بل وبدرجة أكثر من ذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد تتألف من عناصر مختلفة مثل تلك العناصر التى اتحدت لفرض قانون الإصلاح عام ١٨٣٢ بانجلترا . وكانت توجد على الأقل أربع فئات رئيسية بينهم وهى أصحاب الحرف من سكان المدن الذين لم يكونوا يرتبطون بالأرستقراطية عن طريق نظام التبعية ، والفلاحون الأحرار والتجار والأثرياء والمهاجرون الفقراء . وكانوا يحتاجون فى المقام الأول إلى الأسلحة السياسية لمواصلة الصراع ، وكان فى متناول أيديهم سلاح واحد بسيط للغاية وفعال تماما هو الانسحاب secessio أى مغادرة روما فى جماعات . وقد فعلوا ذلك أكثر من مرة وإن كان من غير الممكن الجزم بعدد المرات التى قاموا فيها بذلك . وحدث أول رحيل كما جاء فى

الروايات المتواترة فى عام ٤٩٤ ق م ، ومن الواضح أن أول جولة فى هذا الصراع حدثت فى ذلك العقد . وقد خرج عامة الشعب منها بموظفيهم العموميين وترابنتهم وجهازهم السياسى الخـــاص وهو الجمعية الشعبية Concilium Plebis ليكون نداً للموظفين العموميين ولمجلس الشيوخ فى الجانب الآخر . وبعد أن تطورت سلطات الترابنة تطوراً كاملا أصبحت بعيدة المدى إذ كانوا يستطيعون الاعتراض على أعمال أى موظف عام أو أية قوانين أو قرارات يصدرها مجلس الشيوخ إذا كانت تتعارض مع مصالح عامة الشعب أو أى فرد من أفراد الشعب . وكان لهم حق تدبير الأمر نحو جمع الشعب داخل الجمعية الشعبية وإقناعهم بإصدار قرارات كانت تعرف باسم المراسيم الشعبية plebiscita . وكانوا يتمتعون بالحصانة الشخصية كما كان الشعب حريصا على حمايتهم من كل عنف . ولكنهم كانوا يعملون فى نطاق محدود فلم يكونوا موظفين عموميين تابعين للجمهورية ولم يتمتعوا بسلطة القيادة imperium ولم يكن فى وسعهم التدخل فى اختصاصات القواد فى ميادين القتال . وأهم من ذلك أنه فى وسع كل تريبون أن يعترض على قرارات التريبون الآخر . ومع ذلك فقد أصبح عامة الشعب منظمين فيما هو أشبه بدولة داخل الدولة .

وكان انتصارهم العظيم الثانى فى منتصف القرن الخامس عندما حصلوا على مجموعة مدونة من القوانين . وكانت هذه المجموعة هى الألواح الاثنا عشر الشهيرة التى قال عنها ليفى إنها منبع جميع القوانين الرومانية العامة منها والخاصة . وكان حق تفسير القانون العرفى القائم مع الرواية الشفوية يقتصر من قبل على الطبقة الأرستقراطية ، ومن أهم الدعامات لوضعهم المميز ولم يكن فى استطاعتهم أن يتخلوا عن هذا الامتياز بسهولة على الرغم من غموض تفاصيل الصراع الذى نشب حوله ، ولكن الشىء المؤكد هو أنه قد شكلت لجنة من عشرة أعضاء قاموا بدراسة قانونية مقارنة من نوع ما . ويقال إنهم زاروا أثينا حيث ظلت تطبق قوانين سولون أكثر من قرن

من الزمن . ومن المؤكد أنهم زاروا مدن ماجنا جرايكا (اليونان العظمى) Magna Graecia وأسفرت جهودهم هذه عن تصنيف للقانون العام والخاص والديني والجنائي الذى صدر فى صياغة قانونية وفى شكل قانونى بتصديق الجمعية الشعبية عليه ، ونقش على ألواح برونزية فى السوق الرومانية . وكان التلاميذ يدرسونها فى عصر شيشرون . وظلت بعض بنودها سارية المفعول حتى العصور البيزنطية . وقد وصلنا حوالى ثلثها من مصادر مختلفة معظمها باللغة اللاتينية المستحدثة التى توحى بأنه أجريت عدة تعديلات لها ويمثل ذلك نقطة البداية لكل معالجة تاريخية للقانون الرومانى .

ومما يثير الحيرة بعض الشيء أننا نلمس عقب تدوين الألواح الاثنى عشر مباشرة موقفا عدوانيا شعبيا آخر أسفر فى عام ٤٤٥ عن قانون يسمح بالتزاوج Connubium بين الأشراف وعامة الشعب ويبدو كما لو كانت الطبقة الأرستقراطية قد عملت على استبعاد هذا الحق الاجتماعى الحيوى الهام من الألواح الاثنى عشر ، وقد انتزع منها على أنه يمكن إلحاقه بالقوانين المدونة على الألواح بعد ذلك . وكان هذا الحق لا يفيد بالطبع غير الأثرياء من عامة الشعب .

ومرة أخرى كانوا هم الذين أفادوا من امتياز آخر تم تحقيقه فى ذلك الوقت وهو إمكان أن ينتخب أحد القناصلة من عامة الشعب . ولكن بالنسبة لهذا الامتياز فقد استرد الأشراف بيد ما قدموه باليد الأخرى . فلقد ألغى منصب القنصل بشكله القديم وحل محله الترابنة العسكريون الذين كانوا يتمتعون بسلطات القنصل وعددهم ثلاثة . وقد كان هؤلاء من الأشراف ومن عامة الشعب . وظهر منصب جديد هو منصب الكنسور Censor (٤٤٣) . وكان قاصرا على الأشراف ويتمتع بسلطات غاية فى الأهمية . إذا كان الكنسور يشرف على سجلات المواطنين وممتلكاتهم ويعين للخدمة فى صفوف الفرسان ويحتفظ بآخر قائمة لأعضاء

مجلس الشيوخ . أما الرقابة على الآداب العامة التى استطاع عن طريقها رجال من أمثال كاتو الأكبر أن يحيطوا منصب الكنسورية بأهمية كبيرة — فقد كان تطوراً متأخراً ولكن حتى أواخر القرن الرابع وضع أبيوس كلاوديوس كايكوس Appius Claudius Caecus برنامجا سياسيا يقوم على شغل هذا المنصب المرموق .

وقد يظن البعض أن الفقراء من عامة الشعب لم يفوزوا حتى ذلك التاريخ بشيء ذى بال . ولكن تأسيس المستعمرات وإعادة توزيع الأراضى العامة قبل عام ٣٩٠ كافيان لتخلصهم من أخطر مشاكلهم الاقتصادية . وكانوا لا يهتمون اهتماماً كبيراً بفرص العمل فى السياسة . ولكن المحنة التى أعقبت الغزو الغالى تسببت فى تجديد الصراع . وكان هذا الصراع فى طوره الجديد يهتم بصفة رئيسية بشكاوى عامة الشعب الفقراء التى كان على رأسها التعطش إلى الأرض وقسوة قوانين الديون الرومانية . وكانت كلتا المشكلتين ترتبطان ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً . فلما كانت الزراعة هى أساس الاقتصاد الرومانى ، فقد كان تعارض مصالح كبار ملاك الأراضى والفلاحين يشكل المشكلة السياسية الأساسية. وكان من الممكن الاستفادة من الإقطاعيات الكبيرة لسبب بسيط هو أن أصحابها كانوا يمتلكون رأس المال اللازم لدفع نفقات التحسينات وتوزيعها على سنوات الضيق . أما الملكيات الزراعية الصغيرة فلم تكن فلاحتها مربحة كما أن قوانين الديون زادت الطين بلة وأصبح الموقف ميئوسا منه نتيجة لقوانين الديون ، فلم يكن الفلاح يستطيع أن يرهن شيئاً بضمان أرضه . وكان كل ما يستطيع أن يرهنه هو شخصه أى القيمة الاقتصادية لعمله . وقد خلق هذا الوضع ارتباطا nexum بينه وبين دائنه ، ولم يكن هناك مفر من تنفيذ هذا الارتباط بكل دقة . ومن ثم فقد ترتب عليه أن تدهور وضع المدين إلى مرتبة رقيق الأرض . ولو عجز عن الوفاء بدينه لما كان

هناك ما يمنع من الحكم عليه بالسجن ، أو بيعه فى سوق النخاسة ، بل قتله أيضا. ويمكن إحالة الديون غير المسددة إلى أبنائه بحيث كان من الجائز أن يرث الطفل ساعة ولادته عبئا من العمل لا يستطيع النهوض به قط طيلة حياته. وكان المصدر الوحيد الذى يمكن عن طريقه تهدئة التعطش إلى الأرض هو الأراضى العامة ager publicus وهى الأراضى التى كانت تستولى عليها روما فى حروب الغزو . وبعض هذه الأراضى كان يوزع دائماً على صورة إقطاعيات للفلاحين ولكن معظمها يباع لمن يستطيع شراءه ، وبذلك عززت معظم هذه الأراضى نمو الإقطاعيات الكبيرة . وأصبح من الضرورى تحديد مساحة الأراضى التى يمتلكها شخص واحد . وكان هذا هو هدف قانون ليكينوس سيكستوس Lex Licinia Sextia المشهور الصادر فى عام ٣٦٧ ق م . أما عن القيود التى فرضت وقتذاك ، فلا يمكن تحديدها . تقول الروايات المتواترة إن الأرض كانت تحدد بـ ٥٠٠ فدان رومانى iugera من الأراضى الصالحة للزراعة أو لرعى الماشية والأغنام . غير أنه قد استغلت كثير من بنود هذا القانون المزعوم فى الأزمة الزراعية الأخيرة التى نشبت فى القرن الثانى قبل الميلاد بحيث أصبح من العسير علينا أن نكون على يقين من نصوصه الأصلية . وعلى الرغم من ذلك فمما لا شك فيه أنه قد تم تنفيذ مشروع عظيم للإصلاح الزراعى فى ذلك الوقت وأنه قد لقى مقاومة عنيفة وينبئنا الرواة بأن صراعا دام عشرة أعوام نشب قبل إصدار هذا القانون. وكان الإصلاح الزراعى دائما يعد انقلاباً خطيراً فى العالم اليونانى الرومانى .

ويبدو أن النظام الجديد لمنح الأراضى والعمليات الشبيهة بعمليات المصارف الرسمية فى تقديم القروض والديون قد خففت من حدة الخطر الاقتصادى الأكبر الذى واجهته البلاد . ولكن نظام الارتباط ظل دون إصلاح حتى عام ٣٢٦ (أو عام ٣١٣ كما تقول رواية مخالفة) عندما منح

قانون بويتيليا Lex Poetilia لعامة الشعب ما أسماه ليفى ميثاقا جديدا يقضى بإلغاء نظام الارتباط والحبس أو السماح بارتهان الأرض .

وقد حققت الإصلاحات الثورية التى حدثت عام ٣٦٧ مكاسب سياسية، فقد أعيد نظام القنصلية وتم الاتفاق على ضرورة أن يكون أحد القنصلين من عامة الشعب . ومرة أخرى حاول الأشراف تعويض الخسائر التى لحقت بهم بإنشاء وظيفة جديدة وكانت فى هذه المرة وظيفة البرايتوريين praetors الذين سلبوا القناصل معظم اختصاصاتهم القضائية . ولكن سمح لعامة الشعب بتولى منصب الكنسورية ٣٣٩ والبريتورية عام ٣٣٧ كما أصبح الانضمام للكليات الكهنوتية الكبرى — آخر معقل من معاقل الأشراف القوية — مكفولا لعامة الشعب فى وقت ما بعد عام ٢٩٢ ق م . ووصل الصراع إلى مداه عام ٢٨٧ ق م عندما أصبحت قرارات الجمعية الشعبية Concilium Plebis لها قوة القـــانون ، بمقتضى قانون هورتنسيوس Lex Hortensia.

وهكذا وبعد مضى قرنين من الصراع المرير حصل عامة الشعب على جميع أهدافهم . وقد تم له ذلك بالالتجاء إلى أقل قدر من العنف ، وعن طريق الإجراءات القانونية السليمة . وقد أثارت الإجراءات الإعجاب فى كل من العصرين القديم والحديث وأوضحت الاختلاف بينها وبين ألوان الصراع الطبقى العنيف الذى كانت تتميز به مدن الدول اليونانية . ومن الإنصاف أن نتبين فيها الحد الأقصى الذى بلغته الأعمال السياسية العظيمة فى الجمهورية الرومانية ، وأن نذكر أنفسنا استنادا إلى بعض الألفاظ مثل « مجلس الشيوخ » « والجمعية الشعبية » «والاستفتاء الشعبى » و « التصويت » (بل الدكتاتورية أيضا) بمدى ما خلفته هذه الأعمال السياسية الجيدة وأورثته للأجيال التالية. غير أن نتائجها تثير الدهشة والعجب،فلم يعد للأرستقراطية بعد ذلك أى سند قانونى لما تتمتع به من امتيازات ، وأصبح مركزهم فى الدولة يقوم على ما كان فى استطاعتهم السيطرة عليه عن طريق نفوذهم

auctoritas ومكانتهم dignitas وهو ذلك الوضع غير الرسمى الذى تضفيه عليهم ثروتهم وأتباعهم الكثيرون وسمعة أسرهم والأعمال الشخصية الجيدة التى يحققها كل منهم . أما بالنسبة للقرن ونصف القرن التاليين اللذين امتدا حتى عهد الأخوين جراكوس Gracchi ، فقد كانت كل هذه الأشياء تكفى لتجعل من هذه الفترة العصر الزاهر لسيادة الطبقة الأرستقراطية فى روما . وكانت النتيجة التى تمخض عنها الصراع بين الطبقات تعد إلى حد ما نصرا للديمقراطية ولكن الجمهورية الرومانية لم تكن جمهورية ديمقراطية قط سواء فى ذلك العصر أم فيما بعد .

وعندما قام بعض المراقبين السياسيين اليونان من ذوى الخبرة أمثال المؤرخ بوليبيوس بدراسة الدستور الرومانى بعد مضى ما يقرب من قرن كامل وجدوا أنه يمثل تمثيلا صادقاً فضائل « الدستور المختلط » ، فقد كانت الجمعيات الشعبية عنصراً ديمقراطياً وكان مجلس الشيوخ يمثل الديمقراطية . كما كان الموظفون العموميون وعلى رأسهم القناصل يباشرون سلطات الملك . وكانوا يعتقدون أن هذا الدستور المختلط كان يمنح روما الاستقلال السياسى الذى كان سبباً حقيقياً لنجاحها . وقد اتفق بوليبيوس اليونانى وكاتو الرومانى — على حين أنهما لم يتفقا إلا قليلا فى غير ذلك — على أن الدستور كان ينطوى على ميزة كبرى وهى أنه كان ثمرة قرون من التجارب السياسية . وقد قال كاتو « إن جمهوريتنا لم تخلق على أكتاف رجل واحد بل بجهود الكثيرين كما لم تقم خلال حياة شخص واحد بل خلال قرون وأجيال عديدة ، ويؤكد بوليبيوس أن الرومان لم يجلسوا ليضعوا دستورهم بل أخذوا يطورونه فى مدرسة التجارب السياسية الشاقة .

وتستلفت الخاصيتان التاليتان بالذات أنظار الباحثين فى العصر الحديث وهما : أولا أن الشعب الثلاث ألا وهى : المواطنون ، ومجلس الشيوخ ، والجمعيات الشعبية جميعاً كانت تستطيع استصدار التشريعات : وثانياً

ضآلة عدد الموظفين العموميين الذين يتولون السلطات التنفيذية وهم قنصلان، وبرايتور واحد أو اثنان فى بعض الأحيان للشئون القانونية وكويستوران quaestors للشئون المالية وأربعة أيديليز aediles لشئون الشرطة والإشراف على المدينة وكنسوران Censors — وإن كان الأخيران يعملان فى فترات متقطعة — لا يكاد عددهم جميعاً يبلغ اثنى عشر موظفاً عاماً أى كانوا أقل عدداً من أعضاء مجلس الوزراء فى الدولة الحديثة . ولقد أمكن تحاشى الأخطار الناجمة عن ترك السلطة فى أيدى هذا العدد الصغير من الأفراد بتحديد فترة شغلهم لمناصبهم بعام واحد ، وتعيين زميل واحد أو زميلين للموظف فى كل درجة من حقهما معارضته . وقد مارس الشعب الرومانى — عن طريق مجالسه الشعبية المتعددة — السلطة العليا إلى حد ما ، نظراً لأنها كانت تنتخب الموظفين العموميين وتستمع إلى القضايا الرئيسية وتبت فى مسائل السلام والحرب . ولكنها كانت لاتجتمع إلا بدعوة أحد الموظفين العموميين . وكان مجلس الشيوخ الذى يعقد جلساته بانتظام أكثر ملاءمة للمناقشة ، وكان يضم كل من له خبرة سياسية إلى حد بعيد . وكان الموظفون العموميون يرجعون إلى مجلس الشيوخ أكثر مما يرجعون إلى الشعب لأنهم كانوا أعضاء فى مجلس الشيوخ. وبعد انتهاء فترة توليهم لمناصبهم كان مستقبلهم السياسى يتحدد داخل جدران هذا المجلس . وكان من الطبيعى فى هذه الحالة أن يميل الموظفون العموميون بصورة مطردة إلى أن يصبحوا اليد التنفيذية لمجلس الشيوخ أكثر من ميلهم إلى انتهاج سياسة خاصة بهم . وكانت هذه الحقيقة بالإضافة إلى الحكمة والحنكة السياسية التى كان مجلس الشيوخ يمارس على هداها سلطته بصفة عامة هى السبب فى سيادته الفعالة لقطاع ميدان السياسة الرومانية من عام ٣٠٠ ق م حتى عهد الأخوين جراكوس .

ولقد علق الباحثون المحدثون أيضا على ما كانت تتسم به سياسة روما من سخاء فى إيطاليا فى هذه الفترة . ونجاح نظام المستعمرات يعد من

الأسباب التى مكنت روما من انتهاج مثل هذه السياسة . والمستعمرة الرومانية — بمقارنتها بالمستعمرة اليونانية — تنتهى إلى نظام آخر ذى طبيعة خاصة ، فقد كانت المستعمرة اليونانية مشروعا خاصا ينبثق من البلد الأم لإقامة مجتمع جديد ، بينما كانت المستعمرة الرومانية تقام باعتبارها إجراء من قبل الدولة وكان الأساس فى اختيار موقعها يرجع إلى اعتبارات استراتيجية واقتصادية فى آن واحد . وكان يتم تقرير عدد المستعمرين مقدما . وكما يستدل من اسمها فإن الناحية الاقتصادية كانت أقـــدم عهدا من الناحية الاستراتيجية ، فإن فعل colere يعنى فلاحة الأرض بينما كان لفظ colonus يعنى فى البداية الفلاح المستأجر للأرض . وفى بعض المستعمرات كان جميع المواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية كاملة التى كان يمكن لأى مستوطن أن يحصل عليها . وقد أنشئت مستعمرات أخرى بالاشتراك مع اللاتين وكان المواطنون بها يتمتعون « بالحقوق اللاتينية » ولا يمكن الاعتماد كثيرا على تواريخ إنشائها لاسيما المستعمرات القديمة . ولكن يبدو أنها تنحصر بين فترتين رئيسيتين هما ٤٥٠ — ٣٩٠ ق م و ٣٥٠ — ٢٦٣ ق م وخلال هاتين الفترتين نسمع عن اثنتى عشرة مستعمرة للمواطنين الرومان وثلاثين مستعمرة لاتينية وربما وفرت أراضيها جميعها الأرض لستين ألف مواطن وعائلاتهم . وأكثر هذه المستعمرات شهرة فى علم الآثار هى أوستيا Ostia التى تعرفنا على تطورها الكامل منذ أن كانت مستعمرة فى أواخر القرن الرابع (أو ماقبله) حتى أصبحت ميناء كبيرا فى عصر الإمبراطورية . وتدل الصور الشمسية الملتقطة من الجو فى المناطق المجاورة للمستعمرات الرومانية غالبا على النظام « المئوى » أى تقسيم الأراضى العامة إلى مجموعات كل منها مائة قطعة ، وكانت هذه هى الوحدة الأساسية للأراضى الممنوحة ، وكانت هذه المستعمرات تقع عند تقاطع الأنهار أو الموانى والمواقع الأخرى الملائمة لاتخاذها قاعدة لجيش مقاتل . وكانت فى وقت السلم مركزا لإشعاع

للحضارة الرومانية وفى وقت الحرب معقلا لروما . ولم يتزعزع ولاؤها حتى فى أثناء محنة الحرب البونية الثانية . ولا غرابة فى أن المؤلف الرومانى أولوس جيليوس Aulus Gellius سماها « صورة مصغرة للشعب الرومانى وانعكاسا له » وهكذا حدث تطور فعال ومبكر فى أرض إيطاليا لنظام كان من المقدر له أن يلعب دورا كبيرا فى صبغ الأقاليم الغربية بالروح الرومانية . ومعظم هذه المستعمرات الاثنتين والأربعين اليوم مدن إيطالية تزخر بالنشاط . ولقد بدأت مدن تاريخية كثيرة فى أوربا مثل كولونى ولنكولن حياتها كمستعمرات رومانية . وإجراء دراسة مقارنة لعملية إقامة المستعمرات الرومانيـــة وافتتاح غرب أمريكا أمر مرغوب فيه إلى درجة كبيرة .

وترجع الولايات الإيطالية المعروفة باسم مونوكيبيا municipia إلى أصل مخالف يبدأ ببسط سلطة روما على إقليم كامبانيا . وقد منح عدد من مدن كمبانيا الوضع الواضح المميز للمونيكيبيوم أى أنها قد دخلت فى حلف مع روما وأنها قد تبادلت معها الحقوق الاجتماعية . ولكن هذه المدن احتفظت بموظفيها العموميين ودستورها وطقوسها الدينية ، ولم يكن بوسع مواطنيها الحصول على حقوق المواطنة الرومانية إلا عن طريق الهجرة إلى روما . وكما كان الحال مع نظام المستعمرات colonia ، فقد طبق نظام المونيكيبيوم على المستعمرات الغربية حيث تطور فى اتجاهات جديدة .

ولعب التقدم فى العلوم التطبيقية دوره أيضاً فى توحيد إيطاليا . فقد بدأ السكنسور أبيوس كلاوديوس كايكوس عام ٣١٢ ق م فى إنشاء الطريق الكبير الذى يمتد من روما إلى كابوا (ويبلغ طوله ١٣٢ ميلا) والذى مايزال يحمل اسمه إذ يسمى بطريق أبيوس Via Appia وكان هذا هو أول طريق من سلسلة الطرق الرومانية الكبرى التى لعبت دوراً خطيراً فى نشر الحضارة بأوربا . ولما كان هذا الطريق يتألف من أربع طبقات ، إحداها من أحجار

«الفليج» والأخرى من الحصى والزلط والثالثة من الأسمنت ثم الغطاء العلوى» مدرجة بعناية ، وتعبر الأنهار بقناطر أو جسور ممهدة كما تسير فوق مستنقعات البونتس على سدود مبنية على شكل بواكى ، فقد كان يمثل فى جميع الأجواء شريانا حيويا صالحا لانتقال الناس والبضائع بين روما وكمبانيا . وبعد الحرب التى دارت مع بيروس مد الطريق إلى برنديزيوم Brundisium أى إلى ٢٣٤ ميلا . وفى الوقت ذاته أنشىء طريق شمالى كبير ألا وهو طريق فلامينيوس Via Flaminia بين روما وأريمينوم Ariminum (وتعرف بريمينى Rimini وطوله ٢٣٠ ميلا التى تقع على ساحل الأدرياتيك . وفى القرن التالى أقيم امتداد لهذا الطريق من هذه النقطة إلى بلاكينتيا Placentia (أى إلى مسافة ١٧٦ ميلا وسمى طريق أوريليوس Via Aurelia ولعب نفس الدور فى غزو بلاد الغال فيما وراء جبال الألب ، الذى لعبه الخط الحديدى الباسيفيكى الكندى بالنسبة لكندا . وكانت هناك طرق رئيسية أخرى تربط روما بمدن إتروريا الكبرى ناحية الشمال الغربى وسامنيوم صوب الجنوب الشرقى .
ولعل القارىء الحديث يبدى استعدادا أكبر لتصور الطرق البرية عن تصور السكك الحديدية . وهذه مقارنة مفيدة فهذه الطرق بصفة خاصة يمكن مقارنتها فعلا بشبكات الطرق فى ألمانيا وإيطاليا التى أنشئت خلال العقد الرابع من القرن العشرين . ولقد كان الهدف الأول من الطرق الرومانية الكبرى فى إيطاليا مثلما كان الهدف فى ألمانيا هدفا إستراتيجيا إذ كانت ترمى إلى تحقيق سلامة وسرعة انتقال الجنود والمؤن . وفيما بعد أصبحت لأهميتها الاقتصادية الأهمية الأولى على الرغم من أنها لم يكن فى مقدورها قط أن تلعب نفس الدور الذى تلعبه الطرق الكبرى الحديثة فى حركة نقل الحمولات الثقيلة . ففى العالم القديم كانت السلع الثقيلة تنقل عن طريق البحر كلما كان ذلك ميسورا ، بالنظر إلى أنه لم يكن فى الإمكان الحصول إلا على حيوانات الجر وبغال الحمل فحسب لأغراض النقل البرى .

وقد امتد نظام شبكات الطرق الرئيسية الرائع هذا الذى افتتح فى

إيطاليا بحيث شمل كل جزء من أجزاء الإمبراطورية . ولقد كان عملا رومانيا بحتا . فلم يكن فى وسع الممالك الهلينستية العظيمة أن تخرج بما يشبه هذا العمل الفذ ، كما يسر السفر برآ وزاد من سرعة الانتقال أكثر من ذى قبل حتى قيام عصر السكك الحديدية

وكان الجيش الذى فتحت روما إيطاليا به يتألف من جنود مرابطين يستدعون عند الحاجة من بين المواطنين ، وكان كل مواطن متمتع باللياقة البدنية يخضع للخدمة العسكرية كجزء من التزاماته تجاه الدولة ، وكان يؤدى هذا الواجب على نفقته الخاصة فى بداية الأمر بحيث كان ينخرط فى الجيش دون أن يتقاضى أجرا كما كان هو الذى يزود نفسه بأسلحته ومعداته الخاصة . ويعزى النظام العسكرى الذى كان يقضى بأن تقوم أغنى طبقة من بين المواطنين بإعداد سلاح الفرسان ، والطبقة التى تليها ثراء سلاح المشاة ، بينما تعد الطبقة الفقيرة القوات ذات الأسلحة الخفيفة — يعزى تقليديا — إلى الملك سيرفيوس توليوس Servius Tullius فى القرن السادس قبل الميلاد . ولكنه يرجع على الأرجح إلى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . ولما طال أمد الحملات وأصبحت المعارك تدور فى أنحاء بعيدة عن روما تكشفت عيوب هذا النظام ولم يعد يفى بالغرض ، وقد اتخذت خطوة حاسمة أثناء الصراع الأخير الذى نشب مع شعب فيى بأن تقرر دفع راتب stipendium عن الخدمة العسكرية . وفيما بعد بدأت الدولة تقدم أسلحة ومعدات ذات مواصفات محددة ، وكانت هذه أولى مرحلة من مراحل تكوين جيش محترف على الرغم من أن مثل هذا التطور كان مايزال فى طى المستقبل .

وكانت الوحدة الرئيسية هى الفرقة legio وكانت هذه تتألف من ٥٠٠٠ من المشاة و ٣٠٠ من الفرسان ، وكان كل قنصل فى القرن الرابع فيما يحتمل أو فى القرن الثالث كما هو مؤكد يقود جيشا يتألف من فرقتين .

وكانت خطط تحريك القوات تتبع الأساليب اليونانية ، ولعل اليونانيين أنفسهم قد نقلوها عن الإترسكيين. ومما تناهى إلى علمنا أنه قد كانت هناك ثلاثة خطوط للقتال تقوم على أساس فئات السن: أولها الشبان الذين كانوا رماة الرماح (hastati) ، وثانيها المشاة الثقيلة التسليح الرئيسية (principes) ، ثم قدامى المحاربين فى الاحتياطى (triarii) . وكان يستفاد من سلاح الفرسان فى حماية أجنحة تشكيلات المشاة لا باعتباره سلاحا مستقلا . وقد نشأ عن ذلك جيش يصلح للقتال فى الأراضى المنبسطة السهلة ، ولكن الحملات الطويلة الأمد التى قامت بالقتال فى جبال سامنيوم Samnium دلت على أنه من الضرورى إيجاد تشكيل يتوفر له قسط أكبر من المرونة ، ومن ثم قسمت الفرقة إلى كتائب manipuli لها القدرة على العمل باعتبارها جماعات مستقلة . ثم أصبح على الحلفا فى النهاية أن يقدموا قوات مساعدة للاشتراك فى الحملات الحربية ، والغالب أن هذه القوات كانت تؤلف الأسلحة التى لم يكن الرومان يتفوقون فيها على غيرهم مثل سلاح الفرسان .

وكان هذا الجيش يعد بالنظر إلى الأحوال السائدة فى إيطاليا فى القرن الرابع جيشاً عاتياً مرهوب الجانب ، كما أنه كان دون شك متنوع المهارات والفنون . فقد واجه حماس الكلتيين الممثل فى الغاليين . وواجه تكتيكات السمنيين القوية المحكمة ، والدربة والخبرة اللتين كان يتمتع بهما بيروس وجنوده اليونانيون ، وكانت له الغلبة على كل هؤلاء جميعاً . ولكن هذا الجيش كان يحمل بين أطوائه عوامل الضعف التى كان لابد أن تتكشف سريعاً . فلم توضع لأسلحته ومعداته مواصفات دقيقة . كما أنه على الرغم من شجاعة الجنود فقد كان يعوزهم التدريب الكافى ، كما كان جل همهم هو إنهاء الحرب والعودة إلى مزارعهم . وأهم من ذلك أن القيادة العليا كانت تعانى من نقائص خطيرة وقد يتصادف أن يكون أحد القنصلين قائداً قديراً ، غير أن هناك الكثير من الأمور التى كانت تحول

دون أن تتوافر المقدرة والكفاءة لكل منهما . وقد كان من الممكن بطبيعة الحال أن يستدعى رجل ذو سجل مشرف فى ميدان القتال فى حالة الطوارئ ليتنصب قنصلا أو دكتاتوراً ، كما كان الحال مع كاميلوس Camillus . ولكن أحداً فى روما لم يكن على وعى بالشئون الإستراتيجية العليا لأنه لم يكن هناك من كان يكرس جل وقته للتفكير فيها . ووفقاً للمعايير الحربية اليونانية لم تكن روما تضم قوات بالمعنى الصحيح حتى ذلك الوقت، بل إنه لم يقدر لها ذلك حتى نشوب الحرب البونية الثانية . والحقيقة أن الدروس التى لقنت روما إياها فى هذا الصراع المرير هى التى أحالت الجيش الرومانى إلى قوة قدر لها أن تسيطر على العالم طيلة القرون الخمسة التالية . والفرق بين الجيوش الرومانية قبل زحف هانيبال وبعده هو ذلك الفرق بين جيوش بول ران [1] وجيوش جيتسبرج [2] .

وكان لعودة بيروس إلى اليونان فى عام ٢٧٥ ق م أن أصبحت لروما السيادة على إيطاليا . وقد جرت هناك عمليات تطهير قليلة قبل أن تصبح سيادتها هذه مطلقة ، لا ينازعها فيها منازع ، فقد تم احتلال ريجيوم Rhegium عام ٢٧٠ ق م وبرنديزيوم Brundisium عام ٢٦٧ ق م، وثار البيكينيون Piceni عام ٢٦٨ ق. م وتم قهرهم فى العام التالى . بيد أن هذه المرحلة لم تكتمل حتى عقد تحالف مع أبوليا Apulia وميسابيا Messapia عام ٢٦٦ ق م . وكان قد مضى أكثر من ١٢٠ عاماً أى بعد أربعة أجيال من الناس على أقرب تاريخ لغزو الغاليين فى عام ٣٩٠ ق م .

وكانت التسويات التى تمت بين روما وبين مختلف المجتمعات الإيطالية

---

(١) بول ران Bull Run قناة فى شمال شرق فرجينيا بالولايات المتحدة كانت مسرحا للحرب التى دارت فى عامى ١٨٦١ و ١٨٦٢ (المترجم)
(٢) جيتسبرج Gettysburg بلدة جنوب غرب مدينة يورك الواقعة جنوبى بنسيلفانيا ، دارت بها معارك سنة ١٨٦٣ (المترجم)

تشبه على وجه العموم تلك التسويات التى عقدت مع اللاتين فى عام ٣٣٨ ق م، فقد كانت تسودها سياسة فرق تسد ذاتها التى لم يكن يخفف من حدتها غير منح الامتيازات لكل من الأعداء السابقين والحلفاء على حد سواء ، مرتبة تدريجياً وفق قدرة كل منهم . صحيح أن حقوق المواطنة الكاملة لم تكن تمنح إلا فى النادر ، فالسابينيون وحدهم هم الذين حصلوا عليها آنذاك . أما السامنيون والإترسكيون والأمبريون Umbrians فقد حصلوا على ما قد يطلق عليه نصف حقوق المواطنة وهو civitas sine suffragio فلم يكن فى وسعهم أن يسهموا فى رسم السياسة الرومانية ، ومن المحتمل أيضاً أن إقامتهم فى روما لم تكن تؤهلهم أيضاً لنيل حقوق المواطنة الكاملة . وأما المدن الإغريقية الشهيرة الواقعة فى الجنوب ، فقد أصبحت دولا حليفة (civitates foederatae) . وكانت كل هذه العناصر الجديدة التى ضمت إلى الاتحاد الرومانى تعرف إجمالا بالحلفاء الإيطاليين (socii Italici) وكانت تشكل حركة خارجية أقل نصيباً فى الامتيازات من اللاتين ، إلا أنهم قد احتفظوا مثل اللاتين بدساتيرهم الخاصة كما كانوا ينتخبون موظفيهم العموميين ويصدرون تشريعاتهم الخاصة ويتعبدون للآلهة التى تختص بهم . ولم يكن يؤدون أية جزية إلى روما وإن كانوا ملزمين بتزويد القوات المسلحة الرومانية بفرق من الجنود . ولقد أظل السلام الرومانى pax Romana شبه الجزيرة الإيطالية من بيزا وريمينى إلى مضيق مسينا ، كما قدر له أن يرفرف على عالم البحر المتوسط بأكمله فيما بعد . وبدأ القانون الرومانى واللغة اللاتينية هذا التوسع الذى أتاح لهما السيادة زهاء عام ١٥٠ ق م . والحقيقة أن هذه كانت نقطة البداية للوحدة الثقافية والاجتماعية التى لم تنفصم قط انفصاماً تاماً حتى العصور الوسطى .

وكانت المزايا التى عادت على إيطاليا من وراء إقرار السلام وزيادة الرخاء مزايا عظيمة . أما بالنسبة لروما فقد كانت أجل وأعظم من ذلك .

فقد بلغت مساحة الأراضى العامة — أرض الشعب الرومانى العامة ager publicus populi Romani — إبان حروب الغزو ما يقرب من عشرة آلاف ميل مربع أى خمس مساحة شبه الجزيرة الإيطالية . وكانت هذه تمثل ضيعة عظيمة الثراء مختلفة الجوانب صالحة للتنمية . وكان جزء كبير من الأرض مخصصاً للملكيات الصغيرة على النمط التقليدى للزراعة الرومانية . كما كانت تقسم أيضاً إلى المراعى الضخمة التى كانت تعرف باسم Pascua فى سامنيوم وأبوليا وكالابريا Calabria . كانت هذه المناطق تضم مراعى الأغنام والقطعان، الصيفية والشتوية. وتضم أيضاً طرق الدواب الشهيرة التى كانت تمر بها القطعان الضخمة من الحيوانات مرتين (calles) كل عام ، كما كان الحال مع طرق الدواب التى كانت تمتد بين ويلز، وانجلترا قبل إنشاء الخطوط الحديدية . كان هذا لوناً جديداً من ألوان الاستثمار بالنسبة للرومان ، حيث كان بوسع نفر قليل من الأشخاص الذين أوتوا من الثراء ما يمكنهم من شراء المراعى الضخمة أو استئجارها من الدولة أن يجمعوا لأنفسهم ثروات طائلة .

وعلى النقيض مما كان من أمر صغار الملاك فقد تحولت تلك الجماعات الضخمة من الرعاة التى أصبحت تباشر هذه المراعى الشاسعة فيما بعد إلى عنصر خارج عن القانون ، تحول فى سرعة إلى السلب والنهب وجنح إلى التمرد والثورة . وإلى جانب ذلك كانت هناك موارد إيطاليا الغنية من الغابات التى لم تكن قد استغلت فى معظمها لاسيما بعض المناطق مثل سيلا Sila فى بروتيوم Bruttium وقد كانت هذه الموارد من الأهمية فى مجال بناء السفن ما كان لأشجار البلوط فى انجلترا بالنسبة للسفن الخشبية فى البحرية الإنجليزية القديمة .

وبلغت مساحة إيطاليا الرومانية حوالى عام ٢٦٠ ق م — أى فى بداية الحرب البونية الأولى — قرابة ٥٢٠٠ ميل مربع، كما أن عدد سكانها كان

يبلغ أربعة ملايين نسمة ، وفقاً لإحدى التقديرات التى تحظى بقبول كبير .. ويتفق الرقمان بدقة فائقة مع أرقام ولاية كارولينــــا الشمالية فى العصر الحديث . ولعل روما نفسها كانت تضم ١٢٥٠٠٠ نسمة . وكان عدد سكان إيطاليا الرومانية فى عالم القرن الثالث ق م يناهز عدد سكان مملكة مقدونيا . أما عدد سكان المملكتين الهلينستيتين العظيمتين الأخرتين فكان يربو على ذلك إلى حد كبير إذ بلغ فى مصر عشرة ملايين ، وسوريا نحو ٣٠ مليون نسمة . غير أن أحداث القرن التالى قد دلت على أن روما كانت تستحوذ بالنظر إلى ما كانت تتسم به نظامها من رسوخ وصلابة وما كان يتمتع به مواطنوها من روح معنوية عالية ، على موارد تفوق موارد أية دولة أخرى فى العالم .

* * *

الفصل الرابع

روما والبحر المتوسط (٢٨٠ ــ ١٣٣ ق م .

إن سلسلة الحروب الرهيبة التى نشبت مع قرطاجة ، والمعروفة باسم « الحروب البونية » قد تركت فى عقول الرومان أثراً لا يمحى . وانتهت الحرب البونية الأولى بعد صراع دام ثلاثة وعشرين عاماً بما يشبه استنفاد كل منهما لقوى الآخر . أما الحرب البونية الثانية فقد ساقت روما إلى حافة الدمار على يد عدوها العظيم «هانيبال» ، والحروب البونية الثالثة هى التى دفعت قرطاجة إلى الحافة ذاتها وانتهت بسحق نفوذ « قرطاجة » ومحق المدينة نفسها . وهذا ما تعنيه العبارة الكئيبة « السلام القرطاجى » ، ومما يدعو للدهشة إلى حد ما أن الكتاب الرومان عندما رجعوا إلى الماضى ، رأو أن هذا الصراع — لا سيما الحروب البونية الثانية — « حرباً ضروساً » ، فهو صراع على إمبراطورية عالمية فى البر والبحر ، كما صوره « لوكريتيوس » . أما فرچيل فقد رأى ، بخيال الشاعر أن القدر قد دبر العداء بين المدينتين منذ نشأتهما ، وأن خيانة « أينياس » ، « لديدو » تعتبر أول التحام بينهما ، و « هانيبال » هو المنتقم الذى جاء ليحقق لعنة « ديدو » . ولكن فى الواقع كانت روما و « قرطاجة » على علاقات ودية استمرت أكثر من قرنين . وكانت أول معاهدة تعقدها « روما » مع دولة خارجة عن حدود أراضى « إيطاليا » هى المعاهدة التى عقدتها مع قرطاجة فى عام ٥١٨ ق م . ، وتجددت هذه المعاهدة فى عام ٣٤٨ ق م وعام ٢٧٨ ق . م . وفى كل مرة كان الهدف هو تقييد نشاط « روما » التجارى غربى البحر المتوسط والحد من مطامع « قرطاجة » فى إيطاليا ، ولم يحدث من قبل أن أصبحت « روما » وريثة للصراع القديم الذى نشب بين اليونانيين والقرطاجيين فى « صقلية » إلا عندما قادتها فتوحاتها إلى مضيق « مسينا » .

إن الخصم القوى الذى وقف فى وجه روما ، حينئذ كان أغنى مدينة فى غرب البحر المتوسط ، أنشأها مستعمرون من مدينة « صور الفينيقية » عام ٨٠٠ ق . م — ومن هنا أطلقت الصفة اللاتينية « پونى Puni » على القرطاجيين — ويبدو أن هدف هؤلاء المستعمرين الرئيسى كان استغلال أحواض الأسماك المرجانية ، وهى أسماك صدفية تستخرج منها الصبغة التى تبــاع بأسعار مرتفعة . ولكن سرعان ما تبينوا المزايا الطبيعية التى يتمتع بها هذا الموقع والتى أدت إلى قيام مدينة كبرى فى تونس فى العصر الحديث . وتبعد رأس « كاب بون Cape Bon » عن الركن الغربى من صقلية بثمانين ميلا فقط ، والقوة التى تسيطر على طريق الملاحة هذا تستطيع أن تقسم البحر المتوسط إلى شطرين . وفى شرق « كاب بون » توجد موانى صالحة للملاحة فى خليج تونس كما يوجد وادى نهر « باجراداس Bagradas » الخصيب الذى يمتد إلى أرض داخليـة بعيدة عن الساحل صالحة لزراعة خصبة . وبفضل هذه المزايا الطبيعية أصبحت قرطاجة قوة هائلة فى ظل نظام حكم أوليجركى حاز إعجاب المفكرين السياسيين اليونان لرسوخه . وكان (لقرطاجة) تجارة شحن رائجة مع مصر وشرق البحر المتوسط ، كما كانت تحتكر التجارة فى غرب البحر المتوسط حيث كانت (كورسيكا Corsica و سردينيا Sardinia) فى قبضة يدها تماما . وفى أثناء صراعها الذى استمر فترة طويلة مع اليونانيين فى صقلية لم يتمكن أحد منهما من طرد الآخر . فكان اليونانيون تحت زعامة سيراكوزة يسيطرون على الجزء الشرقى من الجزيرة ، والقرطاجيون على الجزء الغربى منها . ولكن الفرص الذهبية كانت توجد فى الجزء الغربى حيث آلت إلى قرطاجة إمبراطورية (تارتسوس Tartessus) الواقعة فى جنوب (أسبانيا) . وإلى جانب التجارة الأسبانية الغنية والمنتعشة، سيطرت قرطاجة على سلسلة من المراكز التجارية الواقعة على ساحل أفريقيا الغربى ، وقد وصل الرائد القرطاجى العظيم (هانو Hanno) حوالى ٥٠٠ ق . م على الأقل إلى (سيراليونى

Sierra Leone) وربما إلى مصب نهر الكنغو . كما أبحرت سفن قرطاجية من مضيق (جيبرا التار Gibraltar (جبل طارق) تجاه الشمال إلى خليج بسكاى Biscay وربما إلى ورائه ، على الرغم من أن الربط بين قرطاجة والقصدير الكورنشى يبدو أقل احتمالا فى ذلك الوقت عما كان عليه فى وقت من الأوقات .

لقد حققت حكومة أوليجركية غنية تشتغل بالتجارة ، مثلها فى ذلك مثل حكومة (البندقية Venice أرباحا طائلة من هذه التجارة الواسعة المنتشرة عبر البحار ، كما أقام رجال آخرون واسعو الثراء مقاطعات زراعية شاسعة فى أفريقيا . وقد رأى بعض المؤرخين أن هناك ضعفا سياسيا فى المنافسة بين هذه المصالح المتضاربة . وكانت موارد قرطاجة العسكرية تبعث على الخوف . فعلى الرغم من أن القوات المرتزقة كانت تكون جزءاً كبيراً من جيشها إلا أنها لم تفتقر إلى الجنود المحنكة من المرتزقة وجنود المشاة الذين كانت تجلبهم من أسبانيا ومن أراضى (البربر Berber) والفرسان من (نومديا Numidia) وكان قوادها على دراية تامة بأحدث أساليب الحرب الهلينستية ، كما كانت اضخم أساطيل العالم تلقى مراسيها فى مينائيها التوأمين ، أحدهما للأسطول التجارى والآخر للأسطول البحرى .

وقد اندلعت الحرب البونية الأولى عندما حاول القرطاجيون السيطرة على (مسانا Messana)، (وقد صدتهم سيراكوزة ذات مرة) ، وربما كان فى مقدورهم أن يسيطروا منها على المضيق الواقع بين صقلية وإيطاليا. وكانت مدينة مسانا طول عشرين عاما فى أيدى (المامرتيين Mamertini) وعندما لجأ (أبناء الإله مارس) هؤلاء إلى روما طالبين العون تردد مجلس الشيوخ فى تلبية مطالبهم ولكن أصرت الجمعية الشعبية Popular Assembly) على إشعال الحرب (فى عام ٢٦٤ ق . م) على الرغم من أنه ليس من المحتمل أن أعضاء هذه الجمعية كانوا يدركون إلى أى مدى قد تؤدى بهم الحرب .

ولم يكن جلاء قرطاجة عن شمال شرق صقلية وانضمام سيراكوزة إلى جانب الرومان إلا المظهر الأول للحرب . فقد استمرت قرطاجة فى قتالها ، وتعهدت روما ، بتحريض من سيراكوزة دون شك ، بطرد قرطاجة من الجزيرة . وكان هذا يعنى القضاء على سيادة قرطاجة فى البحر ويؤدى إلى بذل روما أول مجهود شاق كى تصبح دولة بحرية ، وقد لاقت توفيقاً ملحوظاً فى هذا المجال . والنقش الذى سجل فيه (جايوس دويليوس Caius Duilius) انتصاره فى موقعة (مولاى Mylae) التى وقعت فى عام ٢٦٠ ق . م ما يزال قائماً ، وقد جاء فيه : (كان أول من أهدى الشعب الرومانى أسلاب معركة بحرية ، وأول من ساق أمامه فى موكب نصره قرطاجيين أحرارا) . وتلى ذلك سلسلة من أعظم المعارك الحربية التى دارت رحاها فى العالم القديم قاطبة . فبعد الانتصار الذى أحرزه الرومان فى غرب صقلية عام ٢٥٦ ق . م أصبح فى إمكانهم أن يتفوقوا فى الحرب بطريقة أو أخرى على قوات العدو التى كانت ما تزال فى الجزيرة ، وأن تنزل جيشاً فى أفريقيا ليضرب قرطاجة نفسها ضربة قاضية لكن هذه المغامرة باءت بالفشل . فقد انهزم هذا الجيش فى العام التالى . ووقع معظمه فى الأسر بما فيهم قائدهم (ريجولوس Regulus) . أما الأسطول الذى أرسلته روما ليلتقط من ظلوا على قيد الحياة بعد هذه المعركة قد تحطم عن آخره ، ذلك بالإضافة إلى خسائر جسيمة فى الأرواح . وفى أثناء القتال أدرك الرومان أن التغلب على قوة قرطاجة البحرية أسهل فى الواقع بكثير من السيطرة على البحر . وعلى ذلك كانت آخر مرحلة من مراحل الحرب هى القيام بحملة جديدة فى غرب صقلية وحول شواطئها ولكن القرطاجيين عثروا على قائد عظيم فى شخص هاميلكار واستمروا فى دفاعهم الميئوس منه عن ما تبقى لهم من قواعد وهو قاعدتى (ليلوبايوم Lilybaeum) و (دريبانا Drepana (مارسالا وترابانى الحديثة) . وعندما عقد الصلح عام ٢٤١ كانت كلتا القاعدتين ما تزال فى أيدى (البونيين) على شرط أن تجلو قرطاجة عن صقلية .

و (كل الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا) وأن تدفع تعويضا هائلا .

إن نهاية الحرب لم تكن قد حانت بعد فالجيش المرتزق الجرار الذى قاده (هاميلكار) فى طريق عودته من صقلية ثار ضد الهيئة الحاكمة وتورطت قرطاجة فى الصراع البشع المعـــروف (بحرب لامهادنة فيها ولا هوادة) . وهكذا واتت (روما) الفرصة لتزيد من إحكامها للأمور فضمت(سردينيا) إلى ممتلكاتها — وهى جزيرة تقع بين صقلية وإيطاليا — وضاعفت بالفعل كمية التعويض المطلوب فى حالة ماإذا حملتها قرطاجة مشاق تحاشى حرب جديدة فى المستقبل . ولم يكن فى وسع قرطاجة بعد أن انهزمت وهدرت كرامتها إلا أن ترضخ لهذه الشروط (فى عام ٢٣٨ ق . م) ولكنها تركت وهى متعطشة للأخذ بالثأر . وكان هاميلكار هناك ليرسم خطة هذا الثأر . وقد لاقت قرطاجة صعابا جمة فى أسبانيا أيضا خلال هذه السنوات، على الرغم من أن تفاصيل الأحداث غامضة . ولكن ربما كانت قوة (ماسيليا) هى التى أجبرت القرطاجيين على التقهقر فى أرض أسبانيا حتى أصبحوا لا يسيطرون إلا على منطقة أوسع بقليل من رأس جسر (جاديس Gades) وفى أسبانيا كانت تتوفر الفرصة لقرطاجة لإحياء قوتها وتجديد صراعها مع روما .

أما من جانب روما فقد واجهت هى أيضاً مشكلات عويصة فى نهاية الحروب البونية الأولى . ولم تكن أية مشكلة من هذه المشكلات أكثر إلحاحا من مشكلة ضرورة التوصل إلى شكل مناسب من أشكال الحكم للمنطقة التى آلت إليها، نتيجة للحملات الأولى التى قامت بها فيما وراء البحار . وقد نشأ عن توسع روما فى إيطاليا تكوين حلف كبير يضم المواطنين الرومان والحلفاء الإيطاليين . وانتشر هذا الحلف فى كل أنحاء شبه الجزيرة وقد يكون من الممكن من الناحية النظرية ، أن يمتد هذا النظام عبر مضيق صقلية ، ولكن كانت هناك أسباب عملية قوية لاتباع روما سياسة أخرى ،

إذ كانت المشكلة التى تتطلب حلا عاجلا هى كيفية التعامل مع ما كانت تمتلكه قرطاجة من مستعمرات قبل هذا الوقت فى الجزء الغربى من الجزيرة ، فبعض هذه المستعمرات يقطنها شعوب متخلفة من أهالى صقلية ، والبعض الآخر مستوطنون قرطاجيون ولكن كلهم على السواء كانوا فى وقت ما خاضعين لقرطاجة ويدفعون الجزية لها . والمشكلة الآن هى أن روما لم تكن تطالب حلفاءها بالجزية بل بالخدمة فى الجيش الرومانى ، وهذه المجتمعات الأجنبية من أهالى صقلية لا تستطيع بالتأكيد أن تقوم بهذا المطلب ، بل قد لا يكون من الإنصاف أن ننتظر منهم القيام به . وكان من الأيسر أن تتركهم روما يدفعون الجزية ، لكن هذه المرة لروما فقط ، لا لقرطاجة . وبالطبع كان على روما أن تقوم بإدارة هذه المنطقة كلها وبالفصل فى القضايا القائمة بين الأفراد ، كما كان عليها أيضاً أن تقوم بجمع الجزية . ولكن كان أمامها فى متناول اليد أمثلة تحذو حذوها ، فقد كان الموظفون الرسميون الذين يتمتعون بسلطة (البريتور مسئولين عن الفصل فى القضايا القائمة بين الحلفاء الإيطاليين ، بينما كان على الكويستوريس النظر فى المسائل المالية . وعلى ذلك ، كان من الطبيعى إيفاد بريتور) ليدير شئون الحكم ، يزاول سلطته (وهى سلطة الإمبريوم imperium) داخل منطقة (Provincia) غرب صقلية ، وكان يساعده كوريستوريس) فى المسائل المالية كما التفت حوله أيضاً حاشية صغيرة من المساعدين . حدث ذلك فى عام ٢٤١ ق م . وتبعاً لذلك أصبح غرب صقلية أول ولاية رومانية ، بينما استمرت مملكة سيراكوزة لوقت ما خارجة عن نطاق هذه الولاية ، وقد طبق نفس النظام — بعد قتال عنيف — فى (كورسيكا) ، و (سردينيا) اللتين تم إضغامهما فى ولاية واحدة عام ٢٢٧ ق م .

وعندما أدمجت روما مملكة (سيراكوزة) فى عام ٢١١ ق م . فى ولاية صقلية أصبح الموقف جديداً فى بعض نقاطه . ذلك لأنه كانت توجد فى هذه المنطقة مدن يونانية قديمة العهد على رأسها (سيراكوزة) نفسها ،

أعظم مدينة ليونان الغرب . وتعتبر النظم الفعالة المتبعة فى جمع الضرائب، إحدى دلالات الحضارة الراقية ، وقد كان لسيراكوزة أحدثها فى العالم الهلينستى ، تكلم عنه (شيشرون) بإعجاب بعد هذا التاريخ بمائة وخمسين عاماً . وكان (هيرو Hiero) ملك (سيراكوزة) هو الذى خطط هذا النظام . على نسق نظام مصر البطلمية ، حيث كانت كل الأراضى مقاطعة ملكية وكل سكانها خاضعين للملك . وعلى ذلك كانت الضرائب من نصيب ملك (سيراكوزة) بكل ما تشمله من العشر المفروض على محاصيل الحصاد والريع الناتج عن أرض المراعى والخمسون فى المائة من ضرائب الموانى . وقد اشتهرت مجموعة القوانين هذه بعدالتها ومرونتها . ولكن ما هو طبيعى أكثر من هذا هو أنه كان على روما أن تتولى تطبيق هذا النظام وأن تدمج مملكة (سيرا كوزة) فى ولاية صقلية ! ! وهكذا جاءت العاقبة الخطرة من جراء ذلك ، إذ كانت أول شعوب تقطن وراء البحار تطالب روما بحكمها : أولا شعوب غريبة على روما أو متخلفة تقطن غرب صقلية وسردينيا وكورسيكا . ثانياً : كانت خاضعة لملكية ذات سلطة مركزية محكمة . وقد نتج عن الوسائل التى اتبعتها روما تغيير جذرى فى طبيعة الدولة الرومانية ، إذ أصبح فى حوزتها الآن شعوب تخضع لها وأراض تحت سيطرتها تفرض عليها جزية تدفع لروما نفسها ، لا لأعضاء الحلف الرومانى الآخرين ، وهكذا اكتمل نظام تكوين حكومة لولاية — ظهر هذا النظام شيئا فشيئا ، وبصورة عرضية تماماً ، وبالنظر بعين الاعتبار إلى الماضى أكثر من المستقبل . وقد أصبح لهذا النظام آثار بعيدة المدى على روما ، بل وعلى عالم البحر المتوسط .

ولم يقصر توسع روما خلال هذه السنوات على ما اكتسبته من أراض من قرطاجة . فقد قامت بسلسلة من الحملات فى « ليجوريا Liguria » وبسطت نفوذها على الأراضى الواقعة وراء « بيزا Pisa » حتى جبال

الألب المارتيمية Maritime Alps ومرة ثانية كان يهدد إيطاليا فى ذلك الوقت عام ٢٢٥ ق م . خطر غزو « غالى » واسع ، تقريباً على نطاق الغزو الذى حدث منذ قرن . واضطرت روما إلى تعبئة جيش جرار . وقد قام هذا الجيش بسحق « الكلتيين Celts » فى موقعة « تيلامون Telamon » وكى تتفادى روما مثل هذه الأخطار فى المستقبل، واندفعت تجاه الشمال إلى بلاد الغال القريبة Cisalpine Gaul . وبدأت تقوم بسلسلة من أعمال التنسيق انتهت باختزال هذه الأراضى إلى ولاية ، وأقامت مستعمرات فى « بلاكنتيا Placentia » و « كريمونا Cremona » و « مودينا Modena » نشأت عنها مدن سهل لمبارديا الشهيرة . أما فى البحر الأدرياتيكى فإن نشاط القراصنة الذى كانوا يقومون به من قواعدهم الواقعة على شاطىء « دلماتيا Dalmatia » اضطر روما إلى اتخاذ خطوة إيجابية بشأن البحرية وإلى إنشاء قاعدة خاصة بها فى « أبيروس Epirus » وهى ألبانيا الحديثة ، جعلتها على اتصال دبلوماسى بمقدونيا وبلاد اليونان .

إن كل هذه الأحداث كانت تعنى تدعيم النفوذ الرومانى . لكن كان توسع قرطاجة فى أسبانيا أكثر إثارة للدهشة وكان المصمم الأول لمشروع هذا التوسع هو « هاميلكار باركا Hamilcar Parca » وقد يكون جديراً بالذكر حقاً أن نقص القصة الكاملة عن السنوات التسع التى قضاها حاكماً لأسبانيا ، إذ يبدو أنه فى مرتبة هؤلاء الرجال من أمثـــال « لواوتى Lyautey » كرجل يدير مستعمرة . بل وحتى إن عدوا لدوداً لقرطاجة مثل « كاتو الأكبر Cato the Elder » ليشير بإعجاب إلى ما قام به « هاميلكار » وإلى الذكرى الخالدة التى تركها وراءه ، وذلك عند زيارته لأسبانيا بعد نصف قرن من التاريخ . وكان يشترك مع « هاميلكار » فى مهمته هذه أعضاء مجلس قرطاجة الأوليجركى ، كما كان المواطنون القرطاجيون الذين يخدمون فى جيشه يجتمعون فيما يشبه تلك الاجتماعات

الشعبية — وهذا دليل واضح على الأهمية القصوى التى أضيفت إلى هذا المشروع . ومصالح قرطاجة قبل ذلك الوقت كانت تتركز فى « أندالوسيا Andalusia »ذلك بالإضافة إلى عاصمتها « جاديس Gades » (قادش الحديثة) المستعمرة القديمة وميناؤها الهام « مالاكا Malaca» (مالاجا الحديثة) وخط من المراكز التجارية ، وموانى الصيد على طول شاطىء الأطلنطى غرب خليج (جبرالتار Gibraltar) وكانت هذه البقعة هى أرض مملكة (تارتيسوس Tartessus) القومية القديمة التى عثر على ثروتها فى مناجم (سيرا مورينا Sierra Morena) الغنية . ولكن استحوذ القرطاجيون تحت إمرة (هاميلكار) على ولاية أخرى أكثر ثراء فى جنوب شرق أسبانيا بقاعدتها الرئيسية (اليكانتى Alicante) وتمتد هذه الولاية على طول الشاطىء حتى رأس (ناو Nao) وقد فتح القرطاجيون مناجم جديدة تنتج السلقون كما تنتج النحاس ، وطوروا من الزراعة وأنشأوا المدن ، والأهم من ذلك قاموا بتعبئة جيش جرار للمستعمرة من رجال القبائل الأسبانية . لقد كانت هذه المستعمرة وهذه التطورات تعتبر تضخماً فى نفوذ قرطاجة يبعث على الخوف ، ذلك لأن الجنود الأسبان كانوا دائماً جنوداً أكفاء — بل وكانوا فى بعض الأزمنة أكفأ جنوداً فى العالم . ولا غرابة فى أن روما وحليفتها ماسليا المدينة اليونانية قد أدركا هذا الخطر وأوفدا سفارة رومانية لتستطلع الحال هناك (فى عام ٢٣١ق م) وقد جاءتهم الإجابة المهذبة أنه قد تم القيام بكل هذه التطورات كى تضمن قرطاجة دفع التعويض الملزمة به فى الوقت المحدد !

إن شعور (هاميلكار) الصادق لتعبر عن هذه القصة تعبيراً أكثر دقة — سواء كانت حقيقية أو زائفة . ذلك أنه عندما اصطحب ابنه (هانيبال) معه من قرطاجة إلى أسبانيا جعل الصبى البالغ من العمر تسع سنوات يقسم على مناصبة روما عداء أبدياً . وعندما قتل هاميلكار فى

عام ٢٢٨ ق م . خلفه (هاسدروبال Hasdrubal) زوج ابنته ، وكان يمتلىء حيوية ونشاطا . فقد شرع فى غزو الهضبة الوسطى الشاسعة وأنشأ عاصمة جديدة رائعة لكل الولاية عند (نوفا كارثاجو Nova Carthago) أى قرطاجة الجديدة (وهى قرطاجنة الحديثة) . وفى عام ٢٢٦ ق م . عقدت معاهدة مع روما حددت نهر (أبرو Ebro) حداً نهائياً للنفوذ القرطاجى فى الشمال . وبعد خمس سنوات أغتيل (هاسدروبال) وخلفه (هانيبال) وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، ليصبح ثالث حاكم من عائلته ، بل وربما أعظم حاكم . فقد قام بحملتين عبر الهضبة الأسبانية وتوغل بعيداً حتى وصل إلى (سالامنكا Salamanca) ونهر (دورو Douro) وهكذا أصبح فى ذلك الوقت ثلثا شبه جزيرة أيبريا تقريباً تحت سيطرة قرطاجة من الناحية الاسمية على الأقل . كما أقام اتصالات دبلوماسية عبر جبال (البرانس Byrenecs) مع قبائل الغال التى كانت تهدد (ماسيليا) بل وإيطاليا نفسها . وعندما ناشدت إحدى المدن (روما) العون . وهى مدينة (ساجنتوم Saguntum) ، إحدى المدن الأسبانية القليلة التى تتمتع باستقلال ذاتى ، كان كلا الجانبين : الرومان والقرطاجيين ، يرحب بوجود ادعاء يستند إليه ليشعل نيران الحرب الطاحنة .

وهكذا جاء الوقت المناسب لمشروع (هانيبال الواسع) وأصبح فى مقدور قرطاجة الآن أن توفى بدينها لروما . إن خطط هانيبال العسكرية وسلسلة المعارك التى تكون فى مجموعها أروع نتاج هذه الخطط ، توضع بين روائع التاريخ الحربى ، كما يتمتع (هانيبال) بمكانة لا تتزعزع بين أعظم قواد العالم ، ومن دلائل عبقريته أنه كان فى استطاعته طوال هذه الفترة الطويلة أن يمتلك ناصية الهجوم على عدو يتمتع بموارد أكثر وفرة ، مثله فى ذلك مثل (روبرت . إ . لى Robert E. Lee) . وقد عبر المؤرخون

منذ عصر (بولوبيوس Polybius) عن إعجابهم بجرأة خطة هانيبال لنقله ميدان القتال إلى إيطاليا نفسها ، على الرغم من سيادة (روما) على البحر المتوسط وسيطرتها على صقلية وما تستطيع تعبئته من قوات جديدة جرارة من إيطاليا يقدر عددها بحوالى ٧٠٠,٠٠٠ جندى من جنود المشاة و ٧٠,٠٠٠ من الفرسان . ولكن وضع (هانيبال) فى حيز التنفيذ خطة درسها دراسة دقيقة واستغرق إعدادها فترة طويلة من الزمن . فبعبوره لجبال الألب سيكون بين قبائل الغال التى أخضعتها روما منذ وقت قصير فقط والتى تتحرق شوقاً إلى التخلص من القيود المفروضة عليها . لقد كان كل شئ بالطبع يتوقف على قدرته فى سحق الجيوش الرومانية فى أرض المعركة ، ولكنه كان واثقاً من هذا الأمر . . . ويحق له ذلك . وقد يتزعزع على الأقل تحالف روما مع (سامنيوم Samnium) و (أبوليا Apulia) بسلسلة من الانتصارات على الرومان . ولو أنه تمكن وهو فى جنوب إيطاليا من الحصول على إمدادات من قرطاجة فقد تسقط صقلية فى يده أو تقف على الحياد . وقد يؤدى نجاحه فى هذه الخطط إلى إدخال مقدونيا فى الحرب ، عندئذ يمكنه أن يهاجم (روما) من ثلاث جهات وقد يدمرها ، أو على الأقل يفقدها زعامتها لإيطاليا .

كانت هذه هى الآمال التى على ضوئها ترك (هانيبال) قرطاجة الجديدة فى أبريل عام ٢١٨ بجيش قد يصل تعداده إلى أربعين ألف جندى . وما إن انتصف شهر أغسطس حتى كان قد وصل إلى منطقة الرون ، وأرسل الرومان إلى هذه المنطقة جيشاً تحت إمرة قنصل هو (بوبليوس سكيبيو Publius Scipio) ليعوق طريق تقدم هانيبال . ولكن الجيش (البونى) تحرك نحو أعالى النهر واختفى عن الأعين . ورأى بوبليوس ما حدث بعينه — فقد كان هانيبال يعبر جبال الألب ، وفى الحال أرسل بوبليوس جيشه إلى أسبانيا ليشتت من خطوط اتصالات البونيين — وهذا

قرار حكيم فى حد ذاته كانت له فوائد جمة عادت على روما . ثم أبحر (بوبليوس نفسه ليواجه هانيبال فى شمال إيطاليا . والطريق الذى سلكه هانيبال عند عبوره لجبال الألب قد أثار جدلا تضاربت فيه الأقوال منذ زمن المؤرخ (بولوبيوس) حتى يومنا هذا ، وقد أتاح هذا الجدال الفرصة أمام العلماء المهتمين بالوصول إلى رأى ليقوموا بكثير من الرحلات الممتعة . وأكثر الطرق احتمالا قد تكون ممرات جبل (كنيس Cenis) وجبل (جينفر Genèvre) . وفى أواخر شهر سبتمبر قاد (هانيبال) جيشاً قد أضناه الجهد وانكمش عدده إلى سهل (البو Po) وحاول (سكيبيو) ، وهو محق فى ذلك ، أن يشتبك معه فى قتال قبل أن يتمكن من استعادة قوته فخرج الرومان بأسوء معركة حاربها الفرسان عند نهر (تيكينوس Ticinus) وبعد مرور بضعة أسابيع انهزموا هزيمة منكرة فى معركة (تربيا Trebia) وذاقوا مرارة الكوارث التى تنذر بها قدرات هانيبال فى رسمه للخطط العسكرية . وانتصر هانيبال حينئذ فيما يطلق عليه (معركة وادى البو) لأن القوات الرومانية كانت قد انسحبت إلى ماوراء جبال الأبنين لتنتظر القيام بحملة عام ٢١٧ ق م . بينما تركت (كريمونا) و (بلاكنتيا) ليقاوما الحصار ، وقد صمدا طوال فترة الحرب .

لقد أنزل الرومان إلى الميدان مالا يقل عن إحدى عشرة فرقة لهذا العام ، فقد أرسلت فرقتان إلى أسبانيا ، وفرقتان إلى صقلية وأربع فرق تحت إمرة القائدين القنصلين الجديدين « سيرفيليوس جمينوس Servilius Geminus » و « جايوس فلامينيوس Caius Flaminius » لتسد الطريق المؤدى إلى روما . واضطر هانيبال إلى عبور جبال الأبنين سالكا الممر المستخدم الآن فى السكك الحديدية من بولونيا إلى « فلورنسة » . وقد قاسى من تساقط الجليد فى الجبال حتى شهر مايو ، ومن الفياضانات فى وادى نهر « أرنو Arno » وكلما كان هانيبال بعيداً عن روما كان

ذلك فى صالح الرومان لكن فلامينيوس لم يكن كفؤا لهانيبال الذى أغواه إلى الوقوع فى كارثة على شواطىء بحيرة (تراسمينى Trasimene) . ففى صبيحة يوم مشبع بالضباب دخل الجيش الرومانى إلى الأرض المسطحة الواقعة بين البحيرة والتلال . وكان هانيبال يختفى فوق هذه التلال . وعندما أصبح الجيش كله داخل هذه البقعة ، وقع فى الشرك ، وحوصرت القوات الرومانية ، وقد فقدت فرقتين بقائدهما . لقد كانت كارثة لا يمكن التنكر لها ، وكانت الكلمات التى جاءت بالأنباء إلى روما هى (لقد انهزمنا فى معركة جليلة) . وقد كان أمام كلتى الجهتين أمور كثيرة تتعلق بالطريقة التى سارت عليها الحرب ليمعنا النظر فيها . فبالنسبة إلى روما كان من الواضح أن مواجهة هانيبال فى الوقت الراهن لا أمل فيها . وهانيبال القرطاجى من ناحية أخرى ، وجد نفسه عاجزاً عن الاستيلاء على مدينة ذات قوى دفاعية حصينة ، كما لم يكن قد انضم إليه حتى ذلك الوقت أى حليف إيطالى . وقد لا تعود عليه أية فائدة من احتلاله لوسط إيطاليا . فاستغل الانتصار الذى أحرزه ليتحرك جنوباً على طول طريق (فلامينيوس) حتى وصل (أبوليا) وأصبح جنوب إيطاليا منذ ذلك الوقت قاعدته الرئيسية خلال الفترة الباقية من الحرب .

ولم تتح لروما مثل هذه الحرية فى القيام بالمناورات ، فأولا يجب تغيير الأوضاع فى الدولة تماماً بما يتناسب مع حالة الحرب ، ومن أجل هذا الهدف عادوا إلى الوسيلة القديمة وهى تعيين دكتاتور . ووقع اختيار الحزب الأرستقراطى على (كوينتوس فابيوس ماكسيموس Quintus Fabius Maximus) . إلا أن هذا الحزب لم يكن قد اندمج بكل حواسه فى حالة الطوارىء التى تعم البلد . فبدلا من أن يترك لفابيوس حرية اختيار قائد لفرسانه ، فرضوا عليه (مينوكيوس Minucius) وهو مرشح من قبل الديمقراطيين ، ولكن فابيوس بدأ على الأقل تطبيق سياسة

حربية تستند على حقائق الموقف ، فمواجهة هانيبال فى أرض المعركة شيء مستحيل ، ولكن من الممكن الإغارة عليه ، وقطع المئونة عنه ، وقد يعمل الزمن فى صالح روما . لقد كانت هذه السياسة هى سياسة الحرب التى اتبعها الروس ضد نابليون عام ١٨١٢ وهذه السياسة أكسبت فابيوس صفة (المعطل Cunctator) كما أن جملة (تخطيطات فابيوس العسكرية Fabian tactics) أصبحت اصطلاحاً منتشراً تماماً فى عصرنا الحديث . ولكن تطبيق مثل هذه السياسة كان يتطلب إتباع نظام صارم مع أنها طبقت طوال الفترة الباقية من عام ٢١٧ ق م . وكانت القوات الرومانية تراقب الموقف بغضب لا حول له ولا قوة، بينما كان هانيبال ينشر الدمار فى أرض (كمبانيا) الخصبة . وعندما لم يمس هانيبال مقاطعات (فابيوس) وأصدقاءه بأى سوء ، تلبد الجو بالغيوم ولكن عندما قفل راجعاً إلى إقليم (أبوليا) عبر الجبال مستخدماً حيلة لم تخدع فابيوس قط ، بل جعلته يبدو مغفلا ، أصبح من المحال تحقيق أى نجاح . وتحت زعامة (مينوكيوس Minucius) فاز الديموقراطيون بانتخابات القنصلة لعام ٢١٦ وذلك بسياستهم التى تنادى بمواجهة (هانيبال) وهزيمته فى (أبوليا) ، وعلى ذلك تحرك جيش رومانى جرار فى شهر أغسطس من نفس العام تحت إمرة القنصلين (جايوس ترنتيوس فارو) و (لوكيوس أيميليوس باولوس) واشتبكا مع هانيبال فى ميدان قتال اختاره هو — ليكون أرضاً يضرب فيها ضربته القاصمة . إن معركة كناى Cannae تعتبر المثل الأعلى للنصر الساحق ، فقد كانت أشنع كارثة منيت بها روما ، قتل فيها خمسة وعشرون ألف جندى ، ووقع فى الأسر خمسة عشر ألفاً . أما (فارو) فقد تمكن من الهرب مع عشرة آلاف جندى . وكانت السنوات التى تلت معركة كناى أحلك سنوات الحرب بالنسبة لروما : فقد تخلت (سامنيوم) وأبوليا عنها ، واستطاع هانيبال أن يسيطر على (كابوا Capua) ثانى مدينة فى إيطاليا بعد روما ، كما تم عقد تحالف بين (هانيبال) وفيليب ملك مقدونيا .

والأسوء من ذلك مات «هيرو» ملك سيراكوزة وتمكن وكلاء هانيبال من ضم خليفته الشاب إلى جانبهم وظهر أسطول قرطاجى فى ميناء سيراكوزة ، وعلى ذلك فقدت روما أعظم مدينة يونانية فى غرب البحر المتوسط ، ذلك بالإضافة إلى احتمال ضياع صقلية كذلك .

ولكن كان حلفاء وسط إيطاليا ما يزالون أوفياء ، وكانت روما تواجه مشاكلها بروح لا يشوبها الخوف . فعندما عاد « ڤارو » من هزيمته المفجعة تسلم قراراً رسمياً يشكره « ذلك لأنه لم يفقد أمله فى الجمهورية » بل وحتى استخدمته روما مرة ثانية ولاقى نجاحا باهراً . وفى نفس الوقت وبعزيمة من حديد ، بدأت روما تستخدم ما لها من مزيتين ، هما الزمن ، وكثرة العدد . فقد تم تعبئة خمسة وعشرين فرقة ، وطبقت تكتيكات « فابيوس » العسكرية بصورة جدية . وقام شريط من الجيوش التى يسهل تحركها بعزل هانيبال فى جنوب إيطاليا كما قامت قوة هائلة تحت إمرة « ماركللوس Marcellus » بضرب الحصار حول « سيراكوزة » . وضربت حلقة مزدوجة من الجيوش الرومانية الحصار حول « كابوا » وعسكرت هناك حتى تميتها جوعا . ولم يكن فى وسع أى قوة أن تحل التفافة هذا الثعبان من حول المدينتين . وكان لسيراكوزة أقوى التحصينات فى العالم القديم ، ومن حقها أن تسترعى انتباه عبقرية العالم الرياضى العظيم والمهندس « أرشميدس Archimedes » ولكنها سقطت فى يد « ماركللوس » — بعد حصار دام عامين ونصف عام . ولكى يرفع هانيبال الحصار المضروب حول « كابوا » قام بزحف من « كابوا » إلى أبواب روما نفسها ولكن الرومان لم يتملكهم الخوف ، بل أقاموا « مزاداً علنيا » يبيعون فيه الأرض التى قام عليها معسكره وقد وصل ثمنها حقاً إلى سعر مرتفع ، ولكن لم يترك أى جندى من جنود الرومان « كابوا » . وفى عام ٢١١ سقطت كل من « كابوا »

وسيراكوزة ورجحت كفة الميزان أخيراً فى صالح روما على المسرح الإيطالى فى الحرب .

ولكن فى نفس الوقت جاءت الأخبار من أسبانيا تحمل نبأ وقوع كارثة فقد قامت الجيوش الرومانية فى أسبانيا ، تحت إمرة الإخوة سكيبيو بأروع حملات لم يأت مثلها منذ عام ٢١٨ ق . م . فهم لم يمنعوا فقط وصول الإمدادات «لها نيبال» بل عبروا نهر « أبرو » وشنوا الحرب على العدو . ولكن كان من الممكن إرسال الإمدادات من قرطاجة إلى أسبانيا بصورة أيسر من أرسالها من روما، وقد سمح الأخوان « سكيبيو » لجيوشهما بالانتشار فأبيد كلاهما . وكان لا بد من العثور على خليفة لهما فتطوع الشاب « بوبليوس كورنيليوس سكيبيو » Publius Cornilius Scipio

ومثل هذا الاختيار كان له أن يغير من مجرى الحرب لأن هذا الشاب كان حقيقة أول قائد رومانى قدير . وهناك أوجه شبه شيقة بين سيرة حياة « سكيبيو » وبين منافسه العظيم « هانيبال » فقد تولى سكيبيو أيضاً قيادة لها شأن كبير وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ليحقق انتقاما يليق بعائلته . كما كان على ثقة تامة بخبرته فى فنون الحرب ، وكان مثله الأعلى فى هذا الميدان هو « هانيبال » لا « فابيوس ماكسيموس المعطل » وعندما وصل « سكيبيو » إلى أسبانيا قام بهجوم جرىء على « قرطاجة الجديدة » وكتب له النجاح فيه ، وهذه البلدة كانت قاعدة البونيين الرئيسية . وبعد فترة قصيرة انتصر فى أول معركة كبرى حاربها فى « بايكولا Baecula » ضد « هسدروبال » « شقيق » « هانيبال » الذى كان قائداً محنكا أقام عظمته اعتماداً على نفسه . ولم يصبح أمام قرطاجة إلا أملا واحداً فقط فى إحراز النصر — ألا وهو إرسال الإمدادات . « لهانيبال » الذى أقام معسكره فى إيطاليا . وفى مايو ٢٠٨ق م

نزل جيش « بونى » أخر تحت إمرة « هاسدوربال » إلى سهل البوسالكا ممرات الأبنين . وقد أثار هذا الجيش فى النفوس ذكرى غزو عام ٢١٨ الكثيبة ، مثلما أثار الاعتداء الألمانى على « أردنيس Ardennes » عام ١٩٤٤ ذكرى الهجوم المخيف الذى حدث عام ١٩٤٠ . ولكن دخلت الحرب مرحلة جديدة واتخذ الرومان إجراء إيجابياً سريعاً وجريئاً ردا على هذا الزحف. فقامت أربع فرق بقطع الطريق المؤدى إلى الجنوب على «هاسدروبال» عند نهر (ميتاوروس Metaurus) وزاد من قوة هذه الفرق الجنود الذين سحبهم (كلوديوس نيرو Claudius Nero من القوات التى كانت تقوم بتغطية هانيبال وقادهم فى زحف مسلح قطع ٢٤٠ ميلا فى ستة أيام . وأحرزت القوات الرومانية نصراً مبيناً بعد أن توحدت صفوفها ، وكانت هذه هى أول هزيمة منكرة لجيش قرطاجى فى أرض إيطاليا . ولم يعلم هانيبال بأمر هذه الهزيمة إلا بعد مرور عشرة أيام عندما ألقيت رأس أخيه (هاسدروبال فى معسكره . فانسحب إلى (بروتيوم Bruttium) آخر قاعدة حصينة يسيطر عليها فى إيطاليا .

وما بين عامى ٢٠٨ و ٢٠٦ ق . م قام (سكيبيو) بسلسلة من الحملات طوى فيها الجيوش القرطاجية المعسكرة فى أسبانيا طيا . ثم عاد إلى روما بعد ذلك لكى ينتخب قنصلا لعام ٢٠٥ ق . م ويعرض خطته الجريئة . وكانت هذه الخطة تتضمن القيام بحملة إلى أفريقيا قد تؤدى إلى القضاء على قرطاجة وتضع حدا لهذه الحرب . ولكن (فابيوس) عارض هذه الخطة إذ كان ما يزال يعتقد أنه يحارب السنوات الأولى من الحرب أو ربما قد تذكر مصير (ريجولوس). وأبحر (سكيبيو) ليقوم بحملته العظيمة على الأرض الأفريقية بجيش صغير تم إعداده بدقة من الجنود المتطوعين .

وخلال عامين (٢٠٤ و ٢٠٣) من الحرب والمناورات الدبلوماسية أجبر (سكيبيو) قرطاجة على عقد هدنة أو أصبحت على وشك عقد الصلح ،

لكن حزب الحرب في قرطاجة كان ما يزال نفوذه قويا ولم يكن أمامه إلا مخاطرة واحدة — ألا وهي استدعاء (هانيبال) من إيطاليا . وهكذا بعد خمسة عشر عاما قضاها هانيبال في إيطاليا قاد القائد العظيم جنوده القدامى عائدا إلى أفريقيا ليواجه آخر دورة من هذا الصراع .

وفي (زاما Zama) في خريف عام ٢٠٢ التقى قائدان من أعظم قواد عصرهما وجها لوجه. ولا مفر من مقارنة هذه المعركة بمعركة (واترلو Waterloo) وبعد معركة طاحنة طالت يوما بأكمله انهزم القائد المحنك العجوز على يد منافسة الشاب هزيمة ألغت كل روائع انتصاراته . ولم يصبح أمام قرطاجة الآن سوى أن تطلب الصلح .

كان لا بد أن تكون شروط الصلح قاسية ، فلم تكن روما لتغامر وتعطى الفرصة ليتجدد الخطر الذى فلتت منه بصعوبة . فتخلت (قرطاجة) عن بحريتها وعن ممتلكاتها الواقعية وراء البحار وفرضت روما عليها تعويضا هائلا عن الحرب ، ولم تحتفظ قرطاجة إلا بأراضيها الواقعة في أفريقيا ، ووضعت روما (ماسينسا Masinissa) ملك (نوميديا) على حد ود قرطاجة لكونه حليفا للرومان ، وهكذا قطعت قرطاجة الأمل في أن تصبح دولة قوية في حوض البحر المتوسط. كما آلت مكانتها في أسبانيا وفي الغرب إلى روما .

لقد مزقت آثار الحروب البونية كل بنيان حياة روما الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . وكانت هناك قبل كل شىء خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات . وإذا أردنا استخدام تعبير حديث نعبر به عن هذا الوضع فإننا نقول : لقد اندفع محراث الحرب المتوهج في أرض إيطاليا الجميلة . ولكن اندفع هذا المحراث في الحروب البونية الثانية خاصة جيئة وذهابا بحركة بطيئة تبعث على الألم طوال خمسة عشر عاما . لقد وصلت

أعمال التخريب إلى حد البشاعة وخاصة فى جنوب إيطاليا : حتى إن البعض يعتقد أنه ما يزال من الممكن رؤية آثار هذا التخريب حتى الآن، فنحن نسمع عن أربعمائة قرية قد محقت تماما من « أبوليا » أثناء القتال الذى دار بعد معركة « كناى » وعند الاستيلاء على « تارنتم Tarentum » تم بيع ثلاثين ألفا من سكانها كعبيد . وكانت المزارع هى التى تمد الجيوش الرومانية بالرجال ليلقوا حتفهم بالآلاف فى « تراسيمينى » و « كناى ». أما هؤلاء الرجال الذين حاربوا فى المعارك التالية وقاموا بحملات أحرزت الانتصارات فقد عادوا ليجدوا مساحات شاسعة من الأراضى قد اختفت تماما عن العالم المتحضر، فقد دمرت أبنية المزارع وقتلت الحيوانات التى كانت تربى فيها — وبهذه الصورة فقدوا كل ما توفر لهم من رأس مال . وقد يفتقر الكثيرون للوسائل أو للرغبة فى مزاولة الزراعة مرة أخرى، وقد يتدفقون على المدن — لا سيما روما — ليزيدوا من جموع فقراء المدينة التى كانت تعتمد فى حياتها على راع ثرى أو على الدولة ولكن كما هو مألوف عادة ظهر بعض الرجال الذين خرجوا من عقد الصلح بفوائد جمة. فقد تكونت ثروات ضخمة من جراء إبرام عقود الحرب وأصبحت هناك فى روما ، لأول مرة طبقة من رجال الأعمال الأثرياء . وكما حدث فى فترة ما بعد الحرب العالمية ، سنحت الفرص المغرية لمن يملك رأس مال لجلب الأرباح وخاصة من شراء أو تأجير أراضى الدولة العامة (ager publicus) وكانت قد زادت مساحاتها زيادة هائلة نتيجة لمصادرة أراضى الجماعات المتمردة من سكان جنوب إيطاليا . وكان سعر الأرض فى انخفاض مستمر ، والأيدى العاملة متوفرة بأجور زهيدة وكانت تقوم بزرع هذه الأراضى ، وتتمثل هذه القوى العاملة فى العبيد الذين جلبتهم الحروب فى أفريقيا وأسبانيا وبلاد الغال القريبة، بل ومن إيطاليا نفسها، وأصبحت أرض المراعى — لا الأرض الزراعية — هى محور الاهتمام حينذاك — فالماشية والأغنام كانت تربى فى المزارع الشاسعة التى كان يقوم بالعمل فيها جماعات من العبيد . كما كان

من الممكن جمع ثروة من الكروم أو من زراعة المشاتل أو الزيتون وذلك بالنسبة للمقاطعات الصغيرة حيث كان يترك « ناظر العزبة » وزوجته فيها ليتولى الإشراف على الأيدى العاملة المكونة من خمسة وعشرين إلى خمسين عبدا ، بينما يقوم المالك بجولات تفتيشية حتى يتحقق من أنهم لم يخدعوه . هكذا كان حال الريف كما صوره « كاتو » فى مقالة « عن الزراعة De Agricultura » التى كتبها حوالى عام ١٦٠ ق . م . وهكذا اختفى نظام المزرعة الصغيرة من أجزاء واسعة فى إيطاليا وخاصة من « أبوليا » ولاتيوم « وأتروريا » ، أما النتائج الاجتماعية لهذه الحرب فقد كانت ذات أثر بعيد المدى . فما أن مر جيلان على هذا الوقت حتى أدت إلى قيام الانقلاب الهائل الذى حدث فى زمن الأخوين « جراكى Gracchi » . أما فى مجال السياسة فقد أدت الحروب إلى تدعيم مركز مجلس الشيوخ تماما وانطفاء نجم الحزب الديمقراطى ، إذ كان زعمائه السياسيين سجل مشين فى الحروب ذلك لأنهم كانوا مرتبطين بسياسة التهور التى أدت إلى مصير مشئوم وإلى وقوع كارثة « تراسيمينى » و « كناى » ، بينما أخرجت قريحة مجلس الشيوخ كلا من سياسة « فابيوس » الدفاعية وهجمات سكيبيو الرائعة . وفى الواقع أدى تماسك مجلس الشيوخ وشجاعته إلى تطبيق نظام التوجيه المركزى الذى يعتبر عاملا جوهريا لنيل النجاح . والحروب لا تكون فى صالح المناقشات التى تدور فى الجمعية الشعبية ، بل هى تدعم من مركز السلطة التنفيذية فقط ، وفى روما كانت السلطة التنفيذية تعنى مجلس الشيوخ . وعلى ذلك فإن نصف القرن من ٢٠٠ — ١٥٠ ق . م كان بالذات فترة سيادة مجلس الشيوخ وذلك بالإضافة إلى وجود حلقة داخلية فيه تحتكر المناصب العليا احتكارا فعليا . فمن القناصل الذين تم انتخابهم بين عامى ٢٤٣ — ١٤٣ ق . م كان نصفهم من عشرة عائلات فقط ، بينما كان أربعة قناصل من خمسة من ستة وعشرين عائلة . إن انجلترا نفسها فى القرن الثامن عشر لم تكن أوليجركية بهذه الصورة .

ولـكن أهم ماجد من تغييرات هو ذلك الذى جد على وضع روما بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط . فقد انتصب صنم جديد شامخ فى الغرب، وخلال عشرين عاما من موقعة زاما ، كانت روما قد كسرت إلى الأبد قانون ميزان القوى الذى دام بقاؤه فى العالم الهلينستى أكثر من قرن . وما أن مر خمسون عاما حتى كان النظام الذى تتبعه روما فى إقامة الولايات قد امتد من أسبانيا حتى آسيا ، وأصبحت روما دولة كبرى ذات نظام إمبراطورى وقدر لها أن تبقى طوال الفترة الباقية من تاريخها على هــــذا النظام . ومع ذلك لم تأت الإمبراطورية إلى الوجود عن طريق اتباع أى سياسة استعمارية متعمدة ولاعن طريق إدراك روما نفسها لمصير هى عليمة به . كما أن مجلس الشيوخ لم يكن لفترة طويلة راغبا فى تأييد فكرة امتلاك أراض عبر البحار وخاصة فى شرق البحر المتوسط . ولم تسحب روما جيوشها من مقدونيا إلا فى وقت متأخر عام ١٦٨ ق . م وقسمت مقدونيا إلى أربع جمهوريات مستقلة . ولـكن شاهدت هذه الفترة ظاهرة أخرى من ظواهر السياسة الرومانية أكثر بشاعة ، تبلورت هذه الظاهرة فى التدمير الوحشى الذى تم عام ١٤٦ ق . م . « لكورنته » و « قرطاجة » وليس هناك مجال للشك فى أن روما استحوذت على ولايات أفريقيا (١٤٦ ق . م ، ومقدونيا (١٤٨ ق . م) وآسيا (١٤٩ ق .) لما قدتجلبه هذه الولايات لروما من فوائد .

كانت هذه الفترة من أهم الفترات الحاسمة فى « تاريخ الغرب » ومن حسن الحظ أن لدينا تقريراً عن هذه الفترة كتبه رجل يتمتع بمزايا لا يتمتع بها أحد وسنحت له فرص فريدة مكنته من متابعة مجرى الأحداث — ذلك الرجل هو « بولوبيوس Polybius » المؤرخ اليونانى . كان « بولوبيوس » مواطنا من بلدة « ميجالوبوليس Megalopolis » وقد لعب دورا رئيسيا فى شئون الحلف « الأخى » السياسية من عام ١٨٣ — ١٦٨ ق . م . ثم

أبعد إلى « روما » مع ألف رجل من مواطنيه بسبب الدور المثير للشكوك الذي قام به الحلف الآخى خلال الحرب المقدونية الثالثة . وبفضل صداقته بأيميليوس باولوس وفيما بعد « بسكيبيو ايميليانوس » اطلع على خبايا شئون السياسة الرومانية وكان حاضرا أثناء وقوع هذه الأحداث الهامة ، مثل الاستيلاء على قرطاجة وتدمير « كورنته » . والمهمة التى أخذها « بولوبيوس » على عاتقه — والتى لم يكن ليصلح لها تماما أى رجل غيره من رجال عصره — هى تفسير ظهور روما لليونان والرومان على السواء. وآراؤه الخاصة بوظيفة ، التاريخ ، قد أنارت الطريق أمام من يقرأ كتابه . ففى رأيه أن الغرض من التاريخ ليس تكديس ذرات من غبار على أرفف مكتبه ، بل يجب أن يكون التاريخ عمليا فهو معلم رجال الساعة ، وكان « بولوبيوس » يكتب لساسة الدولة . وقد اعتبر هزيمة المقدونيين على أيدى الرومان فى « بودنا Pydna » عام ١٦٨ فى . م حادثة حاسمة. وما إن جاء هذا التاريخ حتى اضطر الجميع إلى الاعتراف بأنه ليس أمامهم شىء فى المستقبل سوى التسليم بسيادة الرومان وإطاعة أوامرهم .

ولكن لابد وأن إنجاز مثل هذه الأعمال كان يبدو بعيد المنال فى عام ٢٠٠ ق . م . فقد كان الطابع الدبلوماسى الذى سار عليه العالم الهلنستى يبدو وقد رسخ وجوده لأكثر من قرن . كما كانت هناك ثلاث دول قوية : مقدونيا ، سوريا ، ومصر : وهى الدول التى خلفت إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الممتـــدة من البحر الإدرياتيكى حتى « البنجاب Punjab » وأى ملك قدير أو طموح من ملوك هذه الدول قد يعتبر نفسه الوريث الشرعى « للإسكندر » ويحاول استرداد تركته . وقد حاول الكثيرون بالفعل ولكن لم يوفق أحد منهم . وقد تم إحياء هذه الإمبراطورية العالمية لا على يد أحد منهم ، بل على يد روما نفسها ولكن تم ذلك بتحويل مركز الثقل إلى إيطاليا وتحقيق مكاسب فى الغرب لتعويض ما فقدته من أراضى شرقى نهر اليوفراتيس Euphrates «الفرات».

وهناك اختلافات متباينة بين هذه الممالك الهلينستية الثلاث. وربما كانت مقدونيا أعلاهم مكانة بوصفها موطن الإسكندر والفيلق، ذلك الفيلق الذى بفضله قام الإسكندر بغزو العالم. وكانت نواة قوتها تكمن فى مملكة البلقان القديمة — حيث كانت سهول مقدونيا فى إمكانها أن تعول عددا كبيرا من السكان. كما كان بها أيضا مناجم ذات أهمية قصوى للفضة والذهب والنحاس والحديد. ومن هذه المنطقة الحساسة الهامة انتشر نفوذ مقدونيا على أراضى القمح والكروم الغنية فى «تراقيا» وبعض جزر شمال بحر إيجه. أما فى الجنوب فقد كان سلطانها يتأرجح فى كثير من الأراضى اليونانية وكانت تزاول هذا السلطان منذ أيام فيليب. وبعد أن انطفأ نجم قرطاجة، أصبحت مقدونيا أقرب مملكة قوية لروما، ويحتمل أن تكون مصدرا للخطر عبر بحر الإدرياتيكى كما دل على ذلك التحالف بين «هانيبال» و«فيليب» الخامس.

أما فى مصر فقد خلفت سلالة البطالمة اليونانية الفراعنة الذين كانوا من أهل البلدة نفسها واستغلت هذه السلالة الموارد الطبيعية الغنية لوادى النيل بتطبيقها نظام حكم بيروقراطى على درجه عالية من التنظيم. وكانت الأرض تكتظ بالسكان، ذات إنتاج وفير من الحبوب، غنية فى ذهبها ونحاسها وحديدها ذلك بالإضافة إلى سلسلة هائلة من المبانى الحجرية والرخامية. وتجارة أوراق البردى التى تحتكرها مصر كانت مصدرا هاما من مصادر الدخل، إذ كانت مصر تمد العالم بالبردى وهو أكثر مواد الكتابة استخداما وانتشارا فى ذلك الوقت. وكانت مدينة «الإسكندرية» ذات الأجناس المتعددة أعظم مدينة وميناء فى العالم كما كانت أيضا المركز الرئيسى للحضارة، شهيرة بمكتبتها ومتحفها الذى كان عبارة عن مؤسسة للبحث العلمى تضم الباحثين والعلماء لكن لم تكن مصر قادرة على الاحتفاظ بمركزها فى مجال النفوذ العالمى. ففى أثناء حكم بطليموس ابيفانيس الخامس Ptolemy V Epiphanes (٢١٠ — ١٨٠ ق. م) فقدت مصر كل ممتلكاتها

الواقعة خارج أفريقيا عدا قبرص ، وبدأت مصر مرحلة تدهور تميزت بظهور الحكام الضعاف والخلافات بين أفراد العائلة المالكة . وقد كانت نقطة الضعف هذه بالذات السبب فى أن مصر كانت آخر من وقع تحت سلطان روما من الممالك الهلينستية .

أما سوريا فقد كان يحكمها ملوك أسرة سليوكوس Seleucus من عاصمتهم « أنتيوخ » الواقعة على نهر أورونتس Oronates وكانت أكثر الممالك الثلاث اتساعا وأكثرها احتواء على أجناس متعددة، إذ تقع سوريا عند مفترق طرق المرور بين أوربا وآسيا وأفريقيا حيث كانت تستخدم طرق القوافل الكبيرة فى نقل البضائع من الهند ومن بلدان الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط عبر الصحراء . وكان من الممكن أن يكون هذا الموقع مكانا مناسبا للسيطرة منه على العالم ، ولكن الميول الانفصالية فى الولايات القومية القديمة الواقعة وراء نهر « اليوفراتيس » كانت دائما هى نقطة الضعف فى حكم ملوك أسرة (سليوكوس Seleucus) . وحقيقة أن النفوذ اليونانى أثناء حكم الملك أنتيوخوس الثالث (٢٤١ — ١٨٧ ق . م) قد أعيد بسطه على معظم أجزاء هذه المملكة الشاسعة على أسس أقوى مما كانت عليه فى أى وقت منذ عصر الإسكندر الأكبر ، ولكن لم يقدر لإحياء النفوذ هذا أن يدوم .

وفى وسط هذه الممالك الثلاث كان هناك عدد من دول الدرجة الثانية استطاعت أن تحافظ على استقلالها . فقد كانت جمهورية « رودوس » Rhodes البحرية تزاول حركة تجارية نشطة فى غرب البحر المتوسط فى القرن الثالث ق . م ، وقامت بحماية تجارتها هذه ضد خطر القراصنة باستخدامها أقوى أسطول بحرى لهذا العصر — وقد أبقى فيها على جزء من الثقافة العالية والحرية السياسية التى ترجع إلى عصر اليونان الذهبى وتأقلمت هذه العوامل مع ظروف العصر الجديد . كما قامت مملكة غنية فى

شمال شرق آسيا الصغرى على يد حكام « برجاموم » المنحدرين من عائلة أتالوس Attalus . وكانت لهم زراعة قد تطورت وموارد معدنية ، وكان برجاموم على وشك أن يكون منافساً خطيرا للبردى الذى تنتجه مصر . وعاصمة هؤلاء الملوك كانت أجمل نموذج فى العالم الهلينستى لتخطيط المدن ومركزاً هاما للفن والثقافة . أما فى بلاد اليونان فإن عـــداء « روما » لمقدونيا قد أدى إلى إقامـــة اتحادين فيدراليين هما الحلف الآخى والحلف الأيتولى وقد قدر لهذين الحلفين أن يكونا آخر تجربة من تجارب اليونان السياسية ولكن لم يكونا بأية حال من الأحوال أقل هذه التجارب شأنا .

وأخيراً كان هناك كذلك نماذج من المدينة الدولة « City-state » القديمة وهى أثينا واسبرطة والمدن الأخرى ، وكان لهذه المدن مكانة محترمة ولكن نفوذهم كان قد تضاءل وكانوا ما يزالون متعلقين بأحلامهم عن « حرية » تقوم على نسق « حرية » القدماء .

كان هذا هو حال العالم الذى زج فيه بروما فى أواخر الحرب البونية الثانية . وقد كان دائماً من الناحية الدبلوماسية صراع ذو ثلاثة أركان بين الدول العظمى ، ولما كانت مصالح الدول الأقل شأنا تفضل طبعا الاحتفاظ بميزان القوى بين هذه الدول العظمى فقد نشأ نظام لا يختلف عن هذا النظام الذى قام فى أوربا بين عامى ١٨١٥ و ١٩١٤ م .

وكان من الطبيعى أن يكون أول صراع تدخل فيه روما هو صراعها مع مقدونيا ، ففى أثناء قيام الحروب ضد فيليب الخامس (٢٠٠ – ١٩٦ ق.م) حاربت روما بوصفها زعيمة لاتحاد يتألف من الدويلات اليونانية ، وعلى رأس هذا الاتحاد يقف الحلف « الأيتولى » وقد رفضت « الجمعية الشعبية » إعلان الحرب فى بادئ الأمر ولكن اعتقد مجلس الشيوخ أنه ليس

من اللائق ألا تستجيب روما لطلب العون الذى تقدم به حلفاؤها كما كان مجلس الشيوخ مدركا تماما للخطر الطويل الأجل الذى يهدد روما فى معركة كنوسكيفالاى Cynoscephalae » (عام ١٩٧ ق . م) وهى التحام مباشر بين أعظم أساليب الحروب فى ذلك العصر بين الفرقة الرومانية والفليق المقدونى ، وانتهى اليوم فى صالح الفرقة الرومانية ولكن لما كان الرومان يتمتعون بمزية وجودهم فى أرض محصنة مليئة بالاستحكامات فقد ظل النقاش الحربى للتفضيل بين الفرقة والفيلق دائماً .

وفى مباحثات الصلح التى تلت ذلك اشترط الرومان شروطا أخف بكثير مما اشترطها اليونان . فقد ألح « الأيتوليون » بالفعل على ضرورة قتل فيليب أو عزله ، فألقى عليهم القائد الرومانى « كونكتيوس فلامينينوس Quinctius Flamininus درساً عن الحكمة فى إتباع سياسة كريمة مع العدو المهزوم وضرب لهم مثلا بمعاملة روما لقرطاجة بعد الحروب البونية الثانية . وقد نص الاتفاق على أن يحتفظ « فيليب » بعرشه ولكنه أجبر على سحب حامياته من بلاد اليونان وتخفيض عدد قواته المسلحة إلى حد كبير ودفع تعويض لروما ، وتعهد بألا يشن حربا خارج مقدونيا إلا بإذن من روما ، وهكذا قلمت أظافر مقدونيا . ثم تلى ذلك المشهد الشهير الذى حدث أثناء الأعياد الإستيمية لعام ١٩٦ ق . م « Isthmian Games » حين أعلن فلامينينوس Flamininus عن طريق حجابه أن كل المدن اليونانية التى كانت خاضعة لفيليب فى وقت ما ، ستصبح « حرة وتعفى من دفع الجزية وسوف لاتخضع إلا لقوانينها الخاصة » . إن تشكك اليونان لم يستطع أن يجد إلا القليل غير هذه الحقيقة ليفسر به هــــذا التصريح ، وهو مافسره الأيتوليون الساخطون فقالوا : إن القلاع التى كانت تسيطر عليها مقدونيا فيما قبل أصبحت الآن فى أيدى الرومان، وحتى هذا التفسير فقد قوته عندما

أعلن فلامينينوس فى اجتماع عقد فى عام ١٤٦ الجلاء عن القلاع وانسحاب القوات الرومانية من اليونان . وهكذا تركت حكمة اليونانيين السياسية لتتأمل ماتتضمنه سياسة المنفعة الشخصية المستنيرة هذه من جانب روما . وكان لهم أن يقرأوا بوادر هذا الموقف بتشاؤم ولكن ليس بمثل هذا التشاؤم الذى قرأها به ملك سوريا .

وإذا جاء حكم السماء مطابقا لما قرأه أنتيوخوس الثالث، (الأكبر) فقد يستطيع أن يستند على مبرر كاف . وكان قد أعاد تثبيت سيطرة أسرة (سليوكوس) على مساحات شاسعة من آســـيا فى الفترة من ٢١٢ إلى ٢٠٦ ق . م . والآن فإن انحطاط شأن فيليب وضعف مصر قد فتح أمامه المجال ليستعيد ممتلكات سوريا القديمة فى ترافيا وآسيا الصغرى . وقد كان الحليف الأيتولى هو الذى أغواه بغزو بلاد اليونان ووعده بأن الأحزاب الديمقراطية فى كل مكان سترحب بقدومه بوصفه (محرراً) لها ، وستقف فى وجه الأقلية الموالية لروما التى كانت تمتلك ناصية الأمور فى ذلك الوقت ، كما أن (برجاموم) ورودوس من ناحية أخرى قد أثارا سخط روما على (انتيوخوس) وذلك بأن نسبا إليه تدبير خطط محكمة للقيام بالغزو فى الغرب وكان هذا الادعاء أكثر الإدعاءات قابلية للتصديق لأن انتيوخوس كان يستخدم (هانيبال) لحسابه كمستشار عسكرى . وعلى ذلك طرد الرومان انتيوخوس فى بادئ الأمر من بلاد اليونان ثم طاردوه حتى آسيا الصغرى وهزموه فى موقعة (ماجنسيا Magnesia) الكبرى (عام ١٨٩ ق . م) وبفضل أهل (رودس تم القضاء على البحرية السورية بوصفها قوة فعالة .

وللمرة الثانية وضعت نصوص الاتفاق لتكون درساً قاسياً . إذ كان على (أنتيوخوس) أن يتنازل عن كل أراضيه الواقعة شمال جبال

(تاوروس Taurus) وتعهد بألا تطأ قدمه أوربا . كما دفع تعويضاً هائلا وتنازل عن معظم أسطوله البحرى كما وافق على تسليم هانيبال. وهكذا اقتصر إقليم سوريا على منطقة آسيا مرة أخرى . ثم جاءت روما بعد ذلك لتهب عطاياها وتنزل عقابها بالجهات الأقل شأنا، فقد حصلت (برجاموم) على معظم الأراضى التى تنازلت عنها سوريا ، كما استحوذت (رودس) على بعض المناطق وحصلت على امتيازات تجارية هامة ، أما الحليف (الأيتولى) فقد أذلته روما ذلا مريراً بعد وقت قصير وحطت من شأنه حتى أصبح حليفاً رومانيا تحت حمايتها . وهكذا اشتبكت (روما) خلال عشر سنوات مع أعظم دولتين من الدول الهلينستية كل على حدة وغزت أراضيهما وأنزلت بهما الهزيمة ، ولم تستحوذ روما على أراض جديدة لنفسها من انتصاراتها، ولكن كان من الواضح أن أية مشكلة تثار فى العالم الهلينستى تدخل فيها مصلحة روما من المحتمل أن تحل حسبما تشاء روما .

وبعد عشرين عاما من هذا التاريخ برهن على صحة هذا بصورة لايمكن إنكارها . ففى السنوات الأخيرة من حكم فيليب الخامس (عام ١٧٩ ق . م) وحتى أثناء فترة أطول من حكم خليفته (برسيوس Perseus كان هناك إحياء ملحوظ لنفوذ مقدونيا. فقد كانت المناجم تنتج بقوة ونشاط، واستعاد الجيش قوته وتحسن مركز مقدونيا الدبلوماسى تماما ، وخاصة فى بلاد اليونان، حيث اكتشفت روما أن أكثر النفوذ قوة لايمكن أن يتوقع هو أيضاً أن يكون محبوباً . وترددت إشاعة هناك استمرت عدة سنين عن قيام حرب أخرى بين مقدونيا وروما . وفى عام ١٧٢ ق.م. صدر عن «برجاموم» نذير بالخطر للمرة الثانية ، واندلعت الحرب فى عام ١٧١ ق . م ، لقد كان قتالا مريراً لم يكن فى صالح روما فى بادئ الأمر . ولكن عثرت روما على قائد محنك فى شخص (إيميليوس باولوس Aemilius Paulus). وفى معركة «بودنا» Pydna (١٦٨ ق . م) واجه كل من الفرقة والفيلق الآخر تحت

ظروف واحدة . وقد يخبرنا (باولوس) بعد مرور وقت طويل على هذه المعركة عن الذعر الذى انتابه عندما رأى الفيلق يندفع مهاجما مركز قيادته ولكن النصر الذى أحرزه فى ذلك اليوم جعل الفرقة الرومانية هى القوى الحاسمة فى ميادين القتال فى العالم طوال فترة أربعة قرون .

وفى هذه المرة لم يكن هناك مجال للتساؤل عن استمرار قيام الملكية فى مقدونيا فقد حمل (برسيوس) إلى روما وظهر فى مواكب نصر (باولوس) الرائعة فى عام ١٧٦ ، ثم واتته منيته بعد ذلك بعامين وهو فى الأسر . وقسمت مقدونيا إلى أربع جمهوريات مستقلة وأغلقت مناجم الذهب والفضة التى تدر ربحاً وفيراً . وهكذا اهتمت روما بشل حركة عدوها تماما ولكنها رفضت أن تستحوذ على ميزات اقتصادية أو تضم الأراضى لنفسها ، وهذا تعليق مذهل عن عدم وجود (الاستعمار) بمعناه الحديث ضمن سياسة روما فى ذلك الوقت . ولكن مما قد يبدو غريبا على الرومان أنفسهم أن المقدونيين كانوا يميلون إلى نظامهم الملكى القديم ميلا كبيراً بينما كانوا يميلون ميلا طفيفا إلى الجمهوريات الجديدة . وقدظهر رجل مدع يسمى أندريسكوس Andriscus ونال بعض التوفيق ، وعندما تم إخضاعه ظهر آخرون غيره . وما إن جاء هذا الوقت حتى أصبح من الواضح أن هناك حلا واحداً — وهو لابد أن تدير روما شئون البلد بنفسها . وعلى ذلك فى عام ١٤٨ ق . م أعلنت روما أن مقدونيا بالإضافة إلى ابيروس (Epirus و (اليريكوم) ، قد أصبحت ولاية رومانية . لقد كان هذا تغييراً حاسمـــاً فى سياسة روما ، وسرعان ماظهرت آثاره الكاملة خارج مقدونيا .

وفى الحال ظهرت هذه الآثار فى بلاد اليونان حيث كان صبر روما ينفد شيئاً فشيئاً خلال بضع سنوات . وفى عام ١٤٦ ق . م تورط الحلف الأخى Achaean League فى خلاف مع اسبرطة ، وناشدت اسبرطة روما

العون . وتهور الحلف الآخى ووقف ليقاوم جيشا رومانيا يقوده (لوكيوس موميوس) Lucius Mummius ، فترتب على ذلك نتائج خطيرة فقد انهزمت فى الحال قواته العسكرية ، ودمرت مدينته كورنثه عن آخرها وهى زعيمة هذا الحلف ، وقتل معظم رجالها ، أما النساء والأطفال فقد تم بيعهم فى الأسواق كعبيد ، كما نهبت كنوز الفن التى تشتهر بها المدينة أو تم بيعها . لقد كان هذا الإجراء عملا ينم عن وحشية متعمدة هزت مشاعر العالم اليونانى ، جاء بعد خمسين عاما فقط من إعلان (فلامينينوس) للتحرير ، وقد انحل الحلف الآخى فى ذلك الوقت وخضعت المدن اليونانية لنفوذ حاكم مقدونيا عدا المدن التى كانت تربطها بروما معاهدات .

وفى نفس الوقت قامت روما بمزاولة هذه الوحشية الجديدة فى أفريقيا على درجة أكثر إثارة للمشاعر ، وقد كان من الصعب دائما تفسير دوافع (كاتو) والمتحفظين فى روما الذين دبروا الحرب البونية الثالثة وتحطيم قرطاجة . والدول ذات النظام الدكتاتورى فى العصور الحديثة غالباً ما تجد من الضرورة أن تنادى بنظرية ما عن سمو الجنس أو العقيدة الماركسية وذلك لتسدل الستار على رغبتها المكشوفة فى إبادة عدوها ، وعلى ذلك فقد عزى بعض المؤرخين الهجوم على قرطاجة إلى التنافس الاقتصادى ، وإلى رغبة كبار الإقطاعيين من الرومان فى سحق تجارة تصدير النبيذ والزيتون القرطاجية . وفسره البعض الآخر ، نتيجة لآراء نيكولا ميكيافيلى)، بأنه قد تكون روما حكيمة فى تحطيمها لقطاجة قبل أن يسقط موقعها الممتاز فى أيدى ملك (نوميديا) — ولكن لا يبدو كل من التفسيرين حقيقا — وربما كان قد تخلف عن الحروب البونية الثانية خوف تملكهم تماما من قرطاجة لأنه يبدو من الواضح أن (كاتو) وأصدقاءه قد عقدوا العزم على تحطيمها وعدم إتاحة الفرصة لها كى تهرب من بين أيديهم . وبدأت الحروب البونية الثالثة عام ١٤٩ ق . م ، وتحملت قرطاجة ثلاث سنوات من الحصار ، وهى فترة أطول مما تحملتها سيراكوزة . وفى ربيع عام ١٤٦ ق . م إجتاز

الرومان التحصينات واشتبكوا مع القرطاجيين فى قتال بالأيدى كان له أن يضع حدا لآلام قرطاجة التى كانت تعانيها منذ وقت طويل . وقبل ذلك بقرنين من الزمن أقام الرومان احتفالا دينيا يكتنفه الورع فى بلدة (فيى Veii يسمى احتفال (الدعوى evocatio) قاموا فيه باستدعاء إلهةقرطاجة العظيمة (جونو Juno) من المدينة المشؤمة واستمالوها كى تهاجر إلى روما لقد شاهد (بولوبيوس) المشهد الأخيرمن الحروب البونية الثالثة وهو واقف بجوار القائد الرومانى (سكيبيو إيميانوس) (المتحرر) لقد أحرقت المدينة ومحقتعن آخرها وأصبح سافلها عاليها وعاليها سافلها وبذرت بذور المرارة فى قلوب رجالها وأنزلت اللعنة بكل من يحاول

إحياءها . وقد تم بيع خمسين ألفا من رجالها فى ذلك الوقت باعتبارهم عبيداً ، وهم من ظلوا على قيد الحياة بعد المعركة . وتحولت أراضىقرطاجة الأفريقيـــة ذات مقاطعات زرع الحبوب الشاسعة إلى ولاية رومانية جديدة وهى ولاية أفريقيا . لقد كان ذلك أولا وقبل كل شىء حلا نهائياً لمشكلة قرطاجة .

وسرعان مارويت القصة عن علاقات روما بالدول الهلينستية فى ذلك الوقتفبعدموت « أنتيوخوس الأكبر »لم يتول أى حاكم عرش سوريا يتمتع بمكانة مماثلة لمكانة « أنتيوخوس » وكانت سياسة روما تهدف إلى منع هذه المملكة من أن تصبح ولاية قوية . وحادثة تخلى « أنتيوخوس إبيفانيس الرابع » عن غزو مصر فى الحال وبرضوخ كان نزولا على أمر المبعوث الرومانى الذىرسم حول « ابيفانيس » دائرة وناشده قائلا (أجبنى . . . . نعم أم لا قبل أن تخطو خارج هذه الدائرة) . إن هذه الحادثة لتشير إلى نفوذ روما إشارة قوية . وبعد عام ١٦٠ ق . م كان تدهور نفوذ أسرة (سليوكوس) سريعاً ، ومهد هذا التدهور إلى ظهور ممالك أسيوية جديدة أصبحت فيما بعد مصدرا لمتاعب عديدة لروما ، وخاصة مملكة

بونتوس وأرمينيا ، والأهم من ذلك مملكة بارثيا . أما (مصر) فقد استمرت على ضعفها واستردت استقلالها لأنها كانت نافعة لروما باعتبارها مملكة تخلق التوازن مع سوريا . وكانت (رودس) قد ذاقت تماماً مرارة كونها حليفة لروما ومحاولتها لاستعادة قدر ما من احترام الذات . وبعد معركة (بودنا) عاملتها روما معاملة عدائية يكتنفها الشك ، فقد أفسدت نشاطها التجارى إفسادا متعمدا عندما أنشأت ميناء (ديلوس Delos) الحر ، ولما كانت بحريتها عاجزة عن السيطرة على البحار وصل انتشار القرصنة إلى درجة مخيفة فى البحر الإيجى . أما (برجاموم) وهى أبعد مملكة عن روما ، فقد كانت أكثر توفيقا من الممالك الأخرى فى استمرار انضمامها إلى جانب الدولة الأقوى الراجح . ولكنها دفعت ثمن ذلك غالياً ، وانتابها قلق لا يهدأ ، وقرار (أتالوس الثالث Attalus III) بوهب مملكته كتركة لروما عند وفاته (١٣٣ ق . م) ليبرهن على أنها فى ذلك الوقت كانت تفضل أن تكون من رعايا روما على أن تكون حليفة لها . وبعد سحق آخر دعوى لإعلان الاستقلال ، التى قامت تحت زعامة المدعى (أريستونيكوس Aristonicus) تم تنظيم المملكة على أنها ولاية رومانية فى آسيا (١٢٩ ق . م) وهكذا امتد نظام الولايات الرومانى إلى القارة الثالثة وقد كان هذا إضافة جديدة رائعة لسلطات روما ، مثله فى ذلك مثل إضافة شراء لويزيانا Louisiana Purchase التى قامت به الولايات المتحدة .

أما فى أسبانيا فقد كان مجرى الأحداث خلال هذا القرن أكثر تعقيدا . فلم تفكر روما فى التخلى عن الأراضى التى اكتسبتها من قرطاجة ، ففى عام ١٩٧ أقامت هناك ولايتين هما « أسبانيا العليا وأسبانيا السفلى » . ولكن التوسع إلى ما وراء هذه الولايات لغزو كل شبه الجزيرة الأيبيرية لم يأت إلا بعد القيام بمجهود شاق استغرق قرنين من الزمان . وكانت الأرض نفسها تمتد امتدادا شاسعا ومتنوعة تماما فى مناخها وتضاريسها ، فالشعوب

التى تسكنها كانت تتألف من أجناس متنوعة على مستويات حضارية متفاوتة ، لاسيما وأن المقاومة التى قامت بها قبائل الهضبة الهائلة قد أقحمت جيوش الجمهورية الرومانية فى أعنف المعارك وأشدها هولا ، وأكسبت أسبانيا شهرة أنها « ولاية مخيفة تعشق الحرب horrida et bellicosa provincia » وهناك مرحلتان من مراحل هذا الصراع لهما شهرة ذائعة : أولاهما المقاومة العنيفة التى قامت بها « لوسيتانيا Lusitania » (البرتغال الحديثة) تحت زعامة « فيرياثوس Viriathus » الذى سيطر على أرض المعركة طوال ثمانى سنوات (١٤٧ — ١٣٩ ق . م) « وقد كتب المؤرخ (ابيان Appian) تعليقا عنه قائلا : « على الرغم من أنه كان بربريا إلا أنه أظهر أبرز مميزات القائد » . وثانيهما المقاومة الأكثر عنفا التى قام بها السكلتبريين Celtiberi سكان وسط أسبانيا وكانت طريقة بناء القلاع الهائلة المقامة على التلال وتحصيناتها هى معقل قوتهم . إن حصار إحدى هذه القلاع ، وهى (نومانتيا Numantia) لم ينته إلا بعد ثمانية أشهر من الحصار وذلك عندما جاء « سكيبيو ايميليانوس » ، قاهر قرطاجة بجيش رومانى قوامه ستون ألف رجل وأمات أربعة آلاف رجل من المدافعين عن هذه القلعة جوعا . وعلى هذا النحو كان إيمان مدينة بربرية واحدة بالحرية والاستماتة فى سبيلها .

ولكن تم تدعيم ولايتى أسبانيا وتطويرهما بالتدريج . فقد أقيمت المستعمرات الرومانية « فى إتاليكا Italica » و « كارتيا Carteia » واستغل الرومان المناجم بصورة فعالة ، ويقال إن مناجم قرطاجة الجديدة قد استوعبت أربعين ألف رجل كما شرعوا فى القيام بحركة تجارية واسعة لتصدير القمح . وأصبح من الممكن جمع ثروات هائلة فى أسبانيا ، وقد أمدتنا هذه الولاية ببعض أقدم النماذج وأبشعها من الحكام الجشعين ، ومع ذلك قد يأتى بالصدفة حاكم صالح مثل تيبريوس سيمبرونيوس جراكوس Tiberius Sempronius Gracchus « الذى استطاع أن يكسب تجاوب الأهالى

معه مما مهد له الطريق أمام نشر الحضارة الرومانية نشراً هائلا فى شبه الجزيرة فى ظل الإمبراطورية . وقد أقيم طريق حربى طويل بعد الاستيلاء على « نومانتيا Numantia » طوله مائة ميل يمتد من جبال البرانس حتى خليج جبرالتار .

إن القصة الكاملة لزيادة نفوذ روما لا يمكن أن نقصها على ضوء علاقاتها بالدول المستقلة وانتشار نظام إقامة الولايات . فجنبا إلى جنب مع هذه المظاهر التى ما هى إلا الإجراءات الرسمية للدولة الرومانية ، كان هناك نظام غريب للعلاقات الخاصة له تأثير فعال — وهو نظام التبعية — Clientelae الذى كان يربط النبلاء الرومان ذوى النفوذ ، بالجماعات غير الرومانية أو بالحكام فى إيطاليا وغيرها من الأماكن . وقد وطد هذا النظام العلاقة بين الراعى والتابع فى كل عالم البحر المتوسط التى رأينا أنها ظاهرة من ظواهر المجتمع الرومانى فى أوائل عصر الجمهورية . وقد أوضح بحث أخير كتبه الأستاذ ا. باديان E. Badian إلى أى مدى كانت آثار هذا النظام بعيدة وإلى أى حد من الصعب تقديرها . وقد كانت العلاقة بين النبيل الرومانى ، بوصفه راع ، والمجتمع الأجنبى ، سواء كان مجتمعا فى بلد مستقلة أو فى ولاية ، كانت هذه العلاقة تقوم على أسس أخلاقية قوية لا على أسس صارمة ينص عليها القانون . وبالإضافة لذلك ، قد تدوم هذه العلاقة لعدة أجيال ويكون لها تأثير على كل من شئون السياسة الداخلية والخارجية ، وعلى هذه الحالة كانت الروابط التى أقامتها عائلة «سكيبيو» فى إسبانيا و«نوميديا» ، وعائلة «فابيوس» فى أسبانيا ، وفلا مينينوس فى بلاد اليونان ، وعائلة دوميتيوس Domitii فى بلاد الغال وعائلة « كلوديوس ماركيللوس» فى صقلية . وكان على الراعى الرومانى أن يقوم بواجبات الضيافة نحو تابعيه عند وجودهم فى روما ، كما يقوم بإسداء النصح إليهم فى مجال السياسة الرومانية ، ويحتضن قضيتهم ويحملها إلى مجلس الشيوخ إذا دعت الحاجة إلى إثارتها . كما كان عليهم أن

يردوا كرم الضيافة له ، وأن يقدموا له خدمات نقدية وعينية وأن يسهموا في تبجيله وإعلاء شأنه في روما عن طريق علاقتهم به . لقد كان هذا رباطا قويا بين الروماني وغير الروماني . ومن الواضح أن هذا الرباط كان من الممكن أن يعمل على توسيع نطاق نفوذ روما ، وبالمثل كان من الممكن أن يعزز مصالح من كانوا تحت حماية روما في روما نفسها .

وكانت الطبقة الأرستقراطية، ومجلس الشيوخ لسان حالها، هما المسيطران على السياسة الداخلية في روما خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. وكانت المؤهلات المطلوبة للانتماء إلى هذه الطبقة المغلقة على نفسها هي الثروة والأصل النبيل كما كان من النادر في ذلك الوقت أن يشق رجل حديث العهد newman طريقه بنفسه إلى داخل هذه الطبقة . ولكن كان يتوفر عامل الانتخاب الشعبي في مجلس الشيوخ إذ كان يسمح للموظفين الرسميين السابقين بدخول المجلس . ولما كان أعضاء مجلس الشيوخ قد حرم عليهم الاشتغال بالتجارة أو إبرام العقود العامة ، فقد أصبحوا ملاكا للأراضي ، ذلك بالإضافة إلى النزعة المتحفظة التي تتميز بها هذه الطبقة . كما كان زيهم المميز ، والحشد الكبير من الرفقاء الذين يقومون بخدمتهم في الأماكن العامة، واحتلالهم مكان الشرف في احتفالات الدولة يزيدهم وقارا. وكان عدد أعضاء مجلس الشيوخ ثلاثمائة عضو ، يتمتعون بعضوية دائمة : هذا إذا لم يقرر « الكنسوريس » إبعادهم . وكان هذا المجلس ينعقد بدعوة من أحد الموظفين الرسميين، إما في «الكوريا Curia »وهي القاعة الخاصة بالمجلس (وماتزال قائمة في السوق الرومانية على الرغم من إعادة بنائها مرات عديدة)، أو في معبد من معابد المدينة . ويرأس الاجتماع أحد القناصلة ، ثم يتقدم أحد الموظفين الرسميين بتقرير يعلن بدء المناقشة ويطالب الأفراد من أعضاء المجلس بإبداء رأيهم في هذه المناقشة (Sententiam dicere) حسب أسبقيتهم . وقد كان مجلس الشيوخ منصة هائلة للخطابة وهي أسمى أنواع الخطابة في

البلد، مثله فى ذلك مثل مجلس العموم الإنجليزى والايرلندى فى القرن الثامن عشر، ثم يلى المناقشة أخذ الأصوات الذى يتبلور عنه ما يسمى «بقرار مجلس الشيوخ Senatus consultum» ولم تكن تكتب التقارير عن المناقشات التى تدور فى المجلس فى ذلك الوقت، ولكن قرارات المجلس « Senatus consulta » كانت تسجل فى الخزانة العامة . وكانت الأمور التى تعرض على المجلس من أنواع شتى، وتشمل كل المسائل العامة لهذا العصر . وكان مجلس الشيوخ هو الذى يقرر الحرب والسلام من الناحية العملية، مع أن قراراته هذه كانت تحتاج إلى تصديق « الجمعية الشعبية » عليها . كما كان أعضاء المجلس يستقبلون مبعوثى الدول الأجنبية، ويشكلون لجان التحقيق، ويصدقون على المعاهدات ويحددون قيمة الضريبة، ويدرجون الأقاليم تحت سلطة القناصلة، ويصدرون العقود العامة ويجمعون على منح إمدادات مالية للموظفين الرسميين . وعندما نضيف إلى ذلك أنهم كانوا يتمتعون بالسيطرة التامة على القانون والدين، فمن الواضح أنهم كانوا يزاولون معظم سلطات الدولة . وقد كان فى إمكانهم أن يذلوا أى شخص له نفوذ ويحطوا من شأنه فى أقصر وقت، وقد يحدث ذلك لأى رجل حتى سكيبيو افريكانوس نفسه قاهر « هانيبال » .

وبين جدران مجلس الشيوخ كان هناك عصبة داخلية من العائلات النبيلة تسيطر على المجلس وكانت هذه العصبة دائرة مغلقة على نفسها تماما، يزيد من إحكامها التزاوج بين أفراد هذه العائلات، وكذلك التبنى . فأصبح يحكم روما الأقارب الوثيقو الصلة . فمثلا تزوج «سكيبيو افريكانوس» من «ايميليا Aemilia شقيقة « أيميليوس باولوس » وعندما لم ينجب أحد أبنائها أطفالا، تبنى ابن « ايميليوس باوس » الذى حمل اسم « سكيبيو ايمليانوس Scipio Aemilianus » أما ابنتهما « كورنيليا Cornilia» فقد اقترنت بتيتوس سيمبرونيوس جراكوس T. Sempronius Gracchus » وهذه السيدة هى

أم الأخوين جراكوس الشهيرة . وتزوج « سيكيبيو ايميليانوس » بدوره من ابنتها « سيمبرونيا Sempronia » أى ابنة خالته ، ولكن هذا لم يمنع وجود عداء سياسى مرير بينه وبين « تبيريوس جراكوس Tiberius Gracchus » شقيق زوجته . وكان هناك بصفة مستديمة إلى حد ما أحزاب (factiones) بين النبلاء ، يتجدد التنافس بينهم فى انتخابات الموظفين الرسميين السنوية . وقد قام العالم الألمانى « مينسر Münzer » بتحليل هذه الأحزاب وتأثيرها . وقد يظهر اختلاف اتجاهاتهم فى صورة تضارب مبادئهم ، مثل تضارب مبادىء الطبقة المختلفة ، المتعصبة للدين، المغالية فى وطنيتها التى كان يرأسها « كاتو Cato » والطبقة المتحررة والتقدمية المحبة للحضارة الهلينية التى كان يرأسها أفراد أسرة « سكيبيو » ولم يكن لينبع أحزاب سياسية دائمة أو برامج مرسومة بمعنى الكلمة من هذا الأساس المتجانس .

كان من الممكن أن يتوقع النبيل الرومانى العريق قضاء حياته فى خدمة الدولة . فهو قد يشغل كل الوظائف الرسمية كل بدورها ، ويتولى منصب حاكم ولاية من الولايات، ويقود جيشاً فى ميدان القتال ، ويشترك فى الوفود الهامة التى توفدها الدولة ، ويؤدى دوره على أكمل وجه فى مجلس الشيوخ ، وهناك نقش كتب بلغة القرن الثالث قبل الميلاد اللاتينية القديمة على قبر « لوكيوس سكيبيو Lucius Scipio » يوضح مدى تفضيل سلك الوظائف العامة عن كل شيء ، وقد جاء فى هذا النقش :

إن معظم الرومان يجمعون على أن هذا الرجل « لوكيوس سكيبيو » أقدر الرجال الأكفاء . لقد كان ابنا لبرباتوس « Barbatus » وقد تولى منصب القنصل ، والكنسور ، والايديل ، فى بلدنا . واستولى على كورسيكا ومدينة « اليريا Aleria » وقام ببناء معبد للإلهة « تمبستاتيس Tempestates » وذلك وفاء لنذر قطعه على نفسه .

Honc oino ploirime cosentiont Romai
duonoro optume fuise viro

Lucium Scipione, filios Barbati
consol, censor, aedilis hic fuet apud nos,
hic cepit Corsica Aleriaque urbe
dedet Tempestatebus aede meretod

ونحن نلمس نفس الروح وقد ظهرت فى نقش آخر كتب على قبر ، بعيد كل البعد زمانا ومكانا [1]

بقى الآن أن نأخذ فى اعتبارنا تطوراً آخر أكثر ارتباطا بإيطاليا فما أن انتهت الحرب البونية الثانية حتى أعادت روما فرض سيطرتها على بلاد الغال القريبة « Cisalpine Gaul » التى اضطرت إلى الانسحاب منها قبل قدوم هانيبال . وبدأ تنفيذ مشروع هائل خاص بإنشاء مستعمرات وتطوير المنطقة فقد أجبرت روما « اللجوريين Ligurians » وقبائل البوئى Boii على التراجع إلى الجبال وذلك بقيامها بسلسلة من الحملات الحاسمة كما رحلت أربعين ألفا من « الأبوانى Apuani » من موطنهم وجعلتهم يستوطنون الأراضى التى خربتها الحروب فى جنوب إيطاليا — وهذا مثل قديم من أمثلة الهجرة الإجبارية التى اضطر كثير من الشعوب القيام بها فى ظل الإمبراطورية . ومقابل هذا زحفت أعداد غفيرة من المحاربين القدماء ومن الفلاحين المتعطشين للأراضى نحو الشمال إلى أراضى سهل « البو » بعد إخلائها . وقد أنشئت المستعمرات فى « اكويليا Aquileia » و « بنونيا Bononia » (بولونيا الحديثة) و « لوكا Luca » (لوتشا الحديثة) وقد كان لهذه المستعمرات أن تزدهر وتصبح مدنا عظيمة . كما ظهر المستوطنون الرومان بالقرب من « مديولانوم Mediolanum » ميلانو الحديثة ، وقد قاموا بتجفيف المستنقعات وتوسيع مجارى الأنهار ، وبناء شبكة من طرق المواصلات ولم يحدث أن

(١) « هنا دفن توماس جيفرسون » ، صاحب اعلان الاستقلال الامريكى ، والذى اقام تمثال « فرجينيا » رمزا للحرية الدينية وراعى جامعة فرجينيا .

أصبح أى استعمار قامت به روما أكثر توفيقا من هذا الاستعمار الذى جعل (وادى البو) جزءا لا يتجزأ من إيطاليا إلى الأبد .

وجملة ما نعرفه من هذه المستعمرات هو إحدى وعشرون مستعمرة أنشئت ما بين : ٢٠٠، ١٧٠ق.م فى بلاد الغال القريبة ، «وبيكنوم Picenum وكمبانيا وجنوب إيطاليا . ويقدر الأستاذ « تنى فرانك Tenney Frank ». عدد من استوطنوا بهذه الصورة بين أربعين وخمسين ألف مواطن ، فيما لا يقل عن مليون فدان من الأراضى الصالحة للزراعة . إن هذا الامتداد قوى نظام الزراعة المحدودة ولكن هذا الامتداد قد فاق تزايد المزارع الشاسعة التى كان يخدم فيها قوى عاملة من العبيد لم يشعر الرومان بتأثيرها الكامل إلا فى منتصف هذا القرن .

وما حققته روما من أعمال مجيدة فى مجال الأدب خلال هذه الفترة له اعتباره ، على الرغم من أننا فى الغالب لا نوفيه حقه . ويرجع هذا إلى ضياع الكثير منه . فلم يظهر لنا من كتاب الكوميديا العشر الأوائل الذين عاشوا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، بأعماله الكاملة سوى « بلاوتوس » Plautus « وترنس Terence » . كما أنه لم تصلنا من المسرحيات التراجيدية أية واحدة كاملة. ومن أعمال شعراء الملاحم « نايفيوس Naevius » و « إنيوس Ennius » لم تصلنا إلا شذرات فقط ، كما هو الحال مع « لوكيليوس Lucilius شاعر الهجاء . وليس هناك إلا عمل واحد كامل كتبه كاتو عن الزراعة «De Agricultura» يعتبر نموذج للنثر الرومانى ولإنتاج كاتو الأدبى الغزير . وقد ضاعت أعمال كل المؤرخين ، وليس هناك ما يمثل الخطابة الرومانية سوى بعض شذرات تهز المشاعر «لتبيريوس جراكوس » ونكون صادقين لو قلنا إننا ننظر إلى الأدب الرومانى لهذه الفترة بالذات دون غيرها من الفترات كما لو كنا نرى جبلا من الجليد — فهو جزء مرئى صغير يطفو فوق كتلة هائلة مغمورة . وللمرة الثانية ، فإن الكتاب الرومان ، لهذه الفترة وما بعدها ، لا يغفلون الاعتراف بأنهم يدينون لليونان لدرجة أنه

من الطبيعى أن نعتبرهم اشتقاقا من اليونان يحتلون المرتبة الثانية بعدهم ، وعلى الرغم من ذلك ، فيجب علينا أن نبحث عن أصل الأدب الرومانى فى دائرة ظروف الرومان . فأول قطعة مؤرخة من النثر هى الخطاب الذى ألقاه « أبيوس كلوديوس » عن المباحثات الخاصة بعقد السلم مع « بيروس Pyrrhus » التى كانت جارية فى القرن الأول قبل الميلاد ، وترجع كتابة التاريخ الرومانى إلى الحوليات التى قام بجمعها أعضاء الطبقة الأرستقراطية الرومانية . ومن الحقيق أن تأثير الأدب اليونانى منذ عام ٢٤٠ ق . م كان هائلا سواء جاء هذا التأثير عن طريق صقلية أو جنوب إيطاليا أو من بلاد اليونان نفسها . ولكن الأدب اليونانى تأقلم مع الظروف السائدة ولم يقلده الرومان تقليداً أعمى ، فقد كانت عبقرية الرومان والإيطاليين تسهاهم دائما بجزء فيه .

ومن الممكن تحديد تاريخ ظهور المسرحية على نمط النماذج اليونانية فى روما بعام ٢٤٠ ق . م ، عندما عرضت أول مسرحية يونانية فى « الأعياد الرومانية Ludi Romani » مترجمة باللغة اللاتينية قام بنقلها إلى اللاتينية ليفيوس أندرنيكوس Livius Andronicus » وقد ترجم ليفيوس أيضاً الأوديسا كى تدرس فى مدارس روما ، وكان هو أول من اكتشف أن هناك فى روما جمهوراً للأدب اليونانى . ولم تنبع الملهاة الرومانية من ملاهى « اريستوفانيس Aristophanes » القديمة ، التى كانت الحياة السياسية الحرة دعامة وجودها مثل حالة « أثينا » فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ولكنها نبعت من « الملهاة الحديثة » التى ظهرت فى القرن الرابع قبل الميلاد ، والتى كانت موضوعاتها مستمدة من الحياة الخاصة والمحلية ، وكان الشاعر « ميناندر Menander » هو الاسم العريض فى هذا الميدان . إن العالم الذى يصوره « ميناندر » عالم حيوى معقد ، يتفق ومزاج المتفرج الرومانى فى كثير من نواحيه . وكان التهاون الجنسى يعالج فى الملهاة الرومانية

بتسامح يبعث على التسلية وذلك عند مقارنته بمبادئ كاتو « الأخلاقية » الجامدة، وسرعان مالاحظ المؤرخون الاجتماعيون أن أول حالة طلاق فى المجتمع الرومانى حدثت خلال السنوات الخمس التى تلت عرض أول مسرحية. ولكن « الملهاة اليونانية الحديثة » كانت تنقصها الحركة ، فقد كان إيقاعها بطيئا ، يتخللها كثير من التحليل النفسى ، ورسم شخصياتها يتطلب ذكاء خارقا ، وكان المتفرج الرومانى يحتاج إلى مزيج قوى من الذوق الفنى الرفيع والحركة النشطة ، وإلى حيل أكثر وشخصيات مضحكة وحيوية فياضة فى المسرحية . ونحن نجد أن « بلاوتوس » الذى وفر لهم هذه الشروط قد اجتذب بصفة مستمرة جماهير مخلصة له ، بينما نجد أن « تيرنس » الذى استمر فى تمسكه بالروح السائدة فى مسرحيات « ميناندر » لم يصبح أبدا شاعرا محبوبا — ومن الممكن أن تقارن أنجح مسرحيات « بلاوتوس » (٢٥١ — ١٤٨ ق . م) المليئة بالروح الخفيفة والتى تبعث على ضحك صاخب والتى تحتوى على خلق مواقف جديدة ، بمسرحيات « اريستوفانيس » وبالمواقف الكوميدية فى مسرحيات شكسبير » ومسرحياته مليئة بالنقلات السريعة وبالسكارى والمشاجرات ، كما أنها تحتوى على عامل الرقص والغناء بصورة واضحة ، لدرجة أنه من الممكن وصفها بأنها مسرحية كوميدية موسيقية ومرحة تنتهى نهاية سعيدة . ويمدنا معجمه بعشرين ألف بيت من الشعر باللغة اللاتينية الأصلية ، وهى تعبير صادق عن الجيل الذى وقف فى وجه هانيبال . وعند عقد المقارنة نجد أن مسرحيات « تيرنس Terence » ١٩٥ — ١٥٩ ق . م هى الملاهى المهذبة التى تكتب للصالونات ، مليئة بالتحليل النفسى والفلسفة ، وشخصياته تجعلنا نشعر أنها قد رسمت لأرقى المدارس العالية ، تنطق باللغة اللاتينية الصافية، المنمقة التى تميز جماعة راعيه « سكيبيو ايميليانوس » . وقد وصلنا إحدى وعشرين مسرحية من أعمال « بلاوتوس » وست مسرحيات من أعمال « تيرنس » ، وقد كان لهم تأثير بعيد المدى على الملهاة الأخلاقية فى إيطاليا وفرنسا وانجلترا وأسبانيا .

وما نعرفه عن المأساة الرومانية أقل من ذلك بكثير ، ولكن يبدو أنها كانت أقرب إلى الأصول اليونانية من الملهاة — كما لو كان وراء كل مأساة رومانية لابد وأن تقف أو توجد مأساة يونانية — وخاصة مآسى الشاعر التراجيدى « يوربيديس » الذى كان أكثر الشعراء اليونان انتشارا . وكان موضوع الحرب الطروادية أكثر الموضوعات انتشاراً ، وهذا يشير إلى الاهتمام بالأساطير التى تربط روما فى أوائل أيامها « بطروادة » وهذا هو موضوع « الالياذة » الخالد . ومن خلال ما وصلنا من شذرات نستطيع أن نشير إلى بعض الأفضال التى ترجع إلى تذوق الرومان وأمزجتهم . فنحن نرى بوضوح ميل الرومان للمسرحية الغنائية « melodrama » والتى تبعث الرعب ، كما أن البلاغة كانت تسيطر تماماً على روح المأساة الرومانية بأكملها، فالشخصيات تخاطب بعضها البعض بحديث طويل له الطابع الرسمى يشبه الحديث الذى يدور بين السياسيين فى مناظرة بينهم . إن كل هذه الصفات قد ظهرت مرة أخرى فى مسرحيات « سنيكا Seneca » كما أن مسرحية شكسبير تيتوس اندرنيكوس « Titus Andronicus » تسير فى نفس الاتجاه .

ولكن العنصر الرومانى كان مايزال أكثر قوة فى الملحمتين العظيمتين . الحرب البونية Bellum Punicum التى كتبها الشاعر « نايفيوس Naevius » حوالى (٢٧٠ — ٢٠٧ ق.م) و « الحوليات Annales » التى كتبها الشاعر «إنيوس Ennius » (٢٣٩— ١٦٩ ق.م) . وإذا كانت الملحمتان قد اتخذتا « هومر » مثلا يحتذى به من حيث الشكل ومعالجة الموضوع إلا أن موضوعاتهما كانت رومانية صرفة ، فهى الحروب الطاحنة التى نشبت ضد قرطاجنة والتى اشترك فيها كلا الشاعران ولقد كتب « نيفيوس » عن الحروب البونية الأولى وعن أصل نشأة روما وقرطاجة مستخدما فى شعره الوزن الساتورنى « Saturnian meter » القومى ، ومن المحتمل أن قصة « أينياس » و « وديدو » قد ظهرت أول ماظهرت عنده . أما « إنيوس » فقد تناول التاريخ الرومانى

حتى عام ١٧١ ق . م ، ولكن أهم موضوع لقصيدته هو الحروب البونية الثانية . و «إنيوس» باستخدامه الوزن السداسى «hexameter » فى أشعاره يعتبر فاتحة السيـــل الفياض من الشعراء الخالدين الذى يضم بين ثناياه « لوكريتيوس» و « فرجيل» ،وبإتقانه للغةاليونانية والأوسكانية واللاتينية توحدت فيه حضارات إيطاليا فى ذلك الوقت .

إن روما ، بحضريتها وأسلوبها فى الحياة ، قدأمدت الشاعر «لوكيليوس Lucilius » (١٨٠—١٠٢ ق . م) بالمواد الأولية لهجائياته—فقد كانت هى روما فى فترة مابعد الحرب بثرائها وبذخها المتزايدين، بفسادها وإباحيتها. وعلى حد قول « جوفينال Juvenal » الشاعر الهجائى الذى جاء فيما بعد ، فإن «لوكيليوس» قد فضح خبايا المدينة ، فقد كان هناك حقيقة لأول مرة حصيله غنية من الرذيلة بين أيدى الشاعر الهجائى الرومانى ليفضح أمرها . كما ظهر فى ذلك الوقت أيضاً أول الرعاة الرومان العظام ، وعلى رأسهم أفراد عائلة « سكيبيو » وأصدقاؤهم . فقد كان « سكيبيو أفريكانوس » راعى « إنيوس » رجلا عظيما متحمسا للثقافة اليونانية. ولم يحصل «إيميليوس باولوس » لنفسه من كل أسلاب الحروب المقدونية إلا على مكتبة « برسيوس Perseus» وهى أول مكتبة خاصة فى روما كان لها أهميتها. ونحن نرى فى الجماعة التى أحاطت « بسكيبيو ايميليانوس » نظام الرعاية الرومانى وقد وصل إلى القمة ، كما نرى ايضاً فيها الاهتمام البالغ بالأدب والفلسفة والقانون واحتوائها على كل من الشعراء اليونان والرومان . وقد كان « سكيبيو » وصديقه (لايليوس Laelius) زعيما لرجال السياسة فى ذلك الوقت،ومن بين جماعتها كان (بولوبيوس Polybius)المؤرخ و(باناتيوس Panaetius) ، أبرز ممثلى الثقافة اليونانية ، و (لوكيليوس) و (تيرنس) أوائل الكتاب اللاتين . إن كل هؤلاء الرجال كانوا على دراية تامة بأسمى

أعمال الحضارة اليونانية والرومانية كلها. وقد حاولوا أن يفسروها من أجل المنفعة المتبادلة . ومن هؤلاء الرجال نبعت أيضاً فكرة الإنسانية العظيمة (humanitas) وهى رباط عام يربط كل البشر ، ويلغى كل الفوارق بين النوع والجنسية واللون والعقائد الدينية . وقد كان لها أن تؤثر فى الفكر السياسى الرومانى والقانون الرومانى تأثيراً ناجحاً .

أما تقدم الفن والرسم المعمارى فكان أقل بكثير من تقدم الأدب . فهناك بعض الرجال من النبلاء الرومان الأثرياء أصبحوا خبراء فى أعمال الفن اليونانى وهواة يجمعون روائعه . ولكن هذا لم ينم أسلوب الفن الرومانى القومى. وقد كان هناك بالطبع عدد كبير من المبانى فى المدينة وذلك بسبب تزايد السكان ، الذى لا يمكن أن يكون أقل من مليون نسمة فى عام ١٥٠ ق . م . وقد أقام بعض النبلاء منازل حضرية كانت تعتبر مترفة فى ذلك الوقت ، مع أنه بعد مرور قرن من هذا التاريخ كانت البساطة فى هذه المنازل هى التى أثارت النقاش . وقد بدأ فى ذلك الوقت بناء منازل ضخمة لتأجيرها (insulae) وذلك لإسكان الفقراء الرومان وبدأ كذلك تزايد الأحياء القذرة . أما من جانب من يعود عليهم دخل هذه المنازل ، فقد كانت هناك حركة نشطة فى بناء القناطر ، وتعبيد الشوارع ، ومد قنوات الصرف ، كما أقيمت معابد عديدة ، وبالذات إقامة معبد «الأم العظمى Magna Mater » على تل « البلاتين » الذى ما نزال نرى شرفته الشامخة « Podium » ، وإقامة معبد « أبوللون » من الرخام فى « كامبوس مارتيوس » تزينه أعمال الفن اليونانى التى استولى عليها الرومان . كما شيدت أول قاعات للاجتماعات فى السوق الرومانية « Forum » من بينها « قاعة ايميليوس Basilica Aemilia » وهى أروع بناء شيد فى روما فى ذلك الوقت . ولكن كان فن المعمار فى المدينة بصفة عامة أحط بكثير من الفن المعمارى فى المدن الكبرى فى العالم اليونانى ، منها الإسكندرية وأنتيوخ

وبرجاموم وسيراكوزة — بل أحط شأنا من المدن الأكثر ازدهاراً التى كانت فى إقليم «كمبانيا» مثل مدينة بومبيئ Pompeii ».

أما الفلسفة ، التى تعتبر قلب الثقافة اليونانية فقد كان لها صراع مرير فى روما . فعندما ألقى « ديوجنيس Diogenes » الفليسوف الرواقى و «كارنياديس Carneades » الفيلسوف المنتمى إلى الأكاديمية الجديدة محاضرات فى روما عام ١٥٥ ق . م . استقبل كل منهما استقبالا يختلف تماما عن الآخر . فقد ترك « ديوجنيس » أثراً طيباً بخطابه المتواضع المتزن . وهذا ما تركه «كارنياديس » أيضاً عندما قال فى محاضرته الأولى : إن العدالة قد فرضتها الطبيعة . ولكن فى اليوم التالى ، وبنفس الروعة ، قال : إن العدالة قد فرضتها التقاليد ، فلم ينظر مجلس الشيوخ بعين التقدير إلى هذه الروعة وأمره بأن يغادر المدينة . ومن الواضح أن سادة العالم الجدد قد يصدرون حكمهم على الفلسفة من زاوية منفعتها للدولة . أما « باناتيوس Panaetius » الذى كان من مواطنى « رودس » فإنه يقبع فى هذه الزاوية ، ولأن صلته الوثيقة بسكيبيو ايميليانوس « وأصدقائه قد مكنته من فهم ظروف الرومان فهما سليما ، نال بعض التوفيق الرائع بصورته الخاصة عن الفلسفة الرواقية التى أعاد تكوين أسلوبها كما لو كانت قد كتبت للسوق الرومانية . وجعل الرواقية تلقى رواجا محليا فى روما وذلك باستبداله الرجل الحكيم المثالى الذى يعيش فى المدينة المتعددة الأجناس، بسكيبيو الذى يعيش فى الجمهورية . وقد كان النقاد على حق عندما أشاروا إلى أن منهجه يتميز بطابع التدهور فى المقدرة الذهنية ويفتقر إلى التماسك، ولكنه كان يستشهد فى منهجه بكل ماهو خير فى الشخصية الرومانية وفى التشاريع الرومانية . فقد امتزجت الفضيلة القديمة « antiqua virtus » التى كانت تتميز بها الأخلاق الرومانية بمنهج جديد لعلم الأخلاق ، كما أثنى على الدستور الرومانى بوصفه أكثر النظم السياسية كمالا . ولكنه ترك

الدين الرومانى المتوارث دون أن يمسه . أما التحول إلى الرواقية فقد واجهته مطالب صارمة : ألا وهى إخضاع الطموح الشخصى لمصلحة الدولة ، والانتصار على الطمع والبذخ ، والتمسك بقيود تنظم تصرف الشخص فى كل مواقف الحياة الخاصة والعامة . ولما كان « بانايتيوس » نفسه أرستقراطياً فقد خرج بتبرير يبرر به وجود المستويات التقليدية للأرستقراطية الرومانية . وكان يأمل بتعليمه إياهم الشعور بالواجبات أن يمهد الطريق لظهور حكومة صالحة تحكم العالم .

الفصل الخامس

تدهور الجمهورية الرومانية وسقوطها : ١٣٣ — ٧٨ ق م

كان استقرار الأحوال النابع من الدستور المختلط ، فى رأى بوليبيوس Polybius هو المأثرة الكبرى للجمهورية الرومانية . ولاشك فى أن الفترة الطويلة التى تولى خلالها مجلس الشيوخ Senatus السيادة عقب الحرب البونية الثانية كانت تتميز بهدوء لم يسبق له مثيل فى شئون السياسة الداخلية ولكنه كان هدوءاً يسبق العاصفة — التى دامت قرنين من الزمن — ولم تنته إلا بعد زوال النظام الجمهورى نفسه .

وما إن حل عام ١٤٠ ق . م حتى كان واضحا أن انتشار الإقطاعيات الكبرى واحتكار مجلس الشيوخ للسلطة السياسية سيواجهان تحديا سافراً، وبالمثل كان واضحاً أن هذا التحدى سيقابل بمقاومة عنيفة وتوضح لنا الصفات الشخصية التى كان يتسم بها زعيما الإصلاح العظيمان الأخوان تيبريوس Tiberius وجايوس جراكوس Caius Gracchus. إن هذا التحدى يجب أن يكون ثوريا فى طابعه وإن الهجوم المضاد له يجب أن يكون عنيفا ولايخضع لأى مبدأ . وقد كان هذان الرجلان ينتميان إلى صلب الطبقة الأرستقراطية التى تعرضا لنفوذها فقد أدى جدهما خدمات جليلة قبل مصرعه فى الحرب البونية الثانية كما كان أبوهما من أبرز القواد وحكام المستعمرات فى عصره ، وكان له سجل حافل فى أسبانيا مقبرة الرومان . وكانت أمهما كورنيليا Cornelia ابنة سكيبيو أفريكانوس Scipio Africanus سيدة رومانية عظيمة الشأن وعلى قسط وافر من الجمال والذكاء وزوجة فاضلة وأما رءوما . ولقد حرصت بعد وفاة زوجها على أن يتلقى ابناها

العلم على أيدى خيرة الأساتذة اليونانيين فى ذلك الوقت . وتزوج تيبيريوس كلاوديا Claudia ابنة ابيوس كلاوديوس Appius Claudius بينما تزوج جايوس Caius ابنة كراسوس موكيانوس Crassus Mucianus الذى عين قنصلا فى عام ١٣١ ق . م واقترنت اختهما سمبرونيا Sempronia بسكيبيو ايميليانوس Scipio Aemilianus .

وقاتل تيبيريوس جراكوس بشجاعة تحت قيادة سكيبيو عند الاستيلاء على قرطاجة Carthage كما اشترك أيضاً فى حصار نومانتيا Numantia بأسبانيا. وكانت خبرته فى أسبانيا هى التى رسمت طريق حياته العملية . ففى طريقه من روما إلى أسبانيا اخترق اتروريا Etruria وشهد الأرض وقد طرد منها مزارعوها الفلاحون تمهيداً لتكوين الإقطاعيات الكبرى المكتظة بجموع العبيد الذين كانوا يعاملون بقسوة ووحشية . وفى أسبانيا تورط فى كارثة حربية حينما اضطر جيش رومانى يعوزه التنظيم الحربى إلى التسليم تحت إمرة القائد مانكينس Mancinus الذى يفتقد إلى الحنكة العسكرية . وأدهى من ذلك وأمر أن المعاهدة التى كان قد عقدها هو نفسه بعد مفاوضات مع عدو كريم — وإن كان ساذجاً — قد خرقها مجلس الشيوخ أمام عينيه وقفل راجعا إلى روما فى وقت كان فقراء المدينة يتأججون غيظا وضيقا ، وسرعان مانشبت حرب العبيد الضروس فى صقلية بعدئذ ولم تخمد نيرانها إلا بعد قتال دارت رحاه ثلاث سنوات . وكان تيبيريوس يرى أن متاعب الدولة مثل هبوط الروح المعنوية فى الجيش وتبرم الفقراء وضيقهم والخطر الناجم عن العبيد الأجانب ترجع كلها إلى وجود الإقطاعيات الكبيرة . وكان علاج ذلك واضحاً وجلياً ألا وهو إعادة توزيع الأراضى وبعث قوة الفلاحين من جديد . ولكن لم يكن من المستطاع تنفيذ برنامج الإصلاح الزراعى إلا على أساس من التأييد الشعبى . ولذلك رشح نفسه لمنصب التربونيه وانتخب تربونا لعام ١٣٣ ق . م . ولم يكن الشعب الرومانى قد رأى زعيما مثله قرنا بأكمله ، بل حتى من الشذرات التى وصلتنا من خطب تيبيريوس

يتضح لنا أن هذا الرجل من أعظم الخطباء الرومان ، فقد قال فى إحدى خطبه « إن للوحوش الضارية مثواها أما الرجال الذين يقاتلون ويلقون حتفهم من أجل إيطاليا فإنهم يعجزون عن أن يدعوا امتلاك شيء غير الهواء وضوء الشمس . . إن قوادكم يحثونكم على القتال من أجل أراضيكم وديارکم . وكلاهما ليس ملكا لكم . . إنكم تقاتلون دفاعا عن ترف الأغنياء وهم يدعونكم سادة العالم ولكن مامن شبر من الأرض يمكنكم أن تزعموه ملكا لكم » . . حقا إن هذه العبارات مؤثرة — حتى فى يومنا هذا — وذلك لما تنطق به من الشعور الصادق والعاطفة الفياضة .

وكان تيبيريوس يحظى فى مجلس الشيوخ بتأييد مجموعة من الأعضاء على رأسهم أبيوس كلاوديوس وكراسوس موكيانوس . وكان من بين مستشاريه الخاصين بلوسيوس من بلدة كوماى Blossius of Cumae الفيلسوف الرواقى وأحد أفراد أسرة ظلت ترتبط فترة طويلة بالحزب الديمقراطى فى تلك البلدة . وربما كان بلوسيوس هو الذى أوضح له مشكلة الإصلاح الزراعى فى السياسة اليونانية . وقانون الإصلاح الزراعى الذى عرضه على الجمعية العامة Assembly يقترح إعادة تطبيق قانون ليكينوس سيكستوس Lex Licinia Sextia الصادر فى عام ٣٦٧ ق . م . الذى بمقتضاه حددت ملكية الفرد الواحد من الأراضى بمقدار ٥٠٠ يوجيرا iugera على أن يسمح للابنين البالغين بامتلاك ٥٠٠ يوجيرا أخرى وبذلك يصبح الحد الأعلى للملكية ١٠٠٠ يوجيرا . وكانت الأراضى الزائدة عن ذلك الحد تسلم إلى السلطات لتقوم بتوزيعها على الفقراء على شكل قطع صغيرة تبلغ مساحة كل منها ٣٠ يوجيرا . وتقرر دفع تعويضات عن الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها ، وتصبح الأراضى التى يحتفظ بها أصحابها ملكا لهم . وتقرر أن تراقب العملية بأكملها لجنة الإصلاح الزراعى التى كانت تتألف من ثلاثة أعضاء .

وربما كان الإصلاح الزراعى فى العالم القديم عادلا ، بل إنه كان بالتأكيد

قنبلة سياسية مثله فى ذلك مثل تحرير العبيد فى جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية أو تحرير رقيق الأرض فى روسيا القيصرية . وكان لمعارضى هذا القانون حججهم ، فلم يكن من المحتمل أن تغطى التعويضات نفقات كافة التحسينات . ففى بعض الأحوال كانت تقبل الأرض كضمان للديون وكانت توجد فى بعض الأراضى مقابر عائلية كان لابد من مصادرتها . وكان للحلفاء الإيطاليين شكواهم العادلة لأن ممتلكاتهم الزائدة عن الحد كانت ستصادر بينما لم يكن ليحصل على أراض جديدة سوى المواطنين الرومان فقط ، وفضلا عن ذلك فقد كانت السلطة تتركز كلية فى أيدى أعضاء لجنة الإصلاح الزراعى . ولكن ما كان يتقدم به تربون كان يستطيع أن يعترض عليه تربون آخر بمقتضى حق الفيتو وقد حث مجلس الشيوخ التربون أوكتافيوس Octavius على الاعتراض على مشروع القانون فى الجمعية وكانت التقاليد الرومانية تقضى فى هذه الحال بإلغاء المشروع ، غير أن تيبيريوس كان لديه مستشاروه اليونانيون الذين كانوا يهدونه إلى المخرج من كل مأزق يتعرض له . وقد جاء فى النظرية الديمقراطية اليونانية أن إرادة الشعب هى صاحبة السيادة ، وكان التربون ينتخب لتنفيذ إرادة الشعب ولو عارضها فإنه يكون مقصرا فى واجبه ويجب استبعاده . وعلى الرغم من أن أصحاب الوظائف العامة magistrates كانوا — من وجهة نظر العرف الرومانى — يعتبرون فى منزلة واحدة فقد كانت الغلبة لمن يمارس حق الاعتراض . وقد فضل تيبيريوس النظرية اليونانية على العرف الرومانى وخلع أوكتافيوس وأصدر القانون وبدأت لجنة الإصلاح الزراعى المشكلة من أبيوس كلاوديوس وتيبيريوس وأخيه جايوس عملها . ولكنها كانت فى حاجة إلى المال كما كانت فى حاجة إلى الوقت أيضاً . أما المال فقد تدفق عليها بغزارة بعد أن آلت مملكة برجاموم Pergamum إلى الشعب الرومانى . وقد أصدر تيبيريوس عن طريق الجمعية مشروع قانون لإقامة ولاية آسيا ووضع الإيرادات الملكية تحت تصرف لجنة الإصلاح الزراعى وهاتان ضربتان شديدتان قد وجهتا إلى امتيازات مجلس الشيوخ . وكى

يوفر الوقت فقد اقترح أن يرشح نفسه ثانية لانتخابه تربونا لعام ١٣٢ق.م وكان هذا خروجا مشئوما على التقاليد الرومانية . وبدأ أعضاء مجلس الشيوخ يفكرون فى أن النظم السياسية اليونانية تنطوى على الطغيان وأن الطغاة يحتلون مراكزهم عادة بتأييد من الشعب . وفى اليوم الذى أجريت فيه الانتخابات قامت ثورات ، وقبضت على تيبيريوس وبعض أتباعه جماعة من الغوغاء من مؤيدى مجلس الشيوخ على رأسها سكيبيو ناسيكا Scipio Nasica وابن عمه وكبير الكهنة وقتلتهم بالقرب من معبد جوبيتر Jupiter وكان تعليق صهره سكيبيو إيميليانوس Scipio Aemilianus بأسبانيا « هكذا يموت كل من يقوم بمثل هذه الأعمال » ثم أوضح تعليقه فيما بعد قائلا « لو كان يهدف إلى الاستحواذ على الحكم فقد حق قتله » .

وظلت لجنة الإصلاح الزراعى تباشر عملها أربعة عشر عاما ابتداء من عام ١٣٣ ق . م . إلى عام ١٢٠ ق . م . وقد جردها سكيبيو ايميليانوس فى عام ١٢٩ ق . م . من سلطاتها القضائية بناء على طلب الحلفاء الإيطاليين كما يبدو ، غير أن أعضاءها كانوا مستترين إلى حد كبير فلم تظهر طوال هذه الفترة سوى ثمانية أسماء فقط . وقد تولى ثلاثة منهم وهم جايوس جراكوس وماركوس فولفيوس فلاكوس Marcus Fulvius Flaccus وبابيروس كاربو Papirus Carbo مناصبهم بصفة مستمرة من عام ١٢٩ ق.م. إلى عام ١٢١ ق.م . ولا غرابة فى أن اللجنة استطاعت أن تعمل فى نشاط وبشكل فعال . ولقد قدر تينى فرانك Tenny Frank أن ٥٠٠٠٠ شخص على الأقل قد حصلوا على مالا يقل عن ٦٠٠٠٠٠ يوجيرا من الأراضى التى أعيد توزيعها أى حوالى ٧ فى المائة من مساحة الأراضى العامة ager publicus وربما كانت ١٠ فى المائة أقرب إلى الرقم الحقيقى . ولقد وجهت ضربة قاصمة إلى الإقطاعيات الكبيرة على الرغم من أن هذه الضربة لم تكن فى عنف الضربة التى كان يريدها تيبيريوس . وقد كشفت أعمال التنقيب عن ثمانى قطع من الأحجار التى كانت تضعها اللجنة لتحديد مساحة الأراضى —

ست منها فى جنوب إيطاليا وواحدة فى الشمال وواحدة بالقرب من قرطاجة وقد استخدمها العالم الفرنسى كاركوبينو Carcopino فى بحث رائع له يلقى ضوءاً جديداً على مشكلة الأخوين جراكوس كلها .

وبعد مضى عامين على اغتيال تيبيريوس توفى سكيبيو ايميليانوس ولكن لا يمكن الجزم بما إذا كان قد قتل أم لا ، غير أن الشائعات كانت تردد أنه كان على وشك تولى منصب عام فى الدولة ، وقد وجد ميتاً وكان يبدو عليه أنه قضى ليلته الأخيرة فى أحسن صحة ، وجاء فى البيان الرسمى أنه مات مريضاً غير أن وفاته ظلت سراً كبيراً فى عصره . ولقد تمثلت فيه فضائل نموذج رائع لأحد النبلاء الرومانيين فى عصر تفوقت فيه الأرستقراطية ، بينما تجلت فى جايوس جراكوس خصائص عصر جديد .

بدأ جايوس جراكوس تنفيذ وصية أخيه بخطى مرسومة ودقيقة على الرغم من أنه كان يعرف أن هذا السلوك كان يعرضه للهلاك . وقد عمل فى لجنة الإصلاح الزراعى ثم اشترك فى الحروب التى دارت فى سردينيا Sardinia. ولم يرشح نفسه للتربونيه إلا فى عام ١٢٤ ق . م ، غير أنه كان قد أعد برنامجه والتأييد اللازم له بدقة وإحكام . وقد كان تيبيريوس يفكر فى الإصلاح الزراعى ولم يحاول أن يتخذ إجراءات أوسع نطاقاً إلا بعد أن تصدت له المعارضة ولكن يبدو أن جايوس كان يدبر من البداية خطة القيام بهجوم أمامى على موقف مجلس الشيوخ عامة . وكى يبدأ هذا الهجوم كون جبهة متحدة كبيرة من الفرسان equites وأصحاب المصالح المالية والتجارية والفقراء فى المدن والحلفاء الإيطاليين . وكان مقدراً أن أصحاب هذه المصالح سيصطدمون فى نهاية المطاف ولكنهم كانوا جميعاً يستفيدون مباشرة بمجرد القضاء على سيادة مجلس الشيوخ . وحيث أن إعادة انتخاب الترابنة أصبحت شرعية فى عام ١٣١ ق . م . فقد كان موقف جايوس أفضل بكثير من موقف تيبيريوس من حيث تنفيذ برنامج للإصلاح على نطاق

واسع ولذلك تميز عاما ١٢٣ ق . م . ، ١٢٢ ق . م . بصدور تشريعات قوية لم تكن روما لتشهدها ثانية حتى دكتاتورية يوليوس قيصر . ولا تسمح المصادر التاريخية بتحديد تاريخ صدور جميع قوانين جايوس وإن كان يمكن فهمها تماما فى ضوء المصالح التى كانت تعمل على خدمتها ، فقد تلقى رجال الأعمال جوائز سخية . وصدر برنامج واسع يشمل الطرق والموانى والأشغال العامة فى إيطاليا حصلوا فى نطاقه على عقود لإنجاز الأعمال، غير أن الضربة القاتلة التى فرضت على النشاط المالى صدرت عن إبرام العقود الخاصة بتحصيل الضرائب فى آسيا . وكان جراكوس يحرص على أن تطرح العقود فى مزاد علنى يقام فى روما على فترات مدة كل منها خمس سنوات . وكان المقاولون Publicani الذين يؤول إليهم العطاء يستحوذون على سلطة حالية خاصة أشبه بالسلطة التى كانت تتاح لشركة الهند الشرقية فى القرن الثامن عشر أو بامتيازات بترول الشرق الأوسط فى الوقت الحاضر ، وفضلا عن ذلك فقد ضمن لهم جراكوس فرص الربح التى لم يعترض طريقها أى اهتمام بحقوق سكان الأقاليم وقد كانت هناك بالفعل محاكم ابتزاز الأموال de repetundis للنظر فى الاتهامات الموجهة ضد المسئولين الرومانيين فى الأقاليم . وبمقتضى قانون أكيليوس Lex Acilia الذى مازال نصه محفوظا فى شذرات من البرونز فى متحف نابلى تقرر اختيار محكمى هذه المحكمة من الفرسان . وعلى ذلك كان الحاكم الذى يتحدى رجال الأعمال فى ولايته يحاكم على أيديهم بعد عودته . وكان السبيل مفتوحا أمام استغلال الولايات فكان هذا أسوأ الخصائص التى تميزت بها الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية .

وقام جايوس بتعزيز لجنة الإصلاح الزراعى لصالح فقراء المدينة وذلك بإعادة السلطات القضائية إليها ثم قرر توزيع الغلال على الشعب بأقل من نصف سعر السوق بمقتضى قانون الغلال Lex frumentaria ومثل هذا الإجراء لم يسبق له مثيل. وكان هذا ، بالنسبة لفقراء روما ، خطوة عظيمة فى سبيل الوصول بالدولة إلى مستوى الرفاهية على الرغم من أنه لم يكن يمس الفلاح

الإيطالى . وقد ظل توزيع الغلال فى روما بسعر مخفض أولا ثم مجانا فيما بعد مستمرا حتى آخر عصر الإمبراطورية . وكان له أثر عميق على الزراعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط كله .

وجنباً إلى جنب مع هذه الإجراءات ظهرت خطط تقدمية لإقامة المستعمرات وكان بعضها جديداً على روما كما كانت هذه المستعمرات مخصصة للتجارة دون الزراعة . وكانت ساتورنيا Saturnia فى تارنتم Tarentum ويونونيا Junonia فى قرطاجة المشئومة من المستعمرات المقترحة لهذا الغرض .

وبالنسبة للمواطنين الإيطاليين فقد عرضت اقتراحات سخية لتوسيع نطاق الامتيازات التى كانت ستمنح حقوق المواطنة الرومانية لجميع اللاتينيين وتمنح حقوق المواطنة اللاتينية لجميع سكان إيطاليا حتى جبال الألب . وهذا أمر لم يتحقق إلا فى عهد يوليوس قيصر .

تلك بصورة عامة النقاط الأساسية فى تشريع جايوس جراكوس ولم يسبق ان تولى أى تربون آخر مثل هذه السلطات ، غير أن مجلس الشيوخ كان قد تعلم درساً منذ عهد تيبيريوس . وقام للمرة الثانية باستغلال سلطة أحد الترابنة للوقوف فى وجه التربون الآخر لا ليعترض هذه المرة على زميله ، بل ليتفوق عليه واقترح ماركوس ليفيوس دروسوس تكوين اثنتى عشرة مستعمرة لا ثلاث فقط كلها فى إيطاليا أو صقلية ، ولا يشترط فى سكانها أية شروط مادية ولا يدفعون أية إيجارات مقابل استغلالهم للأراضى ، وفقد جايوس بعض التأييد الشعبى نتيجة لهذا الاقتراح ، وفقد عندما خرج فى رحلة تفتيشية إلى قرطاجة قدراً أعظم فقد استغلت دعاية مجلس الشيوخ نذر الشؤم التى أعقبت استهتاره بلعنة سكيبيو . وأهم من ذلك تذكر الشعب الرومانى الغلطة التى ارتكبت عندما شاركه الإيطاليون امتيازاتهم فتصدع الائتلاف ولم يعاد انتخاب جايوس تربونا لعام ١٢١ ق . م . فقد

أجريت الانتخابات فى جو مشحون بالتوتر الشديد وأعقبتها مظاهرات صاخبة ، وأعلن مجلس الشيوخ الأحكام العرفية وشن هجوما على حزب جراكوس فى معقله على تل الأفنتين Aventine وقتل جايوس نفسه حينما كان يحاول الفرار من المدينة ، وخلع ثلاثة آلاف من أعوانه فى عمليات التطهير التى أعقبت ذلك . وعرفانا بالجميل وهب مجلس الشيوخ معبداً جديداً لإله الوفاق Concord .

ومن الإنصاف أن يكون الحكم على رجل السياسة على أساس الظروف السائدة فى عصره غير أن المصادر التى وصلتنا متأخرة عن عصره بزمن طويل كما أنها متحيزة إلى درجة لا تؤدى إلى إصدار حكم عادل على بواعث الأخوين جراكوس وسياستهما ولكن لا يمكن أن يتطرق الشك فى الأثر الثابت الذى تركاه فى الجمهورية الرومانية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الانقسامات التى نشبت داخل الدولة عميقة ولا يمكن معالجتها . وكان الصراع الحزبى لا ينقطع كما أن الحرب الأهلية أدت إلى إدخال أساليب جديدة على السياسة الحزبية، وفضلا عن ذلك فقد كان كل حزب يهدف إلى الاستحواذ على السيادة المطلقة وسحق معارضيه . وأدى ذلك إلى تركيز سلطات غير عادية فى أيدى أبطال الحزب ألا وهى قنصليات ماريوس الستة ودكتاتوريات سولا وقيصر . وفى البداية كانت الأحزاب هى التى تخلق الأبطال ولكن فيما بعد استخدم الأبطال الأحزاب لتحقيق أهدافهم الخاصة ، ولذلك ظلت الثورة قائمة طوال المائة عام التى بدأت بموت تيبيريوس جراكوس وانتهت بمعركة اكتيوم ولم يخمد أوارها إلا بعد أن أطاحت بالنظام الجمهورى . وكان هذا القرن من حياة الجمهورية أحرج فترة مر بها التاريخ الرومانى . وتعوزنا المصادر التاريخية بالنسبة لحقبة من هذا القرن فى حين أنها بالنسبة لحقبة أخرى أكثر بكثير عنها فى أية فترة من فترات التاريخ الأوربى فيما قبل القرن السابع عشر . ولن نحاول هنا إلا أن نلقى نظرة عامة على أهم الموضوعات .

وينقسم هذا القرن إلى فترتين : الأولى من الأخوين جراكوس حتى سولا (١٣٣ ق . م . — ٧٨ ق . م .) والثانية من سولا حتى معركة اكتيوم (٧٨ ق . م — ٣١ ق . م) .

أما الفترة التى كان لمجلس الشيوخ فيها السيادة والتى أعقبت وفاة جايوس جراكوس فهى فترة يكتنفها الغموض ، وثمة إجراءان جديران بالاهتمام وهما أولا إلغاء لجنة الإصلاح الزراعى وإيقاف العمل بقوانين جراكوس الزراعية تدريجيا ثم إلغاؤها أخيراً فى عام ١١١ ق . م . وثانيا إقامة ولاية جاليا ناربونسيس Gallia Narbonensis فى وادى الرون وجعل مستعمرة ناربو Narbo الكبرى عاصمة لها (عام ١١٨ ق . م) وكان هذان الإجراءان مرتبطين ارتباطا وثيقا ، وكان لإصلاحات جراكوس دور كبير فى تخفيف جشع الفقراء الرومان الطبيعى لتلك الأرض . وعندما أضيف إلى هذين الإجراءين فتح وادى «البو» تدريجيا وإتاحة فرص الاستيطان الجديدة فى ناربونسيس هدأ جشعهم لعدة سنوات ، وقد حلت المشكلة التى كانت قائمة فى أيام تيبيريوس على الرغم من عدم إحياء الاقتصاد الزراعى فى إيطاليا تماما . وعندما نسمع عن توزيع الأرض ثانية فإنه فى هذه المرة كان لصالح الجنود المسرحين .

وكان الحدث الهام فى تلك السنوات هو الحرب الناشبة ضد يوجورثا وعلى الرغم من أنها لم تكن حربا خطرة فقد ظلت مستعرة الأوار لفترة طويلة من الزمن عادت بالضرر على نفوذ الطرف الأقوى كما حدث تماما لنفوذ بريطانيا فى حرب البوير ولكنها قادت ماريوس إلى القنصلية وإلى تولى أول منصب خطير فى السياسية الرومانية يتوقف كلية على السيطرة على الجيش — ذلك المنصب أصبح شؤما على البلاد فيما بعد . وكان ينحدر جايوس ماريوس من أسرة ريفية من أربينوم Arpinum وقد خدم فى الجيش تحت إمرة سكيبيو فى القتال الذى دار فى نومانتيا Numantia

وأثار أنتباه ذلك القائد المحنك القدير بشجاعته الشخصية وجودة أسلحته وسلامة حيواناته . وانتخب تربونا لعام ١١٩ ق . م . ثم أدى واجبه خير أداء عندما عين « برايتور Praetor » فى أسبانيا . وانتخبه الديمقراطيون قنصلا فى عام ١٠٧ ق.م لإنهاء الحرب الأفريقية التى لم تكن تبدو لها نهاية . وقد حقق ذلك خلال عامين بفضل جيش المتطوعين الجديد الذى تم إعداده من بين فقراء روما والذى قام هو نفسه بتدريبه على الأساليب الحربية الجديدة . وكانت هذه أولى مرحلة من مراحل إصلاحاته الكبرى التى عمل بها ماريوس على تطوير الجيش الرومانى وتحويله من جيش يستخدم فى وقت الحرب فقط إلى قوة فنية تخدم لفترة طويلة من الزمن .

وقبل نهاية الحرب فى أفريقيا انبثق خطر رهيب جديد على الحدود الشمالية وهو الغزو الهائل الذى قام به البرابرة الشماليون الشبيه بالغزوات التى قام بها القوطيون Goths وشعوب الفاندال Vandals ولم يكن الرومان فى ذلك الوقت يعرفون شيئا عن شعوب أواسط وشمال أوربا وأساليبهم السياسية . وكانت هذه الإغارات مفاجئة بقدر ما كانت مرعبة . ويبدو أن الكمبرى Cimbri والتيوتن Teutoni وهكذا كان يطلق على الشعبين الكبيرين اللذين نحن بصدد الحديث عنهما الآن — قد نزحوا من اسكنديناوة وما زال بعض الأماكن فى سبه جزيرة الدانمرك تحمل حتى الآن أسماءهم تخليدا لذكراهم ولقد شقوا طريقهم تدريجيا وببطء من نهر البى Elbe إلى الدانوب Danube (عام ١١٣ ق . م . ومن هناك إلى شمال الألب حتى بلاد الغال Gaul حيث أبادوا جيشا رومانيا فى كارثة أراوسيو Arausio الرهيبة (التى يطلق عليها الآن أورانج) فى عام ١٠٥ ق . م . وربما كانت لتقع أكبر كارثة لو أنهم هاجموا إيطاليا فى ذلك الوقت ولكنهم بدلا من ذلك اتجهوا إلى أسبانيا واصطدموا بالكلتيبريين Celtiberians الأحرار القاطنين خارج الولاية الرومانية وهم محاربون أشداء مثلهم .

وقضت روما فترة من الراحة استغلها ماريوس أحسن استغلال ، ولقد أعيد النظر فى التنظيمات الخاصة بجميع وحدات الجيش الرومانى وارتفع مستوى تسليحه وأصبح جميع المشاة فى ذلك الوقت يستخدمون السلاح الأبيض (السنكى gladius) و(الحربة pilum) واختفت التنظيمات الصغيرة من المشاة maniples وظهرت وحدات أحدث وأكبر مثل الكتيبة . وكانت كل عشر كتائب تؤلف فرقة legio وباعتبار الفرقة بؤرة يتجمع فيها المحاربون المخلصون للحكومة فقد أصبحت تحمل النسور أو الأعلام التى تميزها . ولما كانت الفرقة تقوم ببعض المهام المدنية إلى جانب كونها قوة هجومية من المشاة المحاربين فقد كان جميع الجنود يحملون معهم أدوات الحفر ، وكان الجندى الذى يحمل معدات وزنها ثمانون رطلا فوق ظهره ، والمدرب على السير أربعين ميلا كل يوم — كان له الحق فى أن يدعو نفسه « بغل ماريوس » Mulus Marianus وأن يحتفظ فى ذهنه دائما بذكرى ذلك الحيوان الذى شاهده سكيبيو فى إحدى الاستعراضات فأثار إعجابه . وكانت مدة خدمة الجندى فى الجيش ستة عشر عاما وكان ولاؤه يتحول تلقائياً إلى من كانوا يقودونه فى ميدان القتال . وكان الجيش الرومانى فى أواخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية هو نفس ذلك الجيش الذى أعاد ماريوس تنظيمه .

وفى عام ١٠٢ ق . م . ظهر الكمبرى والتيوتون فى بلاد الغال ثانية وكانوا فى تلك المرة قد عقدوا العزم على غزو إيطاليا . ولقد انقسمت حملة البرابرة إلى جيش التيوتون ويقومون بالهجوم من الشمال الغربى والكمبرى من الشمال الشرقى . وكان ماريوس على أهبة الاستعداد لصدهم ولقد أباد تماما المهاجمين من الغرب أى التيوتون بالقرب من ايز ان برفانس Aix-en-Provence أى أكواى سيكستياى Aquae Sextiae فى معركة رهيبة ما يزال يحتفل بذكراها شعب تلك المنطقة . وبعـــد مضى بضعة أشهر

وبمساعدة كاتولوس Catulus له أحرز ماريوس أيضاً نصراً مبينا ضد الكمبرى بالقرب من فركيلاى Vercellae ووادى البو وهكذا لاح خطر البرابرة ثم ولى ثانية، مثله فى ذلك مثل أية كارثة من كوارث الطبيعة .

وكان الذى هدد روما فى المرة التالية هو مخلصها ، فلم يسبق أن تولى أحد منصب القنصل أربع مرات متتالية كما تولاها ماريوس من عام ١٠٤ ق.م إلى عام ١٠٧ ق . م . وما كانت هذه القنصليات الأربع إلا دكتاتورية عسكرية . وكان الخطر الصادر عن الكمبرى هو المبرر لتولى ماريوس القنصلية أربع سنوات متتالية ولكن بعد زوال هذا الخطر لم يكن ماريوس على استعداد للتخلى عن المنصب ، فقد كان طموحه الشخصى متطرفا كما كان يؤمن بنبوءة قالت إنه سيتولى منصب القنصل سبع مرات . ولكن لسوء الحظ كانت قدراته السياسية ضئيلة، بل من العدالة أن يعتبر ماريوس أقل كفاية من جميع العسكريين الذين ثبتت عدم كفايتهم فى السياسة ، فقد تحالف مع ساتورنينوس Saturninus وجلاوكيا Glaucia الديمقراطيين المتطرفين ليتولى منصب القنصلية للمرة السادسة فى عام ١٠٠ ق . م وقبيل نهاية ذلك العام تخلى عنهما وأصبح يطاردهما على أنهما من أعوان مجلس الشيوخ وقبل انقضاء عامين على هزيمة الكمبرى كان ماريوس خارج القنصلية لا يملك شيئا سوى سمعته وطموحه وآماله فى الانتقام وفى ذلك الوقت كان موضوع منح الإيطاليين حقوق المواطنة يزداد حدة ، فمنذ ربع قرن مضى كانت أنانية عامة الشعب فى روما قد منعت « جايوس جراكوس » من أن يكون كريما فى حل هذه المشكلة ومنذ ذلك الحين لم يجد شىء على المشكلة ولم يكن فى نية الإيطاليين الانتظار وكانوا دائما يحظون بتجاوب المستنيرين من أعضاء مجلس الشيوخ .

. . . . .

وفى عام ٩١ ق . م . عندما أصبح ماركوس ليفيوس دروسوس Marcus Livius Drusus — ابن دروسوس المعاصر لجايوس جراكوس

تربيونا اقترح إصدار سلسلة من التشريعات المعقدة وكانت تتضمن تحرير الإيطاليين من القيود المفروضة عليهم وتحويل سلطة الإشراف على محاكم ابتزاز الأموال من الفرسان إلى مجلس الشيوخ وقد دعت الحاجة إلى مثل هذه التشريعات بسبب قضية معروفة سبقت ذلك بعامين ، وهى محاكمة روتيليوس روفوس Rutilius Rufus الذى اجترأ على مقاومة أصحاب المصالح التجارية عندما كان حاكما لآسيا فقد اتهم بإصدار تصريح مهين وأدى ذلك إلى نفيه ، ونزل ضيفاً مكرماً على الشعب الذى كان من المفروض أن يستغله ، وكان دروسوس يأمل حينئذ فى تشكيل ائتلاف من جناح الأحرار فى مجلس الشيوخ ومن الحزب الديمقراطى لتحطيم نفوذ الفرسان equites وبذلك أثار ضده أقوى ائتلاف فى روما يضم العناصر الانتهازية فى جميع الأحزاب ، وانتهى الأمر باغتيال دروسوس مما اضطر الإيطاليين إلى الاعتماد على أنفسهم . فتألف اتحاد من شعوب وسط وجنوب إيطاليا وأرسل وفد إلى روما ليعرض مطالبها ولكن مجلس الشيوخ رفض الإصغاء إليه .

إن أنانية الرومانيين حققت ما عجز هانيبال Hannibal عن تحقيقه . فقد انحل الاتحاد الرومانى وانفصل الحلفاء من الاتحاد وتبع ذلك نشوب حرب أهلية دامية ومقارنة هذه الحرب بالحرب الأهلية الأمريكية مقارنة مناسبة ولا مفر منها . فقد تجلت فى كليهما الشجاعة الفائقة ودارتا بين شعوب ترتبط بصلة الدم وتؤمن بنفس المبادئ السياسية مهما تعارضت مصالحهم الاقتصادية فقد وضعت الأنظمة السياسية فى الاتحاد الإيطالى على نسق أنظمة روما فكان بها مجلس للشيوخ يضم خمسمائة عضو وقنصلين ولجنة مكونة من اثنى عشر بريتورا وأصبحت مدينة كورفينيوم Corfinium التى أطلق عليها اسم إيتاليكا فيما بعد — هى العاصمة الاتحادية . واشتبكت الجيوش الإيطالية مع روما فى حروب دامت ثلاث سنوات (٩١-٨٨ق.م) نجد أن نهاية الحرب الاجتماعية Social War كانت مختلفة تماما عن نهاية الحرب

الأهلية الأمريكية فقد كانت مطالب هؤلاء المنشقين من العدالة اللازمة حتى إن روما اضطرت إلى الاعتراف بها ، فقد منحت حقوق المواطن كاملة لجميع الايطاليين الذين اشتركوا فى الثورة ثم استسلموا . وبعد ذلك بمقتضى قانون بلاوتيوس بابيروس Lex Plautia Papiria — شملت هذه الحقوق جميع الايطاليين الذين انسحبوا من الثورة ومثلوا أمام أى برايتور فى روما خلال ستين يوما . لقد نجحت هذه الامتيازات فى كسر شوكة مقاومة الإيطاليين بينما لم تنجح القوة العسكرية فى ذلك ، ولم يواصل القتال إلا السامنيون تحت قيادة زعيمهم العظيم بونتيوس تلسينوس Pontius Telesinus فقد كان من الصعب إرضاؤهم . وهكذا كسبت روما المعركة بينما كسبت إيطاليا السلام وشملت حقوق المواطنة الرومانية كل أنحاء شبه الجزيرة وكان الثمن باهظا لاداعى له .

ولم يقتصر الأمر فى إيطاليا فقط على رجوع بعض العناصر البكرية إلى ديارها ليعيثوا الفساد فى ذلك الوقت ، بل إن مركز روما فى الشرق أصبح مهددا من جانب أخطر عدو أجنبي اضطرت إلى مواجهته منذ هانيبال وهو ميثريداتيس السادس Mithridates VI ملك بونتوس Pontus . كان تغلغل الرومان فى شئون المال والتجاره فى آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط عميقا وبعيد المدى خلال الخمسين عاما التى بدأت بوراثة روما لمملكة أتالوس Attalus ومنذ تدهور أهمية جزيرة رودس Rhodes أصبح ميناء ديلوس Delos الحر الميناء الأول فى البحر الإيجى والمركز الرئيسى لتجارة الرقيق ، وتوضح لنا دراسة النقوش التى اكتشفت فى ديلوس أن هذا الميناء كان يضم فى ذلك الوقت عددا كبيرا من التجار وأصحاب السفن الوافدين من إيطاليا ولاسيما من جنوبها . وكانت هناك مستعمرة رومانية فى أثينا كما كان هناك تجار رومانيون وإيطاليون فى دلفى Delphi وارجوس Argos وكثير من الجزر ، وقد احتكر المواطنون الرومانيون الصفقة المالية

الكبرى ألا وهى عقد جباية الضرائب فى آسيا كما رأينا من قبل ، فلم تبذل أية محاولة لمنعهم من استنزاف دماء الشعب إلا فى ولايات روتيليوس روفوس وكان لهم أعوان من الإيطاليين أو السكان المحليين فى كل مدينة آسيوية ، وكان هناك بجانب جباية الضرائب نظام القروض والرهونات العامة والخاصة على نطاق واسع ومربح. وكان ذلك الاستغلال المالى كالأخطبوط الذى تمتد أطرافه إلى ماوراء الأراضى الرومانية فى الممالك المجاورة لها مثل بيثونيا Bithynia وهكذا توافرت العوامل الهامة اللازمة لانفجار الشعور المعادى لروما فى عنف وشدة .

كانت مملكة بونتوس Pontus القديمة تحتل الساحل الجنوبى الأوسط للبحر الأسود وكانت تنعم بقدر وافر من الغنى والثراء إذ كانت أشجار الصنوبر على تلال البونتوس Pontic hills تنتج أجود أنواع الأخشاب الصالحة لبناء السفن فى العالم القديم وربما وجدت بها أيضاً أول مناجم للحديد استغلها الإنسان وهى مناجم منطقة خالوبيس Chalybes - تلك المنطقة التى وردت فى الأساطير اليونانية فى صورة شبه خرافية . ومنذ عهد الإسكندر ظل يحكم هذه المملكة عدد من الملوك يحملون اسم ميثريداتيس ويدعون انتسابهم إلى الأسرة المالكة القديمة فى بلاد فارس وكانت عاصمتهم سينوبى Sinope المستعمرة اليونانية والمركز التجارى الهام — كما كانت لهم أيضاً مدن يونانية أخرى على طول الساحل كان ميثريداتيس الخامس صديقا للرومان منذ ظهورهم فى آسيا لأول مرة وبذلك تمكن من بسط مملكته على حساب جيرانه . وكان ابنه ميثريداتيس السادس الأكبر أكثر طموحا من أبيه فقد انتهت حملاته على الساحل الشمالى للبحر الأسود بضم أراض شاسعة من إقليم القرم Crimea وجنوب أوكرانيا Ukraine إلى مملكته كما كانت هذه — المناطق الجديدة تمد جيشه بالجنود وحققت له

السيطرة على تجارة الغـــلال الواردة من روسيا ومصايد الأسماك فى بحر ازوف Azov .

أصبح ميثريداتيس يسيطر على أقوى مملكة فى الشرق بعد أن وصلت سوريا إلى آخر مرحلة من مراحل التدهور ، وقبل ظهور بارثيا Parthia فى الأفق .

ولما استولى الذعر على روما شجعت ملك بيثونيا على الزحف ضد ميثريداتيس غير أن الحرب الاجتماعية نشبت بعد ذلك فى إيطاليا وحانت حينئذ الفرصة لميثريداتيس إذ أن طرد الرومان من آسيا يجعله أكبر الحكام الآسيويين الذين ظهروا منذ عهد أنتيوخوس Antiochus الثالث فى سوريا وكان أعوانه على اتصال بالأحزاب الديمقراطية المناهضة للرومان فى جميع أنحاء سوريا واليونان ، وفى عام ٨٨ ق.م هاجم ميثريداتيس آسيا بجيش جرار واكتسح قوات الحاكم الرومانى الضعيف وسيطر حينئذ على الولاية وكانت خطوته التالية هى تدبير مذبحة تعد من أكبر المذابح التى حدثت فى العصور القديمة وأدقها تنفيذا ففى يوم واحد قتل جميع الرومان والإيطاليين من الرجال والنساء والأطفال والعبيد المقيمين فى كل أنحاء آسيا مستخدما فى ذلك جميع ألوان الوحشية وتراوح عدد القتلى بين ٨٠٠٠٠ ، ١٥٠٠٠٠ شخص وصودرت أملاكهم لصالح الخزانة الملكية وقتل معهم أيضاً كثير من الأثرياء الآسيويين إذ جاء فى البيان الملكى أن كل مدين يقتل دائنه يعفى من تسديد نصف الدين المستحق عليه . ولاشك فى أن هذا البيان كان يحرض الناس على القتل . وهكذا خسرت روما آسيا وقد أصبحت خزائن روما خاوية تقريبا بعد أن حرمت من الضرائب التى كانت تحصل من آسيا وأفلس كثير من التجار بعد أن انقطعت اتصالاتهم بآسيا ، وعلى ذلك أصبحت ضرورة القضاء على ميثريداتيس عاجلة ولا تقل أهمية عن ضرورة إنهاء الحرب الاجتماعية . ولكن ترى من ذا الذى كان يتولى تلك القيادة الخطيرة فى الشرق ؟ .

لقد وقع اختيار مجلس الشيوخ على لوكيوس كورنيليوس سولا Lucius Cornelius Sulla أحد القنصلين لعام ٨٨ ق ٠ م . وكان فى ذلك الوقت مع جيشه فى كمبانيا Campania وقد برز سولا فى أثناء خدمته فى الجيش تحت قيادة ماريوس Marius أثناء الحرب ضد يوجورثا Jugurtha والكمبرى وكان أكثر القواد الرومانيين توفيقا فى الحرب الاجتماعية ولكن بالطبع كان ماريوس يطمع أن يتولى هو نفسه القيادة فى الشرق على الرغم من أنه كان فى ذلك الوقت غير لائق من الناحية الجسمانية وكان مدمنا للخمور وأقرب إلى الجنون كما كان فى سن السبعين تقريبا . فأصدر سولبيكيوس Sulpicius التربيون قرارا عن طريق الجمعية يقضى بإسناد القيادة إلى ماريوس بدلا من سولا . ومضت الأحداث فى سرعة خاطفة فقد عاد سولا فى الحال إلى جيشه فى كمبانيا وقاده ضد روما واستولى على المدينة وطرد الديمقراطيين وأعدم سولبيكيوس ونفى ماريوس . وبعدئذ أبحر إلى اليونان لمحاربة ميثريداتيس على رأس جيش يتألف من ٣٠٠٠٠ جندى فقط . ولم تمض بضعة شهور حتى استعاد الديمقراطيون نفوذهم وعاد ماريوس إلى روما ومضى يسحق أعداءه فى كل حدب وصوب وأقام حكم الإرهاب — ولكنه كان قصير الأجل . إذ مات ماريوس ولم تمض على توليه القنصلية للمرة السابعة ، كما حكم القدر عليه ، سوى أيام قلائل .

كان الديمقراطيون يسيطرون على زمام الأمور فى قوة وعزم وأصبح سولا بعد انقطاع الإمدادات والأموال عنه يواجه فى اليونان عددا يفوقه قوة وبأسا . وكان الصمود أمام هذه الظروف يتطلب رجلا شجاعا جريئا وكان « سولا » هو ذلك الرجل إذ أنه كان يثق بنفسه وبقدرته .

وبعد أن تحطم البنيان التقليدى للأرستقراطية الرومانية أصبحت شخصيات الرجال الذين يستحوذون على السلطة العليا هى العوامل الرئيسية

فى تشكيل التاريخ ولحسن الحظ أن سير العظماء الرائعة التى كتبها . بلوتارخ Plutarch تمكننا من فهم بعض رجال العصر الأخير من عصور الجمهورية فهما عميقا — أمثال ماريوس — سولا — بومى — كراسوس شيشرون وقيصر . وتعتبر حياة « سولا » من أروع هذه السير . فهى تجسم لنا شخصية رجل من نوع يندر وجوده فى يومنا هذا وإن لم يكن شاذا فى التاريخ الرومانى فهى شخصية الرجل الذى يجمع بين حياة العمل وحياة اللهو بنفس القدر تقريباً . فى ميدان القتال كان رجلا لا يبالى بالصعاب والمشاق ولا يخشى شيئاً ، رجلا يتبعه الجنود أينما ذهب ، بينما خارج نطاق العمل كان يميل إلى مصاحبة الممثلين والعاهرات ويقول عنه بلوتارخ « إنه بمجرد جلوسه لتناول العشاء كان لا يأخذ شيئاً مأخذ الجد » ولكن على الرغم مما كان قد يبدو عليه من دماثة الخلق فقد كان متعطشا لإراقة الدماء بصورة لم تظهر على أى رومانى إلا فى معاملته لأعداء روما . وعندما كان يتأزم الموقف لم يعترض طريقه أى حائل على الأرض أو فى السماء . فتحت وطأة الأزمة المالية التى عاناها وهو فى اليونان صادر كنوز المعابد دون أن يتراجع أمام رهبة أقدس المعابد جميعاً وهو معبد الإله « أبوللون » فى دلفى ، ووضح فى خطاب منه إلى الكهنة أن كنوز المعابد ستكون فى مأمن معه (لو أنه احتفظ بها) أما إذا باعها فسوف تحل محلها كنوز أخرى . وكان فى نفس الوقت يرسل أحد عملائه ليقوم بوزن هذه الكنوز وتقدير قيمتها غير أن العميل نفسه كان يتردد فى لمس هذه الكنوز المقدسة وأشار الكهنة إلى نذر الشر التى قد تحدث فقد انطلق صوت القيثارة وتفسير ذلك أن الإله قد أتى إلى معبده .. وعلق سولا قائلا إن هذا صحيح ولكنهم أخطأوا فى تفسيرهم لهذه الظاهرة فالموسيقى علامة الفرحة لا الغضب فقد كان الإله فى غاية السرور لهذا الاقتراح فدعهم يحضرون إلى عملهم دون خوف . وهكذا كان يسيطر على حياة سولا اعتقاده بأنه خليل الحظ السعيد وصفى القدر وعرف باسم سولا المحظوظ Sulla Felix

(هكذا سمى نفسه فيما بعد) وكلما كان يتصرف بجرأة وشجاعة كان الصواب حليفه .

كان قتاله ضد « ميثريداتيس » يحتاج إلى كل مقومات الحظ فقد أعلنت أثينا انضمامها لميثريداتيس واحتلتها قوة من مملكة بونتوس واستخدمتها كرأس جسر لها وسيطر أسطول على البحر الإيجى وخسرت روما معظم الجزر وتعرضت ديلوس للهجوم ودمرت ولكن سقطت أثينا فى يد سولا بعد عملية حصار تعد من أشهر العمليات التى أجريت فى التاريخ القديم وأسفر الحصار عن خسائر هائلة فى الأرواح وعن تدمير الكثير من آثار المدينة التاريخية . وقد أبيدت الجيوش فى معركتين داميتين بشمال اليونان عندما سلكت الطريق المشهور الذى سلكته الجيوش الفارسية الغازية . وازدادت الأمور تعقيدا عندما وصل جيش رومانى ثان كانت قد أوفدته الحكومة الديمقراطية وما من أحد عرف بالضبط الدور الذى سيلعبه هذا الجيش ولكن يبدو أنه قد تم الوصول إلى اتفاق سرى بين سولا وفلاكوس Flaccus قائد هذا الجيش الذى قام بعدئذ بخدمة جليلة عندما طرد قوات مملكة بونتوس خارج إقليم مقدونيا ثم غزا آسيا واستولى هذا الجيش نفسه تحت قيادة قائد جديد يدعى فيمبريا، على مدينة برجاموم وكاد يلقى القبض على ميثريداتيس . وكان هذا ما لا يرضاه سولا إذ أنه لم يكن بينه وبين فيمبريا أى تفاهم ولم يكن يستطيع أن يترك جيشا ديمقراطيا ينعم بشرف استرداد آسيا . أما ميثريداتيس فقد كان فى حاجة إلى الراحة فقد خسر جيشين كبيرين كما فقد معظم فتوحاته . ولذلك أبرم سولا والملك (ميثريداتيس) معاهدة « داردانوس Dardanus عام ٨٤ ق . م . بمقتضاها تنازل الملك عن جميع فتوحاته ودفع تعويضا واحتفظ ببونتس ثم اعترف به صديقا وحليفا لروما وقد وجه الكثير من النقد إلى شروط المعاهدة غير أنها كانت أفضل ما يمكن أن ينجزه سولا فى ذلك الوقت ، ومنحته

هذه المعاهدة ماكان يطمع فيه ألا وهو فرصة الحصول على شرف استرداد آسيا وعندما ظهر سولا فى آسيا وعسكر بجوار قوات فيمبريا اندمج الجيشان وامتزجا وأصبحا جيشا واحدا ولم يجد فيمبريا أمامه سبيلا بعد أن هجره جيشه سوى الانتحار . وعلى ذلك كان سولا هو الذى تفاوض مع مدن آسيا فى المؤتمر العام الذى عقد فى أفيسوس Ephesus للوصول إلى تسوية الموقف . ولم تكن الشروط خفيفة الوطأة وكانت فى الواقع مطالبة بدفع تعويض كبير ودفع الضرائب لمدة خمس سنوات تسدد كلها على الفور . أما بالنسبة للآسيويين المغلوبين على أمرهم فكانت هذه المطالب هى أقصى ما توصلت إليه أعمال الابتزاز التى كان يقوم بها المقاولون الرومانيون وميثريداتيس الذى لم يكن متساهلا فى الالتزامات التى فرضها عليها . والأبعد من ذلك كانت هناك مطالب قوات سولا التى بجوار إجادتها لجميع فنون الحرب كانت تجيد تماما استخدام جميع الوسائل التى باستخدامها تستطيع القوة المحتلة إثراء نفسها . وليس غريبا أن إقليم آسيا بدأ يعانى تدهورا اقتصاديا استمر حتى بداية عصر الإمبراطورية .

وبعد ذلك لم تبق إلا مشكلة واحدة وهى شروط سولا للعودة إلى إيطاليا ولفترة ما كان الموقف متميعا وكل فرد لا يثق بالآخر ولكن الأمر المسلم به هو حاجة روما إلى كل من سولا وجيشه معـــا وكراهية السامنيين الذين كانوا ما يزالون فى قتال مع روما . ولكن المفاوضات التى أجريت لضمان عودته دون معارضة انقطعت فدخل سولا إيطاليا ثانية كعدو سافر للديمقراطيين وغريما لمجلس الشيوخ . وتبع ذلك الجولة الثانية للحروب الأهلية وانتهت بأقصى معركة مر بها سولا فى حياته . فقد حارب جيش السامنيين بقيادة بونتيوس تليسينوس Pontius Telesinus عام ٨٢ ق . م على أسوار روما خارج بوابة الكولين Colline gates وكان يبدو لفترة طويلة أن السامنيين سيحرزون النصر ولو تم انتصارهم فعلا لدمروا روما ولكن عندما حالف النصر سولا أخيرا ذبح كل السامنيين

الذين لم يقتلوا فى المعركة باعتبارهم أسرى حرب . وهكذا أبيد آخر جيش من جيوش السامنيين الخطيرة .

حينئذ أصبحت لسولا وأنصاره السيادة المطلقة فى روما ومضوا فى إظهار سيادتهم بقسوة ووحشية أصبحت مثلا يحتذى فى جميع المحاولات المماثلة التى حدثت فيما بعد . أسبغ سولا على مركزه الصفة الشرعية بأن أعاد لمصلحته الخاصة منصب الدكتاتور القديم الذى ظل مهملا منذ الحروب البونية الثانية ومن دلائل الخطر أنه لم تتحدد مدة تولى هـــذا المنصب ، كما كانت تغفر للدكتاتور جميع الأعمال التى يقوم بها فى الحاضر والمستقبل . وهكذا أطلق العنان لحكم سولا الإرهابى وكان من المنتظر أن يقتل معارضيه السياسيين كما فعل ماريوس من قبل ، غير أن سولا ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير إذ قتل الذين لم يشتركوا فى السياسة بتاتا وسرعان ما اتضح أن الدوافع الحقيقية لذلك العمل كانت دوافع مالية إذ أن أنصار سولا كانوا يطمعون فى الثراء مستندين إلى ممتلكات ضحاياه . وعندما قامت محاولة لكبح جماحه واجهها بأسلوب جديد من الغدر والشر ألا وهو إصدار قائمة التجريد من الحقوق Proscription list إذ كانت تظهر أسماء الضحايا المتوقعين فى جريدة رسمية تنشر فى السوق العالمية Forum وكان المذكورون فى هذه القائمة يعتبرون خارجين على القانون فكان يحل قتلهم دون عقاب وتصادر إقطاعياتهم وتحرم سلالتهم من حقوق المواطنة ويقال إن سولا قد جرد أربعين عضوا من مجلس الشيوخ وستمائة من الفرسان من حقوقهم وجمع الأشخاص الذين اشتروا إقطاعيات الضحايا بثمن منخفض ثراوات طائلة كثيرة كما هو واضح من ثروة المليونير كراسوس وكانت ميتلا Metella زوجة سولا « زبونة » دائمة لمثل هذه المزايدات . ولا بد أنه كان من العسير تعدى السعر الذى كانت تحدده . وظل التجريد من الحقوق من أخطر الدوافع التى كانت تهدد بقيام الحروب الأهلية الأخيرة

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفراد المنتمين للشعوب الإيطالية وخاصة من اتروريا قد فقدوا أراضيهم بسبب معارضتهم لسولا ووزعت هذه الأراضى على الجنود المسرحين الذين كانوا لا يصلحون للفلاحة ويكونون العناصر الخطرة فى الريف فقد كانوا دائما على استعداد لإثارة الشغب . انتقى سولا عشرة آلاف رجل من عبيد الأشخاص الذين وقع عليهم التجريد وحررهم ومنحهم حقوق المواطنة الكاملة واتخذوا لأنفسهم اسم كورنيليى وأصبحوا على استعداد للعمل كأعوان له إذا طلب منهم ذلك وبذلك أصبح لسولا أكبر عدد من الأتباع عرف فى روما فقد كانوا يدينون له بكل شىء وكان أشبه برئيس عصابة على نطاق واسع وبوضع شرعى .

إن الدكتاتور كان يعين فى روما لهدف معين والهدف من دكتاتورية سولا هو وضع دستور لروما Dictator reipublicae constituendae ويبدو أن الأحكام التى كان ينطوى عليها دستور سولا لم تكن نابعة منه فبزواجه من كورنيليا ميتلا Cornilia Metella ارتبط ببعض الأسر القوية التى كانت تتألف منها الأرستقراطية القديمة مثل أسرة ميتلى Metelli وايمليى سكاورى Aemilii Scauri واللوتاتى . ومن المحتمل أن هذه الأسر كانت العقل المحرك لهذا البرنامج الذى كان يهدف بوضوح إلى بعث سيادة مجلس الشيوخ على ما كانت عليه قبل ظهور الأخوين جراكوس وضمان دوام هذه السيادة فقد ألغيت وظيفة الكنسور وألغيت معها مراقبة القائمة التى كان يترتب عليها العضوية فى مجلس الشيوخ ، وبدلا من ذلك أصبح الانضمام إلى مجلس الشيوخ يتوقف على تولى إحدى الوظائف العامة. وانخفض عدد التراابنة إلى حد كبير وفقدوا تماما سلطتهم على اقتراح التشريعات وأصبحوا غير لائقين من الناحية القانونية على تولى أى منصب بعد ذلك فبذلك لم يكن ليبنى أى مستقبل عظيم فى الحياة العملية على أساس تولى منصب التريبونية كما كان الحال بالنسبة لجايوس جراكوس واقتصرت الجمعية العامة على مناقشة الاقتراحات التى يحيلها عليها مجلس الشيوخ وتوقف توزيع الغلال وهذه كانت محاولة لخفض عدد عامة الشعب فى المدينة . وفقد

الفرسان سلطاتهم فى محاكم ابتزاز الأموال التى أعيدت إلى إشراف مجلس الشيوخ ، والحقيقة أن إصلاح سولا للتنظيمات القضائية العليا كان مجديا واستمر لزمن طويل فالطموح المفرط كان يلقى مقاومة شديدة حتى بين أعضاء مجلس الشيوخ ، وأصبح شغل الوظائف العامة يخضع لنظام ثابت فلم يكن أحد يستطيع أن يتولى أى منصب رسمى قبل سن الثلاثين وكان لا بد من مضى عشر سنوات قبل إعادة انتخاب الشخص لمنصب من المناصب ، ولم يعد تولى القنصلية لفترات متعاقبة مصحوبا بأية سلطة عظمى كما كان الحال بالنسبة لماريوس . وأخيرا تقرر ألا يسمح لأى جيش بأن يعسكر فى إيطاليا وأن يتخلى جميع القواد العائدين من قياداتهم ويدخلوا روما باعتبارهم أشخاصا عاديين وبذلك لم يظهر سوى « سولا » واحد يهيمن على الحكم بطريق سيفه وهكذا أصبحت روما حصنا منيعا يعيش فيه حكم الأقلية .

وبعد أن دفع سولا عقارب الساعة إلى الوراء ظل ينتظر بضعة أشهر ليرى ما إذا كانت الساعة ستدور ثانية ثم تخلى عن منصبه ليسلك الطريق الذى كان يفضله دائما ألا وهو طريق المتعة واللهو ولكنه لم ينعم باعتزاله العمل لفترة طويلة فقد مات فى غضون عام واحد فى سن الستين (عام ٧٨ ق.م . وقد شيع جثمانه فى جنازة رسمية ووضع على قبره نقش اختاره لنفسه يقول فيه « إنه ما من رجل نفع أصدقاءه أو ضر أعداءه أكثر منه » . وكان هذا النقش ينطوى فى الحقيقة على المثل السياسية العليا التى كان يؤمن بها سولا ورجال عصره . ولو كان قد جاء فى هذا النقش أيضا أن ما من رجل أضر بالدولة أكثر منه لكانت هذه هى الحقيقة بعينها ويجب أن نذكر حكما صدر على سولا فقد قال يوليوس قيصر — الدكتاتور الذى لم يعتزل — عن سولا « إنه لم يكن يعرف المبادئ الأولية » وقد ينظر العالم الحديث إلى اعتزال الدكتاتور بقدر وافر من التسامح . ومن كل الأعمال التى فقدت فى الأدب اللاتينى ليس هناك إلا القليل مما نود الحصول عليه وما هو أكثر متعة من مذكرات سولا .

الفصل السادس

تدهور الجمهورية الرومانية وسقوطها

من ٧٨ إلى ٣٠ ق . م .

كان المقصود من الدستور الذى وضعه « سولا » Sulla إيجاد حل نهائى للمشاكل السياسية فى الجمهورية الرومانية ، ولكن ما إن انقضت عشرة أعوام على وفاة « سولا » حتى كان هذا الدستور قد ألغى تماما ، إذ لم يكن هناك مفر من الاعتراض عليه إن عاجلا أو آجلا ، ذلك لأن عامة الشعب Populares والفرسان Equites لم يكن ليقفوا مكتوفى الأيدى لزمن طويل حيال السلطات التى خولها هذا الدستور لمجلس الشيوخ Senate لكن الذى حسم الموقف هو ضغط الأحداث التى جرت خارج « روما » ما بين ٧٩ — ٧٠ ق . م . ففى الشرق ، انتهز « ميثريداتيس » Mithridates الفرصة ليجدد كفاحه ضد عدوه البغيض ، وفى الغرب تمكن « سرتوريوس Sortorius أحد أتباع « ماريوس » Marius وحاكم إقليمى « قدير » من السيطرة على « أسبانيا » وحكمها لعدة سنين كولاية مستقلة ، أما فى إيطاليا نفسها ، فقد أظهرت ثورة العبيد الرهيبة ، التى قامت تحت إمرة « سبارتاكوس » Spartacus ضعف الحكومة المركزية بوضوح تام ، وفى البحار البعيدة ، كان انتشار القرصنة الذى ينذر بالخطر يهدد بشل الحركة التجارية فى البحر المتوسط ، وكان هذا الموقف يحتاج إلى رجال يتولون قيادات خارقة للعادة لعلاج هذه الأخطار ولم يكن هناك نقص فى الرجال القادرين على شغل هذه المناصب وأنفع درس يتلقاه أمثال هؤلاء الرجال من أحداث عصر « سولا » هو سيرة حياة « سولا » نفسه ، إذ عاد من قيادة عظيمة وهو

يقود جيشا خلفه ثم نصب نفسه سيدا « لروما » وكان في مقدور هؤلاء أيضا أن يفعلوا مثله ، والتاريخ السياسي للفترة ما بين موت « سولا » حتى دكتاتورية « يوليوس قيصر » Julius Caesar يحسن فهمه تماما بتتبع سير حياة ثلاث شخصيات عظام هم « بومبي » .... Pompey ، « كراسوس » Crassus ، « قيصر » Caesar إذ استطاع كل منهم أن يركز بين يديه من السلطات الواسعة ما جعله قادرا على الوقوف في وجه سلطات الدولة .

وكان « بومبي » قد لمع اسمه فعلا أثناء حكم « سولا » وواتاه التوفيق بسهولة وفي وقت مبكر ، كما خلع عليه حينئذ لقب « العظيم » Magnus ولكن إذا ما اعترضت طريقه المسئوليات الجسام كان لا يفتقر إلى الموهبة والذكاء لمواجهتها ، وقد كان في إمكانه أن يقيم حكما فرديا مطلقا لو كان فظا غليظ القلب بقدر ما كان مغرورا .

أما « كراسوس » فقد كان ثراؤه الفاحش هو الأساس الذي أقام عليه نجاحه في حياته ، وقد نمّى الثروة الضخمة التي آلت إليه باستخدام تفكيره العميق الماكر عند صدور أحكام النفي والإعدام أثناء حكم « سولا » وبعده كما أصبح « كراسوس » أكبر رأسمالي روماني في أيامه ، إذ قدرت ثروته في وقت ما بحوالي ١٦,٠٠٠,٠٠٠ جنيه . واستغل كثرة اشتعال النيران في روما ليزيد من ممتلكاته في العقار بين جدران العاصمة ، فلما لم يكن هناك فرق مطافئ عامة ، أنشأ « كراسوس » فرقة خاصة به يستطيع أن يرسلها هو ووكلاء أملاكه إلى مكان الحريق ، ويقوم الوكلاء بعرض قدر من المال ثمنا للممتلكات التي تحترق والممتلكات المجاورة لها ، فإذا حاز هذا الثمن القبول بدأ جنود الإطفاء عملهم ، أما إذا رفض يقف الجنود بجوار مكان الحادث يشاهدون الحريق ، ثم يلي ذلك عرضهم لثمن آخر أقل بعد أن تكون النيران قد خربت هذه الممتلكات تماما ، وليس من المفروض أن مثل هذا المشروع القوى التنظيم تنقصه هيئة تتعمد إشعال

النيران . وكان « كراسوس » بالطبع رئيسا للمنتفعين من أرباح هذا العمل في روما ، وكان في إمكانه أن ينال نجاحا باهراً بين صفوة رجال الأعمال الذين ظهروا في أمريكا خلال القرن التاسع عشر ، ولقد كان مصيراً غريباً ذلك الذي قاده إلى حتفه وهو على رأس جيش ضل طريقه في صحراء سوريا .

أما « قيصر » Caesar أصغر هؤلاء الثلاثة ، فقد كانت شخصيته مرموقة حينذاك بصفة خاصة لصلة عائلته « بماريوس » Marius ولكثرة ديونه ولطريقته الخاصة في إظهار رقة طباعه أو وقاحة خلقه حسبما يتطلب الموقف ، ولقد أيقنت عين « سولا » الثاقبة مواهبه وعينه للتخلص منه ، كما سمح بأن يعاقب عقابا له مايبرره ، وهو يدمدم قائلا « فلتقل ماتشاء ، فإن هذا الشاب الصغير فيه الكثير من « جايوس ماريوس » Caius Marius .

لكن لم تخل الدولة من الرجال الأكفاء الذين أقاموا نجاحهم على أساس خدماتهم العادية في سلك الوظائف العامة . فلوكللوس» Lucullus كان يتمتع بمواهب عسكرية فذة مثله في ذلك مثل أي قائد من قواد عصره ، و(ماركوس توليوس شيشرون) Marcus Tullius Cicero شاب من بلدة (أربينوم) Arpinum الريفية ، لا يرتبط بالسياسة ارتباطا قويا ، شق طريقه نحو المجد بخطابته البليغة ، وكانت فرصته الذهبية هي إدانة (فريس) Verres حاكم (صقلية) المرموق في عام ٧٠ ق . م . ، و (كاتو) Cato ، سليل (كنسور) Censor جليل عاش في القرن السابق له ، كان متهوراً بما فيه الكفاية حتى إنه استند على أهداب الفضيلة العقيمة (وعلى ضيق أفق متناه) ، وقد أدى ذلك إلى انتحاره وإلى خلود شهرته كبطل يدافع عن قضية خاسرة كما أن بعض العائلات النبيلة ، مثل عائلة (الميتللي) Metelli و اللوتاتيى Lutatii أنجبت رجالا لا يقلون شأنا عن أجدادهم الذين حكموا روما في وقت ما . لكن هذا العصر كان في صالح من استطاع أن يتنكر لكل إلزامات حزبه أو طبقته ، ولا يفكر إلا في مصلحته الشخصية فقط .

تال (بومبى) أول انتصاراته الرائعة فى الحرب التى نشبت ضد (سرتوريوس) وقد أمدتنا هذه الفترة بتقرير واف عن النظام الجمهورى الذى كان يطبق فى حكومة الولايات ، لقد أوفد الحزب الديمقراطى (كوينتوس سرتوريوس) Quintus Sertorius ليكون حاكما (لأسبانيا السفلى) Hispania Citerior ، ولكنه حل محله فى الحال حاكم موفد من قبل مجلس الشيوخ وأرغمه على التراجع إلى أفريقيا ، وفى عام ٨١ ق . م . استدعاه شعب (اللوسيتانى) Lusitani (البرتغال الحديثة) ليقود ثورتهم القومية . وبعد عودته إلى الأراضى الأسبانية مرة ثانية أصبحت الحركة التى قام بها الملاذ الأول للفارين من حكم (سولا) . وفى عام ٧٧ ق.م. عضده جيش ديمقراطى رومانى جاء من سردينيا تحت إمرة (بيربرنا) Perperna وهكذا كسبت هذه الثورة القومية ذكاء وخبرة قائد رومانى من الطراز الأول ، إذ كان (سرتوريوس) من أكفاء رجال عصره فقد قام بتكوين جيش رومانى — أسبانى صغير وسريع الحركة ، توحدت فيه أساليب الحرب الرومانية مع العبقرية الأسبانية فى شن حرب العصابات ، واستطاع هذا الجيش أن يهزم قائداً رومانياً محنكا مثل (ميتللوس بيوس) Metellus Pius وأن يقف فى وجه رجل عظيم مثل (بومبى) . وكانت سياسة (سرتوريوس) مع الأسبان سياسة متحررة ومستنيرة يقترن بها فهم عميق لصفاتهم الشخصية وانسجام مع هذه الصفات . ولم يلق أى رجل رومانى من قبله مثل هذا النجاح فى تسخير ولاء الأسبان ووفائهم . وأدرك تماما أهمية الدين باعتباره قوة توحد صفوف أهالى البلد . فادعى أنه تحت حماية (ديانا) Diana ويتصرف بوحى منها ، تلك الإلهة العظيمة التى كانت عبادتها فى أسبانيا أكثر العبادات انتشاراً ، وكان يصطحب معه حمله الأبيض المعروف كدلالة على حمايتها له . كما استمتع أعوانه الرومان بأهم ميزات الجمهورية الرومانية وذلك بتكوين مجلس شيوخ مكون من ثلاثمائة عضو . وفى أوج عظمته سيطر على وسط أسبانيا ، وأثيرت

مناقشات جدية عن مدى إمكان غزو إيطاليا . وكان تحالفه مع (ميثريداتيس) ومع قراصنة البحر الأبيض ينبيء بقيام ائتلاف معارض لمجلس الشيوخ — على نطاق واسع عالمي — ولكن في نهاية المطاف ، انهار ائتلاف (سرتوريوس) هذا بسبب تضارب أغراض أعضائه السياسية . فالحلفاء الأسبان تريد الاستقلال ، واللاجئون السياسيون الرومانيون يبغون عودة الحزب المعارض لمجلس الشيوخ إلى روما منتصراً . كما كان هناك تنافس شخصي بين (سرتوريوس و بيربرنا) على مركز الزعامة . لقد كان في مقدور (سرتوريوس) المحافظة على كيان الائتلاف بشخصيته طالما كانت شخصية ناجحة . ولكن عندما وقف بومبي في طريقه تصدع هذا الائتلاف تماماً . واغتيل (سرتوريوس) (في عام ٧٢ ق . م . ولكنه كان بمثابة إنذار لما يجب أن تقوم به الحضارة الرومانية من أعمال في أسبانيا عندما تتحسن الأحوال .

وقد جاء نشوب الحرب مع (ميثريداتيس) مرة أخرى في عام ٧٤ ق . م . نتيجة لتركة أخرى آلت إلى روما — ألا وهي وصية (نيكوميديس الرابع Nicomedes بمملكته بيثونيا Bithynia لروما ، وليس من الغريب ألا يرحب ملك (بونتوس Pontus) بإقامة ولاية رومانية جديدة على أبواب مملكته . وبذلك أصبح بين يديه الادعاء الكافي ليحتج على خرق شروط المعاهدة التي عقدها معه (سولا) وتبعا لذلك اخترق أراضي (بيثونيا) وطرد الرومان من منطقة البحر الأسود وحاصر قلعة (كوزيكوس) Cyzicus المنيعة . ثم تواطأ مع القراصنة ليقطع طرق مواصلات روما المؤدية إلى آسيا . كما كان أيضاً على اتصال دبلوماسي (بسرتوريوس الذي بعث إليه بضباط ليدربوا جيش بونتوس) على أساليب الحرب الرومانية . وأصبح الموقف يحتاج إلى ظهور (سولا آخر ليتولى قيادة أخرى مجيدة في الشرق . وقد عثر على الرجل المناسب في شخص

(لوكللوس) Lucullus الذى كان ضابطا فى جيش (سولا) أثناء قيام الحرب الأولى ضد (ميثريداتيس) .

ومكانة (لوكللوس) بين زمرة القواد العظام وحكام الولايات الذين تولوا مناصبهم خلال الخمسين سنة الأخيرة من عصر الجمهورية مكانة مشرفة فعهد إليه بقيادة خارقة للعادة ، ألا وهى الولايات الثلاث : آسيا ، وكيليكا Cilicia ، وبيثونيا ، وذلك بالإضافة إلى منحه تفويض كلى لإنهاء الحرب مع (ميثريداتيس) وقد استغل هذا التفويض استغلالا فعالا ، فبين عامى ٧٤ — ٦٧ ق . م . طهر أراضى بيثونيا ، وطرد (ميثريداتيس) من مملكة (بونتوس) وتعقبه حتى وسط أرمينيا حيث التجأ (ميثريداتيس) إلى زوج ابنته (تيجرانيس) Tigranes وكان هذا العاهل قد قام بتوسيع رقعة مملكته القديمة توسيعا كبيراً ، واتخذ لنفسه لقب (ملك الملوك) اللقب الفارسى القديم .

وقمة نجاح (لوكللوس) هى استيلاؤه على (تيجرانوكيرتا) Tigranocerta عاصمة مملكة هذا العاهل الجديدة الرائعة ، التى بناها بالقرب من مصب نهر (يوفراتيس) Euphrates لتحيي أمجاد (بابل Babylon ونينوى Nineveh الغابرة . وقد كان أمام لوكللوس متسع من الوقت مكنه من إعادة تنظيم شئون ولاية آسيا المالية ، وذلك بتخفيفه للعسر الذى وقعت المدن فى شراكه وهى تحاول سداد التعويضات التى فرضها (سولا) عليها ، كما كبح جماح جامعى الضرائب والمرابين الرومان .

ولكن كان (للوكللوس) أعداء أكثر خطورة عليه من غريمه الذى يواجهه فى ميدان القتال . فقد حقد عليه (بومبى) لنجاحه فى قيادة أعظم من أى قيادة كان قد تولاها هو حتى ذلك الوقت ، كما كان الفرسان Equites يكرهون حدّه من أوجه نشاطهم فى ولاية آسيا ، أما جنوده فقد

استاءوا أكثر فأكثر من النظام القاسى الذى فرضه عليهم وخاصة من محاولاته لحرمانهم مما يعتبرونه كسبا شرعيا فى السلب والنهب . فبدأت المؤامرات تحاك ضده فى روما وفى معسكره . وفى النهاية تمرد الجيش ضده وذاق مرارة التقليل من شأنه عندما رأى (ميثريداتيس) يعود إلى (بونتوس) ، وعندما أجبر هو نفسه على تسليم قيادته لبومبى وعلى العودة إلى روما . وكان من الممكن أن يحرز نجاحا باهراً لو عاش قبل زمنه بقرن حين كان القائد الرومانى يعتمد كلية على النظام السائد بين جنوده وعلى تأييد حكومته له . أما فى زمنه فقد نال شهرته الواسعة وهو فى عزلته بقصره الرائع المقام على تل (بينيكا) Pinicia كرجل له ذوق رفيع فى أنواع المأكولات .

أما الحرب مع « سبارتاكوس » Spartacus (٧٣ — ٧١ ق . م) فلم تكن مجرد ثورة عبيد عادية . وبدأت هذه الحرب عندما فر « سبارتاكوس » وهو مجالد محترف من تراقيا ، وبعض زملائه من معسكر التدريب الذى كان بالقرب من (كابوا) وانضم إليهم آخرون . وأصبحت هناك جمهرة من الثائرين الهاربين من سكنات العبيد المنتشرة فى شتى أنحاء جنوب إيطاليا . وكان الكثيرون من هؤلاء العبيد أسرى من شعوب (الكمبرى) و(التوتون) وقعوا فى الأسر أثناء حروب (ماريوس) — وهم يعتبرون خامة محاربة ممتازة . وقد تكونت منهم قوة هائلة ، هم والجلادون ، المحاربون المحترفون المدربون ، الذين اعتبروا نواة هذه القوة ، ومعهم قائد ذو عبقرية فذة هو (سبارتاكوس) وكانوا يطوفون بجبال (الأبنين) ويقومون بهجمات خاطفة على المدن الواقعة فى السهل سعيا وراء النهب والسلب . وسحقوا الجيوش الرومانية التى أرسلت لتعترض طريقهم واستمر عددهم فى تزايد مطرد ونشروا الذعر فى إيطاليا طوال عامين . وكان (سبارتاكوس) قد قام برسم الخطة المحكمة التى تهدف إلى قيادتهم شمالا حتى يستطيعوا أن يتفرقوا

ويعودوا إلى أوطانهم . وقـــد وصلوا بالفعل إلى بلاد الغال القريبة . Cisalpine Gaul. ولكنهم قفلوا راجعين إلى إيطاليا مرة أخرى ، إما بسبب نقص فى مئونتهم وإما بسبب عشقهم للسطو والنهب . وفى ذلك الوقت عندما تولى (كراسوس) أول قيادة ذات شأن استدرجهم إلى خليج فى (لوكانيا) Lucania وسحقهم . ثم قضى (بومبى) على البقية الباقية من هؤلاء الثوار وهو فى طريق عودته من أسبانيا ، وكما هو معروف عن شخصيته فقد ادعى أن له الفضل الأول فى كل هذه الانتصارات . ويبدو أن (سبارتاكوس) على حد ما وصلنا من معلومات كان رجلا مرموقا يتمتع بمقدرة على اكتساب إخلاص أتباعه ، وقد اعتبره المؤرخون الشيوعيون منذ زمن (ماركس) قديسا ما يرعى ثورات الطبقات العاملة .

وبعد وقوع هذه الأحداث مباشرة رشح (بومبى) (وكراسوس) أنفسهما سويا للقنصلية عام ٧٠ ق . م . ولم يكن تقدم أى منهما للترشيح شرعيا وفقاً لما تقتضيه الشروط الصارمة المنصوص عليها فى دستور (سولا) فبومبى لم يكن قد تقلد سلك الوظائف العامة ، كما فشل كل منهما فى تسريح جيوشه كما هو منصوص عليه ، ومع ذلك نجحا فى الانتخابات بفضل أصوات الحزب الشعبى وعلى الرغم من إرادة مجلس الشيوخ . وما إن أوشك هذا العام على الانتهاء حتى كان الكثير من قوانين دستور (سولا) قد ألغيت . إذ إستعاد الترابنة سلطاتهم القديمة كاملة ، وأعيد استخدام وظيفة (الكنسور) فبدأ (الكنسوريس الجدد عملهم بتطهير مجلس الشيوخ من بعض أنصار (سولا) سيئى السمعة كما قوبل الاقتراح الخاص بإعادة محاكم ابتزاز الأموال تحت إشراف الفرسان Equites بمقاومة عنيفة ، وقد كان من المحتمل ألا يصدر هذا القانون على الإطلاق لولا نذر الخطر ، التى وضحت أثناء محاكمة (فريس) ، الناتجة عن الوسيلة التى أساء بها مجلس الشيوخ استخدام سلطاته القضائية . وفى هذه الظروف تكونت

محاكم مختلطة بمقتضى قانون (أوريليوس) Lex Aurelia ، احتل فيها الفرسان مقعدين مقابل كل مقعد يحتله عضو من مجلس الشيوخ .

وهكذا أصبحت سيطرة مجلس الشيوخ على روما طوال فترة عشر سنوات أخرى سيطرة اسمية فقط ، أما المقومات القانونية التي حاول (سولا) أن يقيم على أساسها سلطات المجلس فقد ذهبت من غير رجعة .

إن كلمة (قرصان) لها صدى مضحك فى آذان المحدثين ، إذ هى توحى بجزيرة الكنز (جولى روجر) Jolly Roger لكن القرصنة كانت حقيقة مرة عاشت فى منطقة البحر المتوسط خلال فترات عديدة من التاريخ . فقد كان قراصنة شواطىء البلاد المتبربرة مصدر رعب للملاحين طوال عدة قرون قبل أن يقضى عليهم تماما فى وقت متأخر من القرن التاسع عشر . وقد تم القضاء عليهم عن طريق القيام بسلسلة من الأعمال الإيجابية الفعالة عاصرها بعض الرواد الأوائل من بحرية الولايات المتحدة . وفى السنوات الأولى من القرن الأول كان القراصنة قد نظموا قوة هائلة من طبقتهم هذه ، وخاصة قراصنة (كيليكيا) و (كريت) . وكانت مهام حفظ الأمن على الشواطىء قد آلت إلى (روما) بعد أن اضمحلت قوة (رودس) البحرية Rhodes . ولكنها تجاهلت أمر القراصنة وربما يرجع سبب ذلك إلى العلاقة بين القراصنة وبين إمداد سوق (ديلوس) Delos بالعبيد . وقد تحالف كل من (ميثريداتيس) (وسرتوريوس) مع القراصنة الذين ما إن حل عام ٧٠ ق . م . حتى بلغت بهم الجرأة ليحوموا حول الطرق المؤدية إلى (أوستيا) Ostia (وبوتولى) Puteoli ، وليغيروا على شواطىء إيطاليا ، ويهددون بشل حركة تجارة الحبوب التى تتوقف عليها حياة روما . فأسندت قيادة الحرب ضدهم إلى (بومبى) ، وخوله (قانون جابينيا) Lex Gabinia سلطات خارقة للعادة ، فقد أصبح تحت إمرته

٥٠٠ سفينة ، ١٢ ألف جندى ومنطقة نفوذ تشمل كل إقليم البحر المتوسط و ٥٠ ميلا من الشاطىء فى كل اتجاه .

وقد أصبح مفهوم سلطة الإمبريوم التى يسرى مفعولها فى جميع الولايات مساويا لسلطة الحاكم فى أية ولاية Imperium infinitum aequum أصبح لهذا المفهوم أهمية قصوى فيما بعد . وبالمثل كانت سرعة (بومبى) فى القيام بالأعمال الإيجابية وطبيعة الإصلاح عنده قد لفتت الأنظار . فقد سحق القراصنة الذين كانوا يكونون قوة منظمة فى ثلاثة أشهر . ولكن من وقع فى الأسر منهم لم يصلب أو يباع فى الأسواق كعبد . بل أرسلوا إلى المناطق النائية مثل كيليكيا وأماكن أخرى ليستقروا بها ، وأصبحوا مواطنين أخيارا . ولقد عاش أحدهم ليكتب له الخلود فى (رعويات فرجيل) بوصفه راع صالح عجوز ذائع الصيت لنجاح أحرزه كان له نتاج مبكر .

وعندما قابل « لوكالوس » « بومبى » ليسلم له قيادته ألقى تعليقاً لاذعاً جاء فيه : « إن بومبى مثل الطائر الكاسر الذى يجد طعامه فى جثث من قتلوا بأيدى الآخرين » . وقبل ذلك الوقت بعدة سنوات تساءل « كراسوس » وهو يشير إلى منح « بومبى » لقب العظيم « Magnus قبل أوانه قائلا : « عظيم بأى حق » ! .

لقد كانت هذه الانتقادات التى وجهت إلى النجاح المبكر الذى أحرزه « بومبى » فى بدء حياته انتقادات قوية . ولكنه قد أفلح فى قيادته ضد القراصنة وقدر له أن يفلح كذلك فى قيادته ضد مملكة « بونتوس » و (أرمينيا) ولم يحدث فى التاريخ الرومانى أن تولى أى شخص من قبله مثل هذه السلطات التى كان يتمتع بها فى ذلك الوقت . ذلك لأنه بمقتضى (قانون مانيليا) Lex Manilia الصادر فى عام ٦٦ ق . م أدرجت إمارة (لوكالوس)

العظيمة فى آسيا تحت نفوذ سلطة (الإمبريوم) Imperium التى تولاها بومبى فى حربه ضد القراصنة . كما طرد (ميثريداتيس) من (بونتوس) فى شهور قلائل وضم مملكته إلى أملاك روما ودخلت ضمن ولاية بيثونيا، أما ميثريداتيس فقد احتمى فى (كريميا) Crimea ثم تبع ذلك بوقت قصير إخضاعه (أرمينيا) ولكنها لم تضم إلى أملاك روما لأن (بومبى) كان يرى أن قيمتها الفعلية (لروما) تتركز فى كونها مركز دفاعى ضد البارثيين . وعلى ذلك أصبح (تيجرانيس) ملكا عميلا لروما يحمل لقب صديق وحليف الشعب الرومانى . ثم قاد (بومبى) بعدئذ جيشه إلى ما وراء (أرمينيا) داخل (ترانسكوكاسيا) Transcaucasia وأشعل الحرب ضد (الألبان) Albani و (الايبريين) Iberi . لقد كان بومبى فى هذا المكان الذى يبعد عن البحر الإيجى بألف ميل تقريبا فى منطقة تنتمى إلى عالم الخيال أكثر من انتمائها إلى علم الجغرافيا ، فهذه المنطقة كانت أرض (الجزة الذهبية وأرض (بروميثيوس) Prometheus وشعب (الأمازون) Amazons . ومن الشائع أن شعب (الأمازون) قد حارب بالفعل فى صفوف (الايبريين) ضد (بومبى وقد كان من خيبة الرجاء أنه لم يعثر على جثث نساء فى أرض المعركة ! ! وقد راجت إشاعة عن قيامه بحملة على بحر (قزوين) Caspian Sea الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت أقصى حدود الدنيا من ناحية الشرق ، أما حدود الدنيا من ناحية الغرب فقد رآها بومبى على شاطىء الأطلنطى والبرتغال وأفريقيا . وهكذا فالتشابه بينه وبين الإسكندر واضح .

وتغاضى بومبى عن هذه المشاريع من أجل مهام أكثر أهمية . فقد أعاد أولا تنظيم شئون آسيا الصغرى . وفحص تنظيمات العائلات المالكة الحاكمة للممالك القوية التى استمرت على وضعها ، وعهد بالسلطة للمبعوثين الرومان . كما وسع من حدود (جالاتيا) Galatia المملكة الكلتية القديمة ، وأنشأ

عدة مدن جديدة فى (بونتوس) و (بيثونيا) وأصبحت الحياة المحلية فى كل الولايات الرومانية تتسم بالحيوية والنشاط . ثم رحل بومبى من (أرمينيا) إلى (سوريا) فى عام ٦٤ ق . م . واستمر فى إعادة تنظيم كل بقعة من هذه المنطقة حتى حدود مصر . أما فى أنطاكية فقد عزل آخر ملك ضعيف من ملوك أسرة (سيليوكوس) Seleucus وأعلن سوريا ولاية رومانية ، وهذا الإجراء كسب ذو شأن عظيم . إذ قدر لسوريا أن تصبح أغنى بقعة من ممتلكات روما فى الشرق أثناء عصر الإمبراطورية . وفى عام ٦٣ق.م. استولى بومبى على . أورشليم) وعهد بها إلى حاكم رومانى ، وكان هذا هو أول اتصال بين روما واليهود ، ثم تلى ذلك قيامه بحملة إلى (جريكو) Jericho و بترا Petra منعه من الاستمرار فيها نبأ وفاة (ميثريداتيس) وكان هذا الملك العجوز العنيد قد دبر فى ذلك الوقت هجوما آخر على روما وكانت خطة الهجوم فى هذه المرة تهدف إلى الاتجاه شمالا إلى (وادى الدانوب) والتحالف مع شعوب (الغال) ولما فشل فى خطته حاول أن يقتل نفسه بالسم ولكنه كان قد اكتسب قبل ذلك بفترة قصيرة حصانة تامة ضد السموم وذلك لتعاطيه بعض العقاقير . فطلب أخيراً من جندى مرتزق من جنوده ، أن يقتله خوفا من أن يقع فى الأسر حيا ويسير فى موكب انتصارات (بومبى) وهكذا انتهت حياة عدو من أكثر أعداء روما شراسة .

وما إن حل عام ٦٢ ق . م . حتى كان بومبى قد أنهى مهمته فى آسيا . فقد تمكن من الحصول على ثلاث ولايات جديدة هى (بونتوس و(سوريا و كيليكيا) التى وسع من رقعتها . وكان يحمى هذه الولايات من ناحية الشرق خط دفاعى مكون من الممالك العميلة . وأصبح الطرف الغربى من طرق القوافل الطويلة الممتدة عبر آسيا إلى الهند والصين تحت سيطرة روما وكذلك كان الطريق الممتد على طول شاطىء البحر الأسود الجنوبى نحو (كاوكاسوس) Caucasus وبحر قزوين Caspia وقد كانت ضيعات

(ميثريداتيس) الملكية بمثابة إضافة هائلة للأراضى العامه الرومانية .

لقد برهن بومبى أنه أعظم نواب القناصل (البروكنسوليس) الرومان جميعاً ، إذ أنجز مهمته هذه وهو يستند على سلطته الخاصة دون الاستناد على تفويض مجلس الشيوخ التقليدى وقد استمرت المعالم الرئيسية لما أنجزه من أعمال قائمة طوال عدة قرون . ولقد كانت هذه الأعمال الجليلة هى التى جاء قيصر بعد عدة سنين لينافسه بمثلها فى الغرب .

إن غياب بومبى فى الشرق والتفكير فيما سيفعله عند عودته قد حجب السياسة الرومانية عن الضوء ما بين عام ٦٦ ، ٦٢ ق . م . ولكن هذه الفترة لم تخل من بعض الأحداث المثيرة . إذ عمل قيصر ا وكراسوس) جنباً إلى جنب لبعض الوقت . وقد ظن الناس أنهم وراء الاقتراح الخاص بالأراضى الذى تقدم به أحد الترابنة ، وقد كان من المحتمل أن يؤدى هذا الاقتراح إلى حدوث أزمة مماثلة لأزمة الأخوين (جراكوس) فقد كان هناك احتمال وجود تركة كبرى تئول إلى روما — ألا وهى مملكة مصر فرفض هذا الاقتراح ، وقد كان (شيشرون) بالذات له الأثر الأكبر فى ذلك . فقد بدأ يقوم بدور زعيم الجبهات المحافظة ، وعندما انتخب قنصلا لعام ٦٣ ق . م . كان من نصيبه أن يواجه مؤامرة (كاتيليا) Catelina الشهيرة . وبفضل خطب (شيشرون) وكتابات (سالوست) Sallust وصلتنا كل التفاصيل عن هذه الفترة ، التى عادة ما تحتل مكانة فى التاريخ الرومانى أكثر مما تستحق .

وقد صدق عالم إيطالى حين قال إن هذه الفترة تخص سجلات المحافظة على الأمن أكثر مما تخص التاريخ السياسى ، ولكنها كانت تحذيرا من العنف والقوة اللذين زادت حدتهما فى المجتمع الرومانى ، ومن وسيلة احتمال انتشارهما إذا ما أتيحت لهما فرصة البدأ . لقد كانت هذه المؤامرة .

تبدو (لشيشرون) إحدى الأزمات الفاجعة فى التاريخ الرومانى ، فعلق أهمية كبرى على لقب (أبو الوطن) Pater Patriae الذى أطلق عليه لقضائه على هذه المؤامرة . ولكن هذه الامتيازات البراقة التى حصل عليها بهت لونها عندما عاد بومبى فى عام ٦٢ ق . م . على رأس هذه القوة التى لم تر روما مثيلا لها من قبل . فهل سيصبح (سولا) آخر ؟ وظهرت الإجابة فى الحال وهى (لا) فقد كان بومبى يميل ميلا غريبا إلى مراعاته للقوانين من وقت لآخر . إذ سرح جيشه وطلب مطلبين فقط — أولهما التصديق على ما قام به من أعمال فى آسيا ، وثانيهما أراض يمنحها لمحاربيه القدامى . أما من جانب مجلس الشيوخ ، فما إن انزاح هذا العبء عن صدورهم حتى أساءوا استخدامه . فهو لم يغفر (لبومبى) ما فعله عندما كان قنصلا لعام ٧٠ ق . م . كما استنكر (لوكالوس) الطريقة التى انتزع بها (بومبى) تيجان النصر لنفسه . وبعد الاحتفال مباشرة بأبهى ما رأته روما من مواكب انتصارات حتى ذلك التاريخ وجد (بومبى) نفسه وقد قل شأنه وشلت حركته.

وكان قيصر هو الشخص الذى أبان لبومبى المخرج من هذا المأزق ، وذلك عندما اقترح فى سرية تامة قيام ائتلاف سياسى بينه وبين (بومبى) و (كراسوس) . وكان كل منهم يهدف إلى غرض معين : فقيصر يهدف إلى الحصول على قنصلية عام ٥٩ ، وكراسوس يهدف إلى تخفيض الكمية التى تطالب بها الدولة من ضرائب آسيا وذلك ليعمل فى صالح الفرسان Equites ، أما بومبى فقد كان يهدف إلى تحقيق المطلبين السابقين ولن يقف أمام هؤلاء الثلاثة أى حائل استناداً إلى جيش بومبى وثروة كراسوس وشعبية قيصر التى كان يتمتع بها بين الشعب الرومانى . وهكذا جاء مولد أول ائتلاف ثلاثى (فى عام ٦٠ ق . م .) — هذا التنين ذو الثلاثة رءوس كما أسماه أعداؤه . ولقد كان (ليفى) Livy محقاً عندما أسماه مؤامرة مستديمة.

والعام الذى تولى فيه (قيصر) القنصلية كان عاما ذا أهمية حاسمة فى

أما القنصل الثانى (بيبولوس) Bibulus فقد قل شأنه حتى أصبح صفراً وأصبح الناس يتحدثون عن (قنصلية يوليوس) و (قيصر) . أما مجلس الشيوخ نفسه فلم يكن أكثر من صفر أيضاً ذلك لأن قيصر لم يتردد فى أن يتخطاه ، بل ويتخطى (الجمعية الشعبية) Assembly إذا تطلب الأمر ذلك ، ولا عجب أن (شيشرون) كان يتكلم فى خطاباته عن Regnum ، ملكية فردية . وقد حافظ قيصر على وعوده فى مساوماته مع (بومبى) و (كراسوس) إذ حصل كراسوس على تخفيض فى عقود جمع الضرائب فى آسيا لعام ٦١ ق . م . وهذا يعتبر نوع فاضح من السمسرة ، كما حصل (بومبى) على تصديق على ما أنجزه من أعمال فى الشرق وحصل جنوده القدامى على أراض لهم معظمها من أجير كمبانوس (Ager Companus

وهو آخر الممتلكات الشاسعة من الأراضى العامة فى إيطاليا نفسها ، ومنطقة شهيرة بصلاحيتها للزراعة .

وإلى جانب هذا تم إعداد مشروع آخر للأراضى فى صالح فقراء المدينة على نهج مشروع الأخوين (جراكوس) كما صدر كذلك قانون له فائدته للحد من ابتزاز الحكام وحاشياتهم للأموال فى الولايات .

وكانت آمال مجلس الشيوخ فى ذلك الوقت معقودة على الحط من شأن قيصر بعد انتهاء قنصليته حتى يصل إلى حد التفاهة ، وأعد له وظيفة تافهة ليتولاها بعد ذلك ، ألا وهى العناية بالغابات العامة وبطرق الدواب فى إيطاليا . فحمل « قيصر » الأمر إلى « الجمعية » وبمقتضى « قانون فاتينيا » Lex Vatinia حصل على بلاد « الغال القريبة » وعلى اليريكوم Illyricum لفترة خمس سنوات ، وهذه الفترة أكثر من المعتاد . ووضعت ثلاث فرق تحت إمرته ، كما حصل على حق اختيار ضباطه وزراعة المستعمرات . وكان منصبه هذا خطيراً ، لأن الفرق الثلاث التى

كانت تحت قيادته يمكن أن تكون أقرب القوات الضاربة لإيطاليا . أما مجلس الشيوخ فقد أضاف إلى سلطاته هذه (بلاد الغال البعيدة) وفرقة رابعة ، وربما كان يأمل من ذلك تهدئة قيصر ، وسرعان ما برهن (قيصر) على أن إمكانيات قيادته هذه أعظم بكثير من الأسلاب البراقة التي كانت من نصيب (بومبي) في الشرق . فحكمة لبلاد الغال البعيدة هو الذي مكنه من القيام بالغزو الهائل لبلاد الغال نفسها .

وكانت بلاد الغال في عصر (قيصر) تمتـــد من الرين حتى جبال (البرانس Pyrenees ومن شاطىء الأطلنطي حتى حدود (ناربو نينسيس) Narbonensis الولاية الرومانية . وكان بلدا كثيف السكان — وقد اتفق العلماء الفرنسيون على تحديد عدد ضخم للسكان يصل إلى عشرين مليون نسمة . وهذه الرقعة من الأرض كانت مقسمة إلى ستين ولاية Civitates كل منها مستقل استقلالا سياسيا ، وإن كانت كلها تتكلم لغة كلتية مشتركة وتزاول عبادات دينية موحدة ، وخاصة عبادات (الدرويدس) . Druids ولكن لم يكن بين السكان وحدة جنسية — ففي الجنوب الغربي كانت تجرى في عروقهم بغزارة دماء أيبيرية ، وفي الجنوب الشرقي دماء ليجورية ، وفي الشمال الشرقي دماء جرمانية . ولكن كان هناك في كل مكان بدرجات مختلفة خليط من شعب يسمى نفسه الشعب الكلتي ويرجع أصله إلى جنس كلتي مشترك . وقد كانت بلاد الغال في الواقع هي الموطن المميز للشعب الكلتي وهي أقوى بقعة من بقاع الشعب الكلتي الواسعة التي تمتد من ايرلندا حتى مملكة (جالاتيا) في آسيا الصغرى .

واتفق كل من المؤرخين القدماء وعلم الحفريات الحديث على تحديد الموطن الأصلي للشعوب الكلتية بمنابع نهرى الراين والدانوب . وقد كانوا أول شعب من شعوب وسط أوربا استخدم الحديد . وقد انتشروا من

نقطة المنشأ هذه كنبلاء غزاة ما بين عامى ٥٠٠ ، ٢٥٠ ق . م . وفى أعلى مراحل قوتهم استولوا على جنوب ألمانيا ، وفرنسا وشمال أسبانيا ووادى ألبو ، وجزء من يوغوسلافيا ومعظم بريطانيا وايرلندا، وقد بنى الكلتيون فى كل هذه الرقعة الفسيحة حضارة (بطولية) Heroic رائعة من الزعماء والمحاربين والزراع والرعاة المهرة والفنانين والمشتغلين بالمعادن ومشرعى القوانين والشعراء والكهنة ، وقد أنشأوا علاقات تجارية بينهم وبين العالم القديم استمرت لعدة قرون ، وبدأت هـــذه العلاقات أولا مع اليونان والاتروسكيين ، ثم مع ما سيليا وروما . وقد قام علمـاء الآثار بالتنقيب فى مقابر الزعمـاء الكلتيين المكدسة وعثروا فيها على أدوات المقابر النفيسة — من عربات وقلادات وأسلحة ومرايا ودنان للنبيذ — فى أماكن كثيرة مثل (هولشتات) Halstatt فى النمسا و (فيكس) Vix فى فرنسا و لكسدن) Lexden فى بريطانيا . وهذا المجتمع فى جوهره هو المجتمع الذى وضحت صورته بعد عدة قرون فى آداب (ويلز و ايرلندا) البطولية .

لقد كانت هذه هى الظروف العادية لبلاد الغـال فى عام ٥٨ ق . م . وهذا الزمن من الناحية السياسية كان عصر الفوضى . وكان يبدو أن الاتحـاد القوى الذى قام بين شعب (الارفرنى) . . . Arverni القاطن فى (جيفنيس) Cevennes وبين حلفائهم سكان وادى الرون من الممكن أن يوحد بلاد الغال كلها . فقد كان هذا هو عصر الملوك العظام من أمثال (لويرنوس) . . Luernus و بتويتوس) . Bituitus اللذان كان نفوذهما لا منازع له بين قبائلهما . ولكن روما أضعفت من نفوذ شعب (الارفرنى) عندما أسست ولاية (ناربونينسيس) ولم يكن هناك من يخلف مركزهم ، وما إن جاء زمن (قيصر) حتى كانت العروش

القوية فى كل مكان تقريباً قد أدت إلى قيام حكم (أوليجركى) ، إذ كانت السلطة فى أيدى النبلاء الأقوياء يقتسمونها فيما بينهم . وتعليق قيصر على هذا الموقف هو أن (كل قبيلة كانت تنقسم إلى حزبين) وقد عاق هذا من نمو اتحادات فيما بينهم وجعلهم أكثر عرضة للزوال . كما أن التنافس بين شعب (الايدوى) Aedui وبين شعب (الارفرنى) قد ترك أثره فى سياسيات كل قبيلة غالية تقريباً . وأصبح وجود (قيصر) فى بلاد الغال يعنى أن كل قبيلة تقريباً انقسمت بين مناصر للرومان ومعارض لهم : وهكذا كانت الظروف التى قام فيها (قيصر) بغزوه .

ويجب أن نقرأ عن قصة سنوات الحرب الثمان التى قضاها (قيصر) فى بلاد الغال فى كتابه (التعليقات) Commentaries ولكن يجب ألا ننسى أن هذا الكتاب ما هو إلا مذكرات قائد ، والقادة كما هو معروف فى أيامنا هذه يكتبون مذكراتهم ليبرروا ما قاموا به من أعمال . وقد كان الكثير من تصرفات (قيصر) فى بلاد الغال يحتاج إلى تبرير . فعلى الرغم من أن هذه الانتصارات كانت فى نهاية الشوط ذات ثمار مجيدة للحضارة الأوربية ، إلا أنها أنجزت من أجل تمجيد شخص (قيصر) فقط . إن الخيانة والقسوة والفظاظة قد جعلت قيادة (قيصر) للحرب فى بلاد الغال أسوأ صفحات فى تاريخ العدوان الاستعمارى . فوراء شفافية كتابه (التعليقات) وصفائه وصراحته الظاهرة يكمن استعطاف ما من نوع معين ، المقصود به إقناع القارئ بأنه لم يحدث أبداً أى انتهاك للعقيدة القائلة بأن روما تقوم بحروب دفاعية فقط . ومن هنا أسند إلى (الايدوى) دور الحليف المهدد الذى يلجأ إلى روما طلبا للعون ، وما علينا إلا أن نتذكر حادثة (الما مرتينيس) Mamerties التى حدثت فى الحروب اليونانية الأولى وحادثة (ساجنتوم) فى الحروب اليونانية الثانية .

والحملات التى قام بها « قيصر » فى عام ٥٨ ق . م . كانت مشرفة بما فيه الكفاية فبالقيام بها أجبر قيصر « الهلفتئى » Helvetii على التراجع إلى جبال الألب ، وشعب « السويبى الألمانى » . . Germanic Suebi على التراجع عبر نهر الراين . وفى عام ٥٧ ق . م . هاجم قبائل (البلجاى) Belgae القوية التى كانت تقطن حول نهرى (الموسى) Meuse والراين . ثم كرس عام ٥٦ ق . م . للقيام بحملاته فى الجنوب الغربى والغرب ، حيث أباد أسطول شعب (الفنتى) Veneti البحرى (موربيهان Morbihan فى بريطانيا . ثم تلى ذلك سنوات مليئة بالمغامرات ، ففى عام ٥٥ ق . م . عبر الراين ومكث لوقت قصير على الضفة الألمانية ، وفى ٥٥ ، ٥٤ ق . م قام بحملتين ذاعت شهرتهما إلا أنهما يدعوان إلى الحيرة . وفى الحملة الثانية منهما عبر نهر (الثاميس) Thames واستولى على مدينـــة الملك البريطانى العظيم (كاسيفلاونوس) Cassivellaunus وهى تقع بالقرب من بلدة سانت ألبانس St. Albans الحديثة . فهذه الحملات من الناحية العسكرية قد تم تخطيطها بصورة سيئة ، كما أن نتائجها السياسية لا تذكر ، إلا أنها كان لها شأن عند مقارنتها بمآثر (بومبى) الأسطورية التى قام بها فى (ترانسكوكاسيا) وفى طريقه تجاه (كاسبيا) . وكما أن (بومبى) قد وصل إلى المحيط من ناحية الشاطىء الشرقى كذلك عبره (قيصر) من ناحية الشاطىء الغربى ودخل بجيش واحد أراضى الجزيرة الغامضة التى تقع فى أقصى حدود العالم . أما عام ٥٣ ق . م . فقد قضاه (قيصر) منهمكا فى اشتباك مع قبائل (البلجاى) للمرة الثانية ، إذ كانوا قد تحالفوا مع (الجرمان) القاطنين وراء نهر الراين وبدأوا يقومون بثورات زعزعت من سيطرة (قيصر) على بلاد الغال .

لكن الأحداث السياسية التى حدثت فى شتاء عام ٥٣ — ٥٢ ق . م . أجبرت (قيصر) على العودة إلى إيطاليا . ففى أثناء غيابه فى بلاد الغال

اندلعت نيران الثورة القومية الكبرى تحت زعامة (فيركنجتوريكس) Vercingetorix وهى ، كما قال قيصر) « الحرب التى كانت تختلف تماما عن كل الحروب الأخرى) .

و (فيركنجتوريكس) هذا ابن لزعيم عظيم من زعماء (الارفرنى) وقد ورث كل ماهو مثالى من الحضارة القومية نظراً لمولده وما تلقاه من تعليم وما تقتضيه تقاليد عائلته ولكنه كان كذلك يعرف روما معرفة حقة وعلى دراية تامة بالأساليب الحربية الرومانية ، ولما كان (الارفرنى) يبعدون كل البعد عن الحركة المعادية لروما ، خدم (فيركنجتوريكس) نفسه فى معسكر (قيصر) لمدة ست سنوات أثناء الحملة التى قام بها . ولكن قسوة (قيصر) المتزايدة التى كان يتبعها فى وسائله ووحشية رجال الأعمال الرومان Negotiatores قد جعلت كل بلاد الغال على شفا الثورة .

ولقد دبر هذا الانقلاب فى الاجتماع السنوى لمجلس الغاليين الذى كان ينعقد عند حدود شعب (الكارنوتيس) Carnutes وهذا المكان هو مركز العبادات الدرويدية . بدأت الحرب وختمت باحتفالات دينية ، فقد افتتحت بأكثر الطقوس الدينية جدية وذلك بتأييد من الكارنوتيس) الذين تطوعوا للقيام بأول حركة معادية — وهى ذبح رجال الأعمال الرومان Negotiatores فى (كينابوم) Cenabum قاعدة الإمدادات وهذا يبدو كأنه هدر للدم الرومانى وفقا لطقوس دينية ، على الرغم من أنه كان هناك مبرر كاف قياسا على المستويات العامة فى ذلك الوقت . وانتهت الحرب بأن سلم (فيركنجتوريكس) نفسه لقيصر وهو فى كامل معداته العسكرية — وهذا نوع من (الوهب) Devotio لتهدئة ثائرة الآلهة . وهذه الاحتفالات الدينية التى أقيمت فى بداية الحرب ونهايتها تشير إلى أن الدرويدين قد قاموا بما يعتبرونه حرب مقدسة شنت من أجل سلامة بلاد الغال عامة .

وفى الوقت الذى كانت فيه الحرب على وشك الاشتعال ، كان

(فيركنجتوريكس) على رأس ائتلاف قوى يضم كل القبائل الغالية الرئيسية في وسط بلاد الغال و (أرموريكا) Armorica وحتى (الايدوى) قد تخلوا عن روما لفترة ما . وكان دور (فيركنجتوريكس) هو دور قائد الحرب، كما كانت السياسة العسكرية التي اتبعها تدعو إلى حرب العصابات وإلى التراجع والتخريب بشتى أنواعه . أما الرومان ، فبعد أن منعت عنهم الإمدادات بذلوا جهداً شاقاً للإغارة على القلاع الغالية الحصينة المقامة على التلال . وقد نجحت هذه الهجمات بصورة مرضية في (أفاريكوم) Avaricum ومرة أخرى في حصار (جرجوفيا) Gergovia ذي الشهرة الواسعة التي تحمل قيصر فيه خسائر فادحة . لكن عندما حاول الغاليون غزو الولاية الرومانية ، وقعت هناك معركة بالقرب من (ديجون) Dijon خسر الغاليون فيها كل سلاح فرسانهم تقريبا . وكانت آخر حادثة وقعت في هذه الحرب (هي حصار أليسيا Alesia الكئيب — وهي أليس سانت وكوت دور Alise St. Reine Cote Dore الحديثة — ونستقي تفاصيلها مما كتبه قيصر ومن أعمال التنقيب التي أقيمت في العصور الحديثة والتي بدأت بحفريات نابليون الثالث . فقد حاصر جيش روماني قوامه ٦٥٠٠٠ رجل (فيركنجتوريكس) ومعه ٨٠٠٠٠ رجل في هذه القلعة الحصينة التي هي في نفس الوقت محراب للإلهة (ابونا) Epona وتظهر عملية الحصار هذه التي قام بها الرومان تحركاتهم العسكرية في أكمل مراحلها . وبعد هذا ظهرت قوة غالية جرارة من الرجال المسرحين (يصل عددهم ربما إلى ٢٥٠٠٠٠ رجل) وحاصرت قيصر وهو في طريق عودته . واستمر هذا الموقف غامضا لمدة شهرين عصيبين أغسطس وسبتمبر عام ٥٢ ق . م .) ولكن قوة هذا الجيش المسرح لم تكن قد وزعت توزيعا له أثر فعال ، ربما يرجع ذلك إلى انقسام القيادة . وانتهت محاولة هذا الجيش لتخليص (أليسيا) من الحصار إلى كارثة وإلى انهيار آخر وأقوى اتحاد لبلاد الغال بوصفها بلد حر .

إن هذه الثورة قد جعلت أعظم قائد رومانى وأقوى جيش رومانى على وشك الهزيمة وكان هذا هو العمل الجليل الذى قام به (فيركنجتوريكس) دون جميع أعماله . فقد درب الغاليين فى ميدان القتال على أساليب حربية جديدة ، بما فى ذلك من أساليب ضرب الحصار المعقدة . أما فى مجال السياسة فقد فاق كل الغيوريين من رجال القبائل فى تحمسه لفكرة إقامة بلاد غال حرة مستقلة تستطيع أن تقاوم أى قوة فى العالم ، كما اعتقد هو وقد أصبح رمزاً تتجسم فيه قضية بلاده ، ولكن عندما استسلم ، سقطت هذه القضية . ومن الجدير أن نتوقف لحظة لنلاحظ مدى قدرة المجتمعات المحلية على إنجاب زعماء من وقت لآخر يتمتعون بمقدرة خارقة — أمثال بونتياك . . . . Pontiac وفيركنجتوريكس و (أرمينيوس) Arminius ، والفرق بين أمثال هؤلاء الرجال وبين المستوى العام لمجتمعاتهم فى مضمار المبادئ الأخلاقية والمقدرة الذهنية أوضح بكثير مما نراه فى العالم المتحضر كما أن فى استطاعة هؤلاء الرجال أيضا أن يقودوا شعوبهم إلى نصر كانوا هم أنفسهم يظنونه بعيداً كل البعد عن إمكانياتهم .

وبذلك أوشكت مهمة (قيصر) فى بلاد الغال على الانتهاء . وتلى ذلك قيامه بعمليات تطهير شاملة فى (أكويتانيا) Aquitania ولكنه فى عام ٥١ ق . م . ترك وراءه بلاد الغال وقد انهزمت وأصبحت خاملة الحركة منهوكة القوى ، وفى أثناء هذه السنوات شكل (قيصر) جيشا رومانيا رائعاً يربطه به ولاء شخصى متين فى قوة ولاء (الحرس القديم) Old Guard لنابليون . ويستند هذا الولاء على ذكرياتهم المشتركة عن أعمال الحصار والمعارك الشهيرة ، والزحف الرائع والحملات التى قاموا بها فى بريطانيا وألمانيا . لقد كان لقيصر أن يستحوذ على سيادة العالم الرومانى بجيش الغال هذا .

وقد ضيق غياب قيصر فى بلاد الغال الخناق على الائتلاف الثلاثى فقد كان (بومبى) وكراسوس ، يغار كل منهما من الآخر دائماً ، وعندما لمع نجم زميلهم الأصغر على مسرح الأحداث ، حقدوا عليه ، وكان فى إمكان مجلس الشيوخ استطلاع الموقف بسهولة . وبذل شيشرون بالذات قصارى جهده ليعزل بومبى عن الائتلاف لأنه كان يعتبر ذلك أنجع أداة لتحطيم الائتلاف. وفى وسط هذه الظروف دعى قيصر زملاءه إلى الاجتماع فى (لوكا) Luca عام ٥٦ ق . م . وقد خرج الائتلاف من هذا المؤتمر وقد تجدد العهد له ودعمت أعمدته . وأصبح بومبى وكراسوس قنصلين لعام ٥٥ ق . م . ، بينما حصل قيصر على خمس سنوات أخرى لإمارة بلاد الغال وبومبى على خمس سنوات لإمارة أسبانيا وكراسوس حصل على أثمن غنيمة وذلك عند تشبيهه بالإسكندر — ألا وهى الإمارة الشرقية . أما مشروع الحرب ضد بارثيا الذى يعتبر جحيم لا مفر منه Ignis fatuus فقد كان له أن يستهلك كل سياسة روما الخارجية طوال عدة سنين تالية . وكانت المملكة البرثية قد قامت على الفراغ الذى نتج عن انهيار نفوذ عائلة (سليوكوس) Seleucus فى وسط آسيا منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد . وكانت هذه المملكية إلى حد ما إحياء للإمبراطورية الفارسية القديمة ، فقد استعاد ملوكها ، وهم من سلالة (الأرساكيد) Arsacid لقب (ملك الملوك) المشحون كبرياء ، وسيطروا على طرق القوافل الممتدة من الصين والهند والخليج الفارسى إلى البحر الأسود والبحر الأبيض ، كما أزادوا أخيراً من التعريفة الجمركية المفروضة على هذه الطرق زيادة هائلة . وقد وضح أن مصالح روما المالية كان لها دخل فى هذه التجارة المربحة منذ أن قام بومبى بغزواته فى الشرق وقد واتتها الفرصة الآن لتتمكن من تحقيق السيطرة الكاملة على هذه التجارة . وقد أمدَّ هذا حملة كراسوس بدافع مقبول على الأقل، هذا وإلا أصبحت هذه الحملة ليس وراءها دوافع، وعندما نقرأ قصة هذه الحملة فى كتاب (بلوتارخ) ضمن سيرة حياة (كراسوس)

نشعر بأن هناك قوة هائلة تتعثر فى طريقها تحت قيادة هزيلة إلى مصير مشئوم . وقد كان وقوع الكارثة ضربة قاضية لكراسوس وفرقه السبع . فقد أخذ المشاة الرومان على حين غرة عندما كانوا يسيرون فى صحراء سوريا بلا طعام أو ماء وحاصرهم الفرسان البرثيون ورماة السهام الذين كانوا يمتطون الخيل وبالقرب من (كارهاى) Carrhae مزقوهم إربا فى أبشع هزيمة (عام ٥٣ ق . م .) منى بها الرومان منذ هزيمة (كناى) فقد خسروا سبع فرق ، وقتل . . . ٢٠ رجل ، وأسر . . . ١٠ ، أما كراسوس نفسه فقد فصلت رأسه عن جسده وأرسلت إلى (ملك الملوك) الذى كان فى ذلك الوقت ضيفاً على بلاط أرمينيا .

وتصادف أن مسرحية (أتباع باخوس) Bacchae للشاعر (يوربيديس) كانت تعرض هناك ، فأمسكوا برأس كراسوس ، عضو الحكومة الثلاثية ، ولوحوا بها فى الهواء لتلعب دور رأس (بنثيوس) Pentheus فى المسرحية . وهكذا كان حب ملوك الشرق للحضارة الهيلينية يسير على هذا النحو .

وكان الثأر لكراسوس صرخة عالية فى مجال السياسة الرومانية استمر انطلاقها ثلاثين عاما . وقد صور الشاعر (هوراس) Horace ما جلبه الأسرى الرومان من عار بزواجهم من نساء متبربرات ، وانمحى من ذاكرتهم حتى اسم إيطاليا وروما . وربما كان مصيرهم أغرب مما تصور هو ، فقد عثرت الدراسات الأخيرة على شواهد فى المصادر الصينية تدل على أن جنوداً مرتزقة من الغرب كانوا يستخدمون فى ذلك الوقت فيما يعرف الآن بولاية (تركستان) Turkestan ومن المحتمل أن بعض هؤلاء الجنود كانوا من رجال كراسوس ، باعهم البرثيون للصينيين .

أما الآن ، فقد وقف (قيصر) و (بومبى) وجهاً لوجه ، وكان موت جوليا Julia ابنة قيصر وزوجة بومبى فى العام السابق لموقعة كارهاى) قد أضعف تماما من الرباط الذى كان يربط بينهما كما تركهم موت كراسوس لينافس كل منهما الآخر . وما أن مرت سنوات قلائل حتى أصبحا عدوين سافرين . وقد كان على بومبى بمقتضى شروط مؤتمر « لوكا » ، أن يتسلم إمارته فى أسبانيا بعد قنصلية عام ٥٤ ، ولكنه فضل أن يمكث فى روما وأن يحكم أسبانيا عن طريق مبعوثيه . وهذا الإجراء مكن مجلس الشيوخ من استخدام (بومبى) ليحفظ ميزان القوى مع قيصر ومع الفوضى السياسية المتزايدة فى روما والتى تسبب فيها امتلاك الأفراد لجيوش السفاحين المحترفين . وهذه الجيوش تشبه الجيوش التى نشرت الدمار فى ألمانيا خلال السنوات الأخيرة من جمهورية فايمر) Weimer فقد كانت هناك عصابة من هذه الجيوش تعمل لصالح قيصر تحت إمرة (كاوديوس ' Clodius وأخرى تعمل لصالح (بومبى) تحت إمرة (ميلو) Milo وهذه العصابات كانت تسيطر على طرقات روما من عام ٥٧ إلى ٥٢ق.م. وأخيراً قام رجال (ميلو) باغتيال (كاوديوس) . وعندئذ طالب مجلس الشيوخ (بومبى) بإدراج هؤلاء الرجال مع الجنود ، وعين قنصلا منفرداً لا منازع له . ومنذ ذلك الوقت أخذ نجمه فى الصعود بصورة أعلى من قيصر حتى احتل مركز (بطل مجلس الشيوخ) المغوار ، هذا المجلس الذى أصبح عداؤه لقيصر أكثر مرارة عندما حدثت الأزمة التى تسببت فيها ثورة (فيركنجتوريكس) وكان قيصر يستحق العداء الأبدى من جانب أعضاء المجلس المتطرفين وذلك للوسيلة التى استغل بها الجمعية الشعبية عندما كان قنصلا لعام ٥٩ ق . م . كما كانت المكانة التى وصل إليها فى بلاد الغال والمنفعة التى قد تأتيه من هذه المكانة بمثابة تحذيراً لهم . وكان عليهم أن يستدعوا قيصر بطريقة أو بأخرى كفرد عادى إلى روما ، وعندئذ يمكنهم شن الهجوم عليه والقضاء على مكانته السياسية ، لكن قيصر كان بدوره يرغب فى ترشيح نفسه

لقنصلية عام ٤٨ ق . م . ثم فى الحصول على قيادة مشرفة أخرى بعد ذلك . وقد كان على علم تام بما يبتغيه أعداؤه ، كما أنه لم تكن لديه نية الوقوع فى الفخ بقدميه . وفشلت ثمانى عشر شهراً من المباحثات الملتوية فى الوصول إلى شروط مرضية لعودته . وأخيراً قرر مجلس الشيوخ فى اجتماعاته التى عقدها يوم ١ ويوم ٧ يناير عام ٤٩ ق . م . استدعاء قيصر ليسلم جيشه لعدوه (دميتيوس أهينو بار باروس) Domitius Aheno barbarus وليسلحوا القناصلة بقرار مجلس الشيوخ الأخير Senatus consultmum وهو السلاح الرهيب الذى حطم الأخوين (جرا كوس) وقضى على (كاتيلينا). ولم يكن هناك مجال للتساؤل عن من هو عدو الشعب السافر فى هذه المرة .

وكان قيصر ينتظر تلقى الأنباء فى (رافينا) Ravenna ومعه فرقة رومانية واحدة . وفى يوم ١٢ يناير ترك قيصر ولايته ودخل إيطاليا بقوة السلاح عابراً (روبيكون) Rubicon النهر الصغير الواقع عند الحدود ، وجعل اسم هذا النهر بذلك الإجراء مثلا سائراً حتى الآن يطلق على القرارات التى لا يمكن نقضها. وبدأ الحظ يلعب دوره ، واندلعت (الحرب الأهلية) وكانت جيوش قيصر أقرب جيش إلى روما ، وقد استغل هذا الموقف بجرأته المعهودة ، فما إن مر أسبوع واحد حتى كان قد احتل (أرمينوم) Arminum و (أنكونا) و Ancona ورأى بومبى أنه ليس أمامه أمل فى السيطرة على إيطاليا وقرر أن يعبر بحر الأدرياتيك وينظم أعمال مقاومته فى بلاد اليونان . فقـــام قيصر بانقضاض مفاجىء على (برنديزيوم) Brundisium ليقطع عليه الطريق — وربما ليحاول أن يصل معه إلى حلول مرضية — ولكن هذه المحاولة فشلت . وما إن حلت نهاية شهر مارس حتى كان قيصر قد أصبح سيداً لروما وإيطاليا كلها .

ولكن لم تكن هذه الأحداث إلا الدورة الأولى من الحروب الأهلية فمركز الحزب الجمهورى ما يزال فى منتهى القوة .. والجيش الخاضع لبومبى

كان يسيطر على أسبانيا وأفريقيا . كما أن بومبى يستطيع عن نفسه ، بما له من مكانة فى الشرق ، أن يحرك كل قوات الشرق ويعود بها إلى إيطاليا لكن اعتمد قيصر على السرعة فى إحراز النصر فى الحروب الأهلية بصورة أسرع من إحرازه النصر حتى فى بلاد الغال . ففى حملة استغرقت ستة أسابيع أطاح بكيان الحزب الجمهورى فى أسبانيا وضم الجيش المنهزم إلى جانبه ، وما أن أوشك عام ٤٩ على الانتهاء حتى كان قيصر على استعداد تام لمواجهة بومبى ، وفى بداية عام ٤٨ عبر بحر الإدرياتيك وأنزل جيشاً جنوبى (دورا خيوم) Dyrrachium (دوراتز الحديثة) وهى قاعدة بومبى الحصينة . وقد قام بهذا العمل فى الشتاء وعلى الرغم من تصدى قوة بحرية هائلة له . وبعد ذلك ، عندما أمده (مارك أنتونى) بالعون فى الحال حاصر بجرأة متناهية قوة كبيرة من قوات بومبى . ولكن فى منتصف شهر يونيو اضطر إلى رفع الحصار واتجه ناحية الشمال الشرقى نحو (تساليا) Thessaly فتعقبه بومبى . وفى ٩ أغسطس ، بالقرب من (فارسالوس) Pharsalus وقعت المعركة الحاسمة بين أعظم قائدين رومانيين فى عصرهما . وبفضل ثبات المحاربين القدماء من الغاليين انتهت المعركة بنصر مبين أحرزه قيصر ، وكان تعليقه بعد المعركة وهو يحدق فى وجوه القتلى من الجمهوريين : « كان يجب أن يلاقوا هذا المصير » .

إن هذا النصر المبين الذى كان من نتائجه أن أصبح قيصر سيداً للعالم تلته مأساة ومهزلة : فقد هرب « بومبى » من (فارسالوس) واستقل مركبا ووصل فى آخر الأمر إلى مصر ، ولكن حكام مصر لم يكن يحبذون الانضمام إلى قضية خاسرة ، فاغتيل بمجرد نزوله على الشاطىء — وهو ثانى عضو من أعضاء الائتلاف الثلاثى يلقى حتفه بالسيف . ولما كان قيصر قد تعقبه عن كثب ومعه شرذمة صغيرة من الجنود ، فقد زج به فى منازعات العائلة المالكة التى كانت قائمة بين (كليوباترة) ملكة مصر ، وأخيها وأصبح قاهر (فيركنجتور يكس) و (بومبى) مهدداً بالقتل على أيدى

المصريين أثناء قيام أى معركة من المعارك التى كانت تدور فى الطرقات ، وقد أنقذه من هذا المأزق ابن ميثريداتيس ملك (بونتوس) . ثم تبع ذلك قيامه بحملة خاطفة فى آسيا وأخرى عصيبة فى أفريقيا ، حيث سحق آخر قوات الجمهوريين الجرارة (فى عام ٤٦ ق . م .) فانتحر (كاتو Cato .
وفى خريف عام ٤٦ ق . م . احتفل (قيصر) احتفالا رائعاً بانتصاره. الساحق على أربع جبهات : بلاد الغال، وأفريقيا ، ومصر ،و (بونتوس) وكل هذه الجبهات كانت أعداء غرباء عن روما بينما لم تذكر معركة «فارسالوس» ضمن انتصاراته . ولكن فى عام ٤٥ ق . م . تطايرت الشرارة الأخيرة من الحروب الأهلية فى أسبانيا . فأخمدها قيصر فى « موندا » Munda وهى آخر ما قام به من معارك . وقد جاءت أنباء هذا الانتصار إلى روما أثناء الاحتفال بأعياد « باليليا » Palilia لعام ٤٥ ق . م . — فأصبح انتصاره حادثة حسنة الطالع أظهرت قيصر وكأنه « رومولوس » Romulus آخر . أما انتصاره الخامس ، الذى كان أقل أهمية ، فقد أحرزه فى أكتوبر عام ٤٥ ق . م . على الثوار المنهزمين فى أسبانيا وهم أعداء لروما . ولم يبق أمامه بعد ذلك سوى ستة أشهر يحياها .

إن أى تقييم لدكتاتورية قيصر لا يمكن أن تخلو من فحص الوقت القصير الذى كرسه للأمور السياسية . فلم يحدث أبداً أن مكث فى روما ستة أشهر كاملة فى الفترة ما بين معركة « فارسالوس » ووفاته . وكان (أبيوس) Apius ، و (هيرتيوس) Hirtius وكورنيليوس بالبوس Cornelius Balbus وكلاؤه الشخصيون ، نخبة ممتازة ، ولا بد أنهم قد اكتسبوا مكانة عالية حتى إنه تم إنجاز كثير من الأعمال . ولكن كل ماقاموا به كانت أعمالا ارتجالية المقصود بها حل المشاكل الطارئة ، ونحن لا نعلم المغزى الذى كانت قد تتخذه خطط قيصر المحنكة ، إذا كان لديه بالفعل أى نوع من الخطط . والموضوع الذى شغل ذهن قيصر بالتأكيد هو موضوع تسوية الأمور ، إذ لم يحدث أن صدرت أحكام بالنفى ومصادرة الأملاك . ومن الحقيق أن الكثير من

الزعماء الجمهوريين قد لاقوا حتفهم فى أرض المعركة ، ولكنه على الأقل قد نجح فى ضم رجال — لوقت قصر — إلى جانبه من أمثال شيشرون وكاسيوس Cassius وماركوس بروتوس Marcus Brutus وكذلك (ماركالوس) Marcellus الذى تولى القنصلية عام ٥٠ ق م. والذى كان عدوا لدوداً له من قبل . ولكن لم يظهر قيصر أى اهتمام باتجاهات معارضيه السياسية فقد أزاد من عدد أعضاء مجلس الشيوخ حتى وصل إلى ٩٠٠ عضو — يضيق أنصاره الخناق حولهم . وكان هؤلاء الأعضاء يختارون من الولايات بمثل ما كانوا يختارون من روما وإيطاليا . وأصبح مجلس الشيوخ وكأنه خاتم من المطاط يتناسب مع كل المقاسات التى يحددها قيصر . أما الموظفون الرسميون فهم من يقع عليهم اختياره ، وأصبح وكلاؤه يسيطرون تماما على الخزانة ، فظهرت صورته مسكوكة على العملة . وقد تركزت كل سلطات الدولة الفعالة فى شخصه هو ، فالجيوش تدين له بالولاء ، وجعل لقب (إمبراطور) Imperator جزءاً من اسمه . كما منحته الجمعية الشعبية فى وقت مبكر عام ٤٩ ق . م . وظيفة الدكتاتور ، وأضخمها لوقت ما مع وظيفة القنصل . ثم عين دكتاتور لمدة عشر سنوات فى عام ٤٦ ، ثم لمدى الحياة فى يناير عام ٤٤ ق . م . كما أن حصل بتفويض من الجمعية على الحصول على السلطة التريبونية على الرغم من أنه لم يكن تريبونا) فى وقت من الأوقات وحصل كذلك على سلطات كانت من اختصاص (الكنسورس) Censors وأصبح هو (الكاهن الأعظم) Pontifex وعضواً فى كل معاهد الكهنوت . وبالإضافة إلى كل هذا أغدق عليه الكثير من الألقاب الشرفية والامتيازات، مثل حق ارتداء ثوب المنتصر Triumphator القرمزى ، وأولوية الإدلاء بصوته فى مجلس الشيوخ . . . إلخ ونحن لا نعلم ما إذا كان حكمه الفردى المطلق هذا قد أصبح هو الحل النهائى لمشاكل روما السياسية — ولكن من المسلم به أن طبيعة هذا النوع من الحكم لم يسبق لها مثيل — وهذا ما أثار عداء حفنة من الرجال — بعضهم جمهوريين ، والبعض الآخر من أتباعه

السابقين — ولكن كانوا جميعاً أعضاء فى مجلس الشيوخ . فقرر هؤلاء اغتياله .

وأهم سمة من سمات تشريعات قيصر هى مشروعاته التى كانت تهدف إلى بسط الامتيازات القانونية . فقد بسط حقوق المواطنة الرومانية على بلاد الغال القريبة . وهو إقليم جلب مزيداً كبيراً من القوة لإيطاليا بزراعته المزدهرة ، وفلاحيه الأشداء ، وحياته الحضرية المتطورة . وكانت النية تتجه إلى تطبيق نفس المشروع على ناربونينسيس على الرغم من أن الإقليم لم يكن قد اكتمل شكله . أما مدينة جاديش (قادش الحديثة) Gades التى كان له فيها كثير من الصلات منذ حكمه لأسبانيا ، فقد أصبحت مدينة للمواطنين الرومان . وقد أعد مشروع ضخم خاص بإقامة مستعمرات فى أسبانيا وبلاد الغال وأفريقيا واليريكوم وحول البحر الأسود . ومما يجذب الانتباه من بين هذه الإنشاءات هو إعادة بناء قرطاجنة وكورنثه ، فهذا يعتبر إحياء لمشروعات (جايوس ماريوس) كما منحت حقوق المواطنة الرومانية لكثير من المدن فى صقلية وأعيد تنظيم دساتير مجالس إيطاليا البلدية ووحدت قوانينها . وقد أيدت الحفريات هذا الإجراء كما أقرته المصادر الأدبية . وكان هناك اقتراح للقيام بتجميع جديد للقانون الرومانى . وقد تم إعادة تنظيم التقويم الذى كان فى ذلك الوقت خطأ بثلاثة شهور . وقد تم هذا التنظيم بمثل هذه الدقة المتناهية حتى إنه لم يحتاج إلى أى تعديل مرة أخرى حتى القرن السادس عشر فشهر يوليو الذى كان فيما قبل شهر (كونتيليس) Quintilis — أطلق عليه اسم قيصر (وهو يوليوس ' وما يزال يحمل هذا الاسم حتى الآن . كما لاقت المشاريع الهندسية الضخمة ترحيبا بالغا . فقد تم حفر قناة لنهر (إسثموس) Isthmus فى كورنثه ، وتعميق مجرى نهر التيبر فى روما وإقامة ميناء جـــديد عند مصبه . وكان هناك مشروعات رائعة للقيام بتطويرات جديدة فى روما . وقد تم إنجاز بعضها على يد (أوغسطس) فيما

بعد ، ومن المحتمل أن نجد قيام نظام مطلق للإنماء من المشاريع الهائلة فى مجال الهندسة والمعمار . ولكننا نبحث عن وجود دلائل تثبت أن قيصر كان يضع يده على مشكلة العالم الرومانى الأساسية — ألا وهى العمل لضمان وجود استقرار سياسى فى روما وضمان قيام حكومات عادلة للولايات . أما إننا نجد أن جهوده قد كرست للقيام بحرب شعواء يشنها ضد (بارثيا) ومقدر لها أن تشتعل فى عام ٤٤ ق . م ، فإن هذا الاتجاه لا يدعو إلى الطمأنينة . وربما تحقق هذه الحرب دون شك ، انتقاما لكراسوس وتزاحم أعمال الاسكندر ، كما أنه من المحتمل أنها ستؤدى إلى توسيع حدود روما الشرقية وتحددها فى المكان المناسب ولكنها كانت بالتأكيد تخلق له الأعذار ليتجاهل المشاكل السياسية التى قد لا يجد لها حلا . وعلى أية حال فقد تجمهرت ست عشرة فرقة رومانية فى الليريكوم استعداداً لإنجاز هذا المشروع الضخم . وكان على قيصر أن يلحق بهم عندما اغتيل فى ١٥ مارس عام ٤٤ ق . م .

وقد ظهرت آراء متضاربة لقرون عديدة بخصوص حادثة منتصف مارس هذه وبخصوص دوافع (المحررين) Liberators . فهل فعل (بروتوس) Brutus فعلته وفقا لمبادئ رواقية أو وفقا لتقاليد عائلية تقتضى قتل الطاغية ؟ وما هو الدور الذى لعبه (كاسيوس) Cassius ؟ وهل كان قيصر يهدف إلى إقامة حكم ملكى على نحو الحكم الهلينستى ؟ لا يمكن معرفة الإجابة على هذه الأسئلة إطلاقا . ولكن من المؤكد أن الإجراءات التى جاءت بعد شهرين من إعلان الشرط الذى فرضه قيصر ليحصل على الدكتاتورية لمدى الحياة كانت خرقا سافرا للتقاليد الرومانية . وهى فى حد ذاتها ناقوس يعلن موت الجمهورية . وقد علل الشعور الجمهورى والتقاليد السياسية الرومانية دوافع قتلة قيصر — على الرغم من أنهما لم يغفرا لهم فعلتهم هذه .

ولم يظهر أى رجل رومانى مثل هذا المزيج الرائع من المواهب مثل الذى

أظهره قيصر ، ومن يستطيع إظهار ذلك هم قلة قليلة من رجال أى عصر .
فقد وضع بين زمرة أعظم قواد العالم ، فى مرتبة الإسكندر وهانيبال ونابليون
كما كان سياسيا محنكا تماما ، وحاكما قديراً ، يتمتع بمواهب ذهنية فائقة
تتوافق مع تعطش لا يشبع للمعرفة . وكان من أوسع الرجال ثقافة فى عصره
وخطيبا بليغا وكاتبا بديعا . لقد كان له أثر عميق على العالم بأسره — وبالذات
تأثير كتاباته عن الغال البعيدة والقريبة — ومايزال هذا التأثير يؤدى فاعليته .
وكان أقل شخصية تبعث على الملل من بين زمرة رجال السلطة . ولم يكن
يميل إلى القسوة من أجل القسوة نفسها ، وكان يقدر ضرورة الرأفة
والبشاشة ، ومع ذلك ، فإن رسم شخصية قيصر الإنسان الخارق للطبيعة ،
النموذج المثالى المعصوم من الخطأ أو اللوم التى أتى به العالم (مومسم)
Mommsem وتبعه فى ذلك كثير من العلماء الألمان والإيطاليين ، ليس رسما
لشخصية تاريخية على الإطلاق ، لكن كان قيصر دون شك يتمتع بإدراك
آفات الجمهورية الرومانية أعمق بكثير من أى رجل من قبله . ولكن ليس
هناك شواهد على أنه كان يملك بين يديه علاجا لها أنجع من إقامته الحكم
الفردى المطلق .

لقد ترك للآخرين درساً يتعلمونه عن حياته ومماته ليطبقوا هذا الدرس ،
أما الحوادث الهامة التى وقعت منذ موت قيصر حتى وقوع معركة أكتيوم)
Actium فيعرفها تماما الرجل العادى معرفة أصدق من معرفته لحوادث
أى فترة من فترات التاريخ الرومانى . فقد حدث الائتلاف الثلاثى الثانى ،
وهزيمة قتلة قيصر فى معركة (فيليبى) Philipii ، وقصة غرام أنتونى
وكليوباترة وآمالهم الواسعة فى الشرق ، ثم التصدع الأخير وحدوث معركة
(أكتيوم) وانتحار (أنتونى) و (كليوباترا) فى مصر ثم استحواذ
(أوكتافيان) فى النهاية على مركز السيادة فى العالم الرومانى . ولكننا
نرى هذه الأحداث بعين الشاعر (شكسبير) سواء كنا نعلم ذلك أم لا ،

أو على الأقل فى العالم الذى يتكلم الإنجليزية . وعلى الكاتب المسرحى أن يختار من هذه الحوادث ويبسطها فإن خطبة «أنتونى» فى مسرحية «يوليوس قيصر» تثير ثائرة الشعب الرومانى ضد «المحررين» وتلا ذلك فى عرض سريع لصدور أحكام النفى والإعدام ووقوع الخلافات بين «بروتوس» و«كاسيوس» ثم وقوع معركة «فيليبى» . لكن الحقيقة تختلف عن ذلك إذ تجمعت القوى المتطاحنة فى بطء متناه وتنظمت استعداداً للحلقة الثانية من الحروب الأهلية ، لكن فى الواقع كان توقع وقوع صراع أمراً بعيد الاحتمال لوقت ما . ويبدو أن المحررين لم يكونوا قد وضعوا خططا أبعد من اغتيال الدكتاتور — وعندما حدث ذلك اعتبروا أن الجمهورية قد استردت قوتها . ولكن كان ما يزال هناك حزب «قيصرى» وجيش يدين بالولاء لقيصر ، ومن يستطيع أن يرث هذا الولاء عن قيصر قد تكون له الغلبة فى النهاية .

وكان «ماركوس أنتونيوس» (مارك أنتونى) هو الشخص المحتمل قيامه بهذا العمل فهو واحد من أقدر قواد قيصر والقنصل الوحيد الذى ظل على قيد الحياة لقنصلية عام ٤٤ ق.م. وكذلك (لبيدوس) الذى كان قائد الفرسان فى جيش قيصر .

أما فى جبهة الجمهوريين فقد كانت مكانة الجمهوريين عبارة عن جهود ضائعة فى روما وإيطاليا ولكن كان هناك شيشرون ، السياسى الجمهورى الوحيد الذى يعتبر من الدرجة الأولى ، وكذلك هناك (سكستوس بومبيوس) Sextus Pompeius ابن (بومبيوس العظيم وأخيراً كان هناك رجل ثائر شاب فى الثامنة عشرة من عمره يدعى (جايوس أوكتافيوس) Gaius Octavius ، ابن أخ يوليوس قيصر العظيم . وعندما وضع قيصر وصيته قبل رحيله إلى (بارثيا) اتخذه أبنا له بالتبنى تحت اسم (أوكتافيان) وأعلنه وريثا لإقطاعياته . ويقال أن (أوكتافيان) كان فى ذلك الوقت

فى طريق عودته من (اليريكوم) ليتسلم تلك التركة الخطرة التى آلت إليه ولم تكن الطريقة التى سيتناول بها هذه التركة واضحة .

وكان هناك فى نفس الوقت مهادنة لا استقرار فيها . فبعد اغتيال قيصر مباشرة جاء التصديق على ما قام به قيصر من أعمـــال ، ولكن عُفى عن قتلته .

كما أن المشاريع التى كان قيصر قد أعدها للولايات ليتولى تنفيذها قناصلة عام ٤٤ ق . م . قد نقضت عندما طالب (أنتونى) ببلاد الغال لمدة ست سنوات وهى قاعدة نفوذ قيصر ، وكان ذلك هو أول نقض للعهد. وقد زادت بشاعة هذا النقض نتيجة سلسلة من الخطب العنيفة ألقاها (شيشرون) ضد (أنتونى) وهى الخطب الفيليبية Philippics ، أما (بروتوس) و (كاسيوس) فقد رحلا الى الشرق ليعبئا جيشا يكون ندا للقوات (القيصرية) المسيطرة على الغرب . فظهر (أوكتافيان) فى إيطاليا وأصبح لبعض الوقت بطل مجلس الشيوخ فى حربه السافرة التى كان يشنها على (أنتونى (فى أبريل عام ٤٣ ق . م . (والحكم الذى أصدره شيشرون على (أكتافيان) هو : (إن هذا الشاب يجب تملقه ، واستغلاله ، ثم الإطاحة به) ولكن هذا الشاب الصغير كان يحتفظ فى عقله بأفكار أخرى، ففى أحرج لحظات الأزمة ، زحف بجيوشه على روما ، لا على (أنتونى) وأصبح قنصلا لعام٤٢ق.م. وكان الصلح قد تم بين زعماء الحزب القيصرى فى نوفمبر عام٤٣، واعترف بأنتونى وأوكتافيان ولبيدوس كأعضاء لائتلاف ثلاثى يستمر لمدة خمس سنوات . وكانت خطوتهم الأولى هى تنظيم أعمال النفى والإعدام على مستوى ما قام به (سولا) تماما . وكان (شيشرون) من بين الضحايا العديدين لذلك الإرهاب الجديد وقد جابه مصيره بشجاعة وعزة نفس عالية . ثم تلى أحكام النفى والإعدام هذه شىء جديد على التاريخ الرومانى — ألا وهو إعلان تأليه (يوليوس قيصر) . فتلقى الشعب هذا

النبأ بترحاب بالغ وبحماس شديد . وقد أدى هذا التأليه إلى حصول (أوكتافيان) على امتياز نادر، إذ أصبح منذ ذلك الوقت (ابن المؤله قيصر ' Divi Filius وبعد ذلك قام (أنتونى) و (أوكتافيان) بمطاردة (المحررين) حتى بلاد اليونان . ومرة أخرى التقت قوات الغرب التى تحارب تحت اسم قيصر بقوات الشرق التى تحارب من أجل الجمهورية . وفى أثناء الاشتباكين اللذين وقعا فى (فيليبىّ/ Philippii (فى عام ٤٢ ق . م .) كان النصر من نصيب قوات الغرب للمرة الثانية ، فانتحر كل من(بروتوس) و (كاسيوس) وأضيف إلى قائمة الشهداء الجمهوريين اسمان جديدان .

وأدى الانتصار فى معركة فيليبىّ إلى فوز الحزب (القيصرى) ولكن كان ما يزال هناك ثلاثة زعماء لهذا الحزب — كما كان هناك حادثة سابقة كئيبة حدثت نتيجة للمنافسة التى قد يؤدى إليها هذا الموقف . وكان أنتونى أوسع هؤلاء الثلاثة شهرة . زاد من تدعيمها ما قام به من أعمال فى حملة (فيليبىّ) أما (لبيدوس) فقد كانت سمعته فى انحطاط مستمر . لكن (أوكتافيان) دعم موقفه بتأييد الجيش والشعب له ، إلا أنه لم يبل بلاء حسناً فى الحرب . وهكذا فقد كان من الطبيعى أن (أنتونى) لابد وأن يتولى أخطر منصب بعد أن انهزم الجمهوريون — ألا وهو إعادة إقرار النظام فى الشرق والقيام بالحرب المقترحة ضد (بارثيا) وتولى (أوكتافيان) على ما كان يبدو منصباً لايحمد عليه — وهو الإشراف على استتباب الأمن فى إيطاليا والإشراف على تسريح المحاربين القدماء ومنحهم أراض ، هذا بجانب متابعته لسير القضية القائمة ضد (سكستوس بومبيوس) . وقد يكون الإشراف على توزيع الأراضى وحده مثيراً للحقد والاضطراب ، فالمدن الإيطالية الثمانى عشر التى كان من المفروض مصادرة أراضيها قاومت هذه المصادرة بعنف ، واندلعت حرب (بيروسيا) Perusia الفوضوية والتى أدت إلى الفوضى بتحريض من مشايعى (أنتونى) المقيمين فى روما .

ونتج عن هذه الحرب تدمير (بيروسيا) وهى المدينة الإتروسكية العتيقة ، وأبحر (أنتونى) إلى إيطاليا على رأس قوات جرارة . ونظراً لوجود هذا الرعب الذى اجتاح البلاد كلها ، فقد بدت الحلقة الثالثة من الحروب الأهلية وكأنها على وشك الوقوع ولكن تم تصفية الموقف بالأساليب السياسية لا بالسلاح . وبمقتضى معاهدة (بروندزيوم) Brundisium (أكتوبر عام ٤٠ ق.م.) تجدد العهد للائتلاف الثلاثى . وحصل (أنتونى) على كل الولايات الواقعة شرقى (اليريكوم) و (أوكتافيان) على الولايات الواقعة غربها عدا أفريقيا ، التى آلت إلى (لبيدوس) . وكى يصبح هذا الصلح كاملا تزوج (أنتونى) (أوكتافيا) Octavia شقيقة (أوكتافيان) وأصبح فى وسع الشعب أن يأمل فى السلام مرة أخرى . وقد وجد هذا الأمل والسكينة تعبيراً لهما فى الأنشودة الرابعة من رعويات (فرجيل) ، وهذه الأنشودة تعتبر رؤيا تبشيرية تبشر بحلول (عصر ذهبى) جديد .

وبعد انقضاء عام على هذا التاريخ امتد نطاق الائتلاف الثلاثى ليضم (سكستوس بومبيوس) الذى حصل على ثلاث ولايات وعهد إليه بالأسطول. ولكن الآمال التى تغنت بها الأنشودة الرعوية الثالثة كانت سابقة لأوانها . إذ كانت إقامة سلام يعم البلاد كلها حلماً لم يتحقق إلا بعد مضى عشر سنوات، أى بعد وقوع حروب أهلية جديدة . وكان هذا العقد مشحونا بالتنافس بين أفراد العائلة المالكة ، كما ظهرت فيه ثلاث شخصيات نسائية شهيرة (أوكتافيا) التى كرست حياتها لخدمة أخيها وزوجها ، وبقدر ما كانت تحتفظ بنفوذها على أخيها ، كانت قوة تعمل من أجل السلام . ولم يحدث أن حصلت أى امرأة أخرى قبلها على احترام الشعب الرومانى الكلى ، بل وحبه بمثل هذه الدرجة . و (ليفيا دروسيللا) Livia Drusilla التى تزوجها (أوكتافيان) فى عام ٣٨ ق . م . وهى امرأة فى ريعان شبابها ، طلقها

زوجها ليفسح الطريق أمام (أوكتافيان) ليتزوجها وقد برهن هذا الزواج أنه كان اقترانا مثالياً ، وكانت (ليفيا) من بنات عائلة (الكلاوديثى) Claudii الجليلة، امرأة جميلة ، وذكية ماهرة فى معاملتها لزوجها . وكان لتأثيرها دور كبير فى تحويل (أوكتافيوس) الشاب البارد المشاعر الفظ إلى (أوغسطس) Augustus الحكيم الخير فى السنوات الأخيرة من حياته ، أما (كليوباترا) Cleopatra فقد كانت آخر حكام مصر المستقلة وهذه المرأة توحدت فيها تقاليد الحكام المقدونيين وتقاليد الفراعنة . وقد أنجبت الأسرة المقدونية كثيراً من الأميرات الشهيرات ، وكانت (كليوباترا) تدرك تماما دورها بوصفها آخر وريث للإسكندر الأكبر ومشاريعه . ولكنها كانت تتكلم اللغة المصرية بنفس درجة إتقانها لليونانية ، كما كانت كذلك وريثة الفراعنة ، وابنة (را Ra) إله الشمس مثلها فى ذلك مثل الفراعنة تماما . وكانت مملكتها أرضا غنية وإن كانت ضعيفة . وكان سحر وجمال ملكة هذه الأرض من بين أعظم مواردها ، فقد اكتسبت محبة قيصر عندما جاء إلى الإسكندرية وأنجبت له ابنا ، ثم تبعته إلى روما . ومن المحتمل أنها كانت تأمل فى الزواج منه . ثم مات قيصر — ولكن كان هناك رجل رومانى فى الشرق من السهل أن تجعله طوع يديها ألا وهو (أنتونى) الذى لم تسمعه هذه المرأة أبداً يقول كلمة (لا) . وقد كان قيام (كليوباترا) برحلتها الشهيرة إلى (كدنوس) Cydnus فى عام ٤٠ ق . م. لتلتقى بأنتونى عبارة عن حركة فى مجال مناورات السياسة العليا ، فقد ضمته إلى جانبها مثلما فعلت مع (قيصر) من قبل . ثم أنجبت له توأمين بعد عودتها إلى مصر . ولكن جاء زواجه من (أوكتافيا) فأنهى تماماً كل طموح ملكة مصر .

وكان أنتونى ما بين عامى ٣٩ — ٣٧ ق . م . يدير دفة أمور الشرق من (أثينا) و (أوكتافيا) بجانبه . وقد قام بتحصين الحدود وأعاد تنظيم الممالك العملية لروما كما قاوم غزو البارثيين لسوريا . وفى عام ٣٧ ق . م .

التقى بأوكتافيان مرة أخرى فى (تارنتوم Tarentum) وجددا العهد للائتلاف الثلاثى لمدة خمس سنوات أخرى ثم رحل (أنتونى) ليشن الحرب على (بارثيا) ، تلك الحرب التى كانت قد تأخر تنفيذها عن موعده . ولم تذهب (أوكتافيا) معه . ولكنه استدعى (كليوباترا) لتلتقى به فى سوريا

وفى الفترة ما بين ٣٧ — ٣٣ ق . م . أدى مجرى الأحداث وطموح (كليوباترا)، و (أنتونى) إلى خلق هوة سحيقة بين (أنتونى) وبين (أوكتافيان)، وقد كانت هذه هى السنوات التى أفاد منها أوكتافيان خير إفادة . ففى عام ٣٦ ق . م . هزم (سكستوس بومبيوس) فى موقعة (ناولوخوس) Naulochus وبعد ذلك مباشرة عزل (ليبدوس) وضم جنوده إلى صفوفه باستخدامه شتى وسائل الإقناع . وما إن جاء ذلك الوقت حتى كان يحظى بتأييد قوى فى روما وإيطاليا . وقد كان فى خدمته وزراء على درجة كبيرة من اللباقة وحسن التصرف . وهناك (أجريبا) Agrippa الذى كان قائدا حربياً ممتازاً ، و (مايكناس) Maecenas الذى كان دبلوماسياً وإدارياً من الدرجة الأولى . أما بالنسبة لأنتونى ، فقد كانت هذه السنوات هى سنوات التدهور الذى كان سببه المباشر فشله فى الحملتين اللتين قام بها فى بارثيا (عام ٣٦ ، ٣٥ ق . م .) وكل ما استطاع أن ينتزعه من انتصارات هو انتصاره على « أرمينيا » . وقد ارتكب خطأ لا يغتفر عندما احتفل بانتصاره هذا فى مدينة الإسكندرية — كما كان فى سبيله للاعتماد على « كليوباترا » وعلى ثروة مصر . ثم عقد عليها نوعاً ما من الزواج — مع أنه لا يمكن أن يكون زواجاً رومانياً شرعياً — وتنازل عن بعض الولايات والمدن الرومانية للملكة وأطفالها .

وأصبح من المحال ألا يحدث فى ذلك الوقت اصطدام بين زعيم الحزب القيصرى العجوز وبين منافسه الشاب . وقد سبق هذا الصدام حرب مريرة للدعاية جاءت منها القصص التى تحكى مشاريع أنتونى وكليوباترا

الواسعة من أجل إقامة مملكة تضم كل بلاد العالم، على أن تصبح الإسكندرية عاصمتها . وقد انتصر « أوكتافيان » فى حرب الدعاية هذه بنفس الصورة القاطعة التى كان له أن ينتصر بها فى حرب السلاح ، وبعد أن تولى القنصلية لعام ٣١ ق.م . شد من أزره يمين الولاء الذى أقسمه شعب روما وإيطاليا لشخصه، وأصبح فى إمكانه أن ينزل إلى أرض المعركة بوصفه البطل الشرعى للغرب فى حرب أعلنت ضد كليوباترا . فحشد أنتونى فى وجهه كل القوات الرومانية التى كانت فى الشرق ، كما وقف أسطول مصر بجانبه . وفى سبتمبر عام ٣١ ق . م . التقت القوتان البحريتان وجها لوجه بعيداً عن شاطىء الإدرياتيكى وبالقرب من أكتيوم » Actium وهو المكان الذى أقيم فيه معبد شهير للإله « ابوللو » Apollo وتشير تقارير هذه المعركة الغامضة إلى أن أسطول كليوباترا قد نشر أشرعته وأبحر بعيداً عن المعركة فذهب أنتونى بوساطة قارب إلى سفينة قيادة الملكة ونزل عليها ، ثم جلس فى مقدمتها طوال يومين لم يتحدث خلالهما إلى إنسان . أما قواته ، فبعد أن هجرها قائدها ، استمرت فى قتالها بما يكفى ليحفظ كرامتها ، ثم وضعت نفسها تحت رحمة « أوكتافيان » .

وقد وقع آخر صراع ، بعد مرور عام من هذا التاريخ ، على أرض مصر . وعندما انقلبت الأمور فى غير صالح « أنتونى » انتحر ، وقد حذت (كليوباترا) حذوه بعد عدة أيام بعد أن حاولت إيقاع (أوكتافيان) فى حبائلها كما تقول بعض التقارير .

وهناك قصة تحكى عن قاطع طريق أسبانى سأله الكاهن وهو على فراش الموت أن يعفو عن أعدائه فأجاب (اى أبتاه . . . ليس لى أعداء . . . فقد قضيت عليهم جميعاً) وكان هذا هو نفس موقف (أوكتافيان) وهو فى سن الثانية والثلاثين . إذ أصبح سيداً لا شريك له لعالم يتوق إلى السلام

ويشعر بالذنب لدماء سفكت خلال ثلاث دورات من الحروب الأهلية حدثت كلها فيما لا يقل عن عشرين عاماً .

وكتاب هذه الفترة يشيرون دائماً إلى سطورة (رومولوس وريموس Romulus Remus) إذ قامت مدينة روما على دماء الأخ المهدورة .

وقد كان الإرهاق الناجم عن الحرب والشعور بالإثم من أقوى دوافع (أوكتافيان) على العمل لحل مشاكل العالم الرومانى حلا قاطعاً .

الفصل السابع

الحياة الاجتماعية والثقافية

فى أواخر عصر الجمهورية

قلما يمكن أن يتوفر تقرير واف ومتزن عن الحياة الاقتصادية فى إيطاليا خلال القرن الأخير من عصر الجمهورية ، إذ لم يكن الرومان يحتفظون بإحصائيات رسمية ومنتظمة حتى عن مثل هذه العوامل الأولية كالإنتاج والأجور والأسعار . ولكننا نجد بدلا من هذه الإحصائيات مجموعة من الأمثلة الفردية تنطوى فى الغالب على تفصيلات كثيرة من الصعب أن تكون فى مجموعها صورة متماسكة ، ومع هذا فمن الممكن إطلاق تعميمات معينة . فأولا : من الواضح أن غزو عالم البحر المتوسط قد أدى إلى زيادة هائلة فى الثورة لدى روما وإيطاليا . وحتى الحروب الأهلية التى لا تنقطع لم تستطع أن تؤثر تأثيراً جدياً فى مستوى المعيشة الذى كان فى ارتفاع مستمر بالنسبة للبعض ، ذلك لأن هذه الثروة الجديدة قد وزعت توزيعاً غير متكافئ إطلاقا . كما حدث أن تكونت ثروات جديدة عن طريق الأعمال المصرفية وعمليات الإقراض وجباية الضرائب وإبرام عقود الحروب والبناء والعقار ، وتجارة الاستيراد والتصدير كما عادت الحروب الكبرى التى دارت رحاها فى بلاد الغال وفى الشرق بأسلاب وهبات على كل من اشترك فيها من قائد الجيش إلى الجندى العادى . أما أحكام النفى والإعدام فقد كانت بمثابة وسيلة سريعة لإثراء الرجال الدهاة الذين نفذوا هذه الأحكام والذين كانوا ينتمون إلى الجانب المنتصر ، ولذلك

فالقرن الأول قبل الميلاد كان يتميز لأول مرة فى المجتمع الرومانى بظهور طبقة جديدة من الرجال ذوى الثراء الواسع ، أمثال بومبى Pompy ، كراسوس Crassus سولا Sulla ، ولوكللوس Lucullus . وبالطبع فإن أمثال أصحاب الملايين هؤلاء ماكانوا لينحدروا إلا من طبقة تفوقهم عدداً من الأثرياء أو الأغنياء .

وبعد حوالى عام ٨٠ ق . م . أصبحت روما لأول مرة معتادة على اقتصاديات البذخ الفاحش ، فقد بنيت منازل ريفية ضخمة — كانت ما تزال تحمل الاسم الريفى القديم « فيلا Villa » — وبنيت هذه المنازل فى الأماكن المستحبة مثل « تريفولى Trivoli » وتلال إلبا والمناطق المائية الواقعة حول خليج نابولى والمجهزة على أحدث طراز . وكان هناك تضخم مفاجىء فى العقار مثلما حدث فى فلوريدا فى العقد الثالث من القرن العشرين. ولكن أصحاب هذه المنازل قد يمتلكون أيضاً قصوراً فخمة فى روما حيث كان يوجد فى عصر شيشرون مائة منزل من المنازل الحضرية تفوق فى جمالها وفخامتها أى منزل من منازل القرن السابق إذ كانوا يجلبون لهذه المنازل أغلى أنواع الرخام من جميع بقاع العالم ، وكانت أسقفها مزخرفة برسوم منحوتة ومطعمة بالذهب وكان بها زخارف من الزجاج الملون ، وأثاث ثمين ، واحتفظوا فيها بالمكتبات الخاصة وعرضت فيها روائع فن النحت اليونانى سواء أكانت أصلية أم تقليداً للأصل . وكانت إدارة هذه المنازل تتطلب جماعات كبيرة من الخدم المدربين تدريباً ممتازاً ، ذوى الأجور المرتفعة ، خاصة من أجل إعداد الولائم الفاخرة التى أصبحت الوسيلة الوحيدة للترفيه والترويح عن النفس فى ذلك العصر. كما أنفقت مبالغ طائلة فى الإقطاعيات الريفية على إقامة الحدائق الخاصة والحدائق العامة الكبيرة ، وعلى العناية بالنباتات والأشجار الغريبة وزراعتها وعلى القواقع وغيرها من المشهيات التى تقدم على المائدة. وقد كانت الخيول العريقة والعربات الأنيقة

واليخوت، ومضاجعة العشيقات، اللائى كن يتطلبن كثيراً من النفقات من أجل الحلى والثياب وأدوات الزينة، كانت كل هذه الأشياء مما يساعد الشاب الرومانى الطائش على تبديد ثروة أبيه، ومن الممكن القراءة عن كل هذه الأحوال فيما كتبه كتاب ذلك العصر اللاتين، الذين لم يكلوا أبداً من مقارنة عصرهم هذا ببساطة الأساليب القديمة التى أدت إلى عظمة روما .

لكن لم تتبدد كل ثروة إيطاليا الجديدة فى هذا البذخ والإسراف. فقد أنفق جزء كبير منها فى تجربة الأساليب الجديدة فى الزراعة وتربية الحيوان وعادت مثل هذه التجارب بفوائد جمة على الزراعة الإيطالية بوجه عام، فبفضل التوجيه العلمى زاد إنتاج النبيذ وزيت الزيتون على إنتاج الحبوب بكثير، وأصبحت زراعة تلك المنتجات أكثر أنواع الزراعة ربحاً، إذ كان من الممكن أن يدر حقل الكرم فى حالة الإنتاج الكامل ربحاً سنوياً بنسبة ١٨ ٪ من رأس المال المستثمر . وكان ذلك هو العصر الذى ذاعت فيه شهرة النبيذ مثل نبيذ « فاليرينا »، كما بدأ النبيذ الإيطالى بصفة عامة ينتشر فى السوق المحلية وانهالت عليه الطلبات كى يصدر إلى الخارج .

وكان الزيتون ومنتجاته من العوامل الأساسية فى اقتصاديات عالم البحر المتوسط، فأرخص أنواع الزيت تستخدم فى إضاءة المصابيح، والأنواع الأجود فى الطهى، ذلك فى حالة عدم توافر الزبد، كما كانت أصناف كثيرة من الزيتون الجيد تؤكل نيئة، وكان دخول تجار الزيتون من الإيطاليين سوق التصدير على نطاق واسع ذا أهمية بالغة، أما الغلال فقد ظلت تلعب دوراً هاماً، فمع أن الحبوب كانت تستورد من الأقاليم من أجل خزانة الحبوب الرومانية إلا أنه كان ما يزال من الضرورى الاعتماد على مصادر الغلال من إيطاليا نفسها . وكان محصول الحبوب فى إيطاليا، خارج مدينة روما، يكاد يسد تماما احتياجات سكان المدن الإيطالية الذين كانوا فى تزايد مستمر .

وكانت « إتروريا » أجود الأراضى لإنتاج الحبوب مع أهميـــة أبوليا Apulia ، وكمبانيا Campania أيضاً . وعلى الرغم من أن العبيد كانوا يقومون بمعظم الأعمـال الزراعية فإن الشواهد تدل على وجود مستأجرين أحرار للأراضى فى بعض المقاطعات الكبرى . ولـكن ظروف هذا العصر كانت فى إيطاليا نفسها سيئة بوجه عام ، ذلك بالنسبة للفلاح الصغير أو المستأجر أو المالك ، ومع أنه كان ما يزال أمامه آفاق جديدة فى وادى البو Po ، وفى جاليا ناربونيذيس Galia Narbonensis ، إلا أن الـكثيرين كانوا يفضلون ترك الأراضى والهجرة إلى المدن .

وقد انتشرت فى هذا العصر السلالات العريقة من الخيول ، والأغنام والماشية ، كما جمع أصحـاب المزارع الـكبيرة فى الجنوب ثروات طائلة من ازدياد إنتاج الصوف والجلود . وقد شجع اتساع السوق الرومانية على تطور التخصص فى الأعمـال مثل تربية النحل (فقد كان العسل يستخدم عادة كمادة سكرية فى حالة عدم توافر السكر) ، وزراعة المشاتل وزراعة الفواكه . (التفاح ، الـكمثرى ، التين والـكريز) وتربية الدواجن والطيور التى تستخدم فى المباريات . وكانت الدواجن تلعب دوراً قليل الأهمية فى هذا المجـال إذ كانت قيمة الدجاجة فيما تضعه من بيض وليست كلون من ألوان الطعام . كما كان يربى الحمـام والقنابر (وفصائله) ودجاجة الوادى (الدجاج السودانى) والطاووس ليباع فى أسواق الدواجن .

وكانت اقتصاديات هذه العمليات تدرس بدقة مع الاهتمام البالغ بقيمة التكاليف فقد تبين مثلا أن القنبرة يزيد وزنهـا بسرعة عندما تطعم بلحا ، غير أن عادة إطعامها بلحا بعد مضغ العبيد له أدت إلى غـــير ما كانوا يهدفون إليه ، فقد كان هذا الوسيط البشرى يبتلع جزءاً كبيراً من البلح .

والسبب فى هذا الاهتمام هو أن الربح والخسارة كانا يتوقفان على مثل هذه الفروق الضئيلة.

وقد عاد النفع على الصناعة أيضاً من حالة الرخاء هذه التى عمت إيطاليا ومن ازدهار الأسواق الجديدة التى ظهرت فى الغرب . فصناعة المعدات الزراعية والحربية قد تطلبت استخدام الحديد المستخرج من أرترويا وفى «أريتيوم» (وهى أرتيزو Arezzo الحديثة). وشهدت هذه الفترة بداية صناعة الفخار الشهيرة التى سرعان ما ساعدتها الظروف على الرواج والانتعاش . وكانت الأدوات الفخارية المصنوعة من الطين تستخدم كأوعية لوضع جميع أنواع السوائل فيها . ومن الممكن تسمية عملية الإنتاج هذه (بصناعة الأوعية فى العالم القديم . وكانت صناعة البرونز والفضة فى « كبانيا » أكثر الصناعات الإيطالية انتعاشاً وقد أدت هاتان الصناعتان جنباً إلى جنب مع الزراعة المزدهرة إلى جعل هذه المنطقة من أغنى بقاع إيطاليا وقد أمدتنا بومبيئ Pompeii) بقرائن مستمدة من الحفريات تدلل على ذلك بصورة قاطعة . وكانت حركة البناء فى (بومبيئ) فى توسع مضطرد فى القطاعين العام والخاص منذ عام ١٥٠ ق . م . تقريباً حتى قيام (الحرب الاجتماعية) إذ أن قصور أكثر العائلات ثراء ، التى تخلفت عنها الرسوم الحائطية البديعة المعروضة فى متحف نابولى ، تفوق بكثير فى روعتها وفخامتها أى قصر كان قد تم بناؤه فى روما حتى ذلك التاريخ . .. ولقد وضعت (الحرب الاجتماعية) العقبات فى سبيل هذا الرخاء ولكنها لم تضع حداً له إذ استمرت حركة البناء حتى نهاية عصر الجمهورية ، بصورة أخف عما سبق ولكن كان لها رونقها .

وكان عدد السكان فى روما يزداد بسرعة وانتظام وربما قد بلغ هذا العدد المليون فى أواخر هذه الفترة — وهو نفس عدد سكان لندن فى

عام ١٨٠٠ ونيويورك فى عام ١٨٦٠ .وهذا على أية حال من الأحوال ، عدد ضخم بالنسبة لمدينة واحدة ، أما بالنسبة لمدن العالم القديم فقد كان هذا العدد مذهلا . فتوفير المأكل والملبس وأسباب الترفيه ، بل وحتى الدفن لمثل هذا العدد الضخم من السكان كان يقتضى القيام بالتزامات ضخمة وكثيرة وربما كانت عملية تزويد العاصمة بالغلال عبر البحار ، التى لم تبلغ مرحلتها الكاملة حتى أوائل عصر الإمبراطورية ، أعقد العمليات تنفيذاً وظلت كذلك حتى العصر الحديث .

وقد مدت قنوات جديدة لمواجهة الحاجة المتزايدة للماء لكل من الضروريات والكماليات : وبذلك أصبحت روما مدينة النافورات كما هى اليوم . كما تمت عمليات توسيع الأسواق العامة وفرضت الرقابة على الموازين والمقاييس ونظمت عمليات المرور فى الشوارع إذ لم يكن يسمح لعربات النقل الثقيلة بالدخول إلى المدينة إلا ليلا . ولحل مشكلة الإسكان أنشئت مبان من نوع رخيص يتراوح ارتفاعها من ٦ إلى ١٠ طوابق كانت تؤجر شققا . ولما كانت هذه المنازل تقام فى بقع أشبه بالجزر فقد أطلق عليها اسم (الجزر . . insulae) وتم بناء كثير من هذه المنازل بطريقة رديئة إذ كان يمتلكها إقطاعيون لا يهتمون إلا بتحقيق الأرباح بصورة عاجلة ، ومثل هذه المبانى كانت عادة مساكن الطبقه الفقيرة الرومانية وقد أصبحت أحياء المدينة الأكثر فقرا ، ولا سيما الضواحى (Subura) الخارجة عن نطاق السوق الرومانية ، قذرة وغاصة بالسكان ، بل إن الأحياء الأفضل حالا كانت تفتقر إلى الكثير من الخدمات التى تعتبر ضرورية ولا غنى عنها فى المدينة العصرية ، فلم تكن طرقها مضاءة ولم تكن بها وسائل نقل عامة ولا قوة بوليس بمعنى الكلمة .

ولم يكن التخطيط العام للمدينة يليق بمركز روما كعاصمة للعالم . إذ يجب ألا ينتظر من الايديل Aedil (أى الموظف المختص بتخطيط

المبانى العامة) الذى كان يتولى منصبه لمدة عام واحد فقط ، أن يتقدم بأية مشروعات ضخمة لتخطيط المدينة والواقع أنه قد أجريت بعض التحسينات خلال هذه الفترة . فقد رمم « سولا » عندما تولى منصب الدكتاتورية ، كثيراً من المعابد كما شيد التابولاريوم « Tabularium » أى مكتب التسجيل الذى ما تزال واجهته البسيطة الجميلة شامخة فوق الطرف الغربى من السوق الرومانية . وفيما بين عامى ٦٢ ، ٦٠ ق . م . تم ترميم معبد (اسكليبيوس Aesclipius) المقام فى جزيرة التيبر وزينت جدرانه بلوحات مائية وبنيت قاعدة المعبد على هيئة سفينة كما مدت قنطرتان جديدتان عبر النهر إلى الجزيرة نفسها . ومن الأسلاب التى حصل عليها بومبى فى الشرق أنه قام بتنفيذ مشروع عام فعلا للنهوض بالمدينة ويتضمن هذا المشروع إنشاء أول مسرح من الحجر فى روما على نمط المسرح اليونانى المقام فى (موتيلينى Mytileni) يسع ٢٥٫٠٠٠ نفس ، وإقامة معبد لفينوس فيكتريكس (Venus Victrix) وميدان واسع محاط بأعمدة شاهقة بوسطها حديقة ، وكان هذا الميدان أول مكان من نوعه للترفيه عن عامة الشعب فى روما . ولقد لقى قيصر حتفه فى قاعة مجلس الشيوخ (Curia) التى أنشأها بومبى وهى جزء من مجموعة هذه المبانى .

كما هيأت دكتاتورية (يوليوس قيصر) الظروف المناسبة التى ارتقى فى ظلها فن المعمار . فنحن نسمع عن استدعاء خبير يونانى فى هذا الفن وعن الموافقة على تنفيذ خطة واسعة النطاق لتنظيم تطور المدينة فى المستقبل . وكانت هذه الخطة تتضمن شق القنوات المتفرعة من نهر التيبر وتسوية منحنيات النهر وترك (كامبوس مارتيوس) Campus Martius خالياً لاستغلاله فى أعمال البناء ونقل المباريات الرياضية التى كانت تقام فيه إلى (كامبى فاتيكانى) Campi Vaticani على الضفة الأخرى من النهر وأقيمت قاعدة ضخمة جديدة للاجتماعات فى السوق العامة . واتسع المجال للأشغال

العامة بإنشاء السوق الجديد الذى تقرر إقامته حول معبد (فينوس جنتريكس Venus Genetrix) وكانت إقامة هذا المعبد وفاء لنذر قد قطعه فى معركة فى (فارسالوس) . غير أن قيصر لم يعش ليكمل هذه المشروعات ولو كان أجله قد امتد فترة أطول فلاشك فى أنه هو، دون — خليفته، الذى كان سيحقق ذلك التطور الهائل الذى (وجد روما مدينة من طوب وخلفها مدينة من رخام) .

ولكن على الرغم من أن روما حافظت على مظهرها القديم خلال جزء كبير من هذه الفترة إلا أنه قد تغير تماما التكوين الجنسى الذى كان يتألف منه سكانها . فلقد تعرضت المدينة لمدة قرن كامل لحركة الهجرة إليها على نطاق واسع من إيطاليا ومن جميع أنحاء البحر المتوسط . وفى أواخر عصر الإمبراطورية أصبحت روما تضم أجناساً مختلفة . كما قدر لها أن تظل على هذه الحالة طيلة عصر الإمبراطورية . وكان كثير من السكان الجدد من العبيد الآسيويين واليونان والسوريين وهم أسرى الحروب التى فشيت مع ميثريداتيس، ومن الكلتيين والجرمان، وهم أسرى الحروب التى قام بها ماريوس وقيصر . ومن الصعب تقدير عدد العبيد المقيمين فى روما فى ذلك الحين ولكن ربما كان عددهم يتراوح ما بين خمس وثلث عدد السكان الإجمالى . وكانوا يشتغلون بكثير من الأعمال المنزلية والتجارية والصناعية وخاصة فى القوة العاملة التى يعتمد عليها المقاولون العموميون . ولم تكن حالتهم ميئوساً منها على الرغم من أنها كانت سيئة فقد كان مسموحا لهم بادخار الأموال والحصول على ممتلكات وشراء حريتهم عن طريق إجراءات العتق التى كانت تتداول على نطاق واسع . وبعد عتقهم — Liberti أصبح من الممكن أن يعملوا تجاراً وأصحاب حرف أو كتبة صغارا، على الرغم من أن بعضهم كان يعمل فى مجالات أخرى كبنائين أو مدرسين أو أطباء . وقد حقق القليل منهم ثروات طائلة (مثل يوروساكيس Eurysacis الخباز الذى ما زالت مقبرته القائمة عند (بورتا ماجيورا) تنم عن البذخ والذوق غير السليم، وكان العبد المعتق

Libertus يخضع لبعض القيود القانونية، غير أن أولاده كانوا يصبحون مواطنين يتمتعون بكافة الحقوق التى يتمتع بها المواطن الحر (وكان الشاعر هوراس Horace أحد هؤلاء) وقد كان تعزيز سكان المدينة بعناصر غير رومانية وغير إيطالية بصفة مستمرة عاملا بالغ الأهمية فى حياة روما الاجتماعية .... وبالإضافة إلى العبيد والمعتقين فقد أدت التجارة مع الأقاليم إلى ظهور طوائف أجنبية كبيرة فى روما وخاصة من آسيا وسوريا ومصر والأردن وأسبانيا فى نهاية الفترة . وكثيراً ما يقال إن منافسة العمال العبيد حرمت فقراء المدينة الأحرار من العثور على الأعمال ولكن يبدو أن الحقيقة هى أن هذا الأمر أدى إلى انخفاض الأجور دون أن يؤدى إلى البطالة . ولما كانت معظم الأعمال الصناعية فى يد مجموعة من صغار أصحاب الأعمال الذين يبيعون المنتجات التى يقوم بصنعها عدد قليل من العمال فى مكان العمل ، فلاشك فى توفر الأعمال على الرغم من ضآلة الأرباح . وقد كان هناك دون شك نقابات لكل حرفة مثل النقابات التى كانت فى (بومبى) وغيرها من المدن الإيطالية الأخرى على الرغم من عدم توفر الأدلة على وجود مثل هذه النقابات فى روما نفسها .

وقد استمرت الفلسفة اليونانية تبسط نفوذها الذى كان قد بدأ فى أيام سكيبيو . وكان الشباب الرومانى يتابع دراسته على مستوى المرحلة الجامعية فى مراكز العالم اليونانى الثقافية . وانضم كثير من الشبان الذين كانوا يتلقون العلم فى أثينا إلى جيوش (بروتوس) غير أن روما نفسها أصبح لها تأثير مغناطيسى ، تجتذب بصفة مستمرة العلماء اليونانيين الذين كانوا يسعون وراء الأجور العالية والشهرة العريضة . فإن (فيلو من بلدة لاريسا) "Philo of Larissa" مؤسس الأكاديمية الجديدة قام بالتدريس هناك بعد عام ٨٨ ق . م . كما زارها أنتيوخوس المواطن من بلدة أسكالون Antiochus of Ascalon الذى أصبح فيما بعد رئيس الأكاديمية فى أثينا ،

وبوسيدونيوس أعظم مفكرى عصره . وألقوا محاضرات بها . كما قصدها فيلديموس من بلدة جادارا Philodemus of Gadara فى عام ٧٥ ق.م . واستقر فى (هيركولانيوم Herculaneum) ليقوم بتدريس الفلسفة الأبيقورية فى منزل ريفى أنيق أهدته إليه عائلة البيزونيس Pisones الثرية وكذلك (سيرون Siron) — وهو فيلسوف أبيقورى آخر — قام بالتدريس هناك وفى نابولى وقد قصده (فيرجيل Vergil) فى شبابه وهو متحمس ليحرر عقله من القلق وعلى استعداد للتخلى عن إلهة الشعر Muses ؛ ولكن من حسن حظ البشرية أنه تراجع عن ذلك .

ولم يكن هذا العصر يتميز بالفكر الأصيل فقد كانت أنظمة أفلاطون وأرسطو العظيمة ما تزال تدرسها وتفسرها المدارس التى قاما بإنشائها ، وهى الأكاديمية ومدرسة المشائين ، وقد ظل الأبيقوريون متمسكين بمبادئ رائدهم ومعادين لكل المدارس الأخرى . غير أن الاهتمام بعلم الأخلاق الذى كان سائداً بين الناس كان يقرب المدارس الأخرى بعضها من بعض فقد قال أنتيوخوس إن هناك اختلافا بسيطاً بين تعاليم الأكاديمية ومدرسة المشائين والرواقيين . وكان للرواقية أثر كبير فى روما بسبب عقيدتها الخاصة (بالعناية الإلهية الخيرة) والقانون الطبيعى وإمكانية الوصول إلى الفضيلة حتى بالنسبة للرجل العادى . ولكن هذه كانت الرواقية التى أدخل عليها باناتيوس Panaetius بعض التعديلات والتغييرات . لكن فضل بعض الرومان التمسك بمبادئ (زينو) الأولى (٣٣٥—٢٦٣ق.م.) الخاصة بالتقشف والجلد ، ومن الممكن إدراك تأثيرها على بعض الناس أمثال (ماركوس فافونيوس) Marcus Favonius الذى اجترأ على توجيه النقد إلى (أوكتافيان) بعد معركة فيليبى ، وتأثيرها على بروتوس وكاتو الأصغر ، فبموتهما فى الحروب الأهلية بدأت الفلسفة الرواقية تمتزج بالشعور الجمهورى المتطرف الذى أصبح من أهم خصائص عصر الإمبراطورية .

وكان بوسيدونيوس Posidonius هو الاسم الوحيد العظيم الذى يتردد فى ذلك العصر ، فهو آخر من يتميز بعقلية من الطراز الأول من الفلاسفة اليونانيين . ولد فى اباميا Apamea على نهر العاصى Orontes حوالى عام ١٣٠ ق . م . وعمل لعدة سنوات مع باناتيوس Panaetius ثم أنشأ مدرسته الخاصة به فى رودس Rhodes . وقد اجتذبت شهرته كثيراً من الرومان من بينهم شيشرون وبومبى ، وعلى الرغم من أنه لم يبق لنا من مؤلفاته سوى شذرات فليس هناك مجال للشك أنها ذات أثر بعيد المدى ، ففى صلب مذهبه الفلسفى يكمن إيمانه (بالانسجام) الذى يسود الكون ، وفى رأيه أنه يمكن ملاحظة هذا الانسجام أولا : فى الإنسان فى صورة (التجاوب) القائم بين النجوم وأرواحنا التى هى أيضاً أجزاء من النار المقدسة ترجع إليها الروح بعد الممات . ثانياً : فى الطبيعة فى صورة تأثير القمر على المد والجذر ، وهذا اكتشاف رائع توصل إليه بوسيدونيوس من مشاهداته للمحيط الأطلسى عند سواحل أفريقيا وأسبانيا ، فقد كان كثير الترحال وشديد الشغف بالشعوب المتبربرة القاطنة شمال وغرب أوربا . وهذه الشعوب هى التى قدر لها أن تصاب بالهزيمة من روما وتتحضر على يدها . وكان من تعاليم بوسيدونيوس أن إمبراطورية روما العالمية تقابل الدولة العالمية التى تضم البشر جميعاً والتى فرضتها قوانين الطبيعـــة ، وأن السياسى الرومانى الذى يحكم هذه الإمبراطورية بالعدالة والفضيلة يحقق أسمى الرسالات الدنياوية ولا بد من مكافأته بتخليد شخصيته بعد موته . وهذه هى الفكرة التى عرضها شيشرون عرضا تفصيليا فى كتابه الشهير (حلم سكيبيو) . أما فى مجال العلم فميول بوسيدونيوس أدت به إلى دراسة علم الفلك والجغرافيا وعلم الارصاد الجوية كما كان يميل أيضاً للرياضيات والبلاغة والتاريخ ، فقد كتب تاريخ روما من عام ١٤٦ ق . م إلى عام ٧٠ ق . م . وهو امتداد لما كتبه بوليبيوس Polybius ، وقلما لم يقع تحت تأثيره إلا قلة من الكتاب الرومان الذين عاشوا فى الجيلين التاليين .

ويجب أيضاً عدم التقليل من أهمية شيشرون، فعلى الرغم من أنه يصف أعماله الفلسفية بأنها مجرد تجميعات (وهذه هي ثمار جهوده الوحيدة التي يظهر نحوها تواضعا بالغا) فقد كان لها تأثير قلما أتيح للكتب الشعبية، وتعالج أعماله هذه بصفة أساسية مشاكل السلوك الشخصي والسياسي من وجهة نظر الإنسان المتحضر المهذب. وهي مشربة دون تعمق بطابع إنساني ترك أثراً عميقاً لا في معاصريه فحسب، بل في الفكر الأوربي جميعه منذ عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر. وقد انقاد العالم الحديث - الذي ابتعد عن شيشرون باعتباره فيلسوفا لبعض الكتاب الأكثر منه سوءاً.

لكن لم تتمكن الفلسفة اليونانية بوصفها مرشداً للحياة — أن ترضى سوى جزء صغير جداً من الطبقة المثقفة، غير أن إقبال الطبقات جميعا على العبادات اليونانية والشرقية الغامضة كان أوسع انتشاراً، وقد أصبحت هذه العبادات في نهاية المطاف (في آخر الشوط) ذات أهمية أكبر بكثير من الفلسفة اليونانية، ولم تصلنا أية معلومات كافية عن الديانة الرومانية التي كانت سائدة في هذه الفترة بقدر ما وصلنا عنها في عهد أوغسطس وما بعده ولكن ما من شك في أن انتشار هذه العبادات كان من معالم هذه الفترة الرئيسية وأسباب ذلك واضحة، فهي ترجع إلى زيادة عدد اليونانيين وكذا الشرقيين بين سكان المدينة من ناحية وإلى اتصالات روما بآسيا وسوريا من ناحية أخرى. وأهم من ذلك أنها ترجع إلى حاجة الشعب الماسة للتوجيه الديني والروحي خلال الفترات الرهيبة من أواخر عصر الجمهورية. وقد انتقلت عبادات باخوس وأورفيوس Bacchus, Orpheus الغامضة إلى روما في بداية القرن الثاني قبل الميلاد عن طريق المدن اليونانية الواقعة جنوب إيطاليا. ويبدو أن محاولة مجلس الشيوخ للقضاء على المظاهر الصاخبة التي تصاحب عبادة باخوس في عام ١٨٦ ق. م. لم تؤثر تأثيراً جدياً (ففيلا الطقوس الدينية الغامضة) و (فيلا ايتم) Villa Item في بومبي تعرض لوحات مائية رائعة شهيرة تمثل باخوس يرجع تاريخها إلى السنوات الأولى

قبل الميلاد ، وليس هناك فى روما شىء مشابه لهذا قبل أوائل عصر الجمهورية غير أن رموز أسرار عبادة باخوس تتكرر بكثرة على أوانى (أرتينيوم الفخارية وعلى الأعمال الفنية الأخرى ، كما أن الكتب الأدبية التى تشير إلى باخوس تزداد أهميتها عندما ندرك مدى انتشارها وهذه العبادات الغامضة سواء أكانت عبادات اليوسيس Elcusis أو باخوس أو أورفيوس تبشر من يدخلها بحياة بعد الممات مليئة بهبات أو بعقوبات حسب تصرفهم على الأرض . وكانت طقوس هذه العبادات الغنية ورمزياتها العميقة تشبع رغبة الإنسان فى مزاولة عبادات دينية مزاولة فردية وبطريقة لم تستطع شكليات عبادات الدولة تحقيقها على الإطلاق . ولا غرابة فى أن هذه العبادات قد اجتذبت هذا العدد من الأتباع فى ذلك الوقت .

أما العبادات الشرقية فقد كانت منتشرة بطريقة أكثر بطئا إذ كانت تقابل دائماً بعداء من جانب المسئولين ، فعلى الرغم من أن الإلهة كوبيلى "Cybele" قد دخلت إلى روما أثناء الحروب البونية الثانية إلا أن الرومان كانوا مايزالون يحتقرون كهنتها الخصى وطقوسهم الوضيعة . وكان هؤلاء الكهنة يقومون فى معبدهم فوق تل البلاتين إقامة تامة ولا يغادرونه إلا فى الاحتفال السنوى الذى تحمل فيه صورة الآلهة كى تغسل فى مياه نهر (أنيو Anio) أما طقوس ميجاليسيا Megalesia) وهى الاحتفالات الدينية التى كانت روما تفى فيها بدينها (للأمم العظمى Great Mother) ، فقد كانت تنظم على أسس رومانية صرفة . فعندما جاء كاهن بلدة (بسينوس Pessinus) الأعظم إلى روما أثناء قنصلة بومبى يشكو من عدم احترام الشعب لهذه العبادة استقبله مجلس الشيوخ والشعب بفتور شديد . ولم يشجع اعتناق هذه العبادات إلا أثناء حكم كلوديوس عندما جلب جنود (سلا) معهم عبادة الإلهة (ما Ma) من (كبادوكيا) Cappadocia وانفزع الرأى العام الرومانى مرة أخرى من تصرف هذه العبادة فى الرقص الجماعى الذى يؤدى إلى إراقة الدماء . . .

ولكن عبادة إيزيس وسيرابيس المصرية لاقت تأييداً شعبياً فى كل مكان . وقد ظهرت هذه العبادة التى وحدت بين المعتقدات المصرية وبين طقوس الديانة اليونانية ومضمونها ، فى صقلية وفى جنوب إيطاليا حوالى عام ٣٠٠ ق . م . وأقيم معبد لسيرابيس فى بوتيولى Puteoli فى نفس التاريخ تقريبا . أما أول معبد أقيم فى روما فيرجع إلى عصر سولا . وقد أمر مجلس الشيوخ خمس مرات خلال الأربعين عاما التى تلت ذلك بتدمير معابد المعبودات المصرية هذه ، وفى عام ٤٨ ق . م كان المعبد الذى دمر قائماً على تل الكابتول نفسه . وفى السنوات التى سبقت معركة اكتيوم كان هناك عداء من جانب المسئولين لكل ماهو مصرى ولكن التأييد الشعبى لهذه العبادات هو الذى حافظ على بقائها حتى أدخلها فى الإمبراطورية . وسيكون من الأنسب أن نتكلم عن هذا الموضوع عندما نصل إلى دراسة موضوع الصراع القائم بين الأديان فى أثناء عصر الإمبراطورية . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن بذور هذا الصراع قد غرست ساعة انتشار الأديان اليونانية والشرقية فى الحقبة الأخيرة من عصر الجمهورية .

وجنباً إلى جنب مع ديانات روما ، ورد من الشرق نوعان آخران أكثر غموضاً ألا وهما التنجيم والسحرة . وقد خرج علم التنجيم من بابل وبلاد الفرس وانتشر فى العالم الهلينسى انتشارا واسعاً وقد لعب (بيروسوس Perosus الكاهن البابلى الذى عاش حوالى عام ٢٩٠ ق . م والذى كتب باليونانية ، دوراً هاماً فى نقل هذا العلم ونشره كما يرجع الفضل كذلك إلى مجموعة الكتابات التى تحمل اسم (بتوسيريس Petosiris ، وهى جامعة لمعتقدات مصر الخاصة بعلم التنجيم والسحر ، وربما قد نشرت فى الإسكندرية حوالى عام ١٥٠ ق . م . ويقال إن الأسرى الذين أسروا فى الحروب ضد أنتيوخوس قد جاءوا بالتنجيم إلى إيطاليا . وفى تاريخ مبكر جداً عام ١٣٩ ق . م حرم البريتورز Praetors على الخالدايى Chaldaei دخول روما — وهم

منجمون متجولون يبيعون تنبؤاتهم ويستطلعون الحظ . غير أن علم النجوم قد حقق مكانة اجتماعية اسمى من ذلك بكثير ، فهو عامل جوهرى فى مذهب بوسيدونيوس عن (التجاوب) -- والجدير بالملاحظة أنه قد ولد فى أباميا Apamea – كما كان للرواقيين دور الأولوية فى تعريف المجتمع الرومانى بالعقائد الخاصة بمعبودات الكواكب السبع وبعلامات منطقة البروج الاثنى عشر وتأثيرها ، وبالقدرية التى تنشأ عن الإيمان بهذه المعتقدات . وفى ظل الإمبراطورية أصبح أثر علم النجوم واسع الانتشار تماما ، بل وحتى فى عصر الجمهورية كان هناك رجال أمثال نيجيديوس فيجولوس Nigidius Figulus عضو مجلس الشيوخ وطبيب العيون الذى تنبأ بعظمة أوغسطس فى المستقبل ساعة مولده. أما عن السحر فقد كان هناك فى إيطاليا -- وما يزال بها — تقاليد محلية منتشرة عن الشعوذة . وكانت امرأة المارسى Marsi والسابين الذكية تستطيع أن تركب جرعات للحب وأدوية ولعنات وكذلك تستطيع التعرف على المستقبل . غير أن الشرقيين Orientals قد جلبوا معهم نوعا من السحر أشد مفعولا وأكثر شرآ . فى قصيدة Epodes الشاعر (هوراس) تستطيع أن تلقى نظرة على العالم المنحط الخاص بعجازى منتصف الليل المشعوذات فى أزقة روما القذرة ولصوص حقول الكروم ومحضرى الأرواح ، وتجار السموم ومن يضحون بالأطفال — وهذا النوع من السحر قريب الشبه من (السحر الأسود) فى العصور الوسطى وفودو Voodoo فى العصور الحديثة ووجوده فى عالم عاش فيه شيشرون ولوكريتيوس ماهو إلا تذكرة لنا بالخطوة الواسعة التى قطعتها حضارة مجتمع بمفرده .

وتشير الأعمال الأدبية التى جاءت فى أواخر عصر الجمهورية إلى مايستطيع ذلك المجتمع تحقيقه بأعلى مستوياته . والجزء الذى وصلنا منه يترك فينا شعوراً مضللا عن وجود فترة انقطاع أى فجوة تفصل بين الكتاب

المعاصرين لسكيبيو أيميليانوس وبين كتاب عصر شيشرون . ولتصحيح ذلك الخطأ يجب أن ندخل فى اعتبارنا أسباب بقاء أعمال بعض الكتاب وضياع أعمال البعض الآخر . وأهم هذه الأسباب هو إخفاء الأسماء الكبرى للأسماء الصغرى — مثل إخفاء كاتوللوس لأسماء أصدقائه من الشعراء الجدد . وإخفاء شيشرون لأسماء منافسيه المشهورين فى مجال الخطابة . وهذا المثال الأخير بالذات يدعو للدهشة . إذ يمكننا أن ندرك مدى انتعاش الخطابة الرومانية فى أعظم أيامها من الحقيقة التالية : وهى أن القائمة التى لا تضم سوى الخطباء والخطب التى لا تقع فى الفترة ما بين ٨١ — ٤٢ ق.م تحتل أكثر من ثلاث صفحات مكتوبة . إذاً كما نرى ، ما أشد تضليل السكون الذى يحيط بسوط شيشرون القوى ! ! وينطبق نفس القول على المؤرخين إذ يظهر قيصر وسالوست الآن كأنهما قمتان منعزلتان ولكنهما فى الواقع كانا جزءاً من التراث الرومانى المتصل الخاص بكتابة التاريخ والذى يرجع إلى القرن الثالث ق . م ، وبالفعل قد يتوقع المرء أن تسفر المنازعات السياسية فى هذه الفترة عن تجميع مادة ضخمة للتاريخ المعاصر لها ، والمذكرات الشخصية والدعايات مثل (حرب النشرات) الكبرى فى عهد الأخوان جراكوس ودعايات المنافسة الشديدة بين اكتافيانوس وانطونيوس . وفى أثناء الخمسين عاما التى سبقت وفاة سولا نسمع عن مذكرات كورنيليا Cornilia وروتيليوس روفوس وايميليوس سكاوروس Rutilius Rufus, Aemilius Scaurus بل ونسمع عن مذكرات الدكتاتور نفسه . وأنجب عصر سولا مؤرخاً له مكانته وأهميته فى شخص (كاوديوس كوادريجاريوس Claudius Quadrigarius فقد استعان بلوتارخ بما كتبه عند كتابته سيرة حياة ماريوس وسولا كما رسم فى حولياته صورة بديعة للدكتاتور — وهو الأمر الطبيعى — ومن الجدير اقتناؤها . غير أن الأدب فى هذه الفترة نفسها لم يكن قاصراً على الخطابة والتاريخ — وهما العنصران الرئيسيان فى التراث الرومانى ، بل كان هناك لوتاتيوس كاتولوس

Lutatius Catulus، زميل ماريوس فى هزيمته الكبرى ، وهو رجل ذو ثقافة عريضة ومحب للثقافة اليونانية وقاض دقيق وشاعر غنائى وراع للشعراء وخطيب أيضاً . ويقال إن الأدب السكندرى قد دخل إلى روما بدخول هذا الرجل إليها . وكان افرانيوس Afranius المعاصر له ، أشهر كاتب من كتاب « فابولاى توجاتاى Fabulae Tugatae » أى المسرحيات التى تتناول الحياة الرومانية — يتميز بطابع شعبى استمر حتى عصر نيرون ، وهو معروف لنا بأسماء ثلاث وأربعين مسرحية وقليل من الشذرات بالغة فى الضآلة بحيث لا تعطينا لسوء الحظ ، أى فكرة حقيقية عن هذا الطابع الفردى الرائع . ولكن لم يكن هناك كتاب للمأساة والملهاة فى مستوى انيوس وبلاوتوس . وقد أدى تقلب الأذواق إلى قلة اهتمام الشعب بالمسرح ، وبدلا منه أصبحت الغلبة لمباريات المبارزة ذات الاستثارة الرخيصة ولسباق العربات — وكان ما يزال هناك جمهور مخلص يؤيد إحياء التراث القديم من المسرحيات ، ويقدم جوائز ثمينة إلى الممثلين من أمثال روسكيوس Roscius وكان لايفيوس Laevius أبرز شاعر من شعراء عصر سولا ، ويبدو أن قصيدته « ارتوبايجنيا » "Erotopaegnia" قد سبقت فى موضوعها قصائد البطلات Heroides التى كتبها الشاعر « أوفيد » Ovid « كما أن أسلوبه ، بما يحتويه من تعبيرات قديمة وإدخال لغويات جديدة وعرض لتيارات الأدب السكندرى يقف على قدم المساواة مع أسلوب كاتوللوس Catullus وأصدقائه .

وكان أصدقاء كاتوللوس هؤلاء عبارة عن جماعة من الشعراء الشبان معظمهم من بلاد الغال (Cisalpine Gaul) وكانوا يكتبون قصائدهم فى روما حوالى عام ٦٠ ق . م . ولا يستمدون نماذجهم الشعرية من الأدب اللاتينى ولا من الأدب اليونانى القديم بل من شعراء الإسكندرية ، مع تمسكهم من حيث الأسلوب بسهولة التعبير والصقل المتقن ومن حيث الموضوع بالتجربة الشخصية أو بالأبحاث غير المألوفة فى ميدان الأساطير . وهكذا

كتب كايكيليوس Caecilius من بلدة نوفوم كوموم Novum Comum قصيدة عن (كوبيلى Cybele) وكتب كينا Cinna عن زمورنا Zmyrna وكورنيفيكوس Cornificius عن جلاوكوس Glaucus . وقد أثار مذهبهم الجديد هذا ضجة فى ذلك الوقت وترك أثره على من أتوا من بعدهم من الكتاب أمثال فيرجيل Virgil وبروبيرتيوس Propertius ولم يصلنا إلا القدر القليل من كتاباتهم لدرجة أننا لا نستطيع أن نحكم على الانقلاب الذى أحدثوه إلا على ضوء كتابات كاتوللوس ، على الرغم من أنه ليس هناك ثمة ما يدعو إلى التفكير فى أن أى شاعر منهم كانت له نفس مكانة كاتوللوس كشاعر . وأما كاتوللوس Catullus نفسه فقد ولد فى بلدة فيرونا Verona عام ٨٤ ق . م . من أبوين غنيين بقدر كاف يسمح لهما امتلاك منزل ريفى "Villa" على ضفاف بحيرة جاردا "Garda" وآخر فى تيفولى "Tivoli" وفى عام ٦٢ ق . م . ذهب إلى روما ، من المحتمل اقتفاء لأثر كلوديا Clodia زوجة حاكم الغال القريبة "Cisalpine Gaul" ، فقد كانت هى (لسبيا Lesbia) التى يذكرها فى قصائده وحبيبة حياته . وكانت النساء من مثيلات (كلوديا) جديدات على مجتمع روما ، فقد كانت سيدة عظيمة الشأن ، خارقة الجمال ، عاهرة ، فيطلق عليها شيشرون البغى التافهة) لشموتها الجامحة ، وكذلك لقب (ميديا البلاتين بسبب الشك الذى سممت به عقل زوجها . وقد تمخضت هذه العلاقة الآثمة عن بعض القصائد التى تعتبر أقوى ما كتب فى شعر الغزل وأكثرها صراحة ، تلك القصائد التى يقول (ييتس Yeats) عنها أنها مثل :

أبيات الشعر التى نظمها الشباب وهم يتململون فى فراشهم فى حالة يأس من الحب :

تملقاً لأذن الحبيبة الجاهلة .

وأخيراً انفصل كاتوللوس عنها بعد أن انغمس كلية فى اللذة الجنونية والانحطاط ثم قضى عاماً فى آسيا كان فى أثنائه ضمن حاشية حاكم (بيثونيا Bithynia ثم طاف بين الجزر اليونانية وقفل راجعاً إلى بحيرة (جاردا)ثم إلى روما. وقد توفى وهو فى حوالى سن الثلاثين . والقصائد التى كتبها عن لسبيا هى الأشعار التى قامت عليها شهرته والتى تضعه فى مكانة (سابفو وبيرنس) Sappho, Burns ودافود أب جويلوم Dafydd ap Gwilym . ولكن من الخطأ التام إهمال — قصائده الأسطورية الأكثر طولا أو مقارنته بشاعر الإسكندرية الباحث (doctus pocta) بعاشق (لسبيا) إذ أن تجارب كاتوللوس تتغلغل فى كل ما كتبه تقريباً . فقصيدة (أتيس) تصور المصائب التى يؤدى إليها جنون العشق وينتهى بمناشدة الناس التحرر من هذا الجنون ، وقصيدة (زواج بيليوس وثتيس) تصور (أريادنا) التى هجرها حبيبها وخان عهدها وقد وجدت أخيراً عزاءها فى الانغماس فى طقوس باخوس الغامضة . وربما كان فى إمكان الشاعر أن يجد لنفسه مثل هذا العزاء قبل أن يلقى حتفه فى سن مبكر .

وقراءة كاتوللوس بعد أى كاتب لاتينى مثله مثل الوقوف أمام لوحة الربيع "Primayera" (لبوتشللى) فى متحف افيزى بفلورنسا بعد مشاهدة الكثير من لوحات (العذراء ويرجع فضل تمكن العالم من الاستمتاع بتجربته الغرامية هذه إلى بقاء مخطوط، واحد فى فيرونا — المدينة التى ولد فيها والمدينة التى عاش فيها روميو وجيوليت ايضاً .

أما لوكريتيوس Lucretius (٩٤ — ٥٠ق.م) شاعر عصر الإمبراطورية العظيم الآخر ، فلم يكن ينتمى إلى أى مدرسة فى الشعر ولا يقول شيئاً تقريباً عن نفسه . ويبدو أنه ربما كان من أصل رومانى ومن الطبقة الأرستقراطية . وقصيدته « عن طبيعة الأشياء "De rerum Natura" قد

كتبها ليعرض فلسفة أبيقوروس Epicurus على القارىء الرومانى . ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن أبيقوروس كان ينقب عن المعرفة العلمية بوصفه مبشراً أكثر من كونه عالما . إذ كانت مهمته البرهنة على أن كل الظواهر الطبيعية من الممكن تفسيرها عن طريق التعقل بصورة أكثر من اهتمامه بالتفسير الحق لأى ظاهرة منها . ومن هنا جاء عدم توازن نظرياته العلمية فى قوتها . وطبيعيات هذا المذهب ــ وهى ترجع إلى ليوكيبوس وديمقريتوس Leucippus, Democritus علماء الذرة الأوائل — كانت تحفة رائعة للفراسة العلمية سبقت النظرية الذرية التى شغلت الميدان العلمى منذ زمن « نيوتن » حتى اكتشاف تحطيم الذرة . أما علم الفلك الذى ورد فى مذهبه فقد كان عبارة عن أفكار صبيانية ، أبعد ماتكون عن مستوى التفكير الناضج فى العصر الحديث ، وكان من المحـــال أن يستمر بقاؤها بعد القيام بأبسط الملاحظات والتجارب .

وكانت الدعوى التى يعرضها «لوكريتيوس» تنادى بأن الكون يتكون فقط من ذرات ، ومن فضاء تتحرك فيه هذه الذرات ، والعالم كما نلمسه وليد صدفة ناتجة من تحركات للذرة بدأت فى الماضى منذ زمن غير محدود وستستمر إلى زمن أبدى ، والآلهة رغم وجودهم لا إرادة لهم ولا قوة للتدخل فى هذه العملية الآلية ، وما أرواحنا إلا مزيج من الذرات التى سوف تتحلل فى حالة الوفاة ولا يتخلف عنها شىء . وفى اللحظة التى يضع فيها البشر أيديهم على هذه الحقيقة فإنهم يستطيعون تحرير أنفسهم من الخوف من الآلهة ومن القصاص بعد الموت ، وهما أقوى مصادر للجريمة والشقاء فى الحياة . وبالتالى فإن السعادة الحقة فى متناول أيديهم ، فهى تكمن فى الاستجابة لاحتياجات الجسد بصورة لامغالاة فيها وفى تسخير العقل للتأمل فى عالم الطبيعة .

وإذا كانت هذه الآراء تعتبر مذهبا ، فهى توصف بأنها أكثر المذاهب

التى خرجت للإنسانية تشاؤماً . ولقد كانت الأبيقورية بالتأكيد عقيدة أثرية نصيرة للهزيمة . وربما أنها لم تستحق أن تكون موضوعا لشعر سام: مثل كلوديا تماماً ! ومع هذا فليس هناك أى نوع من التشاؤم فى عرض لوكريتيوس لانتصار العقل البشرى الذى يستطيع أن يطوف إلى ماوراء « أسوار الدنيا الملتهبة » متأملا صنائع الطبيعة التى تتجسم فى كون لانهائى ولكنه مفهوم . وكذلك سيرجع بنا العقل إلى الوراء من الناحية الزمنية إلى نشأة الأرض وبحارها وجبالها وإلى أصل نشأة الخضروات وحياة الحيوان لنرى كيف أن أجيالهم « قد سلمت بدورها شعلة الحياة مثل المتسابقين فى سباق التتابع » ولنرقب تطور الإنسان من حياة بدائية بوهيمية إلى الحضارة بمجهوداته الخاصة ودون أى مساعدة خارقة للطبيعة . « فقد تعلموا كل هذه الأشياء بالمراس ، وبما توصل إليه العقل الوهاج من اختراعات عندما كانوا يتقدمون إلى الأمام خطوة بعد خطوة » . إن قوى الطبيعة الخارقة هى أبطال ملحمة العلم هذه — « القمر ، الليل والنهار ، دلالات الليل العابسة والمشاعل التى تهيم فى الليل ونيران السماء السابحة ، والسحب والشمس ، والعواصف ، والرياح ، والبرق ، والبرد » ، وعلى ذلك فقد كان يتمتع خاصة بنظرة العالم الطبيعى القديم الفاحصة التى لا تكمن وراء الميكروسكوبات . فهو يصور البقرة وهى « تنعر » على وليدها المفقود وذرات الغبار تتحرك فى أشعة الشمس وكلب الصيد ينتفض فى أثناء نومه وهو يحلم بالصيد والصقور والنسور السماكة وغراب البحر القبرانى ، تبحث عن الحياة ومقومات المعيشة فى المياه المالحة . لقـــد كان لوكريتيوس يكن للحياة الإنسانية الاحتقار والشفقة ، وفى نفس الوقت لا يستطيع أى شاعر آخر أن يصل إلى إبداعه فى تصويره الساخر لصدأ الثراء الأجوف أو وصفه المؤثر لزوجة وأطفال قد فجعهم الموت .

لقد كان فيرجيل على دراية تامة بلكريتيوس ومغرما به وباستثناء هذه الحالة لم يترك إلا أثراً خفيفاً على الأدب أو الفكر اللاتينى . وقد وضعت

قصيدته فى قائمة الكتب الممنوعة خلال العصور الوسطى . ولكنه وضع بين أعظم شعراء العالم منذ عصر النهضة — فموضوع قصيدته لابد وأن يقربه إلى عقلية العالم الحديث أكثر من أى كاتب يونانى أو رومانى آخر .

أما شيشرون فهو يسيطر بمعنى الكلمة على كل نثر العصر الأخير من الجمهورية . ومجموعة مؤلفات شيشرون — وهى عبارة عن ٥٨ خطبة وسبع مؤلفات عن الخطابة وما يقرب من عشرين مؤلفاً عن الفلسفة ، وكذلك الخطابات — تجعل أعمال قيصر وسالوست وفارو مجتمعين تنزوى فى ركن صغير من أركان المكتبة . وما تبقى من مؤلفات فارو ، ذلك لأنه كان فى الحقيقة أغزر الكتاب اللاتين إنتاجا ، بالإضافة إلى الخمسة والخمسين عنوانا وما يقرب من خمسمائة كتاب منفصل الواحد عن الآخر كلها تبحث فى ميادين التاريخ ، علم الحفريات واللغويات والفلسفة والتعليم والزراعة . وقد كانت « النظم Disciplinae » أهم موسوعة لاتينية ومنها اشتق الأنواع السبعة للفنون التحررية التى ظهرت فى تعاليم العصور الوسطى . وقد كانت « المصورات Imagines » وهى عبارة عن سير حياة مشاهير الرومان ، أول كتاب يحتوى على لوحات يظهر فى العالم .

والسبب فى أن مؤلفات شيشرون قد وصلتنا بينما فقدت معظم أعمال فارو يرجع أساساً إلى تحكمه الذى لا مثيل له فى اللغة اللاتينية مثله فى ذلك مثل شكسبير ، فى اللغة الإنجليزية ، فقد كان يستطيع أن يلعب على كل الأوتار ، نجده عاطفيا أو مقنعا ، أو فكها حسبما يتفق مع الموقف فى خطبته ، وهو كذلك واضح وسهل فى فلسفته ، رشيق وودود فى خطاباته . ولقد وصل باللغة اللاتينية إلى مستوى الكمال وجعل منها لغة من أعظم وسائل الدنيا للفكر والتعبير ولاتينية شيشرون كانت النموذج المختار فى عصر النهضة .

وهكذا قدر أن يكون لها تأثير بعيد المدى على اللغات الأوربية الحديثة وخاصة الإيطالية والإنجليزيةوالفرنسية . فنحن نجد أن الشخصية التي يرسمها موليير قد اكتشفت أنها تتكلم النثر طيلة حياتها وأن الفضل في ذلك يرجع إلى شيشرون — كما هو الحال معنا ، سواء أكنا على علم بذلك أم لا — وجيل شيشرون عاصر أوج عظمة الخطابة الرومانية ، إذ أن الجوائز كانت تمنح للخطب اللغوية المقنعة التي تلقى في مجال السياسة وأمام القضاة ، ويقال : إن شيشرون قد جمع ثروة لا تقل عن ٤٥٠٠٠٠ دولار في السنة من مرافعاته القضائية ، ولكن غريمه هورتنسيوس Hortensius كان لا يزال أوسع منه ثراء . وكان لدراسة الخطابة حينذاك المكانة الأولى في التعليم الروماني ، وتمكنوا من وصل التراث الروماني الخالد في البلاغة الرومانية والذي يرجع إلى أبيوس كلوديوس وكايكوس بآخر ما وصلت إليه البلاغة الهلينسية ، ولما كان اليونان قد حولوا الريتوريقة — مثل أي شيء آخر — إلى «علم» أصبحت مدارس الريتوريقة اليونانية العظيمة في « برجاموم » وأثينا معدة إعدادا تاما لتدريس البلاغة بالأجر ، بعد أن وضعت لهذه البلاغة أسسها وحللت تأثيرها . وقد انتمى بعض الخطباء الرومان الفطاحل إلى هذه المدارس تحت إشراف أساتذة من اليونانيين ، ولم يخجلوا من تلقى دروس جديدة حتى في أوج عظمتهم . وقد كانوا يتدربون على الحركة المعبرة ، والإلقاء ، وانتقاء الكلمات وإدارة دفة المجادلات . وتحقيق التأثير العاطفي تدريبا شاقا.

كان هناك جدل طويل عن مزايا أساليب مدارس الخطابة المتنافسة ، عن المدرسة الأسيوية بمفرداتها الغنية ، ونثرها المقفى ، المشحونة بعاطفية فائية . والمدرسة الأتيكية بوضوحها وسهولتها ورشاقتها . كما بدأ استخدام مفردات قنعية مصقولة والدليل على ذلك أن مترجمي كتب الخطابة الرومانية يبذلون جهدا شاقا . وقد كان مضمون الخطبة التي كان يلقيها الخطباء البارزون وطريقة عرضهم يقوم بنقدها جمهور من النظارة ، مثله في ذلك مثل الجمهور الذي يهتم في العصر الحديث بأمجاد رجل رياضي عظيم . ومن السهل إدراك

مدى سحر السياسة الرومانية بالنسبة لشيشرون ، أعظم خطباء ذلك العصر إذ لم يكن الهدف من القيام بالدور الرئيسى فى المناقشات التى تدور فى مجلس الشيوخ ، مثل المناقشات التى دارت عن مؤامرة كاتيلينا ، هو خدمة الدولة وإرضاء الطموح الشخصى فقط ، بل معرفة قدر هذا الفنان الذى يقوم بعرضه أمام حشد من الخبراء . ولا عجب فى أنه قد أصيب بخيبة أمل فى سنواته الأخيرة ، عندما وجد أن الرجال من شاكلته كانوا يناضلون ضد السلاح بالكلمات Contra arma verbis والأسوء من ذلك القادة العسكريون الذين كانوا يفتخرون بمهنتهم أيضاً .

وكان قيصر ، أعظم هؤلاء القادة ، قد حقق شهرة بوصفه خطيبا يلى شيشرون ، نفسه مباشرة . ولم يبق شىء من خطبه ، وكل ما وصلنا عنه هو « التعليقات » Commentaries وهى سبعة كتب عن الحروب الغالية وثلاثة عن الحروب ضد بومبى . وقد كتبت إضافات لهذه التأريخات تتناول حملاته على مصر وأسبانيا وأفريقيا ، قام بكتابتها ضباطه ونشرت بعد موته . وقد قيل منذ زمن بعيد إن قيصر قد كتب هذا الكتاب لتبرير موقفه ، ويجب على القارئ أن يكون متيقظا لصراحة الأسلوب « الأتيكى » الواضحة . لكن لا يستطيع أى دارس للتاريخ الرومانى — وأى دارس جاد للشئون الحربية — أن يتخلى عن كتاب التعليقات . فهى تمكننا من رؤية الجيش الرومانى رؤية حيوية بعين أعظم قائد له ومثل هذا الكتاب مثل الأعمال المنحوتة على عامود تراجان ، فهى تعطينا نظرة سيكولوجية عن الغزو الرومانى للشعوب المتبربرة . وهناك طريقتان لقراءة قيصر — قراءة بسرعة من أجل السرد الروائى — وقراءة ببطء كتحليل لفن الدعاية . وقد صرح ضابط بريطانى ذو ذكاء خارق كيف أنه قد اكتشف أن معرفته قيصر قد أفادته لتفسير المنشورات الرسمية الألمانية فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن من المؤسف أن قيصر قد استخدم ليمد طلاب المدارس بالقراءات اللاتينية الأولية ، لأنهم وجدوا أن أى كاتب آخر فوق طاقتهم ،

وقد كان من الممكن الاستفادة أكثر بسير حياة كورنيليوس نيبوس (١٠٠ — ٢٥) ق . م التى يتضمن ما تبقى منها لنا سيرة حياة ٨٧ رجلا يونانيا وسيرة حياة رجل فارسى واحد ، وسيرتى حياة اثنين من الرومان هما كاتو واتيكوس . لقد كان كورنيليوس من جاليا كيسالبينا . وصديق لكتوللوس وشيشرون ويبدو أنه كتب لجمهور من كافة الشعب ، وسير الحياة التى كتبها بسيطة لا مغالاة فيها وهى مشهورة أساساً لتحررها من القومية الرومانية واهتمامها برجال الشعوب الأخرى العظام .

أما سالوست (٨٦ — ٣٥ ق . م) من بلدة أميتيرنوم التى تقع فى بلاد السامبين ، فقد كان كاتباً أعمق بكثير . وإنتاجه الرئيسى هو التأريخيات وهى تتناول فترة التدهور بعد عصر سولا ، ولكن لم يتبق منها إلا اشذرات فقط . ويجب أن نحكم عليه من مؤلفاته « كاتيلينا » و « رجومارثا » ويبدو أنهما أول مقالات تاريخية كتبت باللغة اللاتينية فى موضوع واحد ، لقد كان سالوست مناصراً لقيصر ورجلا ذا ثراء واسع وقد استقر ليكتب التاريخ بعد أن قضى حياة عملية زاخرة هوجمت فيها أخلاقياته سواء العامة أو الخاصة هجوماً لاذعا . وكان مبدؤه الإعلاء من شأن آراء الحزب الديموقراطى الذى ينتمى إليه قيصر . وفى التقرير الذى كتبه عن الحزب ضد « يوجارثا » جعل من ماريوس بطلا ولما قارنه بقواد (أظهر الفرق) الأرستقراطية غير الأكفاء . أما فى مقالته « كاتيلينا » فقد كان هدفه أكثر عمقا ودقة من ذلك إذ كان عليه أولا أن يزيل الشكوك التى ثارت حول تعاطف قيصر مع المؤامرة فى مراحلها الأولى ، وتظهره بعد ذلك كرجل يتبع السياسة الوحيدة المعقولة من بين ، معارضى « كاتيلينا » . ويقال إننا نلمس فى كتابات « سالوست » تقدما نحو صياغة التاريخ العلمى . ولكن من الممكن تقبل هذا الادعاء بتحفظ فقط . حقيقة إن سالوست استخدم مصادر عديدة (بما فيها المصادر القرطاجية عندما تعرض للكلام عن يوجارثا) وأنه كان تلميذا متحمسا لثوكيديدس ، مع بعد نظر فى الدس

السياسى الذى اكتسبه دون شك من خبرته ، ولكنه لا يشك فيه فيما يختص بالتواريخ والحوادث ويظل ينظر إلى التاريخ من خلال الإطار المفروض حوله وحول فلسفة التاريخ . وقد كان التاريخ بالنسبة له تحدده شخصيات عظماء الرجال ، كما أن التاريخ يصبح بين يديه كمسرحية ولكن الشخصيات تحولت إلى نماذج لا تتطور . ومن هنا مباشرة جاءت الفكرة القائلة بأنه على المؤرخ أن ينتج قطعة أدبية رائعة . وكان هذا الاتجاه له سحر خطير على الرومان . وكان لسالوست أثر كبير على الكتاب الذين أتوا من بعده وخاصة « تاكيتوس » وهو مؤرخ من أعظم المؤلفين .

وقد كان تأثير الفكر اليونانى على كتاب العصر الأخير من الجمهورية تأثيرا قوياً ولكنهم جمعوه وسخروه لخدمة أهدافهم الخاصة ، وقد كان دائماً له نتائج فاقت نماذجهم بكثير . أما فى الفن فقد اختلف الأمر تماما ، إذ انتشر التأثير اليونانى عن طريق بلاد اليونان القديمة أو صقلية وعن طريق برجاموم أو الإسكندرية . وا كتسح أمامه الأسلوب الإيطالى القومى اكتساحا تاماً تقريباً ، وقد استمرت التقاليد القومية الخاصة بفن التصوير الواقعى بصورة تقريبية ، ولكن ليس تماماً ، وتظهر لنا أثاره طبقاً للمقابر التى ترجع إلى أواخر عصر الجمهورية الوجه البرلمانى بواقعيته وهى لا انسجام فيها) وأحيانا تنذر بالخطر .

وكان على الفنانين من اليونانيين الذين يعملون فى هذا المجال فى روما مجاراة الذوق الرومانى ، أما فى المجالات الأخرى فقد كان النمط السائد لكل من الأعمال السائدة اليونانية كما هو الحال فى بعض الأزمنة فى انجلترا عندما أصبح النمط لكل الأعمال الفنية إيطاليا . وقد كانت تماثيل النحت اليونانية التى تم الحصول عليها عن طريق السلب — أو الشراء ، وتزيين الميادين العامة والمعابد والبيوت الريفية الفخمة "Villa" وقد حط البائعون رحالهم فى روما وفى كمبانيا وفى مراكز الفن الهامة فى العالم اليونانى وتكونت سوق دولية

للفن تشبه إلى حد بعيد أسواق الفن فى أيامنا هذه . وتعتبر سفينة الكنز المشهورة «ماهديا Mahdia» التى اكتشفت وهى حطام ألقاه الموج على شاطىء تونس عام ١٩٠٧ تفسيرا رائعاً لهذا الرأى ، وكانت هذه السفينة تحوى ما يقرب من ٦٠ عامودا رخاميا جلبت من محاجر «اتيكا» وعلى شحنة متنوعات من أعمال فنية من البرونز والرخام . وبعضها عبارة عن أعمال من العهد القديم تم ترميمها . وربما كانت هذه الشحنة وديعة وضعت عند تاجر رومانى من تجار الفن ، أو أنها قد تم شراؤها بالجملة من أجل أحد البيوت الريفية الفخمة ، كما أن أعمال الحفريات التى تتم تحت الماء الآن تؤدى إلى تقدم المعلومات هذا لدرجة أنه ربما لا يزال أمامنا كثير من هذه الاستكشافات.

إن حياة «باستيليس Pasiteles» لتوضح ما كان فى جعبة روما لتقدمه للفنان. فقد كان رجلا يونانيا من جنوب إيطاليا ، ولكنه مواطن رومانى ، ومن الشائع أن كان يعمل فى المدينة عام ٦٢ ق.م وقد قامت شهرته على القطع الفنية المصنوعة من المعادن وخاصة المرايا الفنية . ولكنه فيما بعد اتجه إلى فن النحت . وقد كتب أيضاً فى خمسة مجلدات كتابا عن الأعمال الفنية لهذه الأعمال الشهيرة للعالم كله . وهذا العمل مقابل ومرادف دليل المعرفة فى العصر الحديث ، وعلى ذلك فقد كانت الجمهورية مركزا لنشاط فى المجال الفنى للعالم الهلينستى وهى مركز فنى عظيم . ولم يظهر أى فن نموذجى يقوم على نماذج هلينستية حتى أيام أغسطس .

الفصل الثامن

أوغسطس AUGUSTUS

إن القليل من الساسة فى التاريخ من واجهوا مثل هذه المشاكل التى اعترضت طريق « أوكتافيان » . ولا يزال عدد من وجدوا حلولا لها بمثل هذا القدر الكبير من النجاح أقل بكثير . وفى الوقت الذى كان فيه الكثير من المسائل المتعلقة بسياسة (أوكتافيان) ودوافعه غامضة ، لم يكن هناك مجال للشك فى أن هدفه الأساسى هو ذلك الذى عبر عنه فى دعائه المشهور الذى استشهد به «سويتونيوس» Suetonius عند كتابته سيرة حياة أوكتافيان . ويقول هذا الدعاء « ليته يكون من طالعى إقامة أسس راسخة ودائمة تقوم عليها حكومة روما . وليتنى أنال الجزاء الذى أستحقه وآمل فيه ، وأصبح ذا شهرة بوصفى رجلا وضع أنجح دستور ممكن وضعه» . وقد حقق بالفعل هدفه هذا ، فأسس النظام الذى وضعه دامت قرنين من الزمن . وجعلت «السلم الرومانى » Pax Romana من الممكن تحقيقه . وهذا السلم هو أجل خدمة قدمتها روما للعالم .

وقد كان للحظ دور فى هذا ، إذ أتاح له حكما طال أمده فالخمسة والأربعون عاما التى حكم فيها أوغسطس كانت ذات أهمية كبرى لروما مثل أهمية حكم الملكة فيكتوريا Victoria لانجلترا ولويس الرابع عشر لفرنسا Louis XIV ولكن يجب أن نرجع الفضل فى هذا أولا وقبل كل شىء إلى مواهب « أوغسطس » السياسة . وإذا اعتبرنا أن السياسة هى فن تحقيق الممكن فقد كان أوغسطس فنانا حاذقا . والمحاولات الدقيقة التى بذلها العلماء المحدثون لتحليل منصب الرئاسة Principate وإدراجه تحت أى قسم من أقسام

العلوم السياسية لا تفيدنا إلى حد كبير . وقد قال الأستاذ « سيم » Syme فى أحد أبحاثه الأخيرة الزائدة التعمق « إن منصب الرئاسة يتملص من التحديد » وقد كان أوغسطس يهدف إلى جعله هكذا . وهو لم يكن شغوفا بالعلوم السياسية، بل كان سياسياً عمليا وعلى علم تام بما يبتغيه وما قد يستسلم إليه الرأى العام الرومانى . وكان من الممكن خلق التوافق بين هذين الأمرين وذلك باستغلال الألقاب ببراعة لإخفاء الحقائق السياسية وراءها . وقد بلغت هذه الألعوبة حـــد الإتقان الـكامل فى نصه « الأعمال المجيدة » Res Gestae الذى تم تجميعه فى أواخر سنى حكمه . وليس من المجدى دائماً أن تدرس فترة حكمه بإدراجها تحت عناوين مثل « دستور الرئاسة » والتشريع الاجتماعى ... إلى آخره، بل يجب أن نحاول أن ننظر إلى مشاكله كما واجهها هو — على أساس الترتيب الزمنى . ولـكن يجب دائماً ألا يغيب عن أذهاننا قول « ديوكاسيوس » Dio Cassius بأن الآراء الخطيرة كانت تناقش علانية فى ظل الحكم الجمهورى ، أما فى ظل الحكم الإمبراطورى فقد كانت القرارات تتخذ سراً ويصدرها شرذمة قليلة من الرجال . وهناك الـكثير من مشاكل الإمبراطورية من الممكن تخمينه ولـكن لا نستطيع الجزم به أبداً .

وكان أوكتافيان قد انتصر على أنتونى بوصفه « قائداً Dux » لاتحاد يضم إيطاليا كلها — وهو ولاء إيطاليا كلها Conjuratio Totius Italiae الشهير وبمركزه هذا أصبح فى الواقع دكتاتوراً عسكريا ، ولـكنه كان كذلك زعيما لحزب سياسى ، ألا وهو حزب « قيصر » وهو الحزب السياسى الوحيد فى روما الذى استمر بقاؤه . وقد حان الوقت لتصفية المشاكل التى نتجت عن الحروب الأهلية ولخلق أسس لإقامة نظام جديد ولـكن يجب أولا إقرار النظام فى الشرق ، حيث كانت أنظمة أنتونى راسخة فى أكبر مساحة ممـكنة من الأراضى ، وفى مصر ، وموت كليوباترا قد ترك بين يديه غنيمة

ذات قيمة هائلة ، فلم يكن ليدعها تفلت من بين يديه . وقد جاء فى قصة « الأعمال المجيدة » الذى يعتبر تقرير أوغسطس الخاص عن سيرة حياته « لقد أضفت مصر إلى أملاك الشعب الرومانى » . ولكنها لم تصبح ولاية مثل سائر الولايات الأخرى . فقد حكم أوكتافيان مصر بوصفه خليفة البطالمة كما حكموها هم بوصفهم ورثة الفراعنة . وكان دخل الأراضى دائماً من نصيب حاكمها . وفى الحال أمدته خزانة كليوباترا بالمال اللازم لشراء أراض يستوطن فيها محاربوه القدماء ذلك لأنه كان لا بد من تخفيض قوات الجيش من ستين فرقة إلى ثمانية وعشرين . وفى ١٣ و ١٤ و ١٥ أوغسطس عام ٢٩ ق . م . احتفل أوكتافيان بانتصاره الثلاثى « وقد سار أمام عربته الحربية تسعة ملوك أو أبناء ملوك » .

ثم جاءت بعد ذلك سلسلة من الأعمال كان الهدف منها إبراز مزايا النظام الجديد فقد صدر عفو عن أتباع أنتونى وألغى المتأخر من الضرائب المستحقة وأعدمت السجلات ثم قام بتطهير مجلس الشيوخ وقلل عدد أعضائه كما أقام معبد الإله « أبوللو » الفخم على تل « البلاتين » وفاء لنذر قطعه على نفسه أثناء موقعة أكتيوم Actium وأغلقت أبواب معبد الإله « يانوس » Janus كدلالة على انتشار السلام عامة . واتجهت الأنظار إلى اثنين وثمانين معبداً آخر من معابد المدينة لإصلاحها ولكن تعكر صفو هذا الوفاق بوقوع حادثة محرجة . إذ كان ماركوس كراسوس Marcus Crassus ، حفيد « كراسوس » عضو الائتلاف الثلاثى ، قد حارب بنجاح على حدود مقدونيا وأحرز لنفسه نصراً . والأدهى من ذلك والأمر أنه قتل بيديه زعيما من زعماء الأعداء واتخذ من ذلك دعامة ليطالب بحق تقديم « الأسلاب » Spolia Opima لمعبد « جوبيتر فيرتريوس » Jupiter Feretrius وكان هذا الحق أندر الامتيازات التى يتمتع بها العسكريون ولم يكتسب أحد هذا الشرف إلا ثلاث ، أما الرابع ، الذى نحن بصدده الآن ، فيجب ألا يكتسب هذا الشرف فجاءت الإجابة على مطلب « كراسوس » هذا بأن هذا الحق قاصر

على القادة العسكريين الذين يحاربون على مسئوليتهم الخاصة ، أما كراسوس فقد كان يحارب تحت رعاية أوكتافيان ولكن أجاب « كراسوس » ردا على ذلك بأن أحد هؤلاء الثلاث الذين نالوا هذا الشرف فيما مضى كان تريبونا عسكريا فقط وهو « كاسيوس » ، وتقف الحفريات إلى جانب أوكتافيان فى الموضوع إذ أن العثور على معبد « جوبيتر فيرتريوس » كشف النقاب عن « الوهب » الذى قام به كاسيوس ، وبرهن على أنه قد كان قنصلا . وعلى ذلك لم يكن هناك حادثة سابقة مماثلة لمطالب كاسيوس ، وفى روما لم يكن يسمح بالقيام بعمل لم يسبق له مثيل . وتفندت آراء كاسيوس وادعاءاته وخاطبه أوكتافيان فى حزم مطالبا إياه بإيجاد أساس سليم يقوم عليه وضعه هذا الذى لم يسبق له مثيل ،

وفى يناير عام ٢٧ ق.م . تم الوصول إلى حل بعد أن عقد مجلس الشيوخ اجتماعين . ونحن لا نعلم شيئاً عن المؤتمرات والمناقشات التى سبقت هذين الاجتماعين ، ولكن من الواضح أن هذه الاجتماعات نفسها قد أخرجت إخراجا مسرحياً دقيقاً . فى بداية الأمر تنازل أوكتافيان عن كل سلطاته لمجلس الشيوخ وللشعب الرومانى فتعالت صيحات الاحتجاج ، فيجب ألا يتخلى عن الجمهورية التى أنقذها . فهل سيرحب بقبول « سلطة بروقنصلية » Proconsular Imperium يسرى مفعولها على بلاد الغال وأسبانيا وسوريا لفترة طولها عشر سنوات ؟ ولكن يجب أن يستعيد مجلس الشيوخ والشعب والموظفون العموميون مهامهم القديمة . وبعد ثلاثة أيام جاء ما يسمى Quid Pro Quo « الشىء مقابل الشىء » إذ أجمع مجلس الشيوخ المعترف بالجميل على منحه غصن الغار وذلك لإنقاذه حياة المواطنين الرومان ، ودرعا ذهبياً نقش عليه مايتمتع به من فضائل : الرحمة والألمعية والعدالة والتقوى كما نقش عليه اسم « أوغسطس Augustus » وتمجيدا له تغير اسم شهر سكستيليس » Sextilis وسمى أوغسطس ليأتى بعد يوليو .

وهذه هى العملية التى وصفت بأنها « إعادة الحياة إلى الجمهورية » وجاء ذلك الوصف على المسكوكات وفى الأعمال المجيدة « فى أثناء قنصليتى السادسة والسابعة بعد أن أنهيت الحروب الأهلية تماماً . . . وبعد أن حصلت على السلطة العليا بموافقة الجميع ، نقلت الدولة من تحت نفوذى إلى نفوذ مجلس الشيوخ والشعب الرومانى . وبعد ذلك فقت الجميع فى السلطة (Auctoritas) . أما فى مجال النفوذ Potentia فلم أستحوذ على أكثر مما استحوذ عليه من كانوا زملاء لى فى كل منصب توليته . لقد أعددت العملية إعدادا محكما ، وكذلك العبارات التى وصفت بها . فقد تحاشى ذكر هذه الألقاب العاطفية مثل « الملك » Rex و « الدكتاتور » Dictator — إذ لم يكن هناك داع لحدوث منتصف مارس آخر ، وقد قبلت الحقيقة . واستمر موظفو الجمهورية العموميون فى أداء مهامهم تحت نفس الألقاب القديمة . كما كان أوغسطس موظفا عاما فى الدولة ينتخبه مجلس الشيوخ لفترة محدودة من السنين ربما يطول مداها ولكن لا يمنحه قيادة لم يسبق لها مثيل . ولكن هذه لم تكن الحقيقة بأكملها . فقد مكنته بلاد الغال وأسبانيا وسوريا من تولى قيادة معظم القوات المسلحة التى كانت تنظر إليه حينذاك على أنه قائدها Imperator كما أنه تولى منصب القنصلية سنويا منذ عام ٣١ ق.م . دون انقطاع وبذلك أصبح فى إمكانه أن يسيطر على حكام ولايات مجلس الشيوخ المتمتعين بالسلطة البروقنصلية . ودون تردد تخلى عن دخل هائل ربما لا يقل كثيراً عن دخل الدولة نفسها وكان مجلس الشيوخ يكتظ بمؤيديه ولم يكن تتم أى رعاية إلا تحت إشرافه . ومن الجائز أنه لم يستحوذ على سلطة أوسع من زملائه فى أى منصب تولاه ، ولكن جمعه بين كثير من السلطات ، رغم أنها جميعاً جاءت نتيجة توليه مناصب لمدة طويلة وبصفة مستديمة ، قد وضعه فى مركز لم يستطع أى فرد أن يتساوى معه فيه . وكانت السلطة Auctoritas على هذا النطاق ما هى إلا النفوذ (Potentia) فى أقصى مراحله . وعلاوة على ذلك كان هناك ما ينطوى على موقفه الخارق للعادة بوصفه ابنا للمؤله يوليوس

Divi Filius وكذلك اسم أوغسطس Augustus ، وهو صفة ذات مدلول عظيم وبشير خير — لأن رومولوس كان قد أسس مدينة روما وفقاً لـ (Augusto Augurio دلالة خيرة) ومن هنا يمكننا استنتاج أن هناك رومولوس آخر جاء ليؤسس المدينة مرة أخرى . ولكن لم يطلق أوغسطس على مركزه ، أى لقب أكثر من الرئيس Princeps وهى كلمة أخرى تركت عمداً غامضة ، ولكن عندما تدخل فى تعبير مثل « رئيس مجلس الشيوخ » Princeps Senatus فإنها تدل على احتلاله لمركز الصدارة بين الرجال المتكافئين . وهكذا كانت أولى إصلاحات أوغسطس فى خطوط عريضة .

وكان هناك نقص بالنسبة له فى السلطات الفعالة طوال الأعوام الأربعة التالية، ولكن من الواضح أنها كانت سنوات عصيبة لأوغسطس — وفى نهايتها شعر بالحاجة إلى استحواذه على سلطات جديدة فرحل فى صيف عام ٢٧ق.م ليقوم بجولة فى بلاد الغال وأسبانيا وقاد هو بنفسه الحملة التى نتج عنها ضم شعوب « الكمبرى » القاطنة فى شمال غرب أسبانيا إلى الولاية الرومانية ، ولم تكن هذه الشعوب قد تم إخضاعها حتى ذلك الوقت . وأدى ذلك إلى قيام الأسبان بكفاح مرير آخر لم يكن لينتهى حتى عام ١٩ ق . م ولم تكن حالة أوغسطس الصحية — التى لم تكن سليمة أبدا — لتتحمل القيام بحملات فى أسبانيا . فاضطر فى عام ٢٥ق.م إلى الاستشفاء فى منطقة الينابيع المعدنية الواقعة فى جبال « البرانس » . وفى عام ٢٦ ق.م . وردت أنباء سيئة من مصر فى نفس الوقت ، فقد كان كورنيليوس جاللوس Cornelius Gallus صديق الشاعر فيرجيل وأول حاكم رومانى لمصر ، يعلن على الشعب ما حققه من نجاح فى حربه ضد « أثيوبيا » بطريقة أبعد مما هو مسموح بها لرجل يتولى منصباً مثل منصبه — فاستدعى وانتحر . وعندما كان أوغسطس فى طريق عودته إلى روما فى عام ٢٣ ق . م ، أصيب بمرض عضال للمرة الثانية وأصبح من المحتمل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . ولكنه اجتاز مرحلة الخطر بأخذ حمامات باردة وبفضل طبيب ماهر ، ولكن كان عليه الآن

أن يواجه مشكلة من يخلفه مع أنه كان فى الأربعين من عمره فقط — فلم تلد « ليفيا Livia أطفالا له — وهذه هى أولى الأحزان العديدة التى حطت على هذه الأسرة . وكان أقرب أقربائه من الرجال هو المحبب لنفسه والعزيز عليه ماركلوس Marcellus ابن أخته أوكتافيا . كما كان لأوغسطس نفسه ابنة رزق بها من زواجه الأول هى جوليا Julia . وفى عام ٢٥ ق . م . تزوج أولاد العم (ماركلوس وجوليا) وكان أوغسطس يأمل فى أن يؤتيه اقترانهم هذا بحفيد له ، مع أنه لم يكن من المؤكد حتى ذلك الوقت ما إذا كان الرأى العام الرومانى يرحب بتولى أفراد الأسرة الخلافة بالوراثة . كما كان هناك أيضاً أولاد ليفيا الذين رزقت بهم من زواجها الأول : تيبريوس Tiberius و«دروسوس» Drusus ، ولكن فجأة أصبح الخليفة المنتظر هو «أجريبا» Agrippa القائد الحربى والإدارى القدير ، الذى كان ولاؤه القائم على إنكار الذات دعامة استند عليها كثير من أعماله الهامة . وقد كان أجريبا هو الرجل الذى أعطاه أوغسطس خاتم توقيعه عندما بدت نهايته وشيكة ، ولكنه شفى وتغيرت الأوضاع مرة أخرى فأصبح من الممكن دفع ماركلوس إلى الأمام بينما من الممكن اعتبار أجريبا احتياطيا له .

ولقد تسبب مرضه ومؤامرة دبرت فى عام ٢٥ ق . م . فى أن يستعيد سلطاته ، وعندما رفض القنصلية التى كانت ستصبح القنصلية الثانية عشرة له منح السلطة البروقنصلية العظمى — يسرى مفعولها على كل الإمبراطورية "Imperium Proconsulare Maius" وهكذا فاقت سلطاته كل السلطات فى أية ولاية ، لأن حكام الولايات كانوا تحت سيطرته حتى هؤلاء الذين كانوا يحكمون الولايات التابعة لمجلس الشيوخ . ولقد كانت سلطته هذه Imperium ذات أهمية قصوى حتى إن نقشه «الأعمال المجيدة» Res Gestae قد مر عليها دون أن يذكر شيئاً عنها — وبالإضافة إلى ذلك ، فمنحه السلطة التريبونية لمدى الحياة مكنه من الحصول على حق الاعتراض (Veto) ، ومن الاتصال بالشعب اتصالا مباشراً . وقد رأى تاكيتوس الذى يتجاهل

تطورات عام ٢٧ ، أن توحيد السلطة البروقنصلية مع السلطة التريبونية هو القاعدة الأساسية التى قام عليها مركز « الرئيس » Princeps كما يدعى المؤرخون المحدثون أن هذا التوحيد يشير إلى انتهاء عصر الجمهورية نهاية فعلية . ومع هذا فقد خلعت السلطة البروقنصلية فى نفس الوقت على « أجريبا » لمدة خمس سنوات وذلك لأنه كان سيسند إليه بعد وقت قصير مهمة خطرة فى الشرق ، وهذا قد جعله على الأقل قائداً ينوب عن أوغسطس . ولكن البعض رأوا أن هذا الإجراء خطوة نحو إسناد الحكم إلى هيئة من الرجال ولكن فجأة جاءت ضربة قوية غير متوقعة فحطمت خطط أوغسطس . فقـــد لقى ماركالوس حتفه من جراء إصابته بالملاريا ، دون أن يكون قد أنجب أطفالا بعد . وأبيات فيرجيل الشهيرة فى الكتاب السادس من « الانيادة » تصوره على أنه نموذج أعلى للأمل الذى يبدده الموت وهو لا يزال فى مهده . ومع ذلك فقد كانت الحاجة تتطلب عقد زواج أسرى آخر . فأصبحت أرملة ماركللوس الشابة زوجة لأجريبا الذى كان فى سن أبيها .

وكان الكثير من المشكلات التى قامت فى الشرق تتطلب حلولا عاجلة ، وقد أعقبت مهمة « أجريبا » الدبلوماسية حملة تفتيشية قام بها أوغسطس ما بين عامى ٢٢ ، ١٩ ق.م . إذ تسبب موت « أمينتاس » Amyntas ملك « جالاثيا » Galatia فى تشكيل قطعة واسعة من الأرض لا حدود لها شرقى آسيا كولاية جديدة ، كما أن العلاقات مع الممالك العميلة لروما الواقعة على حدود سوريا الصحراوية كانت تحتاج إلى فحص دقيق وفى « جوداريا » Judaea كان الملك « هيرود » Herod الأكبر يحاول تغيير نظام الحكم من حكم دينى متعصب إلى مملكة « بارثيا » فقد كان سراب حرب ضروس الغرض منها الانتقام « لكراسوس » لا يزال ينعكس بصورة واضحة تماماً نستطيع أن نلمسها من قراءاتنا لآداب تلك الفترة ، وكانت هناك أيضاً بصورة

واضحة مشكلة أرمينيا ، حيث كان النفوذ الرومانى فى انحطاط مستمر منذ قيام حملة « أنتونى » .

ونظرة أوغسطس المتراخية والمتعالية إلى الشرق تشير إلى أن جزءاً كبيراً من الأعمال الدبلوماسية الرائعة قد قام بها «أجريبا» . وكانت صقلية هى أول ولاية يزورها أوغسطس حيث كان « سكستوس بومبيوس » قد خلف وراءه آثار التخريب والتدمير . ولم يجد أوغسطس أقل من ست مستعمرات فى الجزيرة كانت أهمها تاورومينيوم Tauromenium « تاومينا الحديثة » وبانورموس Panormus (باليرمو الحديثة) وكان هناك فى اليونان كذلك إنشاءات جديدة ، فبلدة نيكوبوليس Nicopolis فى إقليم ابيروس Epirus ، التى أنشئت لتخلد ذكرى معركة أكتيوم ، قدر لها أن تصبح مركزا هاماً للحضارة الرومانية فى بلاد اليونان — وازدهرت بلدة باتراى Patrae (باتراس الحديثة) وأصبحت ميناء حيوياً للعبور إلى إيطاليا . وبعد أن قام أوغسطس بزيارة « أثينا » و « وساموس » Samos رحل إلى آسيا ليتولى معالجة مشاكل « بارثيا » و « أرمينيا » العسيرة . وقد كانت الظروف فى صالح روما ، إذ كان هناك خلاف على عرش « بارثيا » ، وكان الملك « فراءتيس » Phraates يرحب تماماً بإعادة أعلام كراسوس وماتبقى من رجاله إذا تخلت روما عن تأييدها السياسى لمنافسه . أما «أرمينيا» فقد كانت مشكلتها أكثر صعوبة إلى حد ما ، وكانت تتطلب إظهار القوة والعنف ولكن فى النهاية فرض عليها موظف رومانى ليصبح ملكا لها . وقد لعب تيبريوس Tiberius الشاب دورا رئيسياً فى كلتا هاتين المشكلتين . ولكن استقرار الأحوال فى « أرمينيا » لم يكن ليدوم وقتاً طويلا ، وما من شىء يدل على حكمة أوغسطس وذكائه بصورة واضحة أكثر من رفضه لخطط هائلة لغزو الشرق . وذلك من أجل إيجاد حل معقول لمشكلة « بارثيا » ، أصبح نهر « يوفراتيس » بمقتضاه هو الحدود بين الإمبراطوريتين . ويجب

ملاحظة نتاج آخر جاء نتيجة لزيارة أوغسطس لسوريا — ألا وهو إنشاء مستعمرة عسكرية فى بلدة هليوبوليس Heliopolis (بعلبك الحديثة) التى تعتبر معابدها الشاهقة من أفخم المبانى الرومانية فى العالم . وقد يرجع معبد « زيوس » إلى فترة متأخرة عن هذا التاريخ لكن من المحتمل أن تكون هليوبوليس ، كما يقترح باريبينى Paribeni ، قد خططت منذ البداية على أساس من البذخ الفاحش لتنافس ما قام به ملوك أسرة « سليوكوس » من أعمال فخمة . وفى أثناء عودته من رحلته زار أوغسطس أثينا للمرة الثانية وتم اطلاعه على أسرار « اليوسيس » ثم وصل إلى روما فى عام ١٩ق.م .

ثم تبع ذلك (فى عام ١٧ ق.م) برنامج للتشريع الاجتماعى الغرض منه الحد من تدهور الأخلاق الرومانية وإعادة الفضائل القومية التى كانت سائدة فى فجر تاريخ روما . فقانون « يوليوس للزنا Lex Julia De Adulteriis » قد جعل الزنا (الذى حدده القانون الرومانى بالجماع بين امرأة متزوجة ورجل غير زوجها) عملا إجراميا ، وقد كانت هناك عقوبات صارمة — وصلت إلى حد الإعدام فى بعض الحالات — تطبق على الأشخاص المذنبين ولم يستثن من هذا القانون الأزواج ذوى الهمم. أما قانون « يوليوس للزواج » Lex Julia De Maritis Ordinandis فقد كان موجها ضد العزوبية والزيجات التى لا يتخلف عنها ذرية ، وأصبح الزواج ، وخاصة بقرين من طبقة اجتماعية مناسبة ، إجباريا تقريباً على كل مواطن رومانى . وكانت هناك مكاسب تمنح للآباء ، تزداد بزيادة عدد أفراد الأسرة . أما العزاب فقد كانوا ينعتون بانعدام المقدرة . وفى نفس الوقت صدرت قوانين أخرى تحد من البذخ والترف ، ومن منح الجنسية الرومانية للعبيد المعتقين ، ومثل هذه الإجراءات التى لم يفلت منها أحد لا يمكن أن تلاقى ترحيبا . فوجه الكثير من السخرية والنقد إلى تشريعات أوغسطس الاجتماعية وقد كان حكم تاكيتوس التهكمى على هذه القوانين أنها قد أدت إلى ازدياد عدد الوشاة لا عدد الأطفال —

« فإن البلد تعانى الآن من قوانينها كما كانت تعانى فيما مضى من رذائلها »
ولكن بالتأكيد كان أوغسطس محقاً عندما اعتقد أن هناك احتياجا لجنس
بشرى سليم يعيش فى روما وإيطاليا ليحتفظ بالإمبراطورية متماسكة . وقد
قوبلت مجهودات أوغسطس هذه ببعض الاستجابات — من النادر أن
تصل إلى مثل هذه الحالة التى كان عليها مواطن من بلدة « فايسولاى »
Faesulae والتى سجلها « بلينى » فقد زار هذا المواطن الكابيتول مصطحباً
معه أبناءه الثمانية وأحفاده الخمس والثلاثين وأحفاد أحفاده الثمانى عشر —
لقد سجل هذا الرجل رقماً قياسياً فى الإنجاب .

كان منصب « الرئاسة » فى عام ١٧ ق . م . قد بلغ عامه العاشر وعقد
أوغسطس العزم على تخليد هذه المناسبة وذلك بإقامة احتفال لابد وأن
يترك أثراً عميقاً فى نفس كل من يشاهده ، وهذا الاحتفال هو « الألعاب
القرنية » Ludi Saeculares . وكان ظهور النجم للمرة الثانية . ذلك النجم
الذى ظهر أول مرة بعد موت « قيصر » مباشرة كأنه تصديق من الآلهة على
هذا الإجراء، والسيكولوم Saeculum هو وفقاً لاعتقاد اترورى—رومانى
دينى غامض — فترة طولها ١٠٠ أو ١١٠ عاما — وليس من المؤكد أى
الرقمين أصدق — يتجدد خلال هذه الفترة الجنس البشرى أجمعه —ولم
يحدث أن رأى أحد مثل هذا الاحتفال من قبل ، كما لم يكن ليراه أحد مرة
أخرى ، وقد وصلتنا تفاصيل احتفال عام ١٧ ق . م . عن طريق النقوش
المتعددة التى تعتبر السجل الرسمى للجنة الخمسة عشر عضوا على رأسها أوغسطس
وأجريبا ، وهما المسؤلان عن أعمال هذه اللجنة . وقد كانت مهامها الأساسية
هى إقامة الصلاوات وذبح القرابين لمعبودات معينة قد تم اختيارها بدقة ،
ويستمر هذا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالى متتالية . ففى ليل يوم ٣١ مايو
أقيمت الصلاوات فى « كامبوس مارتيوس » ابتهالا « لإلهات القدر Fates »
لكى تصون عظمة الشعب الرومانى وتحفظ إمبراطوريته ، وفى تلك الليلة

أقامت رئيسات الكاهنات مأدبة للربة « جونو » والربة « ديانا » . وفى صباح يوم ١ يونيو نحرت القرابين للإله « جوبيتر » الأول والأعظم Jupiter Optimus Maximus » على تل الكابيتول، أما أثناء الليل فقد نحرت القرابين لإلهات وضع الأطفال . وفى يوم ٢ يونيو وعلى تل الكابيتول كرمت الإلهة « جونو الملكة Juno Regina نهارا ، والإلهة « الأرض الأم Terra Mater ليلا . أما الاحتفالات التى أقيمت فى يوم ٣ يونيو فقد كانت على تل البلاتين ، ففى أثناء النهار نحرت القرابين « لابوللون وديانا » أما أثناء الليل فقد قامت جوقة دينية مكونة من ٢٧ ولدا و ٢٧ فتاة بإنشاد « الأنشودة القرنية » Carmen Saeculare على أبواب معبد أبوللون الجديد وبالقرب من منزل أوغسطس ، وقد كانت هذه الأنشودة من نظم الشاعر « هوراس » Horace . لقد استرجع الشعب الرومانى ، الذى انتصر على أعدائه ، أخلاقياته القديمة وأصبح مستعدا لدخول دورة جديدة ومجيدة من دورات وجوده ذلك لأنه كان على وفاق تام مع القوى المقدسة .

وفى عام ١٦ ق . م . رحل أغسطس متجها إلى الغرب ليقوم بما قدر له أن يكون آخر حملة تفتيشية من حملاته الواسعة التى كان يقوم بها فى الولايات وقد سبقه أجريبا مرة أخرى : ففى بلاد الغال وضع خطة إنشاء شبكة واسعة من الطرق وفى أسبانيا أنهى الحرب الكنتبرية (فى عام ١٩ ق . م .) وقضى أغسطس معظم وقته فى بلاد الغال حيث راجع الضرائب ووضع تخطيطات جديدة للإدارة الإقليمية والمحلية وأصبحت بلاد الغال تضم ثلاث ولايات جديدة إلى جانب ولاية « ناربوننسيس » — وهى ولايات « اكويتانيا Aquitania و « لوجدوننسيس » Lugdunensis و « بلجيكا » Belgica ووضعت هذه الولايات الثلاث تحت إمرة حكام مسؤلين أمام الإمبرطور . وقد استمر وجود المجتمعات القبلية Civitates فى هذه الولايات الجديدة على نطاق محلى وذلك لأن تقدم الحياة الحضرية فى هذه الولايات كان أكثر بطئا من تقدمها فى ناربوننسيس ، أما الروح القومية لشعب

الغال التى أيقظها « فيركنجتوريكس» من غفوتها فقدا كتسبتها روما إلى جانبها وذلك بتكوينها مجلس للغاليين ، وقد وقع الاختيار على مدينة « لوجدونوم» Lugdunum لتصبح عاصمة جديدة يجتمع فيها هذا المجلس ولتكون بمثابة » وشنجتون « أوكانبرا » Canberra بلاد الغال . ولما كانت هذه المدينة مقرا لحضارة روما وأغسطس وملتقى شبكات طرق المواصلات ومركزا لسك النقود الملكية ومركزا لقيادة الإمبراطور أثناء وجوده فى بلاد الغال ، فقد تطورت بسرعة مذهلة وأصبحت أعظم مدينة بين مدن ماوراء جبال الألب . أما فى أسبانيا فقد كان هناك ثلاث ولايات : باتيكا Baetica فى الجنوب الشرقى ، ولوسيتانيا Lusitania فى الجنوب الغربى وولاية تاراكونسيس Tarraconensis وهى تشتمل على النصف الشمالى من الجزيرة تقريبا . وقد قامت مدينة » تاراكو « Tarraco فى أسبانيا بنفس الدور التى قامت به « لوجدونوم » فى بلاد الغال ،كماأنشئت مستعمرات جديدة فى « إميريتا » Emerita (ميريدا الحديثة) وفى كايساراوجستا Caesaraugusta (ساراكوزة الحديثة) وشجع سكان الجبال من الأسبانين على إدراج أنفسهم فى الوحدات المساعدة الجديدة فى الجيش الرومانى (وهذه الفرق تقابل فرق الأراضى المرتفعة High Land التى تم تعبئتها من أجل الجيش البريطانى عام ١٩٤٥) .

ومن المحتمل أن أوغسطس خلال هذه السنوات التى قضاها فى الغرب، قد أتم وضع التخطيط الهائل الخاص بالحدودالجديدةالشمالية للإمبراطورية الرومانية . ومن أجل تنفيذ هذا المشروع جند أوغسطس أكفأ الجنود والقادة طوال ربع القرن التالى ، وقد كانت لحظات نجاحه وبالمثال لحظات فشله لحظات حاسمة فى تاريخ أوربا .

والآن أخذت روما على عاتقها مهمة الدفاع عن بلادالغال بمثل مسئوليتها للدفاع عن إيطاليا . وقد كان يوليوس قيصر قد حدد حدود بلاد الغال على

نهر الراين ، ولكن طرق الاتصال بين بلاد الغال وإيطاليا ، بل والدفاع عن إيطاليا نفسها ، يتطلب السيطرة التامة على كل ممرات جبال الألب . وكان هناك فى الشرق البعيد مشكلة « اليريكوم » «ومقدونيا» ، وإذا أمكن توسيع أراضى وادى الساڤا فقد « ينتج عن ذلك إنشاء طريق قصير يوصل بين نهر الراين وأسفل نهر الدانوب ، يمتد خلال جبال البلقان كلها (وهو بالتقريب طريق قطار الشرق السريع الحديث الممتد عن طريق « زاجرب » Zagreb إلى بلغراد ، وقد كانت الحملات التى قام بها كراسوس قبل ذلك الوقت باثنى عشر عاما قد بسطت سيطرة روما على « مويسيا » Moesia الواقعة على أسفل نهر الدانوب .

ونصب أوغسطس التذكارى المقام فى «لاتوربى» La Turbie بالقرب من موناكو Monaco مسجل عليه الحملات التى قام بها تيبريوس ودروسوس فى غرب جبال الألب والتى نتج عنها إخضاع أربعة وأربعين قبيلة وضم ولاية « رايتيا » Rhaetia إلى الإمبراطورية وهذه الولاية هى سويسرا الحديثة وجزء من بافاريا . وكان يقوم بحماية هذه المنطقة فرقتان اتخذتا بلدة «أوجستا فيندليكوروم » Augusta Vindelicorum (أوجسبورج الحديثة) قاعدة لهما . وفى نفس الوقت — تحولت مملكة « نوريكوم » Noricum الكلتية التى كانت حليفة لروما منذ زمن بعيد إلى ولاية وذلك لتكتمل سيطرة روما على أعالى نهر الدانوب حتى بلدة « ڤينا » Vienna ، وبدت الحدود الشمالية وكأنها قد اتخذت شكلها النهائى — وهى حدود نهر الراين والدانوب ولكن كان هناك ثمة خطة أكثر خطورة فى ذهن أوغسطس أقنعه بها تيبريوس ودروسوس : فطريق نهرى الراين والدانوب طويل ، إذ يبلغ طوله ٧٥٠ ميلا على الأقل ، ممتدا من مصب الراين حتى مدينة «فينا» ، ويوجد هناك مدخل موقعه حساس حيث ينحنى نهر الراين على شكل زاوية تجاه اليمين وراء مدينة « بازل » Basel كما أن أعالى نهر الدانوب تتلاصق بصورة تبعث القلق

بمدخل البحر الادرياتيكى ، وهذا ما يجب أن يتنبه إليه قادة حلف الاطلنطى انتباها هاما . ولكن قد يؤدى القيام بزحف من نهر الراين إلى نهر الب Elbe إلى الاستحواذ على مركز أكثر حصانة وإلى إقامة طريق أقصر بكثير فالمسافة بين هامبورج وماجديبورج وبراغ وفينا ليست أكثر من ٥٠٠ ميل على الأكثر وقد ينصح العالم الجغرافى الحديث باستخدام طريق أودير — دنيستر Oder Dniester إذ يبلغ طوله ٩٠٠ ميل فقط ويمتد من بحر البلطيق حتى البحر الأسود ، ولكن هذا الطريق كان بعيدا جدا عن نطاق الإمبراطورية الرومانية . ولذلك فقد بدأ القيام بهذه العمليات خلال السنوات التى تلت عام ١٢ ق.م . فى منطقة اليريكوم يوغوسلافيا ، وغرب ألمانيا وذلك باعتبار هذه العمليات جزءا من المشروع . ونحن لا نعرف عن القتال الذى دارت رحاه فى اليريكوم إلا القليل ، ولكن ما إن حل عام ٩ ق.م . حتى كانت القوات الرومانية التى كانت فى معظم هذه السنوات تحت إمرة تيبريوس قد وصلت إلى الدانوب الأوسط وأقامت ولاية « بانونيا » Pannonia ، وكان ذلك هو الوقت الذى استخدمت فيه مدينة كارنتوم Carnuntum لأول مرة قاعدة للقوات الرومانية وهذه المدينة أصبحت فيما بعد المدينة الرئيسية لهذه الولاية . وقد لاقت حملات دروسوس فى ألمانيا نجاحا باهرا فى بادىء الأمر ، إذ تقدم القائد الشاب فى زحفه وهو يقوم بمهمته تحت ظروف لم يعتد عليها الجيش الرومانى — ألا وهى شواطىء بحر الشمال ومستنقعات باتافيا وغابات ألمانيا — وقد تقدم فى زحفه فى سنوات متتالية حتى منطقة « فيزر » Weser ومنطقة « امس » Ems بل وحتى نهر الب نفسه بالقرب من ماجديبورج (فى عام ٩ ق . م) وبدأت حدود الولاية الألمانية تتخذ شكلها الاولى . ولكن فى أواخر صيف ثالث عام منذ قيامه بالحملة وقعت له حادثة كان من نتيجتها أن لاقى حتفه ، وأحضروا جثته إلى روما حيث دفنت فى ضريح أوغسطس — وقد كانت هذه الحادثة خسارة أخرى أكثر فداحة من موت ماركالوس ، إذ كان ذلك هو وقت

أن بلغت روما ذروة نجاحها فى ألمانيا ، ولو كانت حياة دروسوس قد امتدت حتى تمكن من تدعيم انتصاراته هذه ، لكان من المحتمل أن يصبح تاريخ العالم مختلفا تماماً ، إذ ماذا كان يحدث لو كانت روسيا قد انحصر وجودها فى منطقة ألاسكا ؟ .

ومن الأفضل أن نكمل قصة الحدود الشمالية فى هذه الصفحات على الرغم من أن هذا يؤدى بنا إلى الكلام عن السنوات الأولى من حكم « تيبريوس » . إن السنوات العشر التى تلت موت دروسوس سنوات غامضة ، ولكن لما كانت المعسكرات الشتوية قد استمرت تعتبر كحصون أقامها دروسوس على طول نهر الراين ، بما فى ذلك قواعدها الرئيسية فى « فيتيرا » Vetera وفى « ماجوناتياكوم Magunatiacum لم يكن يبدو أن هناك أى كسب حققته روما شرقى النهر . ولكن قامت ثلاث حملات على الأقل شمال نهر الدانوب ، ذلك لأنه كان هناك مملكة جرمانية قوية ، وهى مملكة « ماروبودوس » Maroboduus ملك الماركومنى Marcomanni كانت هذه المملكة فى طريقها للنمو فى منطقة بوهيميا المحصنة من الجهات الأربع ، وهذا موقع قال عنه نابليون ذات مرة إنه من الممكن السيطرة على أوربا منه . وبالتأكيد قد يصبح فى مقدرة « ماروبودوس » وخلفائه بعد وقت قصير الهجوم على منطقة الراين والدانوب فى الحال . وكانت السياسة الرومانية تهدف إلى عزله عن طريق الوسائل الدبلوماسية ثم سحقه . وبعد أن عاد تيبريوس ليتولى قيادة حملة الراين فى عام ٤م ، وضعت هذه السياسة فى حيز التنفيذ . وفى عام ٦ م وقف الكل على أهبة الاستعداد لدخول الجولة الأخيرة . فقد تجمعت اثنتا عشرة فرقة رومانية لتقوم بزحف من ثلاث جهات على « الماركومنى » وهذه الفرق هى قوات ولايات الراين ورايتيا والبريكوم ، ولكن أدى اندلاع ثورة عارمـــة فى مؤخرة قوات الدانوب إلى فشل هذه الخطة .

وكان اندلاع الثورة فى « باثونيا واليريكوم » من عام ٦ إلى ٩ م من أفظع الأخطار التى واجهتها روما على الإطلاق ، كما كان دليلا يبرهن على خطورة الاحتفاظ بكل القوات العسكرية على الحدود ، مع عدم وجود قوات احتياطية لمواجهة حالات الطوارئ ، وقد بدأت هذه الثورة بتمردين : الأول قامت به القبائل الكلتية القاطنة فى بانونيا ، وهى منطقة كانت قد تعرفت على الحضارة الرومانية فى ذلك الوقت وكانت مكتظة بالمستوطنين الإيطاليين من التجار ، والآخر قامت به القبائل المتخلفة القاطنة على تلال « دالماتيا » ، وفى كلا التمردين كان هناك زعيم يدعى « باتو » Bato يتولى زعامة اتحاد قومى ، ولو كانوا قد استطاعوا توحيد قواتهم قبل أن يتجمع الرومان فى طريقهم لكانوا قد تدفقوا جنوبا إلى إيطاليا ولأصبحت الحدود على طول نهرى الراين والدانوب هشيما تذروه الرياح — ولكنهم لم يفعلوا ذلك حتى تمكن الرومان من التصدى لهم فاحتلوا بعد ذلك موقعاً حصيناً فى آخر الأمر على جبل « الموس » Almus الذى يشرف على « سيرميوم » Sirmium ، القاعدة الرومانية . وفى عام ٧ م هزموا جيشا رومانيا مكونا من خمس فرق وقوات مساعدة هزيمة منكرة ولكن « تيبريوس » تمسك بسيطرته على وادى السافا ، وما إن أوشك العام على الانتهاء حتى كان قد حشد ١٥٠,٠٠٠ رجل فى « سيسكيا » Siscia فتخلى « باتو » مواطن بانونيا عن دعوته واغتاله رجل فى عام ٨م يحمل نفس اسمه ، أما ثورة دالماتيا فقد دامت حتى العام التالى .

وما إن أوشكت الثورة الكبرى التى اندلعت فى أراضى الدانوب على الانتهاء حتى حلت كارثة أخرى بجيش الراين — وهى انهزام ثلاث فرق رومانية تحت إمرة فاروس Varus وذبحها على يد « أرمينيوس Arminius زعيم » الخيروسكى » Cherusci أما عن موقع المعركة فهو مجهول ، ولكن من المحتمل أنه كان بالقرب من أوسنابروك Osnabrück الحديثة . وكان

أرمينيوس قد خدم فى الجيش الرومانى وقد أحال معلوماته إلى كسب ثمين بوصفه بطل الاستقلال الألمانى العظيم . ويغدق عليه « تاكيتوس » ثناء أكثر من أى زعيم بربرى آخر ، فهو يقول عنه إنه قد خسر المعارك ولكنه لم يخسر حربا بالمرة . فقد قضى على عشر القوات الرومانية وشل حركة جيش الراين وذلك فى المذبحة التى سحق فيها الفرق الثلاث .

كان أوغسطس قد بلغ السبعين من عمره وقد كان وقع الكوارث التى حدثت فى ألمانيا والبريكوم عنيفا عليه . ولم يكن ليحتمل وقوع هزيمة أخرى وهو على قيد الحياة وكانت وصيته عند موته هى المحافظة على الإمبراطورية فى نطاق حدودها الحالية . واتفق تيبريوس مع هذا النصح . ولا بد أنه كان يلمس الأحوال فى منطقة ماوراء الراين والدانوب أكثر من أى إنسان آخر . وفى وسط كل هذه الكوارث كان هناك عامل واحد دائم يشجع على الإقدام ألا وهو تفكك ألمانيا . « فماربودوؤس » لم يحرك ساكنا فى الوقت التى اندلعت فيه الثورة فى البريكوم كما أنه لم يفعل شيئا بعد انتصار أرمينيوس الذى أرسل له رأس فاروس ليحثه على القيام بنفس العمل . وقد كتب تاكيتوس يقول : « قد يطول إصرار الألمان ، إن لم يكن على بغضنا ، فعلى الأقل على كراهية بعضهم بعضا ، لأن مصير الإمبراطورية يشق طريقه بصعوبة ولم تعد آلهة الحظ تستطيع أن تمنحنا هبة أفضل من التفكك السائد بين أعدائنا ، لقد ساد هذا التفكك وانتشر لمدة خمسين عاما بعد هزيمة فاروس ولاقى أرمنيوس حتفه فى معركة نشبت ضد عدو ألمانى ونفى « ماربودوؤس إلى إيطاليا وعندئذ كانت المشكلة التى واجهت تيبريوس هى إيجاد تعليل يستند إليه لينسحب من ألمانيا انسحابا مشرفا ولهذا السبب جاءت حملات «جرمانيكوس» Germanicus ابن دروسوس فى عامى ١٤ ، ١٥ م . وقصة هذه الحملات تحتل جزءا كبيرا من صفحات تاكيتوس ، إذ منحت روما مجدا وجرمانيكوس نصرا . وبعد انتهاء هذه الحملات أصبح

من الممكن إلى حد ما تنظيم خط دفاعى دائم على طول الراين . وهكذا انتهى الأمر بإقامة الحدود على نهر الراين والدانوب ، واختفى تماما حلم إقامتها على نهر الب وجعل ألمانيا ولاية رومانية ، ومع ذلك قد يبدو واضحا أن النصف الأفضل من خطة أوغسطس الكبرى قد تم تحقيقه وضمانه فقد كانت أراضى الدانوب أكثر قيمة ونفعا للرومان من غابات غرب ألمانيا ، كما التصق نصفا الإمبراطورية ببعضهما البعض التصاقا تاما ، كما أصبحت اليريكوم نفسها مركز القوة برجالها ومواردها خلال السنوات التالية . وهكذا تم حل مشكلة الحدود الشمالية حلا وقتيا .

وعندما عاد أوغسطس من بلاد الغال فى عام ١٣ ق . م . كان منصب « الرئاسة » قد دام لمدة اثنى عشر عاما ، قضى أكثر من نصفها تقريبا متغيبا عن روما . وقد تقرر تخليد عودته هذه بإقامة معبد للسلام هذا السلام الذى كان أوغسطس قد قام بتأمينه فى كل أنحاء العالم الرمانى . وهذا المعبد — وهو على مستوى من مستويات التعبير الفنى فى عصر أوغسطس تصوير بنائى رائع لطبيعة منصب « الرئاسة » — قد تم تدشينه فى عام ١٣ ق .م. وأوقف عليه فى عام ٩ ق . م . وخلال هذه السنوات الأربع جدت تغيرات جذرية على العائلة الإمبراطورية ، فقد مات أجريبا فى عام ١٣ ق . م . وأكتافيا فى عام ١٢ ق.م . ودروسوس فى عام ٩ ق . م . والكثير من الشخصيات التى عاشت فى عصر أوغسطس قد حكم القدر عليها بالموت إما فى الصبا — مثل ماركلوس ودروسوس ، وجايوس ولوكيوس قيصر — وإما فى ربيع العمر مثل — أجريبا وهوارس ، وفيرجيل ، أما العمر المديد فقد كان من نصيب أوغسطس وليفيا فقط . والعشرون عاماً الأخيرة من حياة أوغسطس تظللها سحابة أحزان رجل امتد به العمر بعد موت خلانه .

ومرة أخرى آثار موت أجريبا مشكلة الخلافة . ولم تدم فترة ترمل جوليا مدة طويلة وذلك بعقد زواج أسرى — وهو عقد قرانها على تيبريوس

الذى كان عليه أن يطلق زوجته الحبيبة وقد أثمر زواجهما هذا طفلا مات وهو فى المهد . عندئذ اتجه اهتمام أوغسطس إلى جايوس ولوكيوس قيصر، أبناء جوليا الكبار من أجريبا . ومع أن تيبريوس كان قد عين قنصلا عام ١٣ ق.م . ومنح السلطة التريبونية لمدة خمس سنوات ، إلا أنه لم يكن قد حان الوقت لكى يصبح وريث أوغسطس ، بل كان فقط بمثابة الحصان الخشبى والدرع الواقى للقياصرة الصغار يرعاهم طالما أن أوغسطس على قيد الحياة وقد كانت هذه المهمة جزاء تافهاً لخدماته الجليلة . وقد تسبب هذا، بالإضافة إلى تعاسته المتزايدة فى زواجه من جوليا ، فى ابتعاده عن الحياة العامة واعتكافه فى « رودس » عام ٦ ق.م .

وكما يقول الأستاذ « سيم » Syme فإنه تكمن وراء كل هذه الأحداث المنافسات والمؤامرات التى كانت تحيكها أحزاب البلاط ، ونحن لانستطيع أن نكشف النقاب عن أسرار هذه الأحزاب . ولابد أن هذا ما كانت عليه الحالة عندما حدثت الفضيحة الشهيرة التى لحقت بجوليا والتى فاحت رائحتها فى عام ٢ ق . م ، وتسببت فى نفيها إلى جزيرة ما . وكانت جوليا امرأة شابة جميلة ، مرحة ، خارقة الذكاء ، وكان أوغسطس ينظر إليها على أنها عامل نسائى خصب الإنجاب ، فقد أنجبت ستة أطفال ، ولهذا السبب بالذات يجب ألا يقال عنها إنها قد فشلت فى رسالتها ، ولكن من السهل الاقتناع بأن هذا الدور لم يكن الدور الذى تحب هى القيام به . وربما كان من الطبيعى بالنسبة لها أن تبحث عن عشاق ولكن كون أحد هؤلاء العشاق ابن « مارك أنتونى » كان أمراً لا يحتمل على الإطلاق ، وما جلبته هذه الأم من عار لم يلطخ سمعة جايوس ولوكيوس قيصر ، فكلاهما كان قد تقدم فى منصبه تقدما أكبر بكثير من عمره . ولكن مرة أخرى ، تحطمت آمال أوغسطس على صخرة الموت ، إذ مات لوكيوس فى عام ٢م وجايوس فى عام ٤ م ، وهكذا دفن تيبريوس منافسيه جميعاً فى قبورهم ، وفى عام ٤م

تبناه أوغسطس ومنحه السلطة التريبونية ، وقد كانت كلمات أوغسطس حينذاك صادقة وإن كانت خالية من الذوق والمجاملة إذ قال : « إنى أفعل ذلك من أجل مصلحة الوطن » وفى عام ١٣ م أصدر مجلس الشيوخ قانونا خاصا مكن تيبريوس من الحصول على السلطة البروقنصلية ووضعه فى مكانة مساوية لمكانة أوغسطس الذى لم يكن أمامه سوى عام واحد يحياه .

وكان التجديد والإصلاح الذى تم خلال حكم أوغسطس الطويل الأمد قد غير من كل جهاز فى الدولة بصورة أوضح من ظهوره فى مجلس الشيوخ. فقد استمر فى القيام بمهامه وأغدق عليه كل تبجيل واحترام كما كان يستشار فى أمور الدولة. وقد جدد المجلس ماقد منحه من سلطات للرئيس ونوابه لفترة طولها خمس أو عشر سنوات . وفى آخر الأمر أيد وضع « تيبريوس » بوصفه خليفة لأوغسطس . وكان هذا المجلس يسيطر على إيطاليا وعلى بعض الولايات ذات الأهمية البالغة بل وحتى اكتسب سلطات قضائية وذلك عند مقارنته بمجلس الشيوخ الذى كان قائماً أثناء عصر الجمهورية ، ومع ذلك لم يكن له قدر من النفوذ ، ما يجعله شريكا على قدم المساواة مع « الرئيس » فى إدارة شئون الإمبراطورية ، وإذا كان هذا هو ما يعنيه الاصطلاح « الحكم المزدوج » Dyarchy الذى استخدمه كثير من العلماء المحدثين عند وصفهم لرئاسة أوغسطس ، فإنه اصطلاح يؤدى بنا إلى فهم خاطىء ، فأوغسطس فى سيطرته على الجيش والخزانة وإعلان الحرب وإقامة السلام كان فى حوذته سلطات لا يعلى عليها ، يزاولها دون الرجوع إلى مجلس الشيوخ ، واستطاع عن طريقها أن يحد من أوجه نشاط أعضاء المجلس بوسائل مختلفة وكان الانتخاب لدخول مجلس الشيوخ لا يزال قاصراً على صاحبى الوظائف العامة الذين يختارهم الشعب ، ويبدو أن قائمة المرشحين الذين يفضلهم «الرئيس» كانت تتوافق بالصدفة مع اختيار الشعب ، كما كان الرئيس يتحكم فى عزل الأعضاء من المجلس ، إذ كان من الممكن إبعاد أى فرد

معارض عند إجراء التعديلات الدورية . والأدهى من ذلك أنه كان يتحكم فى جدول الأعمال الذى يعرض على أعضاء المجلس ، وقد جاء هذا مع إعداد مذكرة الأعمال عن طريق لجنة استشارية ، وهذه اللجنة مكونة من الرئيس والقناصلة واثنين من موظفى الوظائف العامة وخمسة عشر عضوا من أعضاء المجلس يتم اختيارهم بالقرعة لفترات طول كل منها ستة شهور . وفى أواخر حكم أوغسطس أصبح يبدو أن قرارات هذه اللجنة قد يكون لها نفس سطوة قرارات مجلس الشيوخ Senatus Consulta وهذا ماجعل هذه اللجنة لجنة تنفيذية وبالطبع كان لأوغسطس الحق فى أن يتكلم ويقترح تشريعات بوصفه عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ . ومن الواضح أنه لا يمكن أن يظهر حزب معارض حقيقى فى المجلس ، مع أن هذه اللجنة لم تصبح أبداً عبداً رهن إشارة الرئيس مثل «الريخستاج» فى ألمانيا النازية . وكانت العضوية فى المجلس لا تزال امتيازا يسعى إليه ، وذلك يرجع إلى مكانتها التقليدية إلى حدما ولكن الأكثر من ذلك لأنها تمهد الطريق أمام آفاق واسعة للفرد نحو تحقيق مستقبل باهر فى مجال الخدمة فى الدولة .

ومن الشائع أن الإمبراطوريات العظمى لا يمكن أن تخلق دون وجود خدمات مدنية كافية . وقد حاولت الجمهورية الرومانية أن تحكم العالم الرومانى بقوانين « المدينة — الدولة » وكان ذلك أحد الأسباب الجوهرية فى فشلها . أما فى ظل حكم أوغسطس فقد وضعت الخطوطُ العريضة لكل وظيفة مدنية فى الإمبراطورية بأيدى حازمة ، ووصية أوغسطس لخلفائه هى حثهم على استخدام الرجال ذوى المقدرة الذهنية والعملية فى خدمة الدولة ، فأخذ « كلوديوس » على عاتقه مهمة تنظيم الخدمة المدنية تنظيما منسقا وكان الموظفون الرسميون فى الولايات الخاضعة للإمبراطورية يمثلون « الرئيس » وكان هو يقوم بانتقائهم وكان الحكام Legati عادة من أعضاء مجلس الشيوخ ، مع أن مصر كانت دائماً فى وضع شاذ إذ كان يحكمها

« وال » Praefectus من طبقة الفرسان . وكان المسئولون الماليون Procuratores ذوى المراكز العالية من طبقة الفرسان ، أما هؤلاء ذوى المراكز الأدنى فقد كانوا من طبقة الفرسان أو من المعتقين . ولما كانت شركات العامة Publicani الضخمة فقدت امتيازات عقود الضرائب المربحة فى ذلك الوقت ، فقد كان تسخير ذكاء أفراد هذه الطبقة وخبرتهم فى الخدمات العامة ، فكرة صائبة . وكان يسمح للحكام بتولى مناصبهم لفترات طويلة حتى يستطيعون أن يلمسوا مشاكل ولاياتهم بصورة لم تكن ممكنة فيما قبل وكانت المرتبات المرتفعة تدفع لكل الموظفين الرسميين على اختلاف مراتبهم . أما حصيلة الضرائب فقد كانت تودع بالخزانة الملكية ، كما كان هناك جهاز لفحص الشكاوى الواردة من موظفى الولايات والرد عليها . وكانت توضع تقارير مفصلة وبصورة منتظمة عن التعداد فى الولايات لكى تكون بمثابة مقياس تفرض على أساسه الضرائب . وبالطبع انعكست صورة هذه المستويات العالية من الإدارة على الولايات التى كانت تحت سيطرة مجلس الشيوخ . وعلى أية حال فقد كان من حق « الرئيس » فى حالة الطوارئ أن يتدخل فى أمور هذه الولايات . « ومرسوم مدينة برقة Edict Of Cyrene يصوره وهو يتدخل فى صمت ، ولكن بصورة حازمة ، لإنهاء الخصومة التى دامت طويلا بين المواطنين اليونانيين والرومانيين فى هذه الولاية التى كانت خاضعة لمجلس الشيوخ . ورغم أننا من الجائز أن نجد نظام حكم سيء فى الولايات أثناء قيام الإمبراطورية ، وهذا ماقد حدث بالفعل ، إلا أن إصلاحات أوغسطس قد جعلت المستوى العام للإدارة فى مكانة أعلى بكثير من المستوى أثناء قيام الجمهورية .

وبجانب هذه الإصلاحات التى أنجزت فى الولايات ، أنشئ عدد كبير من المصالح الحكومية فى روما وإيطاليا ، فقـــد أنشئت إدارة القمح Cura Annonae التى كانت تشرف على جمع محصول الحبوب وخزنه ونقله

عبر البحار ثم توزيع هذا المحصول المستورد من الولايات على عامة الشعب في روما ، وقد أصبحت هذه الإدارة مصلحة أميرية ووضعت تحت إشراف الوالى Praefectus الذى كان يتولى منصباً من أخطر المناصب التى يتولاها الفرسان مسئولية ، وقسمت مدينة روما إلى أربعة عشر حيا كما زودت بمركز لإطفاء الحرائق وقوة بوليسية بعد مضى وقت طويل . وفى أواخر حكم أوغسطس ، أصبحت هـــذه الهيئات تحت إمرة والى المدينة "Praefectus Urbi" الذى كان دائماً ضابطا عظيما ، وقد كان مركزه هذا ذا نفوذ قوى فى أوائل عصر الإمبراطورية . أما المهام الخطيرة فقد كانت تسند إلى لجان مكونة من أعضاء مجلس الشيوخ ، إذ كانت إحدى هذه اللجان مسئولة عن مرافق المياه ، وأخرى مهمتها العناية بالمعابد المقامة فى المدينة وصيانتها . وهذه اللجنة الأخيرة كانت ثمرة لبرنامج ضخم وضع لتطوير التخطيط المدنى وللصيانة ، وهذا ما خلق من روما عاصمة تليق بإمبراطورية . وسوف نعود لنتكلم عن هذا التطوير فيما بعد . وهناك لجنة ثالثة هى لجنة الطرق المسئولة عن ترميم طرق العربات الطويلة الممتدة داخل أرض إيطاليا . كما كان هناك هيئة نهر «التيبر» التى ربما تكونت فى عصر أوغسطس ولكنها وجدت بالتأكيد فى عصر تيبريوس ، وكانت هذه الهيئة مسئولة عن أرصفة موانى نهر التيبر ومجراه . ونحن نجد قرائن فى شتى الأوجه تدل على الفحص الدقيق والتخطيط السليم والتحكم التام ، وقد ترك أوغسطس لخلفائه عند مماته تنظيما عاماً لموارد الإمبراطورية الرومانية جرداء .
"Breviarium Totius Imperii"

والمقارنة بين النظم التى كفلتها الرئاسة والوسائل الارتجالية التى كانت تتبعها الجمهورية فى أى ميدان ليست أكثر وضوحا من وضوحها فى معاملة أوغسطس للقوات المسلحة ، وعندما نتوخى الدقة نجد أن الجمهورية لم يكن أبدا لديها جيش بصورة منتظمة ، بل كانت هناك حلقات متتالية من قوات الحملات تعبيء لأجل غرض معين Ad Hoc . ومن الحقيق أن الحروب

الأهلية التى لم تكن تنقطع كانت تعنى أن هناك مخاطرة ما ناجمة عن البطالة لمن كان يعشق الحياة العسكرية . ولكن نظرا لعدم وجود شروط منتظمة للخدمة او لمنح المعاش بعد انتهاء الخدمة فقد كانت الجنود تعتمد كلية على قوادهم لمكافأتهم مكافأة طيبة عند تسريحهم . وعلاوة على ذلك كان على روما وإيطاليا أن تستنزف النصيب الأكبر من طاقتها فى مجال الخدمة العسكرية طالما أن الجمهورية لم تجرؤ أبدا على إدراج سكان الولايات فى الجيش على نطاق واسع .

وقد غيرت إصلاحات أوغسطس من كل هذه الأوضاع فأولا ، كان على الجيش نفسه أن يلعب دوراً مختلفاً تماما ، ولما كانت العمليات الحربية داخل أراضى الإمبراطورية قد أوشكت على الانتهاء أصبحت مهمة الجيش هى المحافظة على الأمن فى الولايات وتحصين الحدود . واحتفظت الفرق بمكانتها كنواة للجيش ولكن تم تحسين نظام الخدمة والأجور فيها وانتظم. وكان جندى الفرقة يخدم تحت السلاح لمدة ستة عشر عاما ، ثم أصبحت فيما بعد عشرين عاما ، وعند تسريحه كان يقبض معاشا من صندوق معاشات مخصص لذلك "Aerarium Militare" يتكون رأس ماله من الضرائب المفروضة على الموتى ، أما عملية إمداد الجيش بالجند فقد كان يتم معظمها تقريباً من إيطاليا وناربونسيس وباتيكا ، مع أن الفرق الشرقية كان يتم إمدادها محليا وخاصة فى ولاية جالاتيا . وهكذا أصبح الجيش قوة محترفة، مدة الخدمة فيه طويلة ، وأنمت الفرق هى ذاتها الروح التى تبعث الحياة فى اللواءات الضخمة فى نظام الجيوش الحديثة . وحتى فى أيامنا هذه ، يدرك الإنسان ما كانت عليه شخصية الفرق فى هذه الأجزاء من الإمبراطورية مثل المناطق العسكرية فى بريطانيا كالفرقة «فاليريا فكتريكس» Valeria Victrix العشرين فى منطقة «تشستر» Chester والفرقة الأوغسطية Augusta الثانية فى كايرليون Caerleon والفرقة «فكتريكس» Victrix السادسة فى يورك

وهلم جرا . وكانت الفرق بجانب قيمتها الجوهرية فى أرض المعركة بمثابة قوة احتياطية تضم ضباطا جديرين بكل ثقة اعتادوا قمع الثورات وفى إمكانهم أن يتولوا مناصب إدارية بعد اعتزالهم الخدمة . وقد حدث بالفعل مثل هذا الإجراء بالنسبة لكبار الضباط بالذات Primipilares كما توضح الشواهد المستمدة من النقوش أن عددا كبيرا من المناصب على اختلاف درجاتها كان فى متناول أيديهم . وكانت كل فرقـــة توضع تحت إمرة ضابط "Legatus" من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ معين من قبل الإمبراطور ، والجنود يقسمون يمين الولاء للإمبراطور بوصفه القائد الأعلى .

وقام أوغسطس بتعبئة قوة جديدة من أجل روما وإيطاليا ــ ألا هى الحرس البريتورى Praetorian Guard الذى كان يتألف من تسع كتائب يتكون كل منها من ١٠٠٠ جندى ويتمتعون بميزات رائعة فيما يختص بالأجر ونظام الخدمة . ولم يكن هناك مفر من أن يكون لهؤلاء الجنود ولقادتهم دور حاسم فى كثير من الأزمات التى حدثت فى أوائل عهد الإمبراطورية . وقد أنشئت معسكراتهم الشاسعة Castra Praetoria فى عهد تيبريوس ولا يزال موقع هذا المعسكر يستخدمه الجيش الإيطالى للقيام بحراسة روما .

وبالإضافة إلى هذا الجيش الذى يتألف من الفرق والذى أنشىء على أساس نظم جديدة أنشأ أوغسطس جيشاً آخر مساويا للأول فى تعداده ولكنه يتكون من رجال الولايات، ومن المحتمل أن المثل الذى ضربه قيصر قد ترك أثره فى أوغسطس ، فقد استغل قيصر الجنود الغاليين استغلالا فعالا . ومنذ عصر أوغسطس أصبحت هذه القوات المساعدة جزءا هاما فى القوات الرومانية، وكانت هذه القوات تتألف من رجال الولايات الخاضعة للإمبراطورية وتوضع تحت إمرة زعمائهم أنفسهم أو الضباط العظام من ضباط الفرق Primipilares . وقد تم تنظيمها فى وحدات كل منها تضم

٥٠٠ جندى من المشاة (وهى الكتائب Cohortes) و ٥٠٠ أو ١٠٠٠ من الفرسان (وهى الآلاى Alae) . ويبدو أن الهدف من تكوين هذه الفرق كان فى بادئ الأمر الخدمة المحلية — فالغاليون يخدمون فى منطقة الراين وأهل بانونيا فى منطقة الدانوب — وكانت وحداتهم تحمل فى الغالب أسماء المناطق التى تكونت فيها فى بادئ الأمر ، وبعد ذلك أصبح تغيير الأسماء أمرا شائعاً وأصبحت عاملا من أقوى العوامل التى تعمل على نشر الحضارة الرومانية . لأنهم جعلوا الولايات تشارك فى الدفاع عن الإمبراطورية كما منحت الجنسية الرومانية لجندى القوات المساعدة هو وزوجته وأطفاله عند تسريحه على الرغم أنه من المحتمل أن هذا لم يحدث إلا بعد عصر أوغسطس وعلماء الآثار يلمون إلماما تاما بالدبلومات "Diplomata" وهى اللوائح البرونزية التى كانت تسجل عليها مثل هذه المنح . وهناك أكثر من ١٥٠ دبلوما معروفة لنا . وهذا ما جعل فى الإمكان إعادة تكوين قائمة لجيش الإمبراطورية فى أوقات معينة .

كانت قوة الجيش الرومانى بعد ما تم من إصلاحات جديدة على يد أوغسطس تصل إلى ٣٠٠,٠٠٠ رجل ، وهذه تعتبر قوة ضئيلة لمثل هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، وهذا دليل قاطع على أن سياسة روما لم تكن سياسة عدوانية . وفى أثناء حكم أوغسطس كان الجنود فى حركة تنقلات مستمرة . أما فى أثناء حكم تيبريوس فقد كانت المراكز الطبيعية للفرق كالآتى : ثمانى فرق على نهر الراين وسبع على الدانوب ، وثلاث فى سوريا وواحدة فى مصر واثنان فى أفريقيا وأربع فرق فى أسبانيا .

وقد أعاد أوغسطس تنظيم البحرية أيضاً وذلك بإنشائه قيادة بحرية فى بحر الادرياتيك تنظم عملياتها من «رافنا» وقيادة أخرى فى بحر «تورهنا» Tyrrhena تنظم عملياتها من «مينسوم» Minesum . ولكن لم يكن هناك أى قوة بحرية منافسة لها فى البحر المتوسط ، وكان الهدف الحقيقى من هذه

القوات هو أن تكون بمثابة قوة دفاعية ضد أعمال القرصنة . وكان هناك أيضاً أساطيل صغيرة فى نهر الراين والدانوب واليوفراتيس وفيما بعد فى القناة الإنجليزية .

وكان أوغسطس بالنسبة للرجل المدنى رئيسا للدولة وبالنسبة للجندى قائدا أعلى . ومع ذلك كانت هناك حاجة ماسة لشىء أبعد من ذلك يكون بمثابة البؤرة التى يتجمع فيها الولاء ، هذا الولاء الذى تحتاج الإمبراطوريات المترامية الأطراف والمتعددة الأجناس إلى الاستعانة به . وقد توفر هذا الشىء فى عبادة الحاكم ، وهى وسيلة كانت قد لجأت إليها العروش الهلينستية منذ زمن الإسكندر الأكبر فقد كان لملوك أسرة «سليوكوس» Seleucus معابدهم الخاصة بهم وكهنتهم ، كما ورث البطالمة منزلتهم المقدسة عند الفراعنة. وكان الرجال البارزون من الرومان قد أغدق عليهم ألقابا مقدسة فى بلاد اليونان وفى الشرق منذ عهد « فلامينيوس » ، كما أن عبادة الإلهة « روما » Dea Roma كانت قد انتشرت انتشارا واسعاً . وكل ما كان ينقصه الشرق هو ربط عبادة أوغسطس بعبادة هذه الإلهة وتنظيم طقوسها . ومن ثم أقيمت معابد لعبادة الإلهة روما وأوغسطس فى « برجاموم » خصصت لولاية آسيا وأخرى فى نيكوميديا Nicomedia خصصت لولاية بيثونيا ، وفى أنكورا Ancyra خصصت لولاية جالاتيا ، واختير الكهنة من الطبقة الأرستقراطية المحلية كما ارتبطت هذه العبادة باجتماعات يعقدها المجلس الإقليمى ، وهذا النموذج الآسيوى قد حذى حذوه فى ما اكتسبته روما من ولايات جديدة فى الغرب — فى بلاد الغال وأسبانيا وألمانيا — مع أن ماقد أقيم حتى ذلك الوقت كان مذابح وليست معابد . وبجانب هذه العبادات الرسمية التى كانت على نطاق إقليمى فتح المجال أمام المدن والملوك العملاء والأفراد ليعبروا عن ولائهم ، وذلك بإقامة عبادات خاصة بهم . وتوضح النقوش مدى انتشار مزاولة هذه العبادات الخاصة ، فعلى سبيل المثال ،

بنى هيرود ملك « جوديا » مدينة « كايساريا » Caesarea الجديدة وأقام فيها معبدا لروما ولأوغسطس .

أما فى إيطاليا وروما فقد كان الأمر يختلف إلى حد ما ، فالرأى العام لم يكن ليحتمل التعبد لرجل من البشر ، ولكن يوليوس قيصر قد أله بعد مماته ، وحمل أوغسطس لقب « ابن المؤله » Divi Filius وربما كان يتوقع أن يغدق عليه بدوره ألقابا مقدسة ، وفى نفس الوقت لم يكن هناك اعتراض على عبادة « ملاك أوغسطس الحارس » Genius Augusti وهو القوة التى تبعث الحياة فى عائلة أوغسطس . وبعد عام ٧ ق.م . ظهرت منظمات فى كل ضواحى مدينة روما (Vici) كرست نفسها لمزاولة هذه العبادة التى امتزجت بعبادة معبودات المنزل العامة Lares Publici كما أن عبادة أخرى مشابهة وهى عبادة « معبودات المنزل الأوغسطية » Lares Augustales أصبحت منتشرة انتشاراً واسعاً فى مدن إيطاليا . وبالإضافة إلى كل هذه الأشياء ، كانت تقام احتفالات عامة للمناسبات السنوية التى مرت فى حياة الإمبراطور وعائلته . وهناك تقويم عثر عليه فى بلدة « كوماى » Cumae (يرجع إلى القرن الرابع الميلادى تقريباً) يشتمل على ستة عشرة مناسبة وزعت على مدار السنة ، ومالا يقل عن مناسبة واحدة لكل شهر عدا شهرى فبراير ويونيو — وأهم هذه الاحتفالات كان احتفال يستمر لمدة يومين بمناسبة ميلاد أوغسطس (يومى ٢٣ و ٢٤ سبتمبر) . أما المناسبات السنوية الخاصة بيوليوس قيصر وتيبريوس ، وفيما بعد الخاصة بجرمانيكوس ، قد وجه إليها الاهتمام أيضاً .

إن القدر الذى حطم القدر الكبير من آمال أوغسطس لم يبخل عليه بالجزاء الذى كان يصلى من أجله : وهو أن يصطحب معه إلى قبره الأمل فى أن تدوم الأسس التى وضعها لتقوم عليها حكومة رومامدة طويلة . وقد قدر لهذه الأسس فى الواقع أن تدوم لمدة مائتى عام تقريباً ، ولم يقض

عليها أيدى الكثيرين من الأباطرة الأشرار ، ولم تحل محلها السيادة المطلقة التى استمدت من الشرق والتى ترجع إلى الفترة الأخيرة من الإمبراطورية إلا بعدما وقعت الكوارث الاقتصادية والحربية فى القرن الثالث . وعندما مات أوغسطس فى مدينة « نولا » Nola فى إقليم كمبانيا عام ١٤ م وعمره ٧٦ عاما ، كان نظام الرئاسة قد أصبح جزءا من نظم التشريعات ، كما أن الحروب الأهلية كانت قد تلاشت تماما من ذاكرة الناس : والقلة القليلة من رجال روما فى ذلك الوقت من عاصر عصر الجمهورية . وكان قد مر على مقتل يوليوس قيصر ما يقرب من ستين عاما ، والقرارات التى كانت قد هزت كيان المحررين ، قد لا يسمع لها فى ذلك الوقت إلا صدى خافت ، وفى كل بقعة فى إيطاليا والولايات كان مايحمله الناس من ذكرى للجمهورية مشحونة بالكراهية والاستياء ، بينما كانوا يرحبون بالرئاسة ونفوسهم راضية بل وحتى بحماسة . وكل عمل مجيد من أعمال الإنسانية لا يتحقق إلا بدفع ثمن له ، والثمن فى هذه الحالة كان فقدان الحرية السياسية . ولم يكن وقت دفع هذا الدين المستحق قد حان بعد ، ولكن بعض المظاهر التى صاحبت حكم أوغسطس مثل نصوص القوانين الخاصة بعقاب من يسب فى ذات الإمبراطور Laesa Maiestas ، قد أظهرت إلى أى مدى من السوء قد يؤدى إليه هذا الموقف ، ولكن كان الرجال فى نفس الوقت قد رأوا فى أوغسطس المنقذ الذى يكفل لهم السلام والحكومة الصالحة والرخاء . وربما قد بدا هذا الأمر عملا مجيدا حقا إذا ما نظرنا إلى أحداث التاريخ منذ موقعة « أكتيوم » .

لقد كان أمام أوغسطس ما يكفى من الوقت ليعد العدة لنقل السلطات إلى يد تيبريوس نقلا سهلا ، وليؤلف نصبه التذكارى من أجل الأجيال القادمة . وهذا العمل الأخير هو « الأعمال المجيدة » Res Gestae أو « أثر أنقرة التذكارى Monumentum Ancyranum » والذى اكتسب هذا

الاسم من النسخة ذات اللغتين التى عثر عليها فى أنقرة بتركيا عام ١٥٥٥ م . ويذكر سويتونيوس أن هذا النصب كان الغرض منه هو أن يقام خارج مقبرة أوغسطس فى روما، بينما وزعت نسخ مطابقة له تماماً على الولايات وهذه الوثيقة ، بعد أن تسرد الألقاب التى منحت لأغسطس ، تدخل فى وصف تفصيلى للأموال التى أنفقها من دخله الخاص على المشروعات العامة ثم تلخص غزواته وتنتهى بشرح وتبرير لمركزه الذى استحوذ عليه فى الدولة الرومانية وهذه الوثيقة ، التى تعتبر نقش تذكارى ، نقش يسرد انتصاره ويدافع عنه أصبحت فى الحال تلقى على سيرة حياته ضوءا أراد هو أن تقرأها الناس عليه ، ولا يمكن أبداً إهمال هذا النقش كما أنه لا يمكن أن نسلم به دون وجود ما يشهد على صحته .

ومن الصعب أن نضع يدنا على خصائص أوغسطس الشخصية فكثير من فقرات «سويتونيوس» لا تخرج لنا صورة متماسكة ما . وربما كان الأستاذ « سيم » محقا عندما أخذ ينقب عن عائلة أوغسطس وأصله ليكون مفتاحا لشخصيته ، وكانت عائلته تنتمى إلى بلدة صغيرة من الريف اللاتينى . وقد يكون لهذا دخل كبير فى تحفظه الدينى ونظرته المتعصبة كما كان له فى الواقع دخل فى أمزجته الساذجة وكراهيته للتكلف . ومما يجدر ملاحظته أن مشروعاته البنائية الهائلة التى نفذها فى روما لم يدخل ضمنها إقامة قصر « الرئيس » ، وقد كان خلفاؤه — منذ تيبريوس حتى دوميتيان — هم الذين حولوا تل البلاتين إلى بلاط ملكى من نوع ما ، لقد كان أوغسطس قانعاً بأن يعيش فى بيت متواضع ، وهذا البيت قد احتفظ به فيما بعد باعتباره بناء تذكاريا قوميا ، كما أنه لا يزال من الممكن حتى يومنا هذا رؤية ما تبقى منه حاملا اسم « منزل ليفيا » وهناك أحداث معينة عن سيرة حياته لا بد وأن تجذب انتباه أى رجل قوى الملاحظة ، فأولا ، أمامنا رجل يدعو بطريقة فعلية للإصلاح مستخدما القوة ، فقد كان الطموح الشخصى والرغبة فى الانتقام ليوليوس قيصر تسيطر على أوكتافيان الشاب . وفى وسط تطاحن

عنيف لا رحمة فيه غايته السلطة ، انتزع هو سلطاته ووصل إلى القمة . ولكن ما إن وصل إليها حتى تحلى بصفة إنكار الذات وتكريس نفسه ليحمل على عاتقه واجبات إمبراطور فيلسوف . ومثله مثل ماركوس أوبليوس فقد نظر إلى الرئاسة على أنها بلغت مرحلة لا يستطيع أن يتحرر هو منها إلا بالموت . وقد أحس فيرجيل بهذه الميزة التي يتمتع بها أوغسطس وجعل من اينياس رجلا تزداد عظمته كلما زادت مسئولياته ، ينتهي به المطاف في آخر الأمر إلى قبول حمل العبء الثقيل الذى ألقاه القدر على كاهله . ومع ذلك يبدو أن أوغسطس قد تحاشى الجمود وانعدام الإنسانية التي يقع فيها كل رجل يحمل رسالة، فقد كان يحب مصاحبة الأطفال وكان فى إمكانه أن يخلد إلى الراحة وهو مع أصدقائه وأن يخلق جوا من المرح حتى أثناء إقامة الاحتفالات الدينية العامة — مثلما حدث عندما قال لرجل يقدم عريضة متوتر الأعصاب « إنك تبدو كمن يحاول أن يربت على فيل برفق » وعندما كان على فراش الموت كان فى وسعه ان يسأل أصدقاءه عما إذا كان قد أتقن دوره فى كوميديا الحياة، إذا كان كذلك ، أثنوا علىّ ودعونى أمضى فى طريقى »

وقد كتب « فتروفيوس » Vitruvius عند إهداء كتابه «عن فن المعمار» De Architectura لأوغسطس ملحوظة بأنه كان يهتم بحياة الرجال العامة، وقد كان مسافرو وبحارة سفينة قادمة من الإسكندرية يدفعون نفس الضريبة ولكن بطرق مختلفة إلى حد ما ، وهو الطريق الذى مر به يخته أثناء قيامه برحلته الأخيرة ، فارتدى ركاب السفينة الملابس البيضاء ووضعوا غصون الغار على رءوسهم وتعالت صيحات الشكر له لأنهم بفضله يتمتعون بالحياة وبالرخاء وبحرية الملاحة فى البحار .

ومع ذلك على الرغم من تفانيه فى العناية بشئون العالم الذى يحكمه، لم يعلم الإمبراطور العظيم شيئاً عن أهم حادثة وقعت أثناء حكمه . ففى حوالى ما يقدر بالعام الثامن أو السادس قبل الميلاد — على الرغم من أنه يجب أن يكون العام

الأول الميلادى حسب تقويمنا ـ قام كويرينيوس Quirinius حاكم سوريا بعملية إحصاء فى فلسطين ، وبين الجماهير الغفيرة التى كانت فى طريق عودتها إلى قراها الأصلية لتسجل نفسها كان هناك نجار وزوجته، وقد كانا فى طريقهما إلى بلدة الناصرية ولكن الزوجة الشابة كانت حاملا ، وقد جاءها المخاض عندما كانا فى بيت لحم ، ولم تكن هناك غرفة خالية فى الحانة ، وهكذا ولد طفل فى حظيرة ، قدر لحياته أن تغير من الإمبراطورية الرومانية ومن العالم .

ولم تكن عقلية العصور الوسطى التى كانت تنظر إلى قيام المسيحية وتكوين الإمبراطورية الرومانية كجزء من نفس الرسالة المقدسة، لم تكن هذه العقلية لتصدق أن أوغسطس لم يكن يعلم شيئاً عن « يسوع » . وهكذا جاءت إحدى الأساطير المسيحية ذات الأثر البعيد — وهى التى تحكى كيف أن أوغسطس قد كشفت له رؤيا فتاة طاهرة تحمل طفلا وتقف على مذبح « ثم جاء صوت يقول: هذا هو مذبح ابن الله ... وفى الحال ركع الإمبراطور وتعبد للمسيح الذى سيولد» ويقال إن هذه الرؤى قد حدثت على تل الكابيتول حيث توجد الآن كنيسة « سانتاماريا » Santa Maria فى أراكويلى "Aracoeli" .

الفصل التاسع

الأدب والفن فى عصر أوغسطس

إن القليل من فترات التاريخ ما يمكنها أن تقف على قدم المساواة مع الأعمال الخلاقة التى أنجبها عصر أوغسطس فى ميدان الأدب والفنون — وهذه الفترات هى عصر بيركليس فى أثينا ، والبزابيث فى انجلترا ولويس الرابع عشر فى فرنسا — وقد لايكون من السهل أن نضيف شيئاً إلى هذه القائمة ، فعصر النهضة فى إيطاليا كان ظاهرة أكثر تعقيدا وامتد خلال فترة أطول من الزمن . وقد أصبح المصطلح « الأوغسطى » Augustan ينسب إلى فترات زمنية تمر بحضارة أمة تستحق بالفعل أن يطلق عليها لقب « كلاسيكية » . وهى فترات تكون فيها الآداب فى مرحلة تجاوب مع أهداف الحكومة ومثلها العليا . والقاعدة القائلة بأن الكتاب العظام يجب عليهم أن يسهموا فى بناء الدولة قاعدة تناقض نفسها فى عصرنا الحديث . ذلك لأن هؤلاء الكتاب العظام أصبحوا على الدوام منذ عصر الرومانتيكيين من الثائرين على الأوضاع . ولكن البرنامج الذى وضعه أوغسطس للإصلاح كان فى إمكانه أن يمهد السبيل أمام مجالات تشتمل على المثالية والحماسة : مثل السلام بعد الحرب ، مصير روما وإيطاليا الذى لامفر منه، عظمة الماضى ، والإنماء من أخلاقيات العصر الحديث عن طريق الرجوع إلى فضائل هذا الماضى ، وقد ظهر تعبير لكل هذه الأفكار المثالية فى كل من « الانيادة » Aeneid وأناشيد هوراس "Odes" وتاريخ ليفى Livy وأعمال فن النحت فى مذبح السلام Ara Pacis . ولكن أوغسطس قد كفل الظروف التى من الممكن أن يزدهر فيها الكتاب . وكان هو نفسه ناقدا ذواقا للأدب ، كما أنه لم يكن

كاتبا فاشلا . فضياع مؤلفاته الثلاث عشر عن سيرة حياته يعتبر خسارة فادحة . فقد تعلم كيف يجذب العباقرة من الرجال إليه ويشجعهم على البدء ثم يتركهم وشأنهم .

كان هذا العصر ، بغض النظر عن الإمبراطور نفسه ، عصر الحماة العظام ، وهى ظاهرة اعتبرها « مارتيال Martial » ، عندما أصدر حكمه السطحى ، ضمانا لوجود العباقرة من الكتاب . فهناك مؤرخ وناقد أدبى دقيق هو « أسينيوس باليو » Asinius Pallio ملأ الفراغ الذى يفصل بين كاتللوس وفيرجيل، فقد شجع هوراس وفيرجيل فى شبابهما و نصح فيرجيل بالكتابة فى الشعر الرعوى ، ويقال إنه أول من بدأ عادة نشر الأعمال الأدبية الجديدة عن طريق الإلقاء العام . وهناك «ميسالا» Messala الذى حارب فى جانب الحزب الجمهورى وكتب عن التاريخ وعن أساليب الكتابة وجمع حوله جمع من شعراء الشعر الغنائى . وفى مقدمة هؤلاء الحماة يقف «مايكناس» Maecenas ،صديق «فيرجيل» و «هوراس» و «بروبرتيوس» Propertius الذى أصبح اسمه مرادفا لغزارة الإنتاج الأدبى الرائعة . فقد خدم الأدب فى عصره مثلما خدم « لورد بورلنجتون » Lord Burlington فن القرن التاسع عشر فى انجلترا . وكان الأدب هو التعبير الفنى الذى تميزت به روما فى عصر أوغسطس . فقد قال هوراس « المتعلمون وغير المتعلمين سواء ، فنحن جميعاً نكتب القصائد فى شتى الموضوعات» وكلمة «القصائد » هذه هى مفتاح أدب هذا العصر . فقد كان عصراً للشعر لا للنثر ، وليفى لا يعتبر فى الواقع شاذا عن هذه القاعدة لأن عمله الأدبى عبارة عن ملحمة نثرية ، « بأن التاريخ قريب الصلة من الشعر » كان هذا هو الحكم المذهل الذى أصدره ناقد من أقدر النقاد الرومان. وهذا الجمع من المهتمين بالأدب الذى لم يكن موجودا فى روما فقط بل امتد وجوده إلى المدن الرئيسية فى الولايات هو الذى كفل وجود جمهور لكتاب عصر أوغسطس ، جمهور ليس من السهل ترويضه بأى حال من الأحوال . والعصر الذهبى للأدب الرومانى

لا يضاهيه أى عصر تلاه : لكن بالنسبة للفنون اختلف الأمر إلى حد ما فى مجال التصميم الهندسى ، فعلى الرغم من إبداع فن المعمار فى روما تحت حكم أوغسطس ، فقد كان هناك مستويات أعلى بكثير فى عهد تراجان وهادريان .

وفيرجيل هو الشخصية الرئيسية فى الأدب الأوغسطى — كما أنه يكمن فى قلب تراث الغرب الحضارى . ولد فيرجيل فى عام ٧٠ ق . م . وهو الابن الوحيد لفلاح يعيش بالقرب من بلدة « مانتوا » Mantua فى منطقة الغال القريبة . وكانت هذه الرقعة لا تزال ولاية ، وهى منطقة حيوية تقع على الحدود ذات زراعة خصبة ومدن نامية . ذهب فيرجيل الشاب فى بادئ الأمر إلى مدرسة فى بلدة « كريمونا » Cremona ثم بعد ذلك إلى مدرسة فى « ميلان » Milan ؛ وفيما بعد أرسل إلى روما ليتلقى منهجاً فى علم البلاغة التى يبدو أنه كان يكرهها من أعماق قلبه . وليس من الموثوق به ما إذا كان قد خدم فى الحرب الأهلية أم لا . ولكن وجود مقطوعة مؤثرة بين مؤلفاته عن القتلى الرومان الذين لاقوا حتفهم فى ميدان معركة « فارسالوس » ومعرفته لشواطئ البحر الادرياتيكى دعت الأستاذ « تنى فرانك » Tenny Frank افتراض أن فيرجيل قد خدم مع أوكتافيا وأنتونى فى عام ٤٩ و ٤٨ ق . م . كما أن وصفه لمخاوف الحرب يكشف دون شك عن خبرة اكتسبت عملياً . وفى عام ٤٨ ق . م أصبح تلميذاً للمدرسة الأبيقورية فى مدينة نابولى ، آملا بذلك أن يجد هناك مأوى يهرع إليه ، وسواء كان قد عثر على هذا المأوى فى حديقة بيقوروس أم لا ، فقد كانت نابولى وكمبانيا هى مأواه طيلة حياته . وما أن جاء ذلك الوقت حتى كان فيرجيل على صلة « بباليو » ، و ميسالا « ومايكناس » الذين قدر لهم أن يصبحوا حماة الأدب فى العصر الجديد .

وكان أول عمل نشر له ، باستثناء بعض القصائد التى نظمها فى شبابه والتى يشك فى نسبها إليه ، هو « الرعويات » Eclogues التى رأت الضوء

فى عام ٣٧ ق . م . أو قبله . وهذه القصائد ذات الطابع الرعوى ، التى تصف الريف حيث يعيش رعاة لهم تقاليد رعوية ترجع إلى صقلية ، يغنون ويتبادلون الحب فى منطقة هى جزء من كمبانيا ، وجزء من شمال إيطاليا وأحياناً وراء هذه المنطقة الجغرافية ويقبلها فى الحال جيل قد أجهدته الحروب بترحاب بالغ :

فهذه هى أرض الرضا الضائع

أراها تتلألأ فى وضـــوح

وهذه هى الطرق العالية السعيدة

التى سلكتها، ولا أستطيع العودة

ولكن آمال ومخاوف الحاضر تقطع أوصال القصائد حتى تلك التى كتبت عن « أركاديا » فهناك قصيدتان (الأولى والتاسعة) تصوران حالة فلاحى بلدة « مانتوا » وقد طردوا من أراضيهم ليستوطن فيها جنود « أوكتافيان » القدامى ، ويقال إن فيرجيل قد فقد أرضه عند إجراء هذا التعديل ولكنه استعادها من « أوكتافيان » نفسه . والأنشودة الرابعة هى الأنشودة التبشيرية الشهيرة — وهى عبارة عن تنبؤ بقدوم عصر ذهبى سيعم على الأرض فى هذا الوقت طالما أن الحرب قد انتهت، وسيكون ميلاد طفل هو إعلان بداية هذا العصر . ولم تكن هذه النبوءة بالنسبة لعقلية العصور الوسطى سوى تنبؤ بميلاد المسيح . ومن هنا جاء الاعتقاد بأن « فيرجيل » هو نبى الوثنيين ، كما جاءت رواية العصور الوسطى التقليدية عن « فيرجيل الساحر » . ومنذ عام ٣٧ ق . م . توطدت صلة فيرجيل بما يكناس وأوكتافيان . وأصبح يمتلك منزلا فى روما . ولكنه كان يقضى معظم وقته فى ضيعته الريفية بالقرب من نابولى . وكان إنتاجه بطيئا ولكن قراءته عميقة ؛ إذ أغرق نفسه فى مؤلفات الكتاب اليونانيين

واللاتينيين العظام وخاصــة هومير ، وأنيوس ، ولوكريتيوس . وقد درس الفلسفة والتاريخ ، والأساطير وعلوم روما ، وإيطاليا القديمة ، كما كان شديد الشغف بالحيوانات والطيور ، والأزهار والحشرات ويتمتع بنظرة ثاقبة تدرك ما تتميز به هذه المخلوقات .

وعندما عاد « أوكتافيان » من « أكتيوم » فى عام ٢٩ ق . م . قام « فيرجيل » بإلقاء عمله الثانى الرائع وهو « الزراعيات » Georgics وهو فى الواقع قصيدة تعليمية — كما جاءنا ، وهكذا يقول فيرجيل نفسه فالكتاب الأول يتناول نمو القمح والثانى الكرم والزيتون والثالث « الأبقار والأحصنة » والرابع النحل . ولما كان أوغسطس مهتما بإحياء الزراعة الإيطالية فهذه القصائد تتناسب تماماً والسياسة الرسمية للدولة . كل هذا أمراً مسلم به . ولكن إذا اعتبرنا الزراعيات كتاباً للفلاحين قد كتب بتكليف من الحكومة . فمعنى ذلك أننا نخطىء فهم هدف الكتاب بصورة هزلية . وأول ما يجب أن نضعه فى اعتبارنا هو أن مثل هذا الكتاب قد يكون زائداً على الحاجة ، إذ كتبه « فارو » من قبل ، والأقرب إلى الصواب هو أن الزراعيات حالها حال الانيادة ، فهى تتأرجح بين ثلاثة مستويات ، وأبسط هذه المستويات القصيدة التعليمية ، ومن الحقيق أنه يوجد بها مقطوعات عن اختبار التربة لمعرفة كمية الأحماض بها وعن الصفات المميزة للبقر وعن أعراض مرض القدم والفم وعن كيفية إسكان جماعات النحل . ولكن المستوى الأبعد من هذا هو أن فيرجيل قد اهتم اهتماماً بالغاً بفلاحى إيطاليا وبالدور الذى فى مقدورهم القيام به فى ركب الدولة . وكان قد رأى الزراعة الإيطالية وهى فى أقسى مراحل غناها فى بلاد الغال القريبة وفى « أجيركمبوس » . وعلى ذلك « فالزراعيات » تصور هذه الحياة بكل أوجه نشاطها المختلفة : حرث الأرض وبذر الحبوب ، حصد الحبوب ، وجمع الكرم ، أيام الراحة ومواعيد مهرجانات الريف ولكنها تصور أيضا العمل الذى لا ينقطع والأمراض التى تصيب أقدام الماشية والطاعون الذى يتفشى بينها والمحاصيل الشحيحة والآمال المحطمة . ومع ذلك فهذه الحياة فى جملتها هى أمتع حياة

فتحت أبوابها أمام الإنسان ، ذلك لأن فيرجيل كان يؤمن إيماناً خفياً بإيطاليا — أرض ساتورن Saturnia Tellus باعتبارها أكثر الأراضى ملاءمة للزراعة ، حيث الغذاء والمحاصيل ، والأحصنة ، والماشية والبشر تستطيع كلها أن تصل إلى حد الكمال . ولم يحدث أبداً أن وصفت مناظر إيطاليا الطبيعية ، بصورة أروع من وصفها فى مقطوعته الشهيرة الأنشودة الزراعية الثانية . والأبعد من ذلك أيضا هو أن فيرجيل كان كان يهتم من أعماقه بمشاكل الإنسان وعلاقته بالأرض . فقد كان يؤمن بأن الحضارة لا يمكن أن تدعم إلا على أسس من الزراعة ، وهذه حقيقة صادقة فى أيامنا هذه مثلما كانت فى أيامه ومن ثم فإننا نرى فى الزراعيات لمحات عن زراعة كل العالم وماشيته على أيامه : أراضى آسيا الخصبة ، غابات ميديا ، نبيذ بلاد اليونان الشهير . وكذلك رعاة روسيا وإفريقيا البدو . وفى مقطوعة رومانتيكية وهى الأنشودة الزراعية الرابعة ، يقودنا فيرجيل إلى عالم عرائس الماء السفلى ، ونرى منابع كل الأنهار التى تمد الأرض بالحياة . وبالاختصار فالزراعيات سحر عام يسرى مفعوله فى كل العصور والقرون ويجذب كل من يهتم بالحياة على الأرض .

وبعد الزراعيات جاءت « الانيادة » . وكانت فكرة نظم ملحمة قد اختمرت فى ذهن فيرجيل . وحدث أن اتجه فكره ذات مرة إلى حروب أوغسطس ليجعل منها موضوعاً لهذه القصيدة ، مثلما فكر « ملتون » ذات مرة فى كتابه قصيدة عن الملك « أرثر » . ولكن قام كلاهما باختيار آخر أكثر حكمة . واستمر فيرجيل يكتب طوال إحدى عشر عاما فى قصته « أينياس Aeneas . وعندما توفى فى عام ١٩ ق . م . لم تكن القصيدة قد اكتملت بعد . وكان أوغسطس نفسه هو الذى أمر بألا تحرق هذه القصيدة كما أوصى فيرجيل وهو على فراش الموت ولكن نشرها على حالتها . واختيار فيرجيل لهذا الموضوع وضع بين يديه قصيدة ذات مضمون « هوميرى » على الرغم من أنها لم تكن فى المجال الذى كتب فيه هومير

قصيدته . ومن ثم فإن فيرجيل يصف الاستيلاء على طروادة وتدميرها ،
وكيف هرب « أينياس » وأتباعه وأبحروا على سفنهم ليبحثوا عن حياة
جديدة فى أراضى الغرب . وبعد كثير من التجوال الواهى ، والصعاب
الجمة يصلون إلى إيطاليا ، ولكن تدفعهم عاصفة بعيداً عن هذا الشاطىء
إلى شاطىء إفريقيا ، إلى قرطاجنة ، المدينة التى كانت قد أنشئت حديثاً .
والفترة من الزمن يبدو مصير روما وعدوتها اللدود على وشك الارتباط
فى صورة حب « أينياس لديدو » ملكة قرطاجنة ولكن هذا الحب ينتهى
نهاية مأساوية ، إذ يبحر « أينيـاس » وتلقى ديدو حتفها وذلك بانتحارها
وهى تتوعد بقدوم منتقم جبار ، وقد جاء هذا المنتقم بعد عدة قرون فى
شخص « هانيبال » . والكتاب السادس من الانيادة هو نواة القصيدة
وجوهرها . إذ يستشير « أينياس » عرافة بلدة كوماى ويعثر على الغصن
الذهبى ، وبهذه التميمة ينزل إلى العالم الآخر . وفى هذا المكان يكشف له
أبوه « أنخسيس » Anchises عن الرؤيا الأخيرة لمصيره . وهى عبارة
عن نبوءة يملؤها الكبرياء عن تاريخ روما فى المستقبل ، وعن رسالتها
فى أن تحكم العالم . وفى نهاية الأمر كان أينياس يهز ماضى طروادة هزاً
عنيفاً ليواجه مستقبل روما . والكتاب السابع يصور الطرواديين وقد
وصلوا إلى مصب نهر التيبر ، ويحكى عن شعوب إيطاليا وأســـاطيرها
البطولية فى الوقت الذى يستعدون فيه للحرب . وفى الكتاب الثامن
يصل الطرواديون إلى مكان مدينة روما ، وكان أينياس أول من نزل من
السائحين قاطبة إلى روما ، فيطوف به « ايفاندر » Evander الملك
اليونانى حول المدينة . ورأى « اينياس » الماشية فى السوق الرومانية
وهى تتعركا رأى الغيضة الغامضة حيث سيرتفع معبد « جوبيتر » على تل
الكابيتول . واقتاده ايفاندر إلى منزله البسيط القائم على تل البلاتين حيث
سيقام فيما بعد منزل أوغسطس وفى خاتمة الكتاب يتقبل هدية عبارة عن

درع صنعه فولكان وقد نقشت عليه نبؤة أخرى عن تاريخ روما ذكرت فيها معركة « أكتيوم » بوصفها قمة هذا التاريخ . وهكذا ذهب أينياس إلى الحرب ضد الإيطاليين وضد بطلهم المغوار (تورنوس) Turnus وقد حمل على كاهله صيت أحفاده ومستقبلهم . وهذه الحروب هى الموضوع الذى تتناوله الكتب الأربعة الأخيرة، وعندما يسقط تورنوس فى آخر الأمر فهذه هى هزيمة الخير على يد الأخير ، مثلما كان مقدراً لكثير من الشعوب المتبربرة العريقة أن تلقى هزيمتها على يد روما .

هذه هى قصة الانيادة فى خطوط عريضة على مستوى سردها القصصى ولكن لايزال هناك المزيد . فهى أيضاً قصة الرجال والكفاءات اللازمة لجعل روما عظيمة ، قادة مثل اينياس ، يصمدون أمام كل الكوارث ويتخلون عن كل أغراضهم الشخصية فى سبيل واجبهم ، رجال يستطيعون أن يتغاضوا عن حب عزيز عليهم مثلما ترك أينياس ديدو ، ولم يترك أنتونى كليوباترا . وأخيراً ينتقل فيرجيل إلى ماوراء روما والإمبراطورية الرومانية ليتناول الإنسان ومكانه فى الكون كما يجب أن يفعل أى شاعر عظيم ولهذا السبب ولأسلوبه السامى اختاره (دانتى) Dante ليكون مرشده فى الكوميديا الإلهية Divina Comedia وهكذا تكونت السلسلة الرائعة هومير — فيرجيل — دانتى — وهذا أجل تتابع جاء فى حضارة أوربا .

أما هوراس Horace (٦٥ — ٨ ق . م .) فقد كان صديق فيرجيل وتمتع هو أيضا برعاية مايكناس وبصداقة أوغسطس . وكان يصغر فيرجيل بخمس سنوات . وقد جاء من الجنوب من مستعمرة فينوسيا Venusia فى أبوليا . وكان أبوه عبداً فى وقت ما، ولكنه جمع ثروة تكفى لشراء حريته وتلقى ابنه أرقى أنواع التعليم فى أيامه وعلى الرغم من أن هوراس قد اكتسب صداقة العظماء إلا أنه لم يحاول أبداً أن يخفى أصله المتواضع هذا ولا إعجابه بأبيه وحبه له . وتخرج من مدرسة فى روما ثم ذهب إلى الجامعة فى أثينا .

وهناك انقضت عليه الحروب الأهلية ، ودفعته أمامها لينضم إلى جيوش الجمهوريين ويحارب فى موقعة (فيلبى) — بين صفوف الحزب الخاسر وتبع ذلك فترة قضاها فى وظيفة مدنية أجرها ضئيل لا تتكافأ واحتياجاته وقد انعكست مرارة هذه الفترة فى قصائد (الايبوديس) Epodes وفى بعض القصائد الأولى من (الهجائيات Satires) . وقد انتشله فيرجيل من ذلك المأذق وقدمه إلى ما يكناس فى عام ٣٨ ق . م . ومنذ ذلك الوقت أصبح متحرراً من المتاعب الاقتصادية وقادراً على مسايرة نزواته الأدبية التى تجمع بغرابة بين القالب الفنى الدقيق ، وشذوذ فى اختيار الموضوع والشكل .

وكانت قصائد (الهجائيات Satires) (٣٥ — ٣٠ ق.م) أول عمل فنى له حمل اسمه ، وقد شكلها على نمط هجائيات (لوكيليوس Lucilius ولكن مع اهتمامه اهتماما بالغا بالخاتمة وخفف فيها من قدح الشاعر القديم وسخريته وحولها إلى فكاهة ذات طبيعة طيبة ، وهذه القصائد تعكس أيضاً أثر الفلسفات الشائعة المنتشرة وهى الفلسفة الرواقية والفلسفة الأبيقورية . وكان مكان أحداث القصائد عادة هو روما مع إعطاء بعض صور حيوية للحياة اليومية فى العاصمة خلال العام الذى سبق وقوع معركة أكتيوم ، ولكن كان هوراس فى أعماقه يفضل حياة الريف وازدادت جاذبيتها له إغراء بمرور الزمن وفى عام ٣١ ق.م . منحه ما يكناس المزرعة الواقعة فى الريف السابينى على بعد بضع أميال من (تيفولى) والتى أصبحت أعز ما يمتلكه طوال حياته . وقد عرضت عليه وظيفة سكرتير أوغسطس الخاص ولكنه رفضها مفضلا الاشتغال فى اتجاه أدبى آخر ألا وهو الشعر الغنائى .

وفى عام ٢٣ق.م وبعد ثمانى سنوات من العمل المتواصل أخرج هوراس إلى الدنيا ما قد اعتبره هو نفسه أعظم عمل شعرى له وهو « الأناشيد » Odes فى ثلاثة كتب تحتوى على ثمانية وثمانين قصيدة غنائية تحتوى عدداً

لا حصر له من الموضوعات وعلى تنوع فى الأوزان الغنائية اليونانية التى تناولها هوراس بإتقان بالغ وصل حد الكمال ، والاعتقاد السائد عادة هو أن الشعر الغنائى يتناسب مع الشباب — على الرغم من أن الشاعر « ييتس » نظم البعض من أعظم اشعاره الغنائية وهو فى سن الشيخوخة — لكن أناشيد هوراس ما هى إلا نتاج نضوجه واكتماله . والقصائد الست الأولى من الكتاب الثالث تقف متلاصقة لتكون مجموعة واحدة يعلن فيها هوراس بأنه يقوم بدور المعلم للشباب الرومانى فى ميادين الأخلاقيات والوطنية ، وتعرف هذه القصائد باسم (الأناشيد الرومانية) Roman Odes ، وعدا ذلك تقف كل قصيدة كوحدة فى حد ذاتها ويجب تقييمها على هذا الأساس ، وفى بادئ الأمر لم تلق أناشيد هوراس نجاحا بين الجمهور الرومانى ، إذ لا بد أن يعانى القارئ حقا لكى يفهمها كما كان لهوراس أن يعانى عند كتابتها . ولكنها تعتبر حداً للكمال فى ميدانها ، وقد تكلم (بترونيوس) عن هوراس بعد مرور قرن من الزمن فى جملة شهيرة إذ يصفه بأنه (السهل الممتنع) "Curiosa Felicitas' كما أجرى ناقد حديث بإتقان مقارنة بين فن هوراس وأعمال فنان رسم الموزايكو . فمقطع بعد مقطع نجد أن الكلمات قد وضعت فى مكانها المناسب وقد تم اختيارها اختياراً دقيقاً فى موضعها ولونها وتأثيرها ويجب أن ننظر إلى أنشودة هوراس من زوايا عديدة كما نفعل تماما مع فن الموزايكو البيزنطى ، وما إن يتم استيعابها حتى لا يزول تأثيرها بسهولة . إن الرجال يحملون فى أذهانهم طوال حياتهم أناشيد هوراس التى تعلموها وهم يدرسون فى المدرسة .

وعندما خاب ظن هوراس للطريقة التى استقبل بها الجمهور (الأناشيد) اتجه مرة أخرى إلى الهجائيات أو بالأحرى إلى نوع جديد أصيل استمده . منها جاء فى كتابه (الرسائل) Epistles وهى فى الواقع عظات عن تصرف الإنسان وأخلاقه فى شكل رسالة يرسلها رجل قد أصبح على وفاق تام مع

الحياة وعثر على السعادة فى معرفته لحدوده والعيش فى نطاقها . وهو يتمعن فى أخطائه وأخطاء الآخرين بتسامح رقيق يشفع لإسدائه النصح . إن (الرسائل) تظهر اتصافه بالمدنية Urbanitas) فى أعلى مراحلها وهى صفة تجمع ما بين الإدراك السليم والفكاهة المستحبة والذوق الرفيع . وهذا ما حببه كثيرا إلى نفوس كبار كتاب القرن الثامن عشر . والرسالة السابعة من الكتاب الأول ، التى فيها أعلن هوراس على مايكناس بعزة نفس ولباقة تصريحه بالاستقلال عنه ، لها شهرة ذائعة الصيت عن جدارة فهى مصدر للثناء على الشاعر وعلى راعيه . أما الكتاب الثانى من الرسائل فهو يختص بالنقد الأدبى (ففن الشعر) Ars Poetica يعالج نظرية المأساة . وقد انتشرت قراءته بكثرة فى القرن السابع عشر والثامن عشر وخاصة فى فرنسا . وكثيرا ما أسىء فهمه . وفى عام ١٧ ق . م . كتب هوراس الأنشودة الرسمية من أجل الاحتفالات القرنية . وبعد مرور عدة سنوات نشر كتابا رابعاً فى (الأناشيد) نزولا على رغبة أوغسطس . وقد توفى فى عام ٨ ق . م . بعد أن كانت أعماله قد أصبحت (كلاسيكية)[1] فى أثناء حياته .

وفى هذا الوقت كان شعر العشق (الاليجى) ، وهو ابتكار أدبى رومانى قد بلغ ذروته . وقد ذاع صيت أربعة أسماء ، ذلك بخلاف الكثير من الأسماء الأقل شهرة والأسماء الأربعة هى : جاللوس Gallus تيبوللوس Tibullus بروبرتيوس Propertius وأوفيد Ovid ،وكان السلم الأوغسطى قد مكن الرجال من التمتع بوقت فراغ يتابعون فيه السعى وراء أهدافهم . وهذا ، بالنسبة لشباب يعيش فى عاصمة غنية يسودها المرح ، يعنى أولا وقبل كل شىء مزاولة الحب . إذ قال أوفيد (إن روما جنة العشاق فالفتيات فيها

---

(١) كلمة كلاسيكى Classicus تعنى فى الأصل اللاتينى « ممتاز رائع » .

وفيرات مثل النجوم فى السماء ، ولقد كانت فتيات الصالونات اليونانيات والرومانيات ، اللائى كن يتمتعن بخفة الروح وبسرعة البديهة والذكاء والجمال الساحر الموضوع الذى يدور فى فلكه شعر العشق الرومانى ، وقد تمنى (بروبرتيوس) أن يكتب كتابا صغيراً لفتاة وحيدة تقرأه وهى تنتظر وصول رفيقها — وعندما يأتى فى وسعها أن تلقى بالكتاب بعيداً . لقد كان الشعراء الرومان هم الذين جعلوا شعر الاليجى هو شعر الحب السائد مهما كان عليهم من دين يدينون به لمن سبقوهم فى ذلك المجال من الشعراء اليونان أمثال (كالماخوس وفيلتاس) شعراء عصر الإسكندرية ، ونشرت أشعار الحب Amores التى كتبها جاللوس فى عام ٣٩ق.م وقد لا يكون هناك شاعر من الشعراء الذين فقدت أعمالهم من نستطيع أن نستعيد مؤلفاته ، أما تيبوللوس (٤٨ — ١٩ ق.م) فهو شاعر موهوب فى حدود إمكانياته وما يصوره عن حياة الريف له نضارة صباح يوم من أيام الربيع . أما قصائده عن الحب فلها سحر وعذوبة لا يستطيع أن يخرج مثلها أى شاعر رومانى آخر على الرغم من أنه كان ينقصها عاطفية (كاتوللوس) المتأججة . وكان (تيبوللوس) ينتمى إلى حلقة (ميسالا) الأدبية ، وهناك قصائد كتبها أعضاء هذه الحلقة الآخرون جاءتنا تحمل اسم (تيبوللوس) وأرق هذه الأشعار ست قصائد كتبتها (سولبيكيا Sulbicia) ، وهى من رعايا (ميسالا) ، وأشعارها هذه رقيقة فى حد ذاتها تثير اهتماماً فريداً فى نوعه ، إذ أنها القصائد الوحيدة التى وصلتنا من هذا العصر نظمتها امرأة .

أما (بروبرتيوس Propertius) (٢٤ — ١٦ ق.م) فهو من أعظم الشعراء الرومان ورجل يتمتع بشخصية عاطفية معقدة . ولد فى إقليم أومبريا (Umbria) ، وقد يكون فى بلدة (أسيسى Assisi) ، وقضى فترة طفولته كلها فى غمار الحروب الأهلية ثم اصطحبته أمه إلى روما لكى يتلقى العلم فيها . ولا بد أنه كان يؤتيه دخل خاص ، فعلى الرغم من أنه درس القانون بصورة مشتتة ، إلا أنه سرعان ما استسلم للحياة الصاخبة التى كانت تسود

المدينة . وله قصة حب جارف مثل تلك التى تحكى عن (كاتوللوس) و (لسبيا) ، وهذا هو الدافع الذى خلق منه شاعراً . ونشر كتابه الأول حوالى عام ٢٨ ق.م . وعنوانه (كونثيا) Cynthia وكان اسم عشيقته الحقيق هو (هوستيا) Hostia وتظهر شخصيتها بصورة واضحة فى أشعاره، لقد كانت امرأة جميلة متقلبة الأطوار جعلته يمر بكل مراحل عذاب العشق طوال خمس سنوات، وعندما تركته جف الشريان الغزير الذى كان يتدفق شعراً ، مع أنه يوجد بعض القصائد الرائعة التى تدور حول الأساطير الرومانية ضمن كتابه الأخير. ولكن لا يعلق بذاكرة الإنسان سوى أشعاره التى كتبها عن « كونثيا » — فهى تصور « كونثيا » وهى على الشاطىء فى بلدة «باييای» Baiae يحوط بها شباب بهى الطلعة : وهناك حفلة صاخبة بها نساء أخريات ، تقطعها كونثيا بحضورها ثم هناك معركة تلى ذلك ، فليلة حب ونذير فناء . والأروع من ذلك هو القصيدة الخالدة التى يظهر فيها شبح «كونثيا» ليذكره بحبها ويطالبه بالوفاء بوعده بأنهما سيكونان فى القبر سويا.

والذى حال دون نيل بروبرتيوس ما يستحقه من شهرة على الرغم من أنه يلق تقديراً جليلا فى أيامنا هذه هو بعض الغموض فى أسلوبه والفوضى التى عليها المخطوطات . وإذا قارنا بين عصرنا والعصور السابقة ، نجد أن كل العصور تقريباً عدا عصرنا الحالى قد وضعت الشاعر «أوفيد» Ovid بين أعظم الشعراء الرومان قاطبة ، والقليل من الشعراء الذين ظهروا فى الفترة ما بين « بترارك » Petrarck و « بايرون » Byron من لم يقع تحت تأثيره ، كما أنه أمد عددا لا حصر له من رسامى الأساطير الكلاسيكية بكثير من الموضوعات. وفى عصر اليزابيث أعلن أحد المعجبين بشكسبير الشاب قائلا « إن روح أوفيد الصافية الخفيفة تعيش فى شكسبير ذى اللسان العذب الحلو ». ولد أوفيد فى بلدة سولمو Sulmo (سولمونا Sulmona) عام ٤٣ ق.م من أسرة ميسورة الحال. مهدت له السبيل لكى يتلقى تعليما راقياً فى روما وأثينا وحاولت جاهدة لإقناعه بالعدول عن أن يصبح شاعراً لكن دون جدوى . وقد أجاب بيكاسو Picasso

عندما لامه الناس لأنه يرسم أسوأ من طفل فى الثانية عشر قائلا : « آه ... عندما كنت فى الثانية عشر كنت معتاداً على أن أرسم مثل رفائيل وبالمثل » عندما كان أوفيد فى الثانية عشر من عمره كتب مثل أوفيد نفسه تماماً — إذ تحول كل شىء بين يديه إلى شعر من تلقاء نفسه. وسرعان ما أصبحت أشعاره عن الحب Amores (ظهرت حوالى ١٤ ق.م) محببة إلى نفوس علية القوم. كما زادت شهرته ذيوعا بكتابه ويتضمن مجموعة « البطلات » Heroides خطابات مرسلة من بطلات الأساطير اللائى هجرن عشاقهن ، ذلك مع وجود رد على الخطاب فى بعض الأحيان . وقد تكون قلوب أولئك النسوة كسيرة ولكن لم يغب عن خاطرهن ما قد تعلمنه من بلاغة فى المدارس الرومانية ، فالثرثرة ذات الطابع المرح فى الأنشودة ٣٨ « خطاب «أمفتريون» هى الظاهرة السائدة فى « البطلات » . وكانت أبحاث أوفيد فى ميدان الحب فى تحسن مستمر ، وفيما بعد (حوالى عام ١ ق.م) نجده فى كتاب «فن الحب» Ars Amatoria وقد أصبح أستاذاً فى هذا الميدان وكتب هذا الكتاب الرائع ، وهو قصيدة عن الحب ذات روح مرحة، تصور مواقف جدية ذات طابع هزلى فى شكل قصيدة تعليمية . وهى تتضمن : ١ — كيف تعثر على فتاة ٢ — كيف تغررها . ٣ — وكيف تحتفظ بها ، وهذه الموضوعات كتبها فى كتابين للرجال . وهناك كتاب ثالث يتناول نفس المشاكل بالنسبة للنساء كما أنه كتب لهن علاوة على ذلك كتابا عن أدوات الزينة . ويحتوى هذا الكتاب على دفاع فلسفى عن الحب، إذ أنه المصدر الحق الوحيد للتقدم بالحياة الإنسانية . وهناك كتاب آخر يكمل هذه الحلقة هو « علاج الحب » Remedia Amoris وهو عبارة عن دراسة لمشكلة الحب الرابعة يتلقاها من انتهوا من دراساتهم السابقة ألا وهى كيف تتخلص من فتاتك . وهذا الكتاب ينصح باثنين وأربعين وسيلة لإفساد علاقة الحب بما فى هذه الوسائل من إنشاء علاقات حب جديدة والانشغال بالزراعة وإحجام النفس عن الشهوات من جانب هؤلاء الشعراء من أمثال أوفيد ، والقيام بأشعار خارجية وبعد ذلك اتجه أوفيد

إلى الأساطير ونشر مجموعة من القصص تدور حول موضوع تغير الأشكال وهي ما تسمى « بالتحولات » Metamorphoses ، وكما أنها بدأت بتحول الفوضى Chaos إلى «عالم منظم » Cosmos كان لها أن تنتهي بتحول «يوليوس قيصر » إلى اله . وهذا العمل أنجح أعمال أوفيد في كثير من الأوجه . فهو بالتأكيد أقوى ما كتبه أثراً إذ أنه أصبح المنهل العذب الذى استمدت منه العصور الوسطى كل معلوماتها تقريباً عن الأساطير الكلاسيكية .

ولكن حدث في ذلك الوقت أن ألم بأوفيد نفسه تغيراً جذرياً إذ أن شعره ، وهذا أقل ما يقال عنه ، لم يسهم بشيء للإنماء من برنامج أوغسطس للإصلاح الأخلاقي ، وعندما اقترن اسم أوفيد بفضيحة شنعاء (من الجائز أنها فضيحة يوليا الصغرى) أصبح موقفه لا يحتمل على الإطلاق وحكم عليه بالنفي إلى أقاصي حدود الإمبراطورية ، إلى « توميس » Tomis وهي كنستانتسا الحديثة على البحر الأسود . وقد كتب من المنفى « رسائل من بونتوس » Epistles From Pontus « والأحزان » Tristia . على الرغم من أن هذه الأعمال تبعث الملل لهجتها ذات الشكوى الدائمة إلا أنها أيضاً تعطي بعض الصور الساحرة للحياة عند حدود الإمبراطورية ، وكان هذا كما لو كان « هيريك » Herrick لم ينف إلى « ديفون شير الكئيبة هذه » بل إلى « نيو هامبشير » في زمن حرب الملك فيليب . ولكن كم يسرنا أن نستبدل قصائد «الأحزان» بالقصائد التي يدعي أوفيد أنه كتبها بلغة أهل « داكيا» ولم يرق قلب أوغسطس ومات أوفيد في منفاه . وكانت آخر أعماله هي «الأعياد» Fasti التي نشرت بعد موته . وهي تتناول أعيادالتقويم الروماني والأساطير المرتبطة بها وهذا عمل أدبي يجذب دائماً دارس الفلكلوروالدين.

وليس هناك عمل أدبي لهذا العصر ذو طابع أوغسطي حتى من ناحية عظمة الفكرة ووجهة النظر الأخلاقية أكثر من تاريخ ليفي ، كان ليفي ، مثل فيرجيل ، رجلا موطنه الشمال ولد في بلدة باتافيوم Patavium

(بادوا الحديثة) عام ٥٩ ق.م . ويظهر نفس الشعور الوطنى تجاه روما وإيطاليا ونفس التبجيل والاحترام لماضيها التاريخى مثل فيرجيل. قدم إلى روما حوالى عام ٢٩ ق.م . وبدأ العمل الضخم الذى كان له أن يستغرق الأعوام الأربعين التالية من حياته وفى ما لا يقل عن ١٤٢ كتابا — وهذا ثلاثة أضعاف حجم ما كتبه جيبون — سرد تاريخ روما منذ إنشائها حتى موت دروسوس فى عام ٩ ق . م . ومثل هذا العمل الواسع — الفائق الضخامة بالنسبة لمكتبة رجل واحد كما يشكو الشاعر مارتيال — كان لابد وأن يتضائل إلى ملخصات ومقتطفات مما أدى إلى نتيجة مؤسفة ألا وهى أنه لم يتبق منه سوى ٣٥ جزءا فقط . لقد وصلتنا « ملخصات » لمعظم الأجزاء الباقية ولكنها لا تعتبر بأى حال من الأحوال بديلا لما كتبه ليفى . وقد أطلق على عمل ليفى هذا « النثر المقابل للانيادة » وهو بحق تاريخ ملحمى تلعب فيه روما دور البطولة . ومثل الانيادة يتحدث هذا العمل عن الرجال والميزات التى خلقت عظمة روما « فالفضيلة القديمة » التى كانت تتمتع بها الشخصية الرومانية هى التى أدت إلى غزو روما لإيطاليا ، وصمدت دون اهتزاز أمام كوارث الحروب البونية . ولكن بعد غزو منطقة البحر المتوسط أدى الترف والفساد إلى التدهور الذى استمر حتى عصر ليفى نفسه، وهو زمن «لانسطيع فيه أن نتحمل أمراضنا ولا علاج هذه الأمراض، ومع ذلك فالعلاج مايزال ممكناً ، إذا أمكن الرجوع إلى الفضائل الأخلاقية التى سادت عصر الجمهورية القديمة . وهنا نجد أن عمل المؤرخ فى توافق تام مع إصلاحات أوغسطس الاجتماعية .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر وقع ليفى تحت الفحص على أساس مقاييس المنهج التاريخى الحديث النقدية . ولم يخرج من هذا الفحص الدقيق دون أن يصيبه ضرر . كما لا يستطيع أى إنسان الآن أن يتكلم عنه مثلما تكلم دانتى ، إذ اعتبره « ليفى الذى لا يخطىء » بل كان يخطىء فى كثير

من الأحيان : فى استخدامه المصادر غير الدقيقة وجهله بالأمور الحربية وإغفاله العوامل الاقتصادية وفشله فى تفسير قوانين المجتمع البدائى فى حدود مضمونها . وقد يكون من العبث أن نبحث فيه عن ما يتمتع به « تاريخ كمبردج القديم » Cambridge Ancient History من ميزات ، ومع ذلك فهذا لا يهم إلى حد ما ، إذ جاء ليفى ليعيد بناء ماضى شعب عظيم بصوره خيالية ليساعدهم على فهم مصيرهم السامى ، وقد نجح فى ذلك ، فإيمانه بأن البشر هم الذين يصنعون التاريخ وقدرته الفائقة على السرد القصصى نتج عنها عرض رائع للتاريخ الرومانى . وهذا التاريخ قد يوجه إليه النقد فى تفاصيله، ومع ذلك فإنه ككل يترك أثراً لا يمحى . وعندما نتناول القرن الأول من عصر الإمبراطورية فنحن ندرك دائماً ضرورة الاعتراف بأثر «تاكيتوس» ولكن من الصعب أن ندرك أن معلوماتنا عن معظم تاريخ عصر الجمهورية لاتزال فى مادتها مستمدة من ليفى .

وكان هناك إنتاج ضخم من الأعمال الفنية والمتخصصة نثراً وشعراً ولكن لم يتبق منها الكثير : فقواعد اللغة وفقه اللغة والطب وعلم النبات والزراعة والقانون والفلسفة — كل هذه المواد مدرجة فى قائمة الموضوعات وذلك بالنسبة للكم ، إذ زاد تغلغله فى التعليم الرومانى بالتحديد فى الوقت الذى أصبحت سيرة حياة فرد مثل شيشرون وهورتنسيوس غير ممكنة فى ظروف النظام الإمبراطورى . وكتابات سنيكا الأكبر Seneca (٥٥ ق.م. — ٣١ م) تعطينا صورة حقه لمدارس البلاغة فى عصر أوغسطس وتمكننا من فهم الضرر الذى تسبب فيه هذا الانهماك الخالى من بعد النظر فى تدريب حرفى انتهى عصره . وعلماء البلاغة المحترفين بدأوا حياتهم كذلك كمؤرخين وفلاسفة وهـــذا جنح إلى التقليل من المستوى الفكرى لهذه الموضوعات . وعلى هذا النحو كانت أعمال دينيسيوس الهليكارناسى Dionysius Of Halicarnasus الذى قام بالتدريس فى روما من عام ٣٠ إلى ٨ ق.م . وكتب عن الخطابة والنقد الأدبى والتاريخ . وقد وصلنا

وهو Roman Antiquities « التاريخ الرومانى القديم » نصف كتابه
يبدأ من الأزمنة الأولى حتى الحروب البونية . والأدب اليونانى الذى
جاء فى العصر الأوغسطسى كان يستحق الاعتبار — على الرغم من
أنه كان أقل أهمية من الأدب اليونانى الذى جاء فى عصر پوليبيوس
أو فى عصر تراجان وهادريان .

وقد لا يجرؤ أحد على إدراج ديودوروس سيكولوس
Diodorus Siculus بين زمرة المؤرخين العظام ولكن سترابو Strabo
(فى القرن الأول قبل الميلاد وبعده) وهو رجل يونانى من بلدة أماسيا
Amaseia على البحر الأسود ، فقد كان جغرافياً ممتازاً اهتم بإظهار
أهمية الموضوع الذى كتب فيه فى الشئون العامة وبمراجعة الجغرافيا
الهلينستية على ضوء الغزوات الرومانية فى الغرب . وتشتمل كتبه السبعة
عشر على جغرافية العالم من بريطانيا حتى الهند ومن بحر البلطيق حتى بلاد
الحبشة . ونجده فى بعض المواقف سطحياً سهل الاقتناع ، مع أن تشككه
فى الرحلة التى قام بها بوثياس Pytheas المسالى إلى بريطانيا وبحر الشمال
يبرهن على مساوئه المناقضة لذلك — ولكن يعتبر مؤلفه هذا أحد المصادر
الرئيسية لمعرفة تاريخ الفكر الجغرافى فى العالم القديم .

وفى اللغة اللاتينية نجد أن قصيدة « مانيليوس » Manilius كان
اجتذابها للعلماء أقوى من اجتذابها للقراء . وهذه القصيدة عبارة عن نزعة
من النزعات الرواقية المناقضة للوكريتيوس تماماً وهى تحاول أن تبرهن على
قدسية تنظيم الكون مستخدمة فى ذلك أبحاثا مستمدة من علم الفلك
والتنجيم . وهناك قصيدة أخرى عنوانها ايتنا Aetna أقرب إلى روح
لوكريتيوس فى إرجاعها القضايا الطبيعية إلى الظواهر البركانية وفى تحمسها
لدراسة العلم الطبيعى وقد نسبت هذه القصيدة إلى فيرجيل ، على الرغم من
أن هذا لم يتفق عليه تماماً أو هى فى الواقع ترجع إلى عصر متأخر عن عصر

« أوغسطس » . ولكن هناك إنتاج نموذجى لذلك العصر وعمل مشوق تماما وهو عمل « فتروفيوس » Vitruvius عن فن المعمار . وقد أوحت مشاريع أوغسطس البنائية الواسعة فى روما بإخراج هذا العمل . وهو يتناول بالتفصيل النظرية الرومانية فى فن المعمار ، وتطبيق هذه النظرية فى ميدان تخطيط المدن والهندسة الميكانيكية المدنية . ويشتمل هذا العمل على جزء مشوق عن مؤهلات المهندس المعمارى وقد حددها « فتروفيوس » على مستوى عال . وهناك مشروع واحد معروف عنه أنه من عمل « فتروفيوس » وهو القاعة الكائنة فى « فانوم » Fanum ولكن كتابه كان له أثره على فن المعمار الرومانى خلال القرن الأول الميلادى ، ولكونه العمل الوحيد من نوعه الذى تخلف عن العالم القديم — فقد أصبحت قراءته شائعة عن استحقاق بين مهندسى عصر النهضة المعماريين . وقد بسط نفوذه القوى على فن المعمار فى أوربا عن طريق منشآت « ألبرتى » Alberti و « بلاديو » Palladio المعمارية .

إن الفن والمعمار فى هذا العصر كان خليقا بأن يكون قريناً لأعماله الأدبية . وهناك فصول ثلاثة من « أعمال أوغسطس المجيدة » Res Gestae تعطينا بأسلوب هذا النصب المتقطع ، نبذة عن المبانى الرئيسية التى قام أوغسطس نفسه ببنائها . وعن الأبنية التى ترجع إلى يوليوس قيصر وغيره ، وأكملها أوغسطس كما تلخص برنامج إعادة البناء والإصلاح الضخم الذى قام أوغسطس بتطبيقه على معابد المدينة وآثارها التذكارية . وقد أعطى أوغسطس وصفاً موجزاً لكل أوجه النشاط هذه فى ادعائه بأنه قد وجد روما مدينة من طوب وتركها مدينة من رخام فأخيراً أصبحت روما بجدارة عاصمة للعالم الذى كانته . وقد جاء فى كلمات فيرجيل « لقد أصبحت روما أجمل ما فى العالم.. Facta Est Pulcerrima Roma » مع ان هذا التقدم كان بعيداً كل البعد عن الاكتمال عندما مات فيرجيل .

وفى أيامنا هذه يمكن رؤية مشاريع أوغسطس البنائية بأجمل صورها فى « كامبوس مارتيوس » الذى كان يوليوس قيصر أول من أدرك إمكانياته كمنطقة اثرية . وهو منطقة واسعة على شكل نجم عبارة عن « فيا لاتا » Via Lata التى تصل السوق الرومانية "Forum" بالكابيتول عن طريق « فيافلامينيا » وتقود إلى قلب المنطقة « وحتى الآن ما يزال طريق كورسو » Corso أحد الشوارع الرئيسية فى روما . وبالقرب من حافته الشمالية وبمنطقة أكثر قرباً من النهر أقام أوغسطس المقبرة الفسيحة التى خصصت للعائلة الإمبراطورية والتى ما تزال تحمل اسمه ، وقد بنيت على نسق المدافن الإيطالية — الاتروسكية التقليدية ذات الشكل الجبلى ولكن على نطاق أكثر اتساعاً . واستضافت هذه المقبرة رماد معظم الأعضاء البارزين من العائلة الإمبراطورية من « ماركالوس » حتى « نرفا » ، وقد أقيمت فى أرض فضاء تنمو بها الأشجار . وعلى أعمدة خارج مدخلها نقشت نسخة من « أعمال أوغسطس المجيدة » Res Gestae على لوح من البرونز . وعلى بعد بضع مئات من الياردات ، وأكثر قرباً من وسط المدينة ، انتصب « مذبح السلم » الذى تعتبر أعمال فن النحت فيه أدق تعبيرا فى ميدان الفن عن مثاليات العصر الأوغسطى . وتجاه الجنوب نجد ضاحية ترتبط « بأجريبا » أكثر من ارتباطها بأوغسطس ، فيها رواق رحب احتوى على خريطة العالم الشهيرة التى كان قد جمعها ، ورواق آخر بنى لتخليد ذكرى الانتصار فى موقعة « أكتيوم » فيه رسوم حائطية تصور رحلة السفينة «ارجو» . ولكن مايزال التركيب المعمارى للمبانى المقامة حول « البانثيون » Pantheon أكثر أهمية من كل هذه المبانى . وهذا التركيب كان يضم أول الحمامات الإمبراطورية الفخمة وحمام أجريبا الساخن « Thermae » وقاعة رحبة وبحيرة صناعية للزينة وقناة ومبنى « البانثيون » نفسه . كل هذه المبانى كانت مقامة فى أرض فضاء رائعة ، والبانثيون على حالته الراهنة الذى يتكون من غرفة مستديرة تحمل فوقها قبة ورواقا به صفوف ثلاثة من ثمانى أعمدة

كورنثية — يرجع تاريخه فى مجمله إلى بداية عصر هادريان . وقد كان هناك نقاش حامى الوطيس عما إذا كانت الغرفة المستديرة تكون جزءا من مشروع « أجريبا » . ولكن النقوش المنقوشة على الرواق ما تزال تحمل اسمه ، ويجب ألا ننسى أن هادريان كان متحفظا عندما أعاد إصلاح البناء ، وسواء كان يرجع إلى عصر هادريان ، أو عصر أوغسطس فهو أعظم ما تبقى من المبانى الرومانية . والمبنى الوحيد الذى يمكن تقديره على أساس المقاييس الجمالية ، مثله فى ذلك مثل الكتدرائية القوطية تماماً . فالقبة تمثل قبة السماء « والعين المستديرة » Oculus ، وهى على بعد تسعة أمتار فى آخرها ، تنفتح تجاه السماء ومنها يأتى الضوء الوحيد وقد كان من المعتقد أن التجويفات السبع كانت تمجيداً للمعبودات السبع النجمية .

وعند سفح الكابيتول بجوار معبد « أبوللون » كان هناك منطقة يبدو أن أوغسطس قد خصصها للفنون . فلا يزال يقف هناك جزء من واجهة مسرح « ماركللوس » الأنيقة بصفوفها الثلاثة على شكل « بواكى » وقد قام علماء الحفريات فى عهد موسيلينى بتخليصها من أكوام الحوانيت والمنازل التى كانت قد جثمت عليها فى وقت ما . وقد افتتح هذا المسرح فى عام ١٣ ق . م . ويسع حوالى ٢٠,٠٠٠ متفرج ويعتبر أروع ما أقيم من مبان من أجل الترفيه عن الشعب الرومانى .

أما المشروعات التى قام بها أوغسطس فى السوق الرومانية فكان معظمها ترميما للمبانى القديمة وإعادة تخطيطها ، مع أنه أقام بناء واحداً ضخماً هو معبد « يوليوس المؤله Divus Julius » بالقرب من مركز السوق فى مكان يمكن رؤيته بوضوح ومتاخماً لمعبد « فستا Vesta » . كما أنه أكمل بناء قاعة « يوليا » Basilica Julia الفخمة الواقعة عند الزاوية الجنوبية الغربية من السوق . وأعاد تخطيط « قاعة ايميليا

« Basilica Aemilia » لتتساوى فى روعتها مع الأولى : وأنهى ترميم قاعة مجلس الشيوخ الذى كان قد بدأه يوليوس قيصر . وأعاد تسميتها « بكوريا يوليا Curia Julia . أما « القاعة » Curia التى نراها الآن فهى من مخلفات إصلاحات القرن الثالث ، لكن من المحتمل أنها احتفظت تماماً بأبعادها ونظامها الأصلى — مثلها فى ذلك مجلس العموم البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية .

ولكن على الرغم من إعادة التخطيط هذه كان السوق الرومانية القديم ضيقاً جداً بالنسبة لاحتياجات مدينة ضخمة . وكان من الضرورى بناء أسواق أخرى مساعدة فى الشمال . وقد تم تخطيط كل منها على أن يشتمل على معبد ويحيط به سور . وكان سوق يوليوس الذى وضع تصميمه قيصر وأكمله أوغسطس يحوى معبد فينوس جنتريكس « Venus Genetrix » الجدة الأولى لعائلة « يوليا » Gens Julia وأم أينياس . أما سوق أوغسطس بنصفى دائرته فقد كان يحوى معبد الإله « مارس المنتقم » وذلك وفاء لنذر قطع فى معركة فلبيىء . وفى صالات الأعمدة انتصبت تماثيل ونقوش كل الظافرين Triumphatores وهذه الصالات عبارة عن متحف أو قاعة للمشاهير من المحتمل أنه أوحت به صور الأبطال الرومان التى رسمت فى الكتاب السادس من الانيادة .

ومن المحتمل أن ما أنجز من أعمال على تل البلاتين كان أقرب إلى قلب أوغسطس ، فهناك يقف معبد « أبوللون » الرائع شامخا وهو أول بناء ضخم فى روما بنى كله من رخام « لونا » Luna وكان إنشاؤه تكريما لنذر قطع فى معركة « اكتيوم » وفى هذا المعبـــد وضعت « الكتب السيبلينية Sibylline » بعد أن نقلت من معبد جوبيتر المقام على تل الكابيتول . وفى رواق المعبد أنشأ أوغسطس مكتبتين شهيرتين إحداهما للكتب اليونانية والأخرى للكتب اللاتينية . وقد دمرت النيران هذا المعبد عن آخره عندما شبت فى ليلة وفاة « جوليان الملحد » (فى ١٨ مارس عام ٣٦٣م)، ومعلوماتنا

عن هذا المعبد أقل بكثير من معلوماتنا عن أى بناء رومانى رائع آخر . كما أعاد أوغسطس بعناية فائقة بناء المراكز المقدسة الواقعة على تل البلاتين ، بما فيها (من المحتمل) منزل روموللوس ، وبالتأكيد أعاد بناء « اللوبركال Lupercal » وهو الكهف الذى يقال إن الذئب قد أرضع فيه «رومووللوس وريموس » وأعاد كذلك بناء معبد الأم العظمى الشهير Magna Mater . ولكن هناك مشروع ذو أهمية قصوى أسقط من تخطيطات أوغسطس على تل البلاتين ، إذ أنه لم يقم ببناء ضخم ليصبح مسكنا (لرئيس الدولة الرومانى Princeps) ، أما المبانى الضخمة التى استمدت أسماءها من التل — والتى جاءت منها كلمة (قصر Palace) فى العصور التالية — فقد كانت من عمل خلفائه : من تيبريوس حتى « دوميتيان » ، أما أوغسطس نفسه فقد عاش فى بيت متواضع وما نزال نراه برسومه الحائطية الساحرة يحمل اسم منزل « ليفيا » Livia .

ولا يسمح وقتنا بذكر المنشآت العامة الأخرى والمتعددة من مرشحات مياه وقاعات الأسواق ومخازن وبوغازات — بناها أوغسطس فى روما — ومع ذلك يجب أن نذكر شيئا واحدا فعلى الرغم من عظمة مشاريعه التى وضعت لتحقق التطور الحضرى إلا أنها كانت مقصورة على إنشاء المبانى العامة وتركت تخطيط الشوارع القديمة دون أن تدخل عليه أية تعديلات « عدا إنشاء فيا لاتا Via Lata » كما أنها لم تشتمل على إجراء التحسينات فى نظام الإسكان الخاص ، ومع ذلك من الممكن رؤية أمثلة لتخطيط مدينة كاملة فى مستعمرات متعددة من إنشاء أوغسطس وخاصة فى أوستيا .

وقد خلقت رعاية أوغسطس حركة نشاط فعالة فى ميدان الفن بدرجة لا تقل عن حيويتها فى ميدان المعمار ، إذ كان هناك احتياج ملح سواء فى روما أو فى الولايات لفن النحت من أجل النصب التذكارية العظيمة من

أمثال « مذبح السلم » Ara Pacis . وكان فن الرسم دون شك يستخدم لنفس الغرض مع أنه لم يتبق منه شيء . وكان هناك إقبال على صور الرئيس وأعضاء العائلة الإمبراطورية . وخرج أسلوب فنى يجمع بين واقعية التراث الإيطالى ومثالية الفن اليونانى ، وهذا هو الأسلوب الرسمى أو أسلوب البلاط الذى لا يغيب عن أذهان المؤرخين عندما يتكلمون عن الفن الأوغسطسى . ومن قطعه الفنية الرائعة تمثال أوغسطس عند « بريما بورتا » Prima Porta ، وجراند كاميـــو » Grand Cameo فى فرنسا والصور الجميلة لسيدات العائلة الإمبراطورية التى يمكن رؤيتها فى روما وباريس وكوبنهاجن . ومن المشوق ملاحظة أننا لانجد أثرا لهذا الفن المثالى بين كثير من النصب التذكارية الجنائزية الخاصة بأفراد الطبقة المتوسطة فقد حافظت بتمسك على الدمامة التى كانت عليها مقاييس الفن فى العصر الجمهورى .

وهناك عمل فنى أروع من كل ما جاء به ذلك العصر من فنون : ألا وهو أعمال الفـــن المنحوتة على محراب السلم Ara Pacis وقد أقيم هذا النصب لتخليد ذكرى عودة أوغسطس إلى روما فى عام ١٣ ق . م . وقد تم افتتاحه عام ٩ ق . م . وأقيم المحراب نفسه فى فناء مقدس . واصطفت أعمال النحت الهامة فى مجموعتين خارج الأسوار التى تحيط به ، أما المداخل فقد شق فى الأسوار الشرقية والغربية . وهكذا أصبح هناك جوانب أربع ينفرد كل منها بموضوعات خاصة — بينما كان هناك قطاعان طويلان لا ينقطعان فى ناحية الشمال والجنوب . وكان الموضوع الذى تنفرد به المجموعة العليا من أعمال النحت على طول هذين الجانبين الطويلين هو موكب مجلس الشيوخ والشعب الرومانى بالإضافـــة إلى الموظفين العموميين والعائلة الإمبراطورية ، على رأسها « الرئيس » وهم يقدمون القرابين احتفالا بعودته سالما . وقد قورن هذا الموكـــب أو بالأحرى ضوهى « بموكب مجتمع الآلهة » Panathenaic Procession المنحوت على معبد « البارثينون »

فى أثينا ، ووجـــد أن فنانى النحت فى عصر بركليز ينحتون صورة مثالية لجمال شباب أثينا ووقار شيوخها ولم يظهر فى لوحاتهم أطفال ، أما الموكب الرومانى فهـــو احتفال يقوم به أشخاص حقيقيون لانماذج ، ويمكننا من هذا الموكب أن نتعرف على أعضاء الأسرة الإمبراطورية كما أنه ليس هنـاك شك فى أن أعضاء مجلس الشيوخ قد صوروا فى ذلك الاحتفال كذلك . وهنـاك أطفال عديدون نقلت ملامحهم برقة وروح خفيفة ، ويجب أن نلاحظ الطريقة التى عامل بها فنانو هذا العمل أوغسطس — فهم لم يضعوه فى نقطة المركز التى هى محط الأنظار ، كما هو مألوف عند تصوير الإمبراطور فى النقوش الإمبراطورية المتأخرة ، بل إن مكانه كان على رأس الاحتفال يتبعه عذارى « فستا » والكهنة ، وهذا تعبير مرئى عما تتضمنه فكرة الرئيس من معنى .

أما القطاعات الأربعة القصيرة فقد نسقت لتكون زوجين متوازيين من المناظر الدينية والرمزية — فعلى جانب نجد الذئبة والتوأمين وقربان « اينياس » وهذا يربط الأسطورة الطرواقية بالأسطورة الرومانية عن أصل روما معا . وعلى الجانب الآخر توجد مجموعة من الشخصيات الرمزية ذات الجمال الأخاذ تحيط بامرأة جالسة قد تكون «تلوس» Tellus (الإلهة الأرض) ولكنها من الأكثر احتمالا أنها ترمز إلى إيطاليا وهذا قد يخلق التوازن مع روما فى الوجه الآخر .

ومن الصعب ملاحظة الإطار الوردى الذى يحيط بالنقوش السفلية . وفى هذا المكان توجد مجموعات متعددة من زهور الأقانثوس فى وسطها جماعات من الطيور والحشرات والأزهار عليها مسحة طبيعية بديعة . وقد قورنت هذه اللوحة مقارنة دقيقة بالقطع الرائعة التى جاد بها الفن الإنجليزى فى العصور الوسطى ، وهى أوراق الأشجار المنحوتة فى قاعة اجتماعات القساوسة فى «سو ثول منستر » Southwell Minster .

واحتفالا بمرور ألفى عام على أغسطس عام ١٩٣٨ تم إخراج البقية الباقية من محراب السلم بصعوبة فائقة من تحت الوحل المتراكم أسفل قصر « فيانو » Fiano وقد جمعت اللوحات المنحوتة التى كانت قد تشتتت فى كثير من المتاحف ، أو أعيد نسخها وأعيد إقامة النصب التذكارى كاملا على رقعة جديدة قريبة من مقبرة أوغسطس ويعد هذا نصرا من الانتصارات التى أحرزها علم الحفريات الحديث وإضافة خالدة لعجائب روما .

ومعلوماتنا عن فن الرسم الأوغسطى مقصورة على قليل من الرسوم الحائطية وذلك لاختفاء الصور عن الأنظار . وأهم هذه الصور هى المناظر الدينية والتصميمات المعمارية التى جاءتنا من منزل « ليفيا » القائم على تل البلاتين وكذلك المناظر الجميلة المرسومة فى حديقة « بريمابورتا فيلا » والرسوم الحائطية التى جاءتنا من منزل ريفى فى بوسكريالى Boscoreale ومن الممكن رؤية كل هذه الرسوم فى متحف متروبوليتان للفن فى مدينة نيويورك.

الفصل العاشر

السلم الإمبراطورى (١٤ — ١٩٢ م)

هناك فرق جوهرى بين تاريخ الجمهورية وتاريخ الإمبراطورية ، فباختفاء الأحزاب السياسية والنقاش العلنى ، أصبح التاريخ السياسى يقتصر على موضوعات قليلة خاصة بالإمبراطور والبلاط : فشخصية الإمبراطور والطريقة التى اعتلى بها العرش ، وعلاقاته بمجلس الشيوخ والمؤامرات التى كانت تحاك فى البلاط ، وموته والشكوك التى يثيرها ، هذا هو نوع التاريخ الذى قدمه تاكيتوس بأجلى صوره ، وقدمه كاتبو « تاريخ أوغسطس» Historia Augusta بأسوأ صورة، بينما يقف «سوتنيوس»و«ديوكاسيوس بين الفئتين . وهذه المؤلفات التاريخية فى جوهرها تنساق وراء تقليد نابع من مجلس الشيوخ ، فهى عدائية ضد الإمبراطورية بصفة عامة وضد معظم الأباطرة عدا « نرفا » و « تراجان » Nerva, Trajan أول إمبراطورين من أباطرة عائلة « الأنتونينس » Antonines وهى غالبا ما تتناول قصصاً مثيرة عن الإباحية الجنسية ، تحتوى على ما تحتوى عليه كتب علم النفس المرضى التى تعالج الحالات النفسية . وفى أثناء قيام الإمبراطورية كان الضوء الفاضح المسلط على العرش قد تسلل أيضاً إلى غرفة النوم ، وأصبح اختراع القصص الفاضح حرفة ثانوية ، على أنه من السهل أن نسقط معظم هذه القصص من اعتبارنا ، ولكن عندما نتناول القرن الأول فليس من السهل بأى حال من الأحوال الإفلات من تأثير « تاكيتوس » Tacitus الذى يلقى على عالم السياسة العليا شعاعا قوياً من الضوء ، وإن كان رفيعاً .

ونحن فى حاجة إلى أن نذكر أنفسنا بأن هنالك جانباً آخر من تاريخ

الإمبراطورية من النادر أن يهتم به المؤرخون الرومان اهتماما كبيراً ، ألا وهو الجانب المتصل بسير الحياة فى الولايات وبهذه الموضوعات الحيوية ، كاستصلاح الأراضى للزراعة ، ونشر الحضارة اللاتينية فى الغرب ، وفى ولايات الدانوب وانتشار تيارات من الشرق أثرت فى الدين والفكر ، أو إدراج طبقات جديدة فى إدارة الإمبراطورية .

ويجب أن نعبر عن امتناننا لتقدم علم الآثار الحديث ، الذى بفضله كانت لنا هذه الصورة عن الحياة الاجتماعية والثقافية للأقاليم الرومانية التى كانت بالتأكيد مجهولة للأستاذ « جيبون » . ولا تزال هذه الصورة مع ذلك بعيدة عن الكمال ولكننا فى الطريق إلى بناء ما يسمى « بالتاريخ المحلى للعالم الرومانى » بصورة تدريجية ، وعلى درجات مختلفة لأجزاء متباينة من الإمبراطورية . وسيكون من الأفضل الاحتفاظ بهذين المظهرين كل على حدة ، وأن نتناول أولا التاريخ السياسى منذ اعتلاء « تيبريوس» Tiberius العرش حتى موت « كومودوس » Commodus وبعد ذلك نتناول التاريخ الاجتماعى والثقافى للعالم الرومانى خلال القرن الأول والثانى بعد الميلاد .

وعندما خلف تيبريوس أوغسطس (عام ١٤م) كان فى الثانيةوالخمسين من عمره ، رجلا حادالطباع لا تسيطر عليه الأوهام بغض النظر عن الخدمات الجليلة التى قدمها للدولة ، ومرة بعد أخرى كانت الخدمات الجليلة التى يقوم بها من أجل الدولة تنسب إلى منافس له .

وبالنظر إلى حياته الشخصية نجد أنه كان يجمع فى نفسه حزنا مضاعفاً وذلك لطلاقه « فيبسانيا » Vipsania وزواجه التعس « بجوليا » Julia وربما كان صادقا فى تردده عند قبوله خلافة أوغسطس — ذلك التردد الذى يرجعه « تاكيتوس » إلى نفاقه — وصادقا فى ادعائه بإلقاء العبء عن كاهله فى سن الشيخوخة ، فإن عقلية « أوغسطس » وحده هى التى كانت جديرة

بحمل هذا العبء ، وهذا المثال القوى لابد وأنه ثبط همة كل أباطرة عائلة « يوليو — كلوديا » وقد كانت ميول « تيبريوس » الخاصة وتأثير أمه « ليفيا » أيضاً عليه هى التى أدت به إلى اتباعه سياسة « أوغسطس » فى إقامة العلاقات الشخصية ومهارته فى اكتساب التأييد .

وتفاقمت مشكلة من يخلفه إلى حد كبير وذلك لوجود رئيس للدولة فى مثل سنه ، ولقد بدا الموقف فى البداية آمنا ، فقد كان هناك « دروسوس » Drusus ابن تيبريوس » نفسه و « جرمانيكوس » ابن أخيه الأكبر « دروسوس » الذى كان يتمتع بلباقة أبيه وببعض مواهبه ، وأخذ « جرمانيكوس » على عاتقه مهمة إعادة بسط سلطان روما على ألمانيا ذلك بعد وقوع كارثة « فاروس » حيث أبلى بلاء حسناً ، كان كافياً لإقامة احتفالات للنصر من أجله وذلك عام (١٧م) رغم التخلى عن مشروع جعل ألمانياولاية . ثم أسندت إليه بعد ذلك مهمة هامة فىالشرق لتدعيم العلاقات مع « بارثيا » و « أرمينيا » كما منحه « تيبريوس » « السلطة العظمى » Maius Imperium تخول له حرية التصرف فى الولايات الشرقية ، ولكن « تيبريوس »أرسل«جنيوس كالبورنيوس بيزو » Gnaius Calpurnius Piso ليتولىأخطر منصبألا وهوحاكمسوريا ولكى يراقبسير الأحداث ، وكان الموقف ينبىء بكارثة ، وقد وقعتبالفعل فقد تصرف «جرمانيكوس» بغير لباقةعند زيارتهلمصر ، وتشاجر مع «بيزو» وأمره بأنيخرج من سوريا، ثم مات بعد ذلك بفترة قصيرة . وقد شك الناس فى أن يكون « بيزو » قد دس له السم ، ذلك الشك الذى أدى به إلى أن يحاكم فى روما محاكمة تثير العواطف وانتحر على أثرها ، وقد اعتبر انتحاره هذا دليلا على إدانته كما اعتبر إيعازاً « لتيبريوس » ليمهد الطرق أمام « دروسوس » وذلك لوفاة « جرمانيكوس » .

وكانت الأحقاد المريرة هى التى تحكم البلاط الإمبراطورى حينذاك ،

فقد أبعدت « أجريبنا » Agrippina أرملة « جرمانيكوس » هى وأطفالها عن « تيبريوس » ، أما « دروسوس » فلم يقف على قدميه طويلا . وظهر نفوذ جديد مشئوم فى شخص « لوكيوس أيليوس سيجانوس » Lucius Aelius Sejanus وهو فارس ينحدر من عائلة « أتروسكية » وأول رجل كان له أن يصل إلى مرتبة العظمة وهو يتولى منصب قائد الحرس البريتورى ، فقد أوعز إلى « تيبريوس » بإنشاء ثكنات دائمة فى روما ، وهكذا أصبح هو قائداً للقوات الوحيدة الموجودة فى العاصمة ، وبالإضافة إلى ذلك اكتسب ثقة « تيبريوس » وجعل من نفسه رجلا لاغناء عنه ، وفى (عام ٢٣م) لقى « دروسوس » حتفه — وقد وضحت كيفية وفاته فيما بعد — فأصبح سيجانوس عندئذ السيد الأعلى بينما كانت « أجريبنا » وأطفالها فى خطر مميت .

وفى عام ٢٦ م انعزل « تيبريوس » فى منزله الريفى المقام فى « كابرى » Capreae وقد خطا هذه الخطوة بإيعاز من «سيجانوس» الذى اكتسب ، بجانب كل ذلك عرفان « تيبريوس » بالجميل وذلك لإنقاذه حياته أثناء الانهيار (المدبر !) لسقف القاعة حيث كانا يتناولان غذاءهما .

وقد تم التنقيب عن هذه القاعة فى وقت متأخر فى « سيبرلونجا » واكتشفت بكامل تماثيلها — وهذا تصديق مذهل على ما جاء فى كتابات « تاكيتوس » . وانعزال « تيبريوس » هذا تسبب فى ازدياد عدم شعبيته فى روما ، وفى عام (٢٩م) ماتت « ليفيا » ونفيت « أجريبنا » وأطفالها — وكان سيجانوس يهدد وكأنه متحكم فى دقات الطبول كلها وبدأ يرسم الخطة ليزيح من طريقه آخر عقبة ألا وهى الإمبراطور نفسه ، ولكن فى آخر الأمر أنبئ « تيبريوس » بخيانته . وفى ١٨ أكتوبر عام (٣١ م) عقدت جلسة خاصة فى (مجلس الشيوخ) وتلى بصوت مرتفع (خطاب طويل جاء من كابرى) وقد بدأ الإمبراطور هذا الخطاب بوعد غامض

عن منح (سيجانوس) وظائف أخرى مشرفة واختتمه بإعلانه خائناً فحمل إلى السجن وشنق ، ومزق غوغاء المدينة جسده إرباً . وكان عدم ولاء سيجانوس سبباً فى تحطيم معنويات (تيبريوس) فى النهاية ، وخاصة عندما وضح أن (سيجانوس) قد دس السم لدروسوس) بعد أن اعتدى على زوجته أولا ، وفى كابرى قضى (تيبريوس) السنوات الباقية من حكمه فى عزلة تامة ، وابتهج الشعب الرومانى لوفاته عام ٣٧ م وحتى مجلس الشيوخ رفض أن يغدق عليه ألقابا مقدسة .

إن كآبة هذه السنوات كانت لها أن تترك أثراً (لتيبريوس) غير مستحب ، ولكن هذا الأثر قد ارتفع إلى درجة فائقة بتقرير (تاكيتوس) وهو قطعة فنية رائعة مليئة بسوء القصد والتشهير ، الذى أثر فى تاكيتوس هو أنه عاصر أثناء حكم (تيبريوس) بداية (الإرهاب) الذى آل إلى مثل هذه الدرجة العالية فى عهد (دوميتيان) ، ذلك الإرهاب الذى التصق به نوعان من الرعب ، أحدهما النابع من قانون الخيانة الغامض Maiestas الذى كان له أثر بعيد المدى ، والآخر الناجم عن ظهور طبقة جديدة من الوشاة المحترفين Delatores يحققون مكاسبهم من هذا القانون . والعلماء الذين حللوا بدقة قانون Maiestas أثناء حكم (تيبريوس) تمكنوا من البرهنة على أن (تاكيتوس) كان يغالى ، وأن أسوأ الأوضاع كان يرجع وجودها إلى نفوذ (سيجانوس) وأن (تيبريوس) حاول جاهداً أن يفرض التحكم فى زمام الأمور . كما وضح كذلك أن إدارته المدينة كانت رائعة حتى إن (تاكيتوس) قد اعترف خلال النصف الأول من فترة حكمه بذلك ، وقد أولى الولايات عناية فائقة كما برهن على اتزانه فى إنفاق الأموال ، وما من شىء يمكن أن يجعله شخصية جذابة ، ولكن يبدو أن من الإنصاف اعتباره حاكما ذا ضمير حى .

إن أى مقدار من الإصلاح لم يكن فى وسعه أن يفعل الكثير من أجل الإمبراطور « جايوس » (٣٧ — ٤١ م) . وكان « جايوس » قد تربى منذ طفولته فى معسكرات الجيش ، وأطلق عليه اسم مستعار هو «كاليجولا» Caligula ذو الحذاء الصغير كما كان يتمتع بشعبية خطرة بين الجنود ، ولم يفعل « تيبريوس » شيئا لتعليمه فتلقى دروسا لا تليق من « هيرود أجريبا » ومن بعض الأمراء الشرقيين الشبان الذين سمح لهم بالاختلاط بهم ، وقد كان هناك ثمة شيء يؤمن به تاما ألا وهو أن العالم ملك له يفعل به ما يشاء ، وقد كان معنى ذلك وفقاً لما هو مألوف أن ينقب عن إمكانيات هذا العالم بحثاً عن الشهوة واللذة السادية ، وقد صرح ذات مرة قائلا « كم أتمنى أن يكون للإنسانية رقبة واحدة فقط حتى يمكننى فصلها بضربة واحدة » ومن المؤكد أنه كان مضطرباً ذهنياً ، مع أنه ينقصنا دليل مستمد من فحص طبى له ، وقد صورت أعماله السياسية وكأنها صادرة عن رجل مجنون مثل انتصاره المضحك على الألمان بأسرى مأجورين لهم شعر أشقر مستعار وحملته الفاشلة على بريطانيا بجنود تلقوا أمراً بجمع قواقع البحر ، وإصراره الذى لا معنى له بضرورة إقامة تمثال هائل له فى « أورشليم » ذلك الإصرار الذى كان يجلب اليأس لليهود . . . وقد قام « بيكارد » بتفسير الحادثتين الأوليين تفسيراً يبعد بهما عن نطاق الجنون معزياً ذلك إلى أنه كان مسحوراً سحراً عاطفياً ولكن كان من المؤكد أن الإمبراطورية فى ظل حكم « كاليجولا » قد انتقلت إلى أسوأ مراحل حكم السيادة المطلقة ، وقد كانت إراحة للعالم عند ما اغتاله الجنود عام ٤١م .

أما رئاسة كلوديوس « Claudius (٤١ — ٥٤ م) فقد كشفت عن عودة إلى تقاليد « أوغسطس » ، و « كلوديوس » هو الأخ الأصغر « لجيرمانيكوس » . وعلى الرغم من أنه كان مصاباً بعاهات جسمانية وكان مهملا من والديه ، إلا أنه برهن على أنه أقدر إمبراطور جاء فى الفترة ما بين « أوغسطس »

و « فسباسيان » Vespasian وقد فرضه الحرس البريتورى على أعضاء مجلس الشيوخ المعارضين ، ولم يغفر له المجلس هـذا . وها هنا يكمن أصل العداء الأدبى التقليدى ، ولكن النقوش والحقائق المعروفة عن حكمه تظهره فى صورة أخرى . ولما كان قد كرس نفسه لتقاليد العائلة الكلودية العسكرية فقد استأنف من جديد سياسة التوسع فى حد المعقول التى كان « أوغسطس » قد تخلى عنها فى سنواته الأخيرة . وقد ساعد اختياره الحكيم للقـادة على نجاح تنفيذه لهذه السياسة إذ كان « أولوس بلاوتيوس » Aulus Plautius و « سويتونيوس باولينوس » Suetonius Paulinus و « فسباسيان » Vespasian الإمبراطور اللاحق قادة من الدرجة الأولى عهـد إليهم بقيادات هامة ، ففى الشرق تحولت تراقيا إلى ولاية رومانية ، فأدت إلى القيام بعمليات حربية موحدة للسيطرة على الشواطىء الشمالية من البحر الأسود ونصب ملك عميـل لروما على « العرش البسبورى » Bosporan ولكنه لم يتمكن من وضع يده على حـل دائم لمشكلة « بارثيا — أرمينيا » مثلما حدث لكل إمبراطور حتى « تراجان » ولكنه قوى من حدود نهر « اليوفرانيس » وأعلن Judaea اليهودية ولاية عند ما مات « هيرود أجريبا الأول » (٤٩ م) وفى أفريقيا قام بضم « موريتانيا » Mauretania إلى الإمبراطورية بعـد قيام حملة رائعة على جبـــال أطلس وتحولت إلى ولايتين .

ولكن العمل الذى نال عليه « كلوديوس » أسمى تقدير واحترام والذى امتلك ناصية خيـال عصره هو غزوه لبريطانيا . فإن « قيصر » كما يقول « تاكيتوس » ، قد أشار إلى الطريق ولكن لم يسلكه أحد طوال مائة عام . وكانت الاتصالات بين بريطانيا والعالم الرومانى فى ذلك الحين قد أدت إلى ارتفاع المستويات العادية فى بريطانيا ، ففى الجنوب الشرقى ازدهرت مملكة قوية أقيمت عاصمتها فى « كولتشيستر Colchester » هى مملكة « كامولودونوم » Camulodunum . وقد أتبعت هذه المملكة — أثناء حكم « كونبلينوس »

Cunobelinus وهو « كوميكين » الذى ذكره شكسبير — سياسة حكيمة حيال روما ولكنه مات حوالى عام (٤٠ م) وأصبح أولاده «توجودومنوس» Togodumnus و « كاراتاكوس » Caratacus معادين لروما . وكان قيام دولة قوية معادية لروما قد يشد من أزر القومية الكلتية فى بلاد الغال . فقرر كلوديوس أن يضرب ضربته . وفى عام (٤٣ م) أنزل « ألوس بلاوتيوس » قوة تتكون من أربع فرق وقوات مساعدة تعدادها ٤٠,٠٠٠ رجل إلى ريتشبورف Rich borough وانهزم البريطانيون بعد معركة استمرت يومين فى « مدواى » Medway وتقدم الرومانيون إلى « نهر التايمز » Thames وانتظروا قدوم الإمبراطور ، وقد قادهم « كلوديوس» شخصياً إلى « كولتشيستر » حيث قام أحد عشر بريطانياً بتقديم فروض الطاعة والولاء له ، ثم عاد من ذلك المكان إلى روما ليحتفل بنصره المبين (عام ٤٤ م) وبعد ذلك قاد « أولوس بلاوتيوس » هجوماً من ثلاثة اتجاهات على الغرب والشمال وتم تشكيل ولاية رومانية تمتد حدودها على طول حدود شعوب «السفرن» Severn و «الترنت» Trent ثم دعمت هذه الولاية بممالك عميلة لروما — وهى مملكة « رجنى » Regni فى «سوسكس» Sussex ومملكة « أيكينى » Iceni فى « نورفلك » Norfolk ومملكة « البريجانتيس » Brigantes الواقعة فيما وراء شعوب «الهومبر» Humber وقاوم سكان إقليم ويلز حيث صمد « كاراتاكوس » Caratacus فى مقاومة طوال ثمانى سنوات بعد أن انتخبته قبائل ويلز قائداً للحرب وقد صاحب استسلامه عام (٥١ م) إقامة عرض عسكرى هائل فى روما له أهميته بسبب قوة الاحتمال المليئة بالكرامة التى أظهرها الأمير البريطانى وتسامح « كلوديوس » وبعد مرور بضع سنوات من غزو بريطانيا ، بدأ استغلال موارد بريطانيا المعدنية وخاصة رصاص جبال « منديبس » Mendiys وأصبحت هناك حضارة مدنية على نسق الحضارة الرومانية فى سبيلها إلى الظهور . ووقع الاختيار على « كامولدونوم » لتصبح العاصمة وشيد فيها

معبدا « لكلوديوس » . إن بريطانيا التي وقعت في الأسر قد تدفقت فيها مياه محيط رومانى ، هذا ما كتبه شاعر معاصر ، والدعاية الرسمية لا تمجد دائماً غزو المحيط بصورة أقل من تمجيدها لغزو بريطانيا . والآن ، وبعد أن تم الحصول على هذه الجزيرة الغامضة البعيدة ، أصبح هناك شعور بالبهجة نابع من تحطيم الحواجز . وقام « كلوديوس » بتنفيذ أعمال هامة فى كثير من أجزاء الإمبراطورية بطموح بالغ ، ففى روما أعاد تنظيم إمداد المدينة بالماء وأضاف اثنين من مجارى المياه الواسعة إلى مجارى مياه المدينة وأجرى تحسينات عظيمة الشأن فى منشآت (أوستيا) Ostia كما بنى حوضاً جديداً للسفن يبعد عن « بورتوس» Portus بثلاثة أميال تجاه الشمال ، واستخدمت قوة مكونة من ثلاثين ألف رجل لمدة إحدى عشر عاماً للعمل فى مشروع تجفيف بحيرة «فوكينى » الضخم وذلك لاستصلاح أرضها من أجل الزراعة فى وسط إيطاليا وقد وفق هذا العمل توفيقاً جزئياً فقط ، فقد أعيد تنفيذ هذا المشروع مرات عديدة أثناء العصور الوسطى ولكنه لم يكتمل إلا فى عام (١٨٧٥ م) وأنشئت طرق جديدة عديدة وقد بلغ طول إحدى هذه الطرق حوالى ٣٥٠ ميلا رومانيا يمتد من رأس البحر الادرياتيكى فوق ممر «برنر» Brenner إلى ضفاف نهر الدانوب بالقرب من «أوجسبورج» Augsburg ولا تزال هناك نقوش نقشت على المبـــانى تشهد بتفاخر « كلوديوس » لإنجازه عملا بدأه أبوه «دروسوس» . وفى بلاد الغال أنشئت طرق تمتد حتى شواطىء المحيط الأطلنطى عند بلدة « برست » Brest و « شربورج » Cherbourg و « بولونا» Boulogne وقد وقع الاختيـار على هذه البلدة الأخيرة لتطويرها حتى تصبح الميناء الرئيسى لبحر الشمال .

لقد أثار التساهل فى منح حقوق المواطنة تعليقاً يقول بأن « كلوديوس » أراد أن يرى كل شعوب الغال ، واليونانيين ، والأسبانيين ، والبريطانيين يرتدون العباءة الرومانية Toga ولـكن إذا فحصنا سياسته نجد أنه قد وضع

شروطاً قاسية فى وجه هذه الشعوب فقد كان لا بد من وجود درجة كافية من التأثير بالحضارة الرومانية ، بالنسبة للمجتمعات ، أما بالنسبة للأفراد فلا بد من إجادة اللغة اللاتينية إجادة تامة ، وتقديم الخدمات لروما سواء فى مجال القوات المسلحة ، أو فى مجال تجارة الحبوب ، وخطابه الذى ألقاه عن السماح للزعماء الغاليين بدخول مجلس الشيوخ ، خطاب شهير ، وقد وصلنا فى نقش عثر عليه فى « ليون » Lyons كما نجده فى مؤلفات وكتابات « تاكيتوس » . وكان إنشاء مستعمرات مثل « كولتشيستر » فى بريطانيا و « كولونى » Cologne فى ألمانيا ينمى من الحضارة الرومانية فى الولايات الغربية ، ومن الجائز أن لم يدم أى عمل من أعماله سواء أكان عملا خيراً أو شريراً كما دام تطويره لنظام البروقراطية الإمبراطورى . وقد بدأ العمل به أثناء حكم « تيبريوس » أما فى أثناء حكم « كاوديوس » فقد كانت هناك ثلاثة مكاتب واسعة للمراسلات ، وتقديم التقارير وتنفيذ العدالة كما كان هنالك مكتب رابع مهمته غير معروفة بالضبط ولكنه اعتبر مصلحة للأبحاث وذلك استناداً على اسمه وهو « مكتب للدراسات » studiis «

وقد أسندت إدارة هــذه المكاتب إلى رجال من العبيد المعتقين هم (نار كيسوس بالاس كاليستوس وبولوبيوس Narcissus Palass Callistus Polybius) وأسماؤهم هـذه تدل على أنهم من أصل يونانى . وكانت هذه المكاتب تقوم بعملها خير قيام ، وأصبح رؤساؤها أغنياء لهم نفوذ واسع ، مما جعل الطبقة الأرستقراطية الرومانية تحتقرهم ، وهذا مصدر آخر انبثق منه شعور العداء التقليدى ضد « كاوديوس » ذلك العداء الذى يصوره ، وقد أصبح ألعوبه فى أيدى النساء والرجال المعتقين . ومن المسلم به تماماً أن « مسيلينا » Messalina أول زيجاته كانت طموحة ومسرفة . ولكن يبدو أن قصص الإغراء الفاحش التى تحكى عن حبها كانت من نسج أعداء كاوديوس وقد بلورها « جوفينال » Juvinal فى كتاباته فيما بعد — ولكن « مسيلينا » تآمرت عليه بالاشتراك مع عشيقها

« سيليوس Silius » وحكم عليهما بالإعدام عام (٤٨ م) وخلفتها « أجربينا » الابنة الرهيبة لأم رهيبة . ولما كانت غير قانعة بالمجد الذى أغدق عليها كإمبراطورة ، ذلك المجد الذى يفوق أى مجد أغدق على (ليفيا) قتلت « كلوديوس » عام (٥٤ م) وذلك لكى تضمن خلافة العرش لابنها « نيرون Neron » فقد كانت تأمل فى اتخاذه أداة تحكم هى بها .

وبدأت رئاسة نيرون بفترة من الحكم الصالح وذلك بتوجيه من « بوريوس» Burrius قائد الحرس البروتورى ، و « سنيكا » Seneca معلم نيرون ، ومن الجدير بالملاحظة أن رجلين من سكان الولايات أحدهما من بلاد الغال والآخر من أسبانيا قد توليا مثل هذه السلطة ، ولكن الشاب الصغير الذى أصبح سيداً للعالم وهو فى سن السادسة عشر ، سرعان ما وجد أساتذة له أكثر انسجاماً معه من فيلسوف رواقى وانقلب حكمه إلى كابوس من المؤامرات والدعارة والاغتيالات ، تلك الاغتيالات التى بسببها أصبح هذا العصر مضرباً للأمثال .

وكانت آثار هذا الفساد قاصرة على روما ، أو على حاشية نيرون فحسب ، أما أداة الحكم الإمبراطورى فقد كانت تقوم بمهامها بسهولة متناهية فى معظم أنحاء الإمبراطورية دون أن يعكر صفوها شىء ، وكان الرخاء هو الظاهرة السائدة فى الولايات ، كما كانت الاضطرابات تجابه بحزم وقوة ، ففى بريطانيا اندلعت الثورة الجامحة تحت قيادة (بوديكا) Boudicca فى عام (٦١ م) وكان المحرك لها هو جشع محصلى الضرائب الرومانيين . واستولى الثوار على لندن) و (كولتشيستر) و (سانت ألبانس) St. Albans وذبحوا سكانها وبدا الموقف لبعض الوقت ، كما لو كانت روما قد فقدت السيطرة على الولاية تماما ولكن بعد أن انهزم الثوار ، فتح باب التحقيق واستدعى (سويتو نيوس پاولينوس Suetonius Paulinus) ثم اتبعت روما سياسة أكثر اعتدالا ثبت نجاحها ، وفى جودايا Judaea حدث

انقلاب عام(٦٦م) . وفى الوقت الذى مات فيه نيرون كان (فسباسيان) منهمكا فى إخضاع الولاية جزءاً جزءاً تواجهه مقاومة دينية متعصبة . وعلى الحدود البرثية كان هناك قتال متقلب دام عشرة أعوام قام فيه (كوربولو) Corbulo لأول مرة بلم شتات جيش رومانى مفكك فى تكوينه ثم قاد القتال بعد ذلك إلى انتصارات باهرة فى (أرمينيا) ، بينما كانت هناك قوة رومانية أخرى تحت إمرة (بايتوس) Paetus قد ذاقت مرارة كارثة كانت فى طريقها إلى أن تصبح صورة مصغرة من (كرهاى) Minor Carrhae وأخيراً تم الاتفاق وذلك بترشيح رجل (بارثى) لعرش (أرمينيا) ولكنه استدعى إلى روما لتتويجه (٦٦ م) وقد نتج عن هذا التصرف سلام دام نصف قرن من الزمن .

أما فى روما ، فقد انفرج الستار عن جو من الرعب مشابهاً لرعب (التراجيديا اليونانية) وكان هذا الجو هو المادة الأولى لمآسى (سنيكا) الملودرامية . وكان مقتل (برتانيكوس) Britannicus ، ابن كاوديوس من (مسيلينـا) حادثاً يجب توقعه ، ولكنه سرعان ما تبعه مقتـل (أجريبينـا) التى ماتت وهى تلعن الجنين الذى حملته ، (أى نيرون) . وبعد موت (بروس) Burrus عام (٦٢ م) وقع نيرون تحت تأثير رئيس الحرس البريتورى الجديد وهو (تيجللينوس) Tigellinus الشهير ، وضرب بكل القيود عرض الحائط . فقد أدت مؤامرة (كايوس بيزو) Caius Biso (عام ٦٦ م) التى كان يشترك فيها عدد من الأرستقراطيين ، إلى موت الكثير بما فيهم (سنيكا) والشاعر (لوكيان) وظهر نوع من المعارضة الفلسفية بين قليل من الرجال ذوى النزعات الرواقية والمتحمسين للجمهورية ، وهم من خلفوا (كاتو) فى آرائه . وكان موت (ثراسيا بايتوس) Thrasea Paetus

و(باريا سورانوس) Barea Soranus بمثابة النهاية لزعماء هذا الحزب .
ولم تهز أى جريمة من جرائم (نيرون) مشاعر الشعب الرومانى مثلما هزه
قتل زوجته الأولى(أوكتافيا) Octavia إرضاء لمنافستها (بوبياسابينا)
Poppaca Sabina . وأخيراً عندما أمر نيرون القادة العسكريين من أمثال
(كوربولو) بالانتحار انعزل بذلك عن كل الطبقات وأصبحت الجيوش
فى حالة من الفوضى والتمرد . فأعلنه مجلس الشيوخ عدواً للشعب ثم لاقى
حتفه على يده الخاصة (٦٨ م) .

وهكذا انمحى من الوجود آخر إمبراطور من عائلة «يوليو — كلوديا»
وهو فنان من أعظم فنانى العالم ، كما يعتقد هو . وطموح نيرون الفنى والرياضى
مهد السبيل لانتشار القصص البشعة التى تسرد جرائمه . وقد تملكته الرغبة
فى أن يبرع كمغنى ولاعب قيثارة وسائق عربة حربية ، وقد وصل إلى حد البراعة
فعلا ، ففى أثناء جولته الشهيرة فى بلاد اليونان صال وجال خلال الحدود
سعيا وراء كل مناسبة يقام فيها مهرجان ثم عاد إلى وطنه ومعه مالا يقل عن
١٨٠٨ من التيجان — وهذا بالتأكيد رقم قياسى ! — ودخل عاصمته
روما . ومن العجيب أنها لم تتأثر بعبقرية إمبراطورهـــا . ولكن أشهر
حادثة وقعت أثناء حكمه هى حريق روما الكبير وما ترتب عليه . ففى ليلة
١٨ يوليو عام ٦٤ م حط على روما نوع من المصائب صلى من أجله مخطط و
المدينة ، فقد شبت النيران فى المقاعد الخشبية فى « السرك الأعظم »
Circus Maximus واندلعت بقوة لمدة أسبوع وخربت عشر مناطق من
مناطق المدينة البالغ عددها اربعة عشرة منطقة . وكانت نماذج نيرون
المجسمة على أتم استعداد ، فقد انتهز الفرصة لإعادة بناء المدينة بحماس
شديد . وكان موقفه هذا لا يطاق حتى إن الدعاية المعادية له قد نشرت
إشاعة تقول بأنه تسبب فى هذا الحريق عمدا وأصبح الموقف يحتاج وجود
كبش للفداء ، والمجتمع اليهودى فى روما قد يؤدى الغرض ولكنهم كانوا

تحت حماية « بوبيا » . ولكن كانت هناك طائفة صغيرة من اليهود المعتنقين لمذهب مختلف وكان يشك فيهم بسبب جرائم خلقية وذلك لأنهم كانوا يقومون بأعمالهم فى سرية تامة ، وكان يطلق عليهم اسم المسيحيين وذلك نسبة إلى رجل يدعى « كريستوس » Christus قد نفذ فيه حكم الإعدام فى عهد « تيبريوس » على يد « بيلاطس البنطى » Pontius Pilate وهكذا كما ورد فى مؤلفات « تاكيتوس » كانت بداية الاضطهاد النيرونى الذى جاء منه الاعتقاد بأن نيرون معاد للمسيحية « Antichrist » .

وقد أعقب موت « نيرون » حدوث أزمة حرجة . إذ لم يكن هناك وريث من عائلة « يوليو — كاوديان » وأصبح المجال مفتوحا أمام من يدعى الرئاسة ولكن لا يمكن أن يدعم هذا الادعاء إلا باستخدام القوة . وهكذا نتج عن ذلك الحوادث البشعة المؤسفة التى وقعت فى عام (٦٩م) ، عام الأباطرة الأربعة ، وكان قد مر على موقعة « أكتيوم » ما يقرب من مائة عام — وللمرة الثانية ، زج بالجيوش الرومانية فى سلسلة معقدة من الحروب الأهلية ظهر فيها ، لأول مرة وبصورة واضحة التنافس بين وحدات الجيش والوقاحة التى كان جنود كل الجبهات يعاملون بها السكان المدنيين. وكان (جالبا) Galba هو مرشح الحرس البريتورى ، يؤيده ويعضده الجيش الأسبانى ، فاتخذ لنفسه لقب (قيصر) Caesar فى أسبانيا ، وهو بذلك ، كما يقول (تاكيتوس) — يزيح الستار عن سر رهيب من أسرار الإمبراطورية ألا وهو أن الرئاسة من الممكن توليها فى أى مكان غير روما — وحل محله (أوتو Otho) ذلك لأن الحرس البريتورى قد تخلى عن تحالفه معه ، ونستشهد بتاكيتوس مرة ثانية إذ يقول (لقد أخذ اثنان من الجنود على عاتقهم مهمة تغيير مجرى إمبراطورية الشعب الرومانى ، وقد أفلحا بالفعل فى تغييرها) أما (فيتللوس) Vitellus فقد رشحه جيش الراين . ولكن الكلمة الأخيرة كانت ترجع إلى الفرق المعسكرة فى

الشرق فأعلن (فسباسيان) Vespasian إمبراطورا فى الاسكندرية فى (١ يوليو) وبعد ذلك أيدته الفرق المعسكرة فى سوريا وتلتها فرق الدانوب واستولت قواته على روما فى ٢٠ ديسمبر بعد قتال مرير دار فى الشوارع وقتل (فيتللوس) وقد وصفت أحداث هذا العام وصفا بديعا فى كتب التاريخ Historics التى وضعها تاكيتوس ورسم فيها صورا لاتنسى لمن قاموا بالأدوار الرئيسية فى هذه المسرحية وهم جالبا Galba الذى اتفق الجميع على أنه يصلح لمنصب الإمبراطور ما لم يكن قد تسلم مقاليد الحكم أبدا ، و (أوتو) Otho المخنس وميتته التى اتصفت بالشجاعة ، و (فيتللوس) الغبى الذى كان فى أحرج لحظات الأزمة يتريض فى حدائقه كحيوان خامل لن يتحرك أبدا طالما أنت تطعمه ، لا يهتم بشيء عن الماضى أو الحاضر أو المستقبل . كما وصف (تاكيتوس) بنفس المستوى البديع معركتى (بدرياكوم) Bedriacum ونهب بلده (كريمونا) Cremona الوحشى والقتال الذى دار فى روما بين فيتللوس وجنود فسباسيان من أجل الاستيلاء على الكابيتول .

وكان فسباسيان رجلا ينتمى إلى طبقة جديدة من الرجال نالوا نجاحهم عن طريق خدمتهم فى سلك الوظائف العامة ، وقد وفدت من عائلة « رياتا » Reata وهى بلدة فى أراضى السابين . ولم تكن هذه الأسرة تتمتع بمكانة أكثر من مكانة محلية حتى جاء أبوه الذى كان جامعا للضرائب فى ولاية « آسيا » أثناء حكم « أوغسطس » وكان فسباسيان قائدا للفرقة الثانية أثناء غزو « كاوديوس » لبريطانيا وتولى القنصلية عام (٥١ م) وأصبح حاكما لأفريقيا عام ٦٣ م . وفى عام ٦٦ م أصبح مستقبله العملى على وشك الانتهاء تقريبا قبل أوانه وذلك لافتقاره للسكون عند ذهابه للنوم أثناء إلقاء نيرون إحدى خطبه فى بلاد اليونان . ولكن اندلاع ثورة اليهود جعلته يتولى قيادة أخرى خطيرة ، عزل منها أثناء وقوع أحداث ٦٩ م . وارتدائه لرداء

الأباطرة القرمزى لم يفعل شيئا ليغير من لهجته السابينية ومن حياته البسيطة وتفكيره الدنيوى وبخله الشديد فى المال .

وهذه الصفة الأخيرة كانت وقتية فقط ، لأن بذخ نيرون والحروب الأهلية كانت قد أفلست الدولة تقريبا فأصبح حكم فسباسيان يتميز كله بالتقشف والإصلاح المالى . وعندما أصبح « كنسور » Censor فى عام (٧٤ م) قام بتعديل نظام الضرائب كله ، فقد ألقيت أعباء جديدة على الأفراد والمجتمعات وارتفعت الجزية التى كانت تدفعها الولايات وأصبح البلاط الإمبراطورى يعيش حياة بسيطة وأصبح الموظفون الماليون مطالبين باتباع الأمانة الحقة . وكانت هذه الإصلاحات ناجحة بما فيه الكفاية حتى إنها لم تجعل الدولة تقف على قدميها فحسب ، بل مكنت الإمبراطور أيضا من تنفيذ مشاريع البناء فى روما .

أما فى بلاد الغال وفى جودايا فقد آلت إلى فسباسيان تركة من المتاعب فالأحداث التى أدت إلى موت نيرون كانت قد تسببت فيها ثورة قامت فى بلاد الغال تحت زعامة (فنديكس) Vindex لها طابع الانتفاضة القومية وقد سحقت هذه الثورة . ولكن سرعان ما انبثق انقلاب آخر أكثر خطورة تحت زعامة (كيفيلس) Civiles وقاد لواء من القوات المساعدة مكونا من مواطنى بلدته وصمم على تحرير (بتافيا) Batavia من النفوذ الرومانى وقد انضمت إليه قبائل من الألمان الأحرار الذين جاءوا عبر الراين وبعد ذلك أعلنت القوات المساعدة الغالية أيضا تمردها على قيادة (كلاسيكوس) Classicus زعيم شعب (الترفيرى(Treveri وأقامت هذه الثورة امبراطورية لشعوب الغال استطاعت أن تكتسب ثقة الجنود الرومان المعسكرين فى (فتيرا) Vetera وانتشرت فى بلاد الغال إشاعات خبيثة تقول إن تدمير الكابيتول فى عام (٦٩ م) يعنى نهاية الحكم الرومانى وانتقال زعامة الإمبرطورية الغالية إلى الشعوب الكلتية . وهناك عرافة تدعى (فيليدا) Villeda قد تنبأت

للشعوب الألمانية بذلك أيضا . ولكن عندما تمكن فسباسيان من إرسال قوة هائلة انهارت الثورات وأجبر (كيفليس) على التراجع إلى المستنقعات . ولتحاشى حدوث خطر مشابه فى المستقبل أصبحت لواءات القوات المساعدة منذ ذلك الوقت تحت إمرة ضباط إيطاليين . ووزعت هذه اللواءات كل على حدة خارج أوطانهم .

أما فى (جوديا) فقد انهمك (تيتوس) بن فسباسيان فى إشعال الحرب وبعد حصار رهيب دام ١٣٩ يوماً سقطت أورشليم وخرب المعبد وحملت كنوز المدينة لاستخدامها فى مواكب انتصارات تيتوس وفسباسيان الرائعة كما وهبت الجزية التى كانت تدفعها أورشليم إلى (جوبيتر كابيتولينوس) Jupiter Capitolinus ولكن صمود قلعة (ماسادا) Masada الواقعة على البحر الميت طوال عامين كان دليلا على استمرار مقاومة اليهود . ولا يزال من الممكن رؤية آثار أعمال هذا الحصار . وقد وصفت كل هذه الأحداث وصفاً حيوياً فى كتاب (جوسيفوس) (يوسف اليهودى) Josephus الذى كان موالياً للرومان والذى شاهد سقوط أورشليم وهو واقف بجوار تيتوس مع أنه كان يهتم اهتماماً كبيراً بالحضارة والدين اليهودى .

وكانت نهاية هذه الثورة تعنى إعادة السلام إلى نصابه فى الإمبراطورية فأغلقت أبواب معبد (يانوس) Janus وشيد معبد السلام الرائع وأضيف إلى مبانى الأسواق الإمبراطورية . وكان فسباسيان ، مؤسس الأسرة الحاكمة الثانية ، مهتما بتشكيل سياسته على غرار أوغسطس مؤسس الأسرة الأولى ، فأغدقت الرعاية على الفنون وأنشئت كراسى للبلاغة اليونانية واللاتينية فى روما . وكان المظهر الرئيسى من مظاهر إدارته المدنية هو مكانة (تيتوس) ابنه الأكبر الذى نصب بالفعل شريكا له فى الحكم وعين

خليفة له . بينما قدر لابنه الأصغر (دوميتيان) Domitian أن يحافظ على كيان عائلة (فلافيوس) لتصبح الأسرة الثالثة الحاكمة . وقد تسبب هذا فى انبثاق معارضة رواقية مرة أخرى وأعدم (هلفيديوس بريسكوس) Helvidius Priscus عام (٧٥ م) زوج ابنه (ثراسيا بايتوس) ضحية نيرون. كان فسباسيان بصرف النظر عن هذه الحادثة يعامل مجلس الشيوخ بكل احترام ، مع أنه لم يطلق له العنان تماماً . وبعد مماته أله بأمر من المجلس وهو ثانى إمبراطور بعد أوغسطس يلقى هذا الجزاء .

أما (تيتوس) Titus ثانى إمبراطور من عائلة فلافيوس فقد فاق أبيه فى شعبيته أثناء حكمه القصير الأمد (٧٩ — ٨١ م) وكان معروفا باسم (حبيب الجنس البشرى) . والتساؤل عما إذا كان يستطيع الاحتفاظ بشعبيته لو قدر له أن يعيش فترة أطول قد يكون أمراً مشكوكا فيه . فإن نيرون ، بل حتى كاليجولا ، قد بدأ بداية طيبة ، ولكن كانت روما تتمتع على الأقل لمدة عامين بإمبراطور أصيل سخى عطوف على كل الناس، عدا الوشاة والجواسيس وعلى الرغم من أن مدة حكمه كانت قصيرة إلا أنها تتميز بحدوث مصائب وكوارث طبيعية ، فقد انتشر الطاعون انتشاراً مهلكا ، كما شب حريق هائل فى روما وثار بركان (فيسوفيوس) ثورته الشهيرة التى دمرت (بومبىء) و (هيركولانيوم) Pompii, Herculaneum .

أما الإمبراطور الثالث من أسرة فلافيوس ، (دوميتيان) Domitian (٨١ — ٩٦ م) فكما جاء فى كتابات مارتيال Martial جعل الأمور تبدو كما لو كان من الأصلح ألا يتربع على العرش الاثنان السابقان له . إن التيار الجارف للمعارضة المعادية لدوميتيان يصبح كدقات أجراس مرتفعة عند (تاكيتوس) و (جيوفان) فبعد موته دمرت تماثيله ومحى اسمه من فوق النقوش، ولعنت ذكراه. ولكن من الواضح أن عداوته كانت تقتصر على الطبقة الأرستقراطية الرومانية لأن هذه العداوة قد ظهرت

فى السنوات الأخيرة من حكمه (٩٣ — ٩٦ م) عندما أصبح طاغية مستبداً متقلب الأطوار . فنتج عن ذلك حكم الإرهاب الحق ، وانتشر الوشاة بصورة لم يسبق لها مثيل أبداً ، وقضى على كل من كانوا يقفون فى طريق (دوميتيان) . ولكنه برهن على أنه إدارى قدير معظم فترة حكمه يسير على نهج تيبريوس . لقد كان فى الواقع فى كثير من الأحوال مثل موظفى المكاتب المجتهدين فى العصر الحديث الذين يقال عنهم إنهم كرسوا أنفسهم لشئ ، ولكن لماذا ؟ بصرف النظر عن قدراتهم — هذا غير مؤكد — وإن وجهة نظر دوميتيان فى سلطته كانت متطرفة بالتأكيد ولكونه حاكما استبدادياً بطبيعته فقد كان يحب أن يخاطب (بمولانا وإلهنا) وكان يحكم بسيادة القيصر الروسى المطلقة ، فقد حد من سلطات مجلس الشيوخ حتى أصبح لاحول له ولا قوة وذلك عندما حصل (دوميتيان) على السلطة الكنسورية لمدى الحياة ، تلك السلطة التى مكنته من السماح للأعضاء بدخول المجلس أو طردهم منه .

وكانت سياسته الخارجية تتميز بتطورات هامة على الحدود ففى بريطانيا كان يقوم بخدمته حاكم قدير فى شخص « جنايوس يوليوس أجريكولا » Gnaius Julius Agricola حمى «تاكيتوس» فقد نظم غزو شمال ويلز وانجلترا الشمالية وقام بحملة استغرقت خمس سنوات فى اسكتلندا وأحرز نصراً مبيناً على قبائل الأراضى المرتفعة Highland ، ولكن استدعاء « دوميتيان » وأعاد النظر فى خططه الخاصة بضم « كالدونيا » وقد حدث إعادة النظر هذا دون شك بحكمة على ضوء ما مر بهم من صعاب . وفى جنوب غرب ألمانيا أكمل « دوميتيان » عملا كان قد بدأه فسباسيان ، الغرض منه احتلال الزاوية الواقعة بين الراين وأعالى نهر الدانوب وهذا الموقع يحميه الممر الألمانى Limes Germanicus . وهو خط دفاعى حصين ، ولكن كانت المنطقة الواقعة فى الدانوب السفلى هى التى واجه فيها « دوميتيان » أعوص

تجربة لاختبار قدراته ، ومنذ هذا الوقت كان لهذه البقعة أن تصبح أخطر مكان من كل أرجاء الإمبراطورية . وظهرت نذر الخطر من مملكة «داكيا» Dacia (وهى روما الحديثة بالتقريب) التى كانت تقع ما بين الدانوب والكارباثيين Carpathians بما فيها أراضى ترانسلفانيا Transylvania المرتفعة فى وسطها،وكانت هذه البقعة أرضاً غنية بمعادنها — الفضة والحديد والذهب — بالإضافة لأرض صالحة للزراعة تماما فى الوديان ، وكانت القلاع الهائلة المقامة على التلال تتحكم فى الطرق الاستراتيجية ولا تزال أعمال التنقيب قائمة بها . وفى ايام قيصر كان هناك حاكم قوى هو « بوربيستا » Buribesta أقام مملكة قوية مهيبة حتى إن قيصر كان يعد العدة ليشتبك معه ، ولكن وافته منيته . لكن بعد موت بوربيستا نفسه تضاءل خطر مملكته « داكيا » طوال قرن من الزمن . ثم كان له أن يظهر من جديد على يد ملك أكثر طموحا وهو « دكبالوس » Decabalus وقد خلق هذا الرجل أقوى مملكة فى وسط أوربا ، وأخذ من جيرانه القاطنين على طول نهر الدانوب حلفاء له، وأقام علاقات دبلوماسية مع بارثيا . وفى عام (٨٥م) قام جيش من مملكته داكيا بغزو ولاية (مويسيا) Moesia وجابهت روما حربا شعواء ومنيت بهزيمة منكرة عام (٨٦م) إلى جانب فقدانها « فوسكوس» القائد Fuscus . وفى العام التالى أحرزت روما نصراً فى «تاباى» Tapae حيث قتل دكبالوس كما يقال ، ولكن اندلاع الثورة فى أعالى الدانوب وبين جيوش الدانوب منعت « دوميتيان » من الوصول إلى حل لمشكلة مملكة داكيا . فتم عقد السلام بشروط اعتبرها المؤرخون شروطا غير مشرفة وكانت بالتأكيد تنص على دفع الجزية . وقد برهن الزمن أن دكبالوس لم يتخل أبداً عن آماله العريضة .

وفى نفس الوقت وبقوة دفعت ثورة (لوكيوس أنتونيوس ساتورنينوس) Lucius Antonius Saturninus (٨٨م) حكم (دوميتيان) إلى مرحلة أسوأ . وبدا فى

ذلك الوقت اضطهاد الطبقة الأرستقراطية ذلك الاضطهاد الذى ترك مثل هذه الانعكاسات الكئيبة فى كتابات تاكيتوس وجوفينال . وأصبحت مدينة روما عبارة عن خليط من الرعب والتملق ، لا تنبع منها أى معارضة لا من جانب الرواقيين ، وهم أحفاد الرواقيين الشهداء الذين عاشوا فى ظل حكم نيرون ، والفلاسفة والمستشارين . فنحن نسمع عن حادثتين من حوادث نفى الفلاسفة بما فيهم « أبيكتيتوس » و « ديوخروسوستوم » Epictitus, Dio Chrysostom وعن موت العديدين من الأرستقراطيين الرواقيين. ولم يكن تاكيتوس راضياً عن عنادهم الذى لا جدوى فيه وذلك عند مقارنتهم بواقعية هؤلاء الرجال من أمثال «أجريكولا» الذى برهن بسيرة حياته أنه من الممكن ظهور رجال أكفاء تحت إمرة إمبراطور فاشل يتولون الخدمات العامة . ومهما قد يظن الإنسان بعناد الرواقيين إلا أنهم حافظوا على الكرامة الإنسانية فى وجه الطغيان . ولم تكن معتقداتهم لا أثر لها ، لأنه بعد أن أغتيل دوميتيان نتيجة مؤامرة أحيكت فى القصر عام (٦٩ م) أصبح من الواضح أن تولى الرئاسة لا يمكن أن يستمر على سياسة التوارث العائلى .

وهكذا حلت فاتحة عصر جديد وذلك باختيار عضو من مجلس الشيوخ ليصبح إمبراطوراً وهو « نيرفا » (٦٩ — ٩٨ م) ويرجع ذلك إلى خصائصه الطيبة ولكن يرجع أكثر من ذلك إلى افتقاره لبعض المساوئ المعينة ، وكونه رجلا مسناً كان فى الصالح تماما فإن شارل دوى جول ، يصرح لنا قائلا « إن الإنسان لا يصبح دكتاتوراً وهو فى سن الثالثة والستين من عمره » وقد كان « نيرفا » Nerva فى السادسة والستين . لقد كان رجلا مدنياً يليق بمجلس الشيوخ ولكن قد لا يكون هناك على الأقل مثل هذا التنافس بين وحدات الجيش الذى أدى إلى وقوع أحداث عام (٦٩ م) وقد يكون حكمه فترة نقاهة للدولة ولكنه ربما يكون طويلا بما فيه الكفاية

لكى يتنفس الناس الصعداء بعد الإرهاب ولكى يتوصلوا إلى حل أكثر دواما . ويقول تاكيتوس عنه إنه مزج شيئين كانا متعارضين فيما قبل ألا وهما الرئاسة والحرية . وتعنى كلمة الحرية هنا ، حرية مجلس الشيوخ ، ولقد أظهر نيرفا للناس اختلافا بينا عما سبقوه ووضع مصالح روما وإيطاليا نصب عينيه ولكن إدارته كانت إدارة ضعيفة ولم يتمكن من تحاشى الوقوع فى مشاكل جديدة إلا بتبنيه قائد جيوش ألمانيا العليا « ماركوس أولبيوس تراچانوس » Marcus Ulpius Trajanus ليخلفه .

لقد كان لهذا الاختيار والرجل الذى وقع عليه الاختيار أهميته ، فالكل ، عدا قليل من المتعصبين ، كانوا مقتنعين بضرورة دوام الرئاسة . والمشكلة السياسية القومية التى ترتبت على هذه الضرورة هى أن الرئيس لابد وأن يكون أقدر رجل فى الدولة وقد وضح لمدة طويلة وخاصة عن طريق المفكرين الرواقيين أنه قد يتم هذا باتباع وسيلة التبنى . وفى الواقع مكنت هذه الوسيلة روما من التمتع بأطول فترة تتولى فيها حكومة صالحة زمام الأمور (٩٨ — ١٨٠ م) وذلك خلال حكم تراچان Trajan هادريان Hadrian .

كان « تراجان » مواطنا أسبانيا من عائلة حديثة العهد ، وهو أول إمبراطور ينتمى إلى ولاية غير إيطالية يعتلى العرش وقد اعتبره معاصروه وخلفاؤه من أقدر الأباطرة الرومان ووضعوه فى مرتبة أوغسطس . وتضع الشواهد الأدبية الضئيلة العقبات أمامنا — ذلك إن كان هناك تعبير أدبى واحد عن أفكار هذا العصر يصلح لمقارنته بأروع أعماله الفنية : ألا وهو عمود تراجان . ولكن ليس من المحتمل أننا سنختلف مع هذا التقييم للعمود ذلك لأن حكم تراجان كان يتميز ببرنامج تحررى فى إيطاليا كما يتميز بإدارة ممتازة للولايات وأعلى درجة من درجات توسع النفوذ الرومانى بعد أن قام بغزواته فى داكيا وبارثيا Dacia Parthia, وعلاوة على ذلك فإن بناء تراجان للسوق الرومانية Forum قد توج روعة روما الحضارية .

وإن إمدادات المونته Alimenta وهي الهبات التي كانت تمنحها الدولة للمحافظة على الأطفال في إيطاليا كانت أكثر المراحل نضوجاً في مجال الحياة الاجتماعية في العالم الروماني وقد بدا هذا المشروع كمشروع خاص ثم تولته الدولة أثناء حكم «نيرفا» وأوسعه تراجان . وكانت تموله سلف الدولة التي تمنحها للفلاحين بمعدل ١ / ١٢ أو ١ / ٢٠ من قيمة ثمن أراضيهم ، وكان الفلاحون يدفعون لهيئاتهم المحلية أرباحاً بنسبة منخفضة (حسب مقاييس تلك الأيام) قدرها (٥ ٪) وكانت الهيئات المحلية تقوم بتوزيع هذا الدخل من الأرباح على شكل منح لآباء الأطفال الفقراء ، وهناك نقش جاءنا من « فاليا » Valeia الواقعة بالقرب من « بارما » Parma يرجع تاريخه إلى (١٠٣ م) يشرح طريقة تطبيق هذا المشروع : فكانت الدولة تخصص رأس مال أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ سستيرسيس تقدمه للفلاحين المحليين ، ويدر رأس المال هذا ربحاً سنوياً قدره ٥٢٢٠٠ سستيرسيس . ومن هذا الربح كان هناك ٢٤٥ صبياً يتسلم كل منهم ١٦ سستيرسيس شهرياً ، و ٣٤ فتاة تتسلم كل منهن ١٢ سستيرسيس شهرياً ، وهناك اثنان من الأطفال غير الشرعيين تعم عليهم أيضاً فوائد هذا المشروع (وهذا يدعو للحيرة) الولد بمعدل ١٢ والفتاة بمعدل ١٠ سستيرسيس . وقد علمنا من النقوش أن أكثر من ٤٠ مدينة إيطالية قد ساهمت في هذا المشروع الذي توسع فيما بعد وطبق في الولايات . إن هذا المشروع لا بد وأنه كان عوناً للزراعة بقدر ما كان عوناً للعناية بالأطفال كما أن تكاتف الهيئات المركزية والمحلية المسئولة في هذا المشروع ظاهرة جديرة بالملاحظة . ولا عجب أن النقوش البارزة المنحوتة على قوس تراجان في بنفنتوم Beneventum تصور هذه المنح على أنها إحدى أمجاد حكمه .

لقد كان إشرافه على المصروفات العامة في كل أجزاء الإمبراطورية لا ينقطع، بل وربما كان مبالغاً فيه ،فقد كان هناك أكثر من سبعين مدينة

من مدن الولايات التابعة لمجلس الشيوخ ملزمة بأن تقدم تقاريرها إلى مبعوثي المجلس الشخصيين Curatores وفي بعض الأحيان كانت ولايات بأكملها تحظى برعاية فائقة مثلما حدث عندما عين « بلني » Pliny حاكما « لبيثونيا » Bithynia ولا يمكن اعتبار المراسلات الشهيرة بين بليني وتراجان من لوازم العلاقات بين إمبراطور وحاكم ولاية ، فقد كانت بيثونيا منطقة لها اعتبار خاص وكان بليني رجلا في منتهى الدقة والحذر . وعلى الرغم من ذلك فقد وصلت السيطرة المركزية على هذه الولاية إلى درجة مذهلة فإقامة المباني وإنشاء فرق إطفاء الحريق ووجود المجتمعات الخاصة والعبادات الدينية ، والشئون المالية البلدية والقرارات القانونية كل ذلك خلق مشاكل كان «بليني» يطلب فيها نصح الإمبراطور . كما تمدنا مراسلاتهما هذه ببعض الأدلة الأولى على وجهة نظر الحكومة الإمبراطورية في المسيحية .

وعلى الرغم من ذلك فإن شهرة تراجان كانت دائما شهرة الإمبراطور العسكري إذ يتميز عن كل الأباطرة بحروبه في داكيا وبارثيا . وربما تظهر حروب داكيا الجيش الروماني وهو في قمة عظمته وذلك بفضل إمرة قائده المغوار بالتأكيد . ومما يدعو للأسف أننا لا نستطيع أن نضع تعليق تراجان بجوار النقوش البارزة المحفورة على عامود في روما لنصدر حكما عادلا تماما على ما يحتويانه من أعمال مجيدة . والحقيقة أننا نستمد من العامود صورة رائعة للجيش الروماني وهو في أرض المعركة وذلك بتفاصيل كاملة عن تحركاته العسكرية ومهماته وبتأكيد اعتماد هذا الجيش على القائد Imperator كما نرى كذلك مقاومة أهل داكيا العنيفة وأسلحتهم وعتادهم وقلاعهم الهائلة وملكهم العظيم « دكبالوس » وهو رجل جدير بأن يكون خصما لتراجان نفسه . ولكن فشلت كل محاولات العلماء المحدثين لتكوين تاريخ سردي متصل بالحملات التي قام بها، من النقوش المحفورة على العامود. وعندئذ يكفي أن نقول إنه ما إن جاء عام (١٠٦ م) حتى كان «دكبالوس» قد مات ووقعت داكيا في أيدي الرومان وضمت إلى الإمبراطورية بوصفها

ولاية . وقد طرد معظم سكانها وذلك لإيجاد أرض جديدة للمستوطنين كما حدث مراراً وتكراراً للهنود أثناء توسع الأميركيين تجاه الغرب . وقد كان استعمار « داكيا » هذا الذى قام به سكان أجزاء عديدة من الإمبراطورية هو الذى ترك أثراً لا يمحى للحضارة اللاتينية فى رومانيا . وقد دعم كنز ملك «دا كيا » الخزانة Fiscus الرومانية بإمدادات هائلة من الذهب والفضة .

وأسباب قيام تراجان بحروبه فى بارثيا (١١٤ — ١١٦ م) ليست واضحة تماما ولكن من المحتمل أنها جاءت نتيجة لخرق الاتفاق الذى عقده نيرون فى أرمينيا . وبقيامه بثلاث حملات ضم تراجان أرمينيا وبلاد ما بين النهرين بوصفهما ولايات كما استولى على عاصمة بارثيا « كتسيفون » Ctesiphon واتجه جنوبا إلى رأس الخليج الفارسى بالقرب من مدينة « عبدان » الحديثة وهناك رأى سفينة تمر تجاه الهند وكانت رأسه حينئذ مزدحمة بالأفكار عن الاسكندر ، وكان ذلك هو زمن ذروة نجاح روما ضد بارثيا ولكن المتاعب حدثت سريعا ففى عام (١١٧ م) اندلعت ثورة فى الولايات البرثية المهزومة كما أثرت ثورة يهودية رهيبة على مصر وقبرص وقد جد كثير من المشاكل أثناء غياب الإمبراطور فاتجه تراجان إلى وطنه ولكنه مات فى « كيليكيا » Cilicia وكان مجلس الشيوخ قد أصدر حكمه على رئاسته وأغدق عليه لقب « الأول والأعلى » Optimus وهذا استخدام لأفعل تفضيل كان حتى ذلك الوقت موقوفا على « جوبيتر » نفسه .

إن نظام التبنى قد مهد الطريق أمام خليفة جدير بأن يخلف هذا الإمبراطور العظيم هو حارسه الخاص ، ومواطن من نفس بلدته يدعى (بوبليوس إيليوس هادريانوس) Poblius Aelius Hadrianus كان هادريانوس (١١٧ — ١٣٨م) رجلا لكل المواقف ذا طاقة عقلية وجسمانية

خارقة للعادة وتشوق شديد لمعرفة كل شيء عن الدنيا . وعندما كان مع جيشه كان يشارك الجندى العادى تدريبه . ويزاول التمارين العسكرية ، وتدريبات السير ، ويرفض أن يستخدم عربة لتنقلاته ، وقد تسلق جبل اتنا Etna وهو فى سن الخمسين من عمره وقام شخصياً بعمل مسح ليحدد موقع السور الرومانى فى بريطانيا ، ولما كان نصيراً متحمساً طوال حياته للثقافة اليونانية فقد اطلع على أسرار « اليوسيس » Mystries of Eleusis وقام ببناء حى حديد فى مدينة أثينا . وفى دلفى سأل العرافة عن مولد هومير وأصله فجاءته الإجابة المذهلة بأنه كان ابناً « لتليماخوس » ، وقد كان راعياً للفنون كما كان هو نفسه مهندساً معمارياً مرموقاً وخلاقاً . والقليل من الرجال فى التاريخ من ترتبط أسماؤهم بقائمة تشييد هذه الأبنية الضخمة مثل « الألمبيون » Olympcion فى أثينا والمعبد المقام فى « كوزيكوس » Cysycus ومعبد « فينوس » فى روما والمنزل الريفى ، أو بالأحرى القصر الصيفى فى تيفولى ومقبرة هادريان .

وكان له أن يواجه فى بداية حكمه ، مشكلة إيجاد قرار حاسم بشأن فتوحات تراجان ، وقد فضل التخلى عن سياسة التوسع والتنازل عن كل ما يقع شرق نهر « ايوفراتيس » Euphrates و يقال إنه أيضاً فكر فى التخلى عن داكيا ولكنه تراجع لأن الاستعمار كان يسير سيراً حسناً ، وربما كان تغيير سياسة تراجان هذا هو الذى تسبب فى مؤامرة القناصلة الأربعة (١١٧ م) وكانوا كلهم أعضاء فى هيئة قادة تراجان . وتميزت سياسة « هادريان » بالحزم فى شتى أوجهها . فقد راجع نظام الضرائب وألغى المستحق منها ، ووضع خطط مشروع جديد يستمر لمدى خمسة عشر عاما على الرغم من أن الحد الذى وصل إليه تنفيذ هذا المشروع غير مؤكد . كما تولت مصلحة إمبراطورية ، كان قد تم توسيعها ، يتكون أعضاؤها من الفرسان الرومان ، جمع الضرائب بشتى أنواعها . ومن الممكن معرفة

النظام الذى اشتق منها مباشرة فى شكل البروقراطية التى تضخمت فى الأزمة المتأخرة من عصر الإمبراطورية .

وكانت عناية هادريان بالجيش لا تتوقف أبداً ، فقد أزاد من صرامة نظمه وبدأ استخدام تكتيكات جديدة ووصلت وحدات الجيش إلى مستوى عال من المران . وقد وصلتنا شذرات من خطابه الذى ألقاه على الجنود بعد المناورات التى قاموا بها فى قاعدة « لامبايسيس الإفريقية » Lambaesis وهذه المناورات كانت عبارة عن دورة لا بد أن يتكرر القيام بها فى كل الحدود . وقد دعمت الحدود نفسها كما وقع الاختيار على خطوط دفاعية جديدة فى الأماكن الضرورية . وأهم مثال نضربه على ذلك فى بريطانيا حيث قام هادريان بعمل يعد أروع قطعة من قطع الهندسة الحربية فى العالم القديم عندما أقام أسواراً تمتد من «تين» Tyne إلى « سولواى » Solway (٧٣ ميلا) لتصبح الحدود الشمالية للولاية . وبنفس المقدرة — بل وأكثر دواما فى النهاية — كانت مراجعته للقانون وتصنيفه على يد خبراء القانون فى ذلك العصر ، وبالذات ، Edictum Perpetuum « المنشور الدائم » الذى قام بعمله « سالفينوس يوليانوس » Salvinus Julianus ومؤرخو القانون يعتبرون هذا العمل من أروع الأعمال التى أتى بها علم القانون الرومانى .

ويجب أن نضيف إلى كل هذا الإصلاحات المحلية التى لا عدد لها والتى نتجت عن رحلات هادريان فى الولايات والتى تكتظ بها فترة السنوات العشر من (١٢٠ — ١٣٠م) فقد قام بجولة أولا فى الغال ، وبريطانيا ، وأسبانيا وموريتانيا Mauretannia (١٢٠ — ١٢٣م) ثم آسيا واليونان وبنتوس Pontus وصقلية (١٢٣-١٢٧م) وإفريقيا عام (١٢٨م) وأخيراً قام بجولة أخرى فى الشرق تضمنت سوريا وجزيرة العرب ، ومصر ولم يحدث أن رأى رئيس آخر للدولة جزءاً كبيراً من الإمبراطورية كهذا على حالته ،

ومن الممكن ذكر مثلين من أمثلة الإصلاحات ، ففي بريطانيا أدخلت مدينة « فيروكونيوم » الصغيرة (وهى جروكستر) ضمن مشروع تخطيط المدن عندما بدأ ازدهار الحضارة الرومانية أثناء حكم « أجريكولا » ولكن صرفت اعتمادات هذا المشروع أو اختفى المتخصص له . فبعد مرور أربعين عاماً على ذلك ، كان وسط المدينة به مبانى عامة لم تكمل بعد ، ولم يكن منظراً مشرفا لزائر من الأباطرة ، وبسبب النشاط الذى جاءت به زيارة هادريان لبريطانيا انتهى إكمال السوق العامة Forum على نطاق أكثر اتساعا ووهب هذا السوق له . ومن الممكن رؤية النقوش التى نقشت على هذه المبانى فى متحف « شروسبرى » . أما فى أفريقيا فقد كانت هناك مشاكل جدية خاصة بالمستعمرين أصحاب الأرض « Coloni » الواقعة فى المقاطعات الإمبراطورية التى وصلت مساحتها إلى حجم هائل منذ إجراءات مصادرة الأراضى أثناء حكم نيرون . وقد أيد هادريان حقوقهم وقام بحمايتهم من سوء الاستغلال ، وبالفعل حث من يمتلكون الأراضى عن طريق وضع اليد على استعمار الأراضى البور ، وقد علق « ديوكاسيوس » على مدن الإمبراطورية تعليقا موجزا بليغا ، إذ قال « لم يقم أى إمبراطور آخر بزيارة مثل هذه الأجزاء العديدة من الإمبراطورية كما فعل هو . وقد قدم العون لكل الناس دون استثناء فمن أجل بعض الناس مد أنابيب المياه ، وللآخرين أقام الموانى ، ولآخرين شيد المبانى العامة ومنحهم ممتلكات وامتيازات » . وهناك مجموعة من المسكوكات ، يعد بعضها من أروع ما سكته دار السك الرومانية ، وهذه المجموعة تعد مجموعة تذكارية للرحلات التى قام بها فى الولايات كما أنها تصور الطابع المميز لكل ولاية .

ولم يرزق هادريان بأطفال وأصبح وجود خليفة له لابد وأن يتم عن

طريق التبنى ، وتتفق كل المصادر التى وصلتنا عنه على أن الرجل الذى وقع عليه أول اختيار له وهو « لوكيوس كومودوس « Lucius Commodus قبل أن يموت هادريان نفسه. أما ثانى اختيار له فقد وقع على رجل قدر له أن يتمتع بأكبر نصيب من التقدير فى كل أنحاء الإمبراطورية دون غيره من كل الحكام الرومان ، وهذا الرجل هو «انتونينوس بيوس » Antoninus Pius (١٣٩ — ١٦١ م) وكان انتونينوس فى سن الواحدة والخمسين وذلك عندما تبناه هادريان وكانت فترة حكمه هى أوج مجد السلام الإمبراطورى الطويل الأمد الذى اعتقد الأستاذ « جيبون » Gibbon أن أحوال الجنس البشرى خلاله كانت أكثر الأحوال يمنا وازدهاراً ، وأصبح العالم الرومانى يحكمه رجل مهذب مستقيم ، كرس حياته لخدمة رعاياه ، صارم فى ميوله ، يجد متعته فى الحياة العائلية التى يقضيها فى مقاطعاته الريفية، وليس من الممكن أن يكون هناك حاكم بعيد كل البعد عن اللوم مثل هذا الحاكم . أما فترة حكمه فلم يتخللها وقوع أحداث هامة ، كما أنه لم يقم برحلات إلى الولايات بل كانت علاقاته بمجلس الشيوخ علاقة توافق وانسجام كما كان يراجع القانون بصفة مستمرة فأصبح هذا القانون أكثر إنسانية . وفحوى حكمه تتلخص فى كلمة السر التى قالها لحارسه وهو على فراش الموت وهى « الموازنة والاتزان » Equanimity وعندما نقارن بين هذا الاتزان الذى ساد عصره وبين الكوارث المفاجئة التى حلت بالإمبراطورية فى عهد « ماركوس أوريليوس » Marcus Aurilius نجد أن هذه المقارنة جافة صعبة حتى إن المؤرخين لجأوا إلى استخدام الصور البلاغية عند عرضها . فهم يصفون عصر «انتونينوس» مثل يوم مشرق من أيام أواخر الصيف أو أو هدوء يكتنف البحر سيهب منه رياح لتسير سفينة الدولة فى مجرى جديد ولكن هذا لا يجدى، إذ أن وقوع الكوارث المفاجئة قد يرجع إلى الافتقار لبعد النظر ؛ كما أن الموازنة والاتزان ماهى إلا مرحلة من مراحل العقل لا يستطيع أن يوفرها أى حاكم . ويميل المؤرخون المحدثون إلى فترة حكم

« أنتونينوس » باعتبارها السنوات العجاف للإمبراطورية الرومانية ، فى وقت ترك فيه الجيش ينزل من علياء مستوياته الرائعة التى كان قد وصل إليها فى عهد هادريان ، وبلغت الولايات مرحلة الانحلال أثنـــاء غياب الإمبراطور كما كان فاتحة الاتصال بالشعوب المتبربرة القاطنة على الحدود ، ولم تتخذ فى هذا العصر أى حركة تقدميـــة إلا فى بريطانيا حيث أقام « أنتونينوس » سوراً جديداً فى أقصى الشمال يمتد من مدينة (فورث Forth) حتى مدينة (سليد Clyde) وهذا الحائط كان بمثابة خط دفاعى أقصر من الخط الذى أقامه هادريان (إذ يبلغ طوله ٤٤ ميلا فقط) ولـكن بناء هذا السور منحنيا كان أسهل من بناء سور هادريان على هذه الصورة . ووراء هذه الأسوار بين ربوع العالم المتبربر الممتـــد من غابات ألمانيـا وبولندا حتى أبواب روسيا ومنغوليا ، كان هناك بين شعوب هذه المناطق حركة قلقلة لا يهدأ لهـا حال . ولم يعلم الرومان عنهـا شيئا حتى ارتطمت أمواج هذه الحركة فى آخر مراحل اكتمالهـــا بأسوار الراين والدانوب الدفاعية فجاء الوقت الذى يجب أن يدفع فيه العالم ثمنا باهظا عن الأيام السعيدة التى قضاها (أنتونينوس) فى جمع محصول الـكرم فى بلدة (سيجما) Sigma .

لـكن على الأقل لم يفشل « أنتونينوس » فى تعليم خليفته إذ لم يحدث أن تربع على العرش حاكم قد تسلح بالعلم بصورة أقدر من ماركوس أوريليوس ولو قدر لفترة حكمه (١٦١ — ١٨٠ م) أن تأتى فى أحوال أكثر ملائمة لأصبحت بمثابة حكم عادل على النعم التى افترض « أفلاطون » أنها تعم على الدنيا عندما يصبح الفلاسفة ملوكا ، لأنه كان قد تشبع تماما بطابـــع الفلسفة الرواقية المتأخرة التى تقتصر فى جوهرها على علم الأخلاق ، وقد شرحها الفليسوف « ابيكتيتوس Epictitus » فى كتابه « الأحاديث » . ومن هذه الفلسفة تعلم « أوريليوس » المثل العليا فى تقديم الخدمات

للآخرين ، والمشاركة الوجدانية والابتهاج فى لحظة الاكتئاب والنظرة السامية لما يقوم به الجنس البشرى من أعمال « فهناك رجل يفخر بنفسه لاصطياده أرنبا بريا، وآخر لاصطياده السارماتيين » وكتابه (التأملات) Meditations لم يدونه وهو جالس فى مكتبه ، بل فى خيمته أثناء قيامه بخدمات فعاله فى تلك الأرض الواقعة بين شعب الكوادى Quadi على نهر الدانوب لكن فلسفته هذه لم تعلمه كيف يحكم على الرجال ، ففى بداية حكمه استدرجه مجلس الشيوخ ليوافق على اقتراح فريد فى نوعه : ألا وهو أن يكون (لوكيوس فيروس Lucius Verus) أخوه بالتبنى ، إمبراطوراً مساعدا له ، وقد كان هذا الاختيار سيئا ، لأن (لوكيوس) لم يكن جديرا بحمل هذا العبء . وسرعان ما برهن على ذلك عندما أرسل ليتصدى لغزو قام به (فولوجسيس) Vologeses ملك براثيا لسوريا . فبينما كان (لوكيوس) يستمتع بمباهج مدينة (أنتيوخ) كان قادة جيشه الأكفاء يجمعون شتات الجيش الرومانى فى سوريا كما حدث من قبل . ثم تمكنوا من صد البرثيين واستولوا على مدينة (كتسيفون) .. Ctesephon كما فعل (ترجان) من قبل . وكان أقدر هؤلاء القادة (أفيديوس كاسيوس) Ovidius Cassius الذى ينحدر من أصل سورى ، وقد اكتسب هذا الرجل شهرة ذائعة الصيت فى كل بلدان الشرق . وقد كان هـــذا النصر تأكيـــدا قويا للنفوذ الرومانى ولكن جيوش (أفيديوس كاسيوس) انتصرت على عدو لتطلق العنان لعدو آخر أكثر خطورة — ألا وهو الطاعون — إذ جلبت هذه الجيوش معها إلى أوطانها وباء من أخطر الأوبئة التى عرفت فى التاريخ ، يشبه فى خطورته (الموت الأسود) وقد نشر هذا الوباء الدمار فى كل العالم الرومانى ، ومن المحتمل أنه قد كان ، كما يفترض البعض، عاملا قويا من عوامل اضمحلال الإمبراطورية .

وتبع ذلك حدوث كارثة أخرى وقعت فى الشمال ، إذ قام ائتلاف قوى

مكون من الشعوب المتبربرة بالهجوم على خط نهر الراين الدفاعى كله ـ وشمل هذا الهجوم « داكيا » وولايات الدانوب ، ووصل حتى رأس البحر الادرياتيكى عند بلدة « أكويليا » Aquileia (فى عام ١٦٦ م) ، ولم يحدث أن تفاقمت مثل هذه الأزمة منذ زمن هجوم « الكمبرى » أو ثورة « الباثونيين » أثناء حكم أغسطس . وقد تطلب هذا الموقف حضور الإمبراطور ، كما أدى إلى ضياع ثلاثة عشر عاما فى قتال مرير ، وهذا ما يسمى بالحروب « الماركومانيه » Marcomannic war التى لانعرف عنها إلا بعض المعلومات الضئيلة . ولكن يبدو أن « ماركوس » قد أعد بالفعل خلال هذه السنوات خطة رائعة للإطاحة بمثل هذه الأخطار إلى الأبد . وقد أدى هذا إلى الرجوع إلى خطة أوغسطس من جديد ، والتى تهدف فى طياتها ، إلى مد الحدود شمالا ، حتى نهر الب عن طريق « بوهيميا » وإلى التوسع حتى تلتقى هذه الحدود بحدود « داكيا » الشمالية على طول خط دفاع الكارباثيين . وما إن جاء عام ١٧٥ حتى كان المشروع يتخذ صورته المرسومة . ولكن اندلعت الثورة فى الشرق وأعلنت « أفيديوس كاسيوس » إمبراطوراً ، فسارع « ماركوس » بمغادرة الدانوب إلى سوريا ولكنه وجد أن « كاسيوس » قد فارق الحياة والثورة فى طريقها إلى الانهيار ، ولكن فى نفس الوقت فشل مشروعه فى الشمال ، وبنفس تملؤها الحسرة شرع فى القيام به مرة أخرى وإن الإنسان ليشعر بعاطفة فياضة نحو تمثال « ماركوس أوريليوس » وهو على حصانه المقام على تل الكابيتول (وهو يرد التحية على الفرق الرومانية التى ظلت سحابة من غبار طوال ألفى عام) . لقد أنجزت الفرق الرومانية وقادتها مهامها تقريبا ، « فماركومانيا » و « جازوجيا » Jazugia كانتا على وشك أن تصبحا ولايات رومانية . وبالتالى كانت ستؤول أجود أراضى وسط أوربا إلى الحكم الرومانى ، لتتحول إلى قلاع دفاعية حصينة تستخدم ضد هجمات البرابرة طوال القرنين التاليين . ولكن فجأة انتاب « ماركوس » مرض

الحمى عندما كان فى معسكره فى « فندوبونا » . Vindobona (فينا الحديثة) ومات كما يجب أن يموت إمبراطور رومانى . إذ مات فى مركز قيادته — وأصبح الموقف لا يمكن أن يعالج إلا بوجود خليفة له قوى العزيمة يقود آخر شرذمة من الجنود إلى أرض الوطن ولكن « ماركوس » كان قد جعل هذا الأمر مستحيلا بمحض اختياره .

وكان « ماركوس » أول إمبراطور من الأباطرة الذين تولوا العرش الثانى ينجب أطفالا . وقد كانت الرغبة فى خرق نظام التبنى إحدى الرغبات التى لم يستطع مقاومتها . ولما لم يكن فشله فى تجربته لإقامة حكم مشترك مع « لوكيوس فيروس » قد ألغى الفكرة من رأسه تماماً ، بدأ فى إجراء تجربة أخرى مع ابنه « كومودوس » Commodus الذى نصبه «ماركوس» إمبراطورا فى عام ١٧٧ ، ولا بد أن يكون «كومودوس» هو المثل الأعلى فى التاريخ لميل الآباء الصالحين إلى إنجاب أبناء فاسقين . وفترة حكمه (من ١٨٠ إلى ١٩٢) كانت فى كل أوجهها كارثة على الإمبراطورية . فقد بدأت فترة حكمه هذه بتخليه عن غزوات « ماركوس » — وهذا ما كان يخشاه أبوه — لكى يوفر لنفسه حرية التمتع بالملذات فى روما . كما وقع تحت تأثير حلقة متتابعة من الأصدقاء التافهين وأصبح أكثرهم تأثيراً عليه هم قادة الحرس البريتورى الذين بدأوا يديرون عملية مخجلة لبيع الوظائف العامة . ونبع من ذلك حكم للإرهاب مثله مثل أسوأ أيام حكم « كاليجولا » و« نيرون » وقد كان « كومودوس » يتمتع بنصيب ما من الشعبية بين غوغاء الرومان بوصفه رجلا يشاركهم ملذاتهم الوضيعة . ولم يجرؤ أحد على اغتياله إلا فى عام ١٩٢ ذلك العام الذى جعل «كومودوس» بدايته فريدة من نوعها وذلك بظهوره بين الشعب بوصفه قنصلا وبوصفه مجالدا محترفاً فى نفس اليوم ، أما ما تركه وراءه من شرور فلم يزل من بعده ذلك لأنه لم يكن هناك من يخلفه . وحدثت نفس الأزمة التى وقعت فى عام ٦٩ ، ونشبت سلسلة أخرى من الحروب الأهلية جلبت الدمار والخراب . ولكن فى هذه المرة لم يكن هناك (فسباسيان) آخر ليعيد الحكم الصالح إلى العالم .

الفصل الحادى عشر

السلام الرومانى : ١٤ – ١٩٢ ميلادية

عظمة السلام الرومانى التى لا حد لها

"Immensa Romanae Pacis Maiestas"

هذه هى عبارة بلينى الرائعة التى لا يستطيع أن يتجنبها أى فرد يتصدى لوصف العالم الرومانى فى أوائل عهد الإمبراطورية. أما عن الحدود فقد كانت هناك حدود بالطبع للعالم الذى يخضع لسلطان السلام الرومانى . فقد امتدت حدوده من اسكتلندا إلى السودان ومن البرتغال إلى نهر الفرات . وأطول قطر له من الشرق إلى الغرب كان يقرب من ٢٨٠٠ ميل وأطول قطر له من الشمال إلى الجنوب يقرب من ١٦٠٠ ميل . وشمل مساحة من أوربا وآسيا وأفريقية لم تخضع قط مرة أخرى لحكومة واحدة . ولا يمكن لنا معرفة عدد سكان العالم الرومانى فى ذلك الوقت إلا على وجه التقريب ، غير أن الآراء تتفق بوجه عام على أن عدد السكان بلغ سبعين مليوناً من الأنفس . وكانت هناك كثير من اللغات تتحدث بها شعوبه على الرغم أنها لا تبلغ من الكثرة ما هى عليه اليوم ، ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال اللغة الكلتية فى بريطانيا وبلاد الغال وبعض أراضى الدانوب وفى غلاطيا، واللغة الجرمانية على طول الراين ونهر الدانوب الأعلى ، واللغة البونية والمصرية فى إفريقيا واللغة الآرامية فى سوريا . بيد أن ثمة لغتين كانتا تحتلان مركز الصدارة ، وهما اللغة اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق، وكان إلمام الفرد بهاتين اللغتين يكفل له الانتقال إلى أى مكان . ومثل هذه الإحاطة كانت تراث كل شخص مثقف . وسادت عملة واحدة وقانون

واحد فى مثل هـذه الأقطار جميعها . ولم تـكن هناك أية حدود أو قيود جمركية كبيرة داخل الإمبراطورية ذاتها ، أما السفر فإنه على الرغم من أنه كان بطيئاً عسيراً بالقياس إلى المعايير الحديثة ، فقد كان يتميز بقدر كبير من السرعة بطريق البر يفوق كل وسائل الانتقال الأخرى فيما قبل عصر السكك الحديدية . والحقيقة أن المستويات التى كانت معروفة فى الإمبراطورية الرومانية قد تعذر استعادتها فى الوقت الحاضر فى بعض الأنحاء التى كانت تحتلها الإمبراطورية . أما السفر بالبحر فلم يكن فيه ضمان كاف . وقد استطاعت الأمم الأوربية أن تلحق بالمستوى الذى بلغه الرومان وتتفوق عليه فى مجال السفر بالبحر قبـل ثلاثة قرون من تمـكنها تحقيق المستوى ذاته فى البر . وكان مبدأ التسامح الدينى سائداً ولم تتعرض سوى ثلاث عقائد فحسب للاضطهاد على يد حكومة الإمبراطورية وهذه العقائد هى الدرودية واليهودية والمسيحية. ولم تـكن هناك تفرقة عنصرية وعلى الرغم من وجود أحقـاد ومنازعات بين بعض الشعوب فلم تـكن ثمة تفرقة بين الأجناس بعضها البعض بالمعنى الحديث . وجملة القول إن الإمبراطورية خلال هذه القرون كانت تمثل أقرب المحاولات إلى إقامة دولة عالمية ، حتى وقتنا الحاضر . ويعد هـذا من أعظم ما تستند إليـه فى إثبات حقها فى الاستحواذ على اهتمام العالم الحديث .

ويجدر بنا قبـل أن نوجه أنظارنا إلى الولايات ، أن نذكر بعض الأمور الخاصة بالإمبراطورية فى مجموعها . وأول هذه الأمور ذلك التقسيم الأساسى لها بين شرق وغرب . لقد كان النصف الشرقى من الإمبراطورية منطقة تتمتع بثقافات شهيرة عظيمة وهى الثقافات اليونانية والسامية والشرقية، كما كانت عريقة فى تاريخها الحضارى . فهى عالم حل به الرومان باعتبارهم فاتحين وحكاماً لا باعتبارهم حملة حضارة أسمى من حضارة البلاد المفتوحة أما الغرب فقصته تختلف عن ذلك . ففيه تمدينت مجتمعات كلتية وجرمانية

وأيبيرية وغير هذه من المجتمعات القبلية المحلية على يد الرومان . وضمت جميعها إلى النمط الثقافى الذى تميز به العالم اليونانى الرومانى . وكانت الحدود الشرقية لولاية إلليريكوم وولاية إفريقية هى الحد الفاصل بين هذا العالم وذاك . لقد كان هذا تقسيما لم يزده الزمن إلا صلابة وجموداً . كما أكد منه تأسيس عاصمة شرقية فى القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع . كما أصبح لهذا الحد صفة الدوام بعد موت تيودسيوس فى عام ٣٩٥ .

وسواء بالنسبة للشرق أو الغرب فإن وسيلة التمدين كانت هى المدينة . ولقد قيل إن الإمبراطورية هى اتحاد بين المدن فى ظل حكومة مركزية . وليست هذه هى الحقيقة كاملة ولكنها تؤدى الغرض . لقد كانت مدن الشرق تتمتع بتاريخ عريق فى ميدان الحكم الذاتى . الأمر الذى لم تتدخل فيه روما كقاعدة عامة ، إلا فى الأحوال التى أرادت فيها أن تعرب عن كرهها للنظم المغالية فى الديمقراطية . أما فى الغرب فقد شجعت روما على نمو مدن جديدة على غرار عواصم الأقاليم الإيطالية حيث يناط بمجلس بلدى منتخب يتألف من أعيان البلد الوطنيين تصريف الشئون المحلية . أما من ناحية التركيب العضوى ، فقد كانت هذه المدن الجديدة التى تقوم فى الولايات الغربية تتمتع بتخطيط منتظم للشوارع والطرق وبمجار لتصريف المياه ومورد طيب للمياه ومبان عامة ذات أبهة وجلال . كما كانت وسائل الترفيه مثل المسارح والحمامات والفنادق والمكتبات والبساتين مرافق واجبة لهذه المدن ، أما المساكن التى كانت على شىء من الفخامة فكانت تزود بأجهزة للتدفئة المركزية واللوحات الحائطية وأعمال الفسيفساء ثم إذا ذكرنا الأسوار والبوابات الضخمة اكتملت الصورة .

ولكنه على الرغم من الأهمية الثقافية والحضارية للمدينة فقد كان النشاط الاقتصادى الأساسى هو الزراعة . وقد أصابت حركة نشر الحضارة الرومانية أكبر قسط من النجاح حيث كان يفلح الأرض زراع يتكلمون

اللاتينية وذلك ما لا يظهر إلا فى الأراضى التى يتيسر فيها قيام نمط للزراعة كنمط الزراعة فى البحر الأبيض المتوسط . وهكذا كانت حركة التمدين فى الإمبراطورية تتمثل أساساً فى تمدين سواحل البحر الأبيض المتوسط ، والأراضى التى تقع من خلفه . ذلك لأنها لم ترسخ فى غابات وسط أوربا أو فى شواطىء المحيط الأطلنطى . وكان ثمة تعارض خفى بين التفوق الاقتصادى للريف والتفوق الثقافى فى المدينة ، كان من شأنه أن يتطور فيصبح نزاعا سافرا فى عهد الإمبراطورية المتأخرة .

وهنا أريد أن أعود إلى عرض موجز لأجزاء الإمبراطورية ، أوله الولايات مبتدئا بالولايات الغربية ثم الولايات الشرقية وأخيرا روما وإيطاليا . أما إذا بدا أن الولايات الغربية تستأثر من عرضنا بأ كثر من نصيبها فذلك لأن روما قد قامت هناك بأعظم مهمة لها ألا وهى خلق حضارة لاتينية والعمل على نموها .

ولقد قامت أسبانيا وهى أقدم الولايات فى غرب أوربا بالإسهام بنصيب كبير فى الحياة الاقتصادية والثقافة فى الإمبراطورية ، ومنها انحدر تراجان وهادريان وسلسلة مرموقة من الكتاب اللاتين تضم الكاتبين اللذين يعرفان باسم سينيكا ثم لوكان وكولوميلاوكوينتيليان ومارشال . ومما يدلنا على سيادة اللغة اللاتينية فى هذه الولاية الحقيقة الماثلة فى أن لغة الباسك هى اللغة الوحيدة التى بقيت من لغات شبه الجزيرة المحلية . أما سائر اللغات الأخرى الراهنة (وهى الإسبانية والبرتغالية والكاتلانية) فهى لغات مشتقة عن اللاتينية . لقد كانت بمثابة جائزة ثمينة عادت بها حروب الغزو المريرة ، وكانت جائزة ثمينة أيضاً لحركة الاستعمار اللاتينى فى عصر الجمهورية . غير أن حركة نشر الحضارة الرومانية لم يتحقق لها النجاح بدرجات متساوية فى جميع أنحاء شبه جزيرة أيبريا . فقد بلغت أعظم قدر من التركيز فى المناطق الساحلية الواقعة إلى الشرق وإلى الجنوب وفى كتالونيا الحديثة وفالنشيا

والأندلس حيث أزدهرت حضارة مدنية عظيمة . وقد منح فسباسيان الذى اختص إسبانيا بعظيم كرمه الحقوق اللاتينية إلى مايقرب من مائتى مدينة . ويعد ميثاق مالاقة الذى منحه لهم دوميتيان المصدر الرئيسى الذى استقينا عنه مانعرفه عن نظم الحكم بها . لقد أحالت مدن بايتيكا Baetica وقرطبة وإيتاليكا Italica وهسباليس Hispalis (أشبيلية)و«وادى الكبير»إلى نسخة أخرى من إيطاليا . وكانت قادش هى ميناء إسبانيا الغربية الرئيسى الذى يكتظ بأثرياء التجار وقواد السفن ممن كانوا يتجرون مع جميع أنحاء البحر المتوسط . وكانت تراكو (تراجونا Tarragona) عاصمة أوسع الولايات الإسبانية الثلاث مساحة ، كما كانت مقر اجتماع مجلس الولاية . وكان هناك شبكة محكمة التصميم من الطرق تمتد إلى جميع أطراف شبه الجزيرة وكثير من المدن الإسبانية الشهيرة — سرقسطة وطليطلة وسلامنكا وميريدا — تقوم على أساسات رومانية قديمة . ولم يحدث أى تمدين ذو بال فى الشمال والغرب وظل رجال القبائل يعيشون فى ولاية لوسيتانيا Lusitania فى القلاع الجبلية الشهيرة المعرفة باسم Citanias ،غير أن أوليسيبو Olisipo (لشبونة) أصبحت ميناء يتاجر مع إيطاليا كما انتشرت الحضارة الرومانية بصورة كبيرة فى وادى تاجه Tagus الأدنى .

أما فى النواحى الاقتصادية ، فقد تحقق تقدم كبير . فكان النبيذ الأسبانى يصدر إلى بريطانيا والغال وإلى بلاد الراين كما يصدر إلى روما أيضا . وكان زيت الزيتون الإسبانى يأتى فى المرتبة الثانية فقط بعد زيت الزيتون الإيطالى وكان إنتاج الغلال على جانب كبير من الأهمية، وكان يزرع نبات البردى أو السمار لصنع الحبال منه كما يزرع الكتان لصناعة الأقمشة البيضاء. كما أتاحت مناطق الصيد العظيمة على شاطىء محيط الاطلنطى قيام صناعة لحفظ الأسماك وإلى تصدير أنواع من صلصات الأسماك (Garum) إلى جميع أنحاء العالم . وكانت أسماك التونه وأسماك إسقمرى وليست أسماك السردين

من أكثر الأسماك المستخدمة فى هذه الصناعة غير أن المعادن ظلت تمثل أعظم مورد اقتصادى بالنسبة لإسبانيا . واستمر العمل فى استخراج فضة سيراموريتا ونحاس ريوتنتو Rio Tinto على أوسع نطاق . كما كان الحال فى ظل الجمهورية كما افتتحت الإمبراطورية مناجم الحديدوالذهب والفضة والقصدير فى كل من جبال البرانس وكنتابريا . وذاع صيت صناع الأسلحة الإسبان واشتهروا بجودة الصلب الذى يستخدمونه . ولنا أن نقارن بينها وبين أسلحة طليطلة فى الأزمنة المتأخرة . ويدلنا نقشان شهيران عثر عليهما فى مناجم فيباسك بجنوب البرتغال على سير العمل فى مناجم النحاس والفضة فى عهد هادريان . كانت المناجم تخضع لملكية الدولة ولكن امتيازاتها تعطى لمقاولين من الأفراد حيث كانت خزانة الإمبراطورية تستولى على نصف الإنتاج . وكانت القوة العاملة كما كان الحال فى معظم مناجم إسبانيا تتألف من العبيد أو من المجرمين الذين صدرت ضدهم أحكام . وكانت اللوائح تنص تفصيلا على الشروط التى منحت بموجبها الامتيازات إلى مقاولى المناجم ومقدمى العطاءات ومستأجرى الحمامات وصانعى الأحذية والصباغين والحلاقين . وتجدر الإشارة هنا إلى أن ناظر المدرسة بالمنطقة كان معفى من الضرائب . وقد أدخلت فى ذلك الوقت بعض التحسينات على الطرق الفنية للعمل فى المناجم مثل حفر الآبار للتنقيب عن المعادن واستخدام المياه للاغتسال وتصريف المواد المتخلفة . ويعرض لنا بلينى فى إسهاب سير العمل فى المناجم الإسبانية وخاصة فى مناجم الذهب — ويقدر إنتاج مناجم الذهب فى المنطقة الشمالية الغربية بما يربو إجمالا على ما قيمته ثمانين مليونا من الدولارات سنويا .

لقد كانت إفريقية الرومانية قطراً من أقطار البحر الأبيض المتوسط . إذ كانت أراضيها التى تفصلها عن القارة الإفريقية جبال أطلس وجبال أوريس ثم الصحراء الغربية تواجه البحر المتوسط على طول شاطىء يمتد

إلى ألف ميل ، كما يقترب من صقلية فى الجهة الشرقية منه ويدنو من أسبانيا فى الناحية الغربية . وكانت إفريقيا تنقسم إلى ولايات أربع هى إفريقيا الأصلية (وتمثل جزءا من ليبيا وتونس) وولاية نوميديا أو إفريقية الجديدة ثم مملكة جوبا الثانى السابقة (الجزائر على وجه التقريب) ثم ولايتى موريتانيا (أى مراكش) اللتين أسسهما كلوديوس وكانت هذه المنطقة وبخاصة إفريقيا الأصلية مسرحا لواحد من أعظم الانتصارات التى حققتها الحضارة اللاتينية . وتختلف الآراء حول مدى ما بلغه الاستعمار الإيطالى فى إفريقيا ولكنه مما لاشك فيه أنه قد جرى على أوسع نطاق . ويقدر كايرشتدت Kahrstedt عدد المستوطنين الإيطاليين بمائتى ألف شخص ، وينادى بأن أربعين فى المائة من جميع المتحدثين باللاتينية فى العالم كانوا يعيشون فى إفريقية الشمالية . ولقد ربحت روما هذا العالم وضمته إلى الحضارة الغربية ثم أحالته الغزوات العربية جزءا من العالم الإسلامى . أما الآن فإن فرنسا والعالم الإسلامى يتصارعان من أجل مستقبل المنطقة . لقد كانت إفريقية الشمالية بلاداً تضم الكثير من الشعوب ذات المستويات الحضارية المختلفة ، وكانت أقدم عناصرها هم البربر الذين ينتظمون فى كثير من القبائل الضخمة التى كان بعضها من القبائل الرحل ومازال هؤلاء حتى اليوم يمثلون العصب الرئيسى للسكان . كما أن لغتهم ما زالت قائمة . أما الشعوب البونية فكانت من نتاج الجهود الاستعمارية التى قامت بها قرطاجة فى إفريقية . وكان معظم هذه الشعوب يقطن فى الغالب المدن الساحلية ولو أن بعضها كان من المزارعين الذين توغلوا فى قلب القارة . وكانت اللغة البونية شائعة شيوعا كبيراً وبقيت هى اللغة الشعبية الدارجة فى المدن الكبرى فى عهد الإمبراطور أوغسطين ، إذ كانت اللغة اللاتينية هى اللغة الرسمية للبلاد كما قامت مستعمرات صغيرة لليونانيين واليهود فى المدن الكبيرة .

وقد نشأت الحياة المدنية فى إفريقية عن مصدرين أحدهما لاتينى والآخر بونى . وقد عرف مايربو على ثلاثمائة مدينة أقيمت على النمط اللاتينى فى

الولايات الأربع . وكان بعض هذه المدن ينتسب إلى أصل بونى غير أنها مالبثت أن اندمجت مع المدن اللاتينية المجاورة وانتهت بالحصول على الحقوق اللاتينية . ومن الميسور أن نعرض صورة عامة عن حركة انتشار الحضارة الرومانية فى أرجاء الريف . فقد كان يتحتم أولا وقبل كل شىء حماية الأرض المزمع استيطانها من البدو الذين كانوا يحاصرون فى بعض الأحيان فى مناطق خاصة تحدد لهم ، ثم تأتى بعد ذلك مسألة الإمداد بالمياه . وإن الخبراء الفرنسيين إنما يثنون ثناء عاطرا على فن الهندسة المائية الرومانية فى إفريقيا بما يتصل بها من خزانات للمياه ومجار مقنطرة وأحواض وقنوات . وثمة نقش عثر عليه فى لاماسبا Lamasba بجنوب الجزائر يتضمن جدول الرى الخاص بعدد من المزارع . وهكذا فإن المهارات التى اكتسبها قدامى المزارعين فى لاتيوم استغلت فى الأرض الجديدة . وكانت المدن التى تقوم بالتسويق تزداد نموا وتأخذ فى التزود بمختلف المرافق التى تيسر العيش الرخى المبهج وبذلك تجتذب إليها سكانا جددا ، كلما ازدهرت الزراعة واتسع نطاقها . وهكذا فإن المنطقة المستعمرة أخذت تزحف صوب الجنوب فى عهد الإمبراطورية حتى نشأ فى المناطق الجيدة حزام من المدن والمزارع الكثيفة السكان يبعد عن الساحل بما يربو عن مائتى ميل . وكانت الحدود الرومانية Lines فى إفريقية يمثلها أقصى طرف للأرض الزراعية فى الجنوب . وكانت تونس وطرابلس تتميز بكثافة السكان بأراضيها كثافة لم تصل إليها أية مدينة أخرى . ولم تكن نوميديا تضم عدداً كبيراً من المدن . أما موريتانيا فهى مثل بريطانيا لم تصل إليها الحضارة الرومانية إلا فى وقت متأخر ولم تحس قط بأثرها الكامل .

ومنذ العصور القرطاجية كان عصب الزراعة الإفريقية هو الغلال . وفى ظل الإمبراطورية امتدت الأراضى المزروعة غلالا إلى أجزاء من الجزائر وموريتانيا . وثمة فقرة شهيرة يقرر فيها يوسيفوس أن المحصول الإفريقى من الغلال المصدرة إلى روما كان ضعف محصول مصر أى أنه

كان يبلغ أربعين مليون كيل Modii سنوياً . ولسنا نعلم كيف يحتفظ بخصب الأرض فى مواجهة عوامل التعرية . أما عن أشجار الزيتون فى إفريقية فمعلوماتنا عنها طيبة نظراً لأن معاصر الزيوت القديمة لم تزل باقية وفى الوسع التعرف على خططها . وقد أصبحت أشجار الزيتون فى كل من تونس والجزائر محصولا رئيسياً بالنظر إلى أنه من الممكن زراعتها فى المناطق القليلة المطر التى لا تصلح لزراعة الغلال. ولقد اقتفى المستوطنون الفرنسيون الطريقة الرومانية فى زراعة الزيتون (زراعة جافة) فى إفريقية وذلك على أوسع مدى . وكان التين من المحاصيل الدائمة ، أما إنتاج النبيذ فلم يصل قط إلى المستويات التى نشهدها فى الوقت الحاضر . ولعله من الجدير بنا أن نشير فى معرض الحديث عن المنتجات الإفريقية إلى الرخام الأصفر الذى كانت تنتجه سيمتثوس Simitthus فى نوميديا (وهو الرخام الأصفر التقليدى الذى كانت تزين به كثير من المبانى الرومانية) ثم الأبنوس وبساتين المو الح فى جبال أطلس والحيوانات المفترسة التى كانت تعرض فى حلبات المصارعة . وكانت قوافل الجمال تقطع الصحراء مستخدمة طرقا منتظمة حاملة العاج إلى ميناء سابراتا Sabrata وغيره من الموانى . وكان يقوم بإدارة هذه القوافل بدو رحل غير أنها لم تبلغ فى اتساع نطاقها وضخامتها القوافل التى كانت تعبر صحراء الشام إلى آسيا الوسطى . وكانت الضياع الكبيرة من المعالم البارزة للزراعة الإفريقية منذ العصور البونية . ومما يذكر أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ جنوا منها ثروات هائلة فى عهد الجمهورية . وكان المستفيد من كل ذلك فى النهاية هو الإمبراطور .

ففى عهد نيرون صودرت الضياع الست الكبرى فى إفريقيا . وما إن حل عهد هادريان حتى كان الإمبراطور يمتلك الجانب الأعظم للأراضى الزراعية فى الولاية ، كما كان مستأجروه يؤلفون عنصراً هاماً من عناصر السكان . وأقام فسباسيان إدارة خاصة فى قرطاجة لتتولى مهمة الإشراف على الضياع الإمبراطورية . وكان يقوم بهذه الإدارة وكلاء عن الإمبراطور

يترأسون هيئة من الموظفين . وكان هؤلاء يتألفون من معتقين وعبيد .
وكان المستأجرون يتمتعون بالأمن ، وبالإيجارات المنخفضة ، ولو أنهم
كانوا معرضين لألوان الأذى وسوء المعاملة من جانب موظفى الإمبراطورية .
وكان هنــاك ثمة ميل إلى أن يصبح استغلالهم للأرض وراثياً . ويشير
المؤرخون إلى أن طائفة سكان المستعمرات التابعة للإمبراطور كانوا فاتحة
وتمهيداً لنظام الرق الذى ظهر فى العصور الوسطى . ولم تحظ سوى قلة قليلة من
النقوش الرومانية ، بمثل ما حظيت به من شهرة ، مجموعة النقوش الرومانية
التى كانت تختص بأحوال بعض ضياع هادريان فى وادى باكراداس أو بما
نشأ حولها من خلاف .

وليس بالوسع أن نذكر سوى قلة قليلة من مدن إفريقيا الشهيرة . كانت
مدينة قرطاجة هى مليكتها ، إذ كانت قصبة ولاية إفريقية ، كما كانت
تمثل أحد الموانى العظمى والمركز الثقافى الرئيسى للبلاد ، كما اشتهرت بفخامة
مبانيها العامة ، وبقصور وبساتين أغنيائهــا . ولا بد أن عدد سكانها بلغ
٢٥٠٠٠٠ نسمة ، كما كانت قرطاجة تدعو روما « المدينة الشقيقة » . وقد
استطاعت قرطاجة أن تتفوق على غريمتها القديمة يوتيكا Utica التى لم تستطع
أن تستعيد سابق مجدها إلا فى بطء شديد ، بعد أن كانت قد وقفت إلى جانب
الجمهورية فى الحرب الأهلية ، وجر عليها ذلك الخراب والدمار . ومن
بين المدن الهامة الأخرى فى إفريقيا الأصلية مدينتى هيبو Hippo (بون
Bône) وهادرومنتوم Hadrumentum (سوس Sousse) .
وهو ميناء مزدهر يعد من المراكز البونية الرئيسية فى إفريقيا ؛ وقد
ازدهرت مدن طرابلس اعتماداً على الملاحة ، وقوافل الجمال التى تربطهــا
بفزان . وفى جيرما Germa عاصمة الشعب الجارمانى Garamantes فى فزان
يقوم أبعد أثر رومانى صوب الجنوب فى إفريقية . ولعله كان يمثل ضريح
أحد التجار المشتغلين فى هذه القوافل . وقد عثر علماء الآثار الإيطاليون
على بعض السلع الرومانية المعدة للتصدير وذلك فى فزان وهذه السلع تشاهد

الآن فى « متحف المستعمرات » ميوزيو كولونيالى Museo Coloniale فى روما . ولا بد أن هناك الكثيرين من جنود الخلفاء ، الذين حاربوا فى إفريقية ممن يذكرون آثار لبتيس ماجنا Leptis Magna وهى أروع الآثار التى تشاهد فى إفريقية الشمالية على الإطلاق . وكانت مدينة كيرتا Cirta التى أضاف إليها قيصر مستعمرة لقدماء المحاربين ، هى عاصمة نوميديا . وكان الرخام والنحاس يستخرجان من المنطقة ويصدر إنتاجهما إلى الخارج عن طريق موانى روسيكادا Rusicada (فيليبيفيل Philippeville) وخولو Chullu (كولو Collo) وكانت لمبايزيس Lambaesis (لا مبسا Lambessa) فوق منحدرات جبال أوريس القاعدة العسكرية العظمى . ويعد معسكر الفرقة الثالثة اليوم أكثر المعسكرات سلامة ، من بين ما بقى من آثار مثل هـذه المعسكرات فى العالم الرومانى . ويظهر إلى الجنوب موقع مدينة ثاموجادى Thamugadi (تمجاد Timgad) . وقد أسس هذه المدينة الإمبراطور تراجان ، وكان يهدف من بنائها أن تكون تحفة ورمزاً على الأراضى الجديدة المكتشفة جنوبى الجزائر . والحق أن هيكل الكابيتول بها إنما يمثل تحفة رائعة . وكانت المدينة الرئيسية فى موريتانيا الشرقية هى قيصرية Caesarea وهى ميناء يضم مائة ألف من الأنفس ، زيّنه وأقام به التحسينات الملك جوبا الثانى الذى كان محباً للحضارة الهلينية ، ومن نقاد الأدب والفن ذوى البصيرة . كما كان مؤرخا وعالماً فى النبات ، وزوج ابنه كليوباترا . وكان مقر الولاية الغربية هو تنجيس Tingis (طنجة) التى كانت أقوى صلة بإسبانيا عبر مضيق جبل طارق من صلتها بجاراتها الشرقية .

وقد نشأ فى هذه المدن ، من مدن إفريقيا الشمالية ضرب مميز من الثقافة اللاتينية يحمل بعض آثار النفوذ البونى ولكنه لا يدين لبلاد اليونان بمثل ذلك الفضل الكبير الذى كانت تدين به لهذه البلد الحضارات المعاصرة فى

روما وإيطاليا . وكانت المؤلفات اللاتينية القديمة التى تمتد من بلوتوس حتى فيرجيل تلقى رواجاً كبيراً ، وجمهوراً عظيما من القراء . بيد أن الكتاب المعاصرين كانوا يقابلون بالكراهية . وأسهمت إفريقية خلال القرن الثانى ، فى الأدب اللاتينى ، بالكاتبين فرنتو Fronto وأبوليوس Apuleius وقيض لها فى العصر المتأخر من الإمبراطورية عدد كبير من الشخصيات المرموقة فى المسيحية اللاتينية .

ولا حاجة لأى امرئ قدر له أن يشاهد المدن الرومانية فى بروفنس إلى ما يذكره بالحضارة المزدهرة التى كانت تتمتع بها الولاية القديمة ناربونسيس Narbonensis وتمثل أعظم أجزاء بلاد الغال تشبعاً بالحضارة الرومانية . وقد استغلت عاصمتها المعروفة باسم ناربو Narbo مراكب النقل الخفيفة فى إقامة علاقات تجارية مع إفريقية ، وسورية ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، وصقلية . كما تميزت بثراء أمرائها الذين كانوا يشتغلون بالتجارة — وأهم مدن هذه المدينة أيضاً مدينة أريليت Arelate (أرليس Arles) حيث كانت البضائع تنقل إلى الوادى الأدنى لنهر الرون بطريق الصنادل ثم تشحن فى سفن عابرة للمحيط . ولا جدال فى أن سوقها العامة وهيكل الكابيتول بها ومسرحها ، وحماماتها وأروقتها ذات العمد ، ومدرجاتها ومجاريها المائية المحمولة فوق قناطر ، وجباناتها ، ورافعات المياه الهوائية وقنطرتها المقامة على القوارب ، تعرض لنا مشهداً للحياة المدنية ذات الأبهة والجلال التى يندر أن نجد ما يضاهيها فى كل مدن الغرب فيما عدا روما . ولقد برزت هذه المدينة مدينة مسيليا Massilia اليونانية القديمة التى ظل صيتها ذائعاً لما كانت تضم من مدارس للفلسفة ، والطب . واشتهرت نياوسوس Nemausus (نيم Nîmes) بمعبد أبولو بها ، وبأسوارها التى بلغت فى الطول ست كيلو مترات . أما سوق يوليوس Forum Julii فريجوس Frégus الحديثة) فكانت قاعدة بحرية تلقب بطولون بلاد الغال . وكانت أكواى سكستيان Aquae Sextiae (أيكس Aix) تشتهر

بمياهها المعدنية . أما جنيفا Geneva وهى جنيف الحديثة فكانت مصيفاً . وعلى طول نهر الرون ، كانت تقوم مدن هامة عند معابر النهر هى أولا فينا Vienna وفالنتيا Valentia (فالنس Valence) وآفينيو Avenio وبعض المدن الصغيرة مثل فاسيو Vasio وجلانوم Glanum خلفت آثاراً وفيرة . وبلغت الولاية برمتها مستوى من التقدم يمكن مضاهاته بالمستوى ذاته الذى بلغته إيطاليا .

ولم يكن التقدم الحضارى أيضا يقتصر على ناربوننسيس فقد كانت مدينة لوجدونوم Lugdunum (ليون الحديثة) عاصمة ولاية لوجدونيسيس الضخمة تضم شعبا ينتسب إلى أجناس مختلفة وتضم حامية ودارا رسمية لسك النقود . ومما يؤكد قيمتها الاقتصادية قيام صياغ الذهب والفضة ومصدرى النبيذ والمشتغلين بالملاحة فى نهرى سابون والرون . أما من الناحية السياسية فترجع أهميتها إلى أنها كانت مقر اجتماع القبائل الستين التى تضمها ولايات الغال الثلاث . وكانت هذه القبائل تعقد مجلسها أمام مذبحى روما وأغسطس عند المنطقة التى يلتقى عندها النهران . وكانت أعظم مدينة فى الشمال هى مدينة أوغسطا تريفيروروم Augusta Treverorum (وهى تريف الحديثة) حيث نمت المستعمرة التى أسسها كلوديوس فأصبحت مدينة مزدهرة قرابة نصف القرن الأول وتتميز هذه المدينة بتصميم طرقاتها القائم الزوايا وضخامة مبانيها العامة التى ينتسب معظمها إلى الإمبرطورية المتأخرة حين اتخذت المدينة عاصمة للإمبراطورية . وكانت تضم حياً للمعابد يستلفت الأنظار إذ يشتمل على ما يربو على سبعين هيكلا تتفاوت فى ضخامتها ومكرسة لمعبودات رومانية وكلتية وشرقية . وفى ولاية أكويتانيا كانت مدينة بورديجالا Burdigala (بوردو الحديثة) ميناء وادى جارون الخصب . وتدلنا النقوش أنه كان يقيم بها أفراد من الولايات الشرقية كما كانت تتجر فى النبيذ مع بريطانيا ومع أيرلندا أيضا فيما يبدو . ولكن المناطق

القبلية خارج ناربونينسيس كانت تفوق أهمية المدينة ذاتها. وقد نشأت عدة مدن فى شمال فرنسا عن عواصم تلك الأقاليم القبلية ولاتزال تحمل اسمها القبلى مثل مدن رايمز Rheims وسنز Sens وأراس Arras وسويسنس Soissons وباريس ذاتها وهكذا كانت المدينة Civitas فى شمال الغال مزيجا من النظم الكلتية والرومانية على خلاف الطابع الرومانى الصرف الذى اكتسبته مدينة Provence وقد يصدق ذلك أيضاً على الغلات أو المنازل الريفية التى عرف منها ما يزيد على ثلاثة آلاف. لقد كان الأرستقراطى الكلتى يعيش على أرضه بصحبة من يعولهم. وأسبغ نظام الفيلا مظاهر الحياة الرومانية الناعمة على هذا الأسلوب التقليدى من الحياة. وثمة منطقتان قد تميزتا بوجه خاص بضخامة فيلاتها وترفها، إحداهما تقع فى وادى موسيل وتضم مشاهد مثل نيننج Nennig، ويلشبيلج Welschbillig حيث كانت ضيعتها تغطى مساحة قدرها ١٢٠ ميلا مربعا، ولعلها كانت ملكا للإمبراطور.

والمنطقة الأخرى هى وادى جارون الأعلى فى الناحية الجنوبية الغربية حيث تقوم فيلا شيراجان Chiragan بالقرب من تولوز. ولعلها أفخم المبانى التى عثر عليها فى الولايات جميعها، ففى ذلك المكان تحول مسكن بسيط متواضع من مساكن القرن الأول الميلادى يضم منزلا مركزيا وأكواخا للعمال، تحول فى القرن الثانى إلى قلعة مترفة تضم أكثر من أربعين مسكنا للمستأجرين مجتمعين، فى منطقة تبلغ ستين فدانا تقريباً. وقد أخذت هذه الضيعة فى الانهيار خلال القرن الثالث ولا يحتمل أنها صمدت لغزو الفاندال سنة ٤٠٨.

وإنه لبون شاسع ذلك الذى يفصل بين هذه المظاهر الحضارية وأجزاء بلاد الغال التى كانت أقل من هذه حظا من الحضارة الرومانية. ففى الشمال

تخترق الطرق المؤدية إلى موانى بحر المانش غابات موحشة ، أما مستنقعات وغابات بريتانى فكانت أشد منها وحشة وانعزالا إذ كانت من البلاد التى لم تتأثر إلا فى القليل بالحضارة الرومانية .

وكان مما شجع على الزراعة والصناعة ما كانت تحتاجه مدن بلاد الغال والجيوش المرابطة على نهر الراين . كانت الغلال تزرع من أجل الاستهلاك المحلى وبغرض التصدير أيضاً . وكانت كل من آرليت وناربو تصدر الغلال إلى أوستيا . وقد بدأت زراعة الكروم تنتشر منذ عهد أوغسطس فى اتجاه الشمال عبر بلاد الغال حتى إنه ما إن حل القرن الثانى حتى كانت قد أرسيت قواعد زراعة الكروم الطيبة فى فرنسا على طول أنهار موسيل والرون والراين وجارون . وطار صيت منتجات الجبن ولحم الخنزير الغاليةوكانت الأوز التى تربى على شواطىء بحر المانش تساق مسافات بعيدة حتى روما ذاتها . أما فى ميدان الصناعة فقد قامت هناك تجارة هامة للصوف فى الشمال واستغل حديد اللورين وأحجار البناء فى جبال البرانس غير أن الفخار — وقد كانت الغال شهيرة بما يسمى « الطين الملون » Terra sigillata — كان يحتل مركز الصدارة بين الصناعات الغالية . وبلغت مصنوعات مصانع لاجروفيسنك La Graufesenque التى تصدر من ناربو ، الأسواق العالمية وذلك بحلول سنة ٥٠ ميلادية . وانتقلت الزعامة فيما بعد (٧٥-١٥٠) إلى ليزوكس Lezoux التى شملت حركة التجارة البريطانية وتجارة الدنواب ثم انتقلت السيادة إلى راينزابرن Rheinzabern التى كانت تزود الجيوش الشمالية بحاجياتها . وقد أعانت الدراسة المستفيضة لعلامات الفخار التجارية علماء الآثار عونا كبيراً فى تحديد التواريخ المختلفة .

وقد اشتهرت بلاد الغال بنظام النقل الخاص بها . لقد كانت شبكة الطرق التى تتفرع من ليون من عمل الإمبراطور كلوديوس فى معظمها ولكن الطبيعة ذاتها قد أمدت البلاد بشبكة رائعة من الأنهار الصالحة للملاحة

التى استغلها الرومان إلى أقصى الحدود . ولقد سبق أن تحدثنا عن حركة الملاحة فى أنهار الراين والرون وسايون وموسيل . كانت تقوم على هذه الأنهار وعلى أنهار اللوار والسين ودورنس وجارون نقابات المشتغلين بالملاحة والنقل الذين كانوا بمثابة شرايين للتجارة ، وقامت هذه الأنهار بالدور ذاته الذى قام به نهر المسيسبى قبل اختراع السكك الحديدية .

وقد بلغت هذه الحضارة الرومانية الغالية ذروة ازدهارها قرابة عام ١٥٠ ق . م . وكانت اللغة اللاتينية هى دون استثناء لغة التعليم فى هذه الولاية التى اشتهرت بمدارسها . أما اللغة الغالية فقد ظلت متداولة حتى القرن الثانى . وقد آلت إلينا منها بعض النقوش . ولكنه بغض النظر عن اللغة البريتونية — وهى لغة كلتية جلبت من بريطانيا من جديد خلال العصور الوسطى — فإن جميع لغات فرنسا تستمد أصولها من اللغه اللاتينية . أما فى مجال الدين فقد عاشت العقائد الرومانية والكلتية جنبا إلى جنب او اتحدت وامتزجت فى سهولة ويسر . ويصور لنا فن النحت معبودات كلتية مثل إلهة الخيل المعروفه باسم إيبونا Epona والإله كيرنونوس Cernunnos ذى قرنى الوعل والإله سوكاوس Sucellos بمطرقته . وإله الجبل إيسوس Esus الذى قرنه الرومان بالإله ميركورى . وكان عدد سكان بلاد الغال الرومانية كبير دون شك حتى وإن لم يسلم المرء بتقديرات بعض علماء الآثار الفرنسيين القائلة بأن عدد السكان بلغ خمسة عشر بل عشرين مليونا من الأنفس . ومن الإنصاف دون شك أن نتلمس فى مثل هذا العدد الكبير من السكان وذلك المستوى الرفيع من الحضارة العوامل التى ساعدت على احتلال فرنسا لمركز الصدارة فى أوربا هذا التاريخ الطويل .

أما فى بريطانيا فإن نظام الاستيطان سار وفق الشخصية المزدوجة للجزيرة ، ذلك لأن منطقة الهضاب فى الشمال وفى الغرب — وهى اسكتلندا وشمالى انجلترا فيما عدا وادى يورك وويلز فيما عدا السهل الساحلى بالقرب

من نهر سيفرن وشبه الجزيرة الجنوبى الغربى فيما وراء إكسيتر — إنما هى أرض جبال ومستنقعات وأمطار غزيرة وتربة فقيرة . أما المنطقة السالفة فهى أرض سهول وتلال هينة الارتفاع وتربة خصبة ومعدل معتدل (نسبيا بالطبع !) من الأمطار .

أما فى المنطقة المنخفضة فقد نشأت الولاية المتدينة المتحضرة . فقد كانت روما تنظر إلى المنطقة المرتفعة أو ذلك القدر منها الذى سمحت لنفسها بالاستيلاء عليه، باعتبارها منطقة عسكرية . وبلغت حركة انتشار الحضارة الرومانية فى سهول بريطانيا، إلى حد بعيد، المستوى ذاته الذى بلغته فى شمال الغال. وهنا أيضا كان الإقليم القبلى Canton هو وحدة الحكم الذاتى المحلى . وقد عرف ما يقرب من خمسة عشر إقليما رومانيا بريطانيا نشأت عن عواصمها ، فيما نشأ ، مدن لايسستر وشيشستر ودورشستر وكانتربرى وونشستر وسانت ألبانز . وثمة مراكز رومانية هجرت فى أزمنة متأخرة ، وهكذا فقد حلت شروزبرى محل فيروكونيا وحلت ريدنج محل كاليفا . وكانت هناك مستعمرات ثلاث هى ليندوم Lindum (لينكولن Lincoln) وجليفوم Glevum (جلاوسستر Gloucester) وكامولودونوم Camulodunum (كولشستر Colchester وكان يقصد كاوديوس بانشاء المستعمرة الأخيرة أن تصبح عاصمة الولاية ولكن لوندينيوم Londinium (لندن) حلت محلها وأصبحت لندن هى أضخم مدن بريطانيا — إذ بلغ عدد سكانها ما يقرب من ٢٥٠٠٠ نسمة — ومركزا لشبكة من الطرق ، والميناء الرئيسى للتجارة مع القارة الأوربية ولعل كورينيوم Corinium كيرنسستر Cirencester) وفيروكونيوم Viroconium (روكستر Wroxeter) وفيرولاميوم Verulamium (سانت ألبنز St. Albans) كانت تضم كل منها ما يقرب من عشرة آلاف نسمة . أما المدن الأخرى فيتراوح عدد سكانها بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ وقد بدأت حياة المدن فى بريطانيا بطيئة كما لم تصل إلى مستويات رفيعة ، ومع

ذلك فقد كانت المبانى العامة مترفة إلى حد بعيد ، كما كانت هناك المنازل التى تتوافر بها أسباب الراحة، أما مرافق الحمامات والفنادق والمدرجات فكانت هى القاعدة فى كل هذه المدن وعرفت مسارح ثلاثة ، ولعله كانت هناك مسارح أخرى. وتتميز « باث » التى اشتهرت بمياهها المعدنية، بالمبانى الضخمة لحماماتها ومعبد إلهة الينابيع الحارة .

وكان صاحب الأرض البريطانى شأن أبناء عمومته عبر بحر المانش يقدرون مباهج الحياة الرومانية . وتتركز الستمائة فيلا أو ما يقرب من هذا العدد فى بريطانيا الرومانية فى الغالب فى المناطق المميزة مثل كوتسولدز وسومرست وكنت الشمالية وساسكس الغربية وهامبشير وجزيرة وايت . ولم يكن بين هذه الفيلات ما يضاهى فيلا شبراجان أو نيننج . ولكن صاحب فيلا شدورث أو وودشستر لا بد أنه كان يعيش فى رغد وترف لم يصل إليهما أحد فى بريطانيا فى أى تاريخ لاحق حتى عهد الملكة اليصابات . ففى أغلب أراضى الولاية ظل النظام المحلى للزراعة الذى يقوم على المزارع المستقلة قائماً ، كما يظهر فى الواقع حتى اليوم فى كل من ويلز وجبال البنين .

وتقع بريطانيا خارج حدود مزروعات البحر الأبيض . ولم يكن يقدر لها أن تجتذب المستوطنين باستثناء المحاربين القدماء الذين يحصلون على إقطاعيات مجانية من الأرض . غير أن الزراعة البريطانية التى كانت تمارسها الأيدى المحلية كانت توفر الحاجات الأساسية للولاية مع فائض من الغلال يصلح للتصدير بين حين وآخر . كما كان على بريطانيا أيضاً أن تواجه حاجات الحامية الرومانية إلى الغلال . ومن أجل هذا الغرض تم تصريف المياه من جزء من فنلندا وجرت زراعته تحت إدارة تابعة للإمبراطور . وكانت الأقمشة البريطانية تصدر إلى الخارج ، كما ذكر فى لائحة التعريفة الجمركية الخاصة بقيروان فى إفريقية . وكان المحار البريطانى يلقى الثناء من

جانب الأكولين فى فترة ما قبل الغزو ، ووجدت اللآلىء وكلاب الصيد والجلود والقطان وجلود عجول البحر سوقا رائجة أيضاً لها فى القارة الأوربية ، ومكنت هـذه المنتجات بريطانيا من استيراد النبيذ والفخار والأقمشة والأثاث الفاخر والإفادة من خدمات أصحاب المهن .

غير أن المعادن كانت تحتل فى بريطانيا المرتبة الأولى كما هو الحال مع إسبانيا ، برغم أن استخراجها كان يجرى على نطاق أضيق من مثيله فى إسبانيا . وبلغت عمليـات استخراج الرصاص أوسع نطاق لها وأعظم حد من التركيز عقب الغزو وذلك فى مندبس ثم فى فلينتشير وشروبشير وبلينليمون وجبال البنين فيما بعد . وكان النحاس يستخرج فى انجليزى Anglesey وويلز الشمالية وشروبشير ، كما كان يستخرج الحديد من أماكن كثيرة وبخاصـة ويلد وفورست أوف دين . ولم يصنع الذهب البريطانى أصحاباً للملايين ولـكن الرومان كانوا يستخرجونه من دولوكوثى فى ويلز الجنوبية ، أما القصدير المستخرج من كورنوول فكان قليلا للغاية . ولعـل مرد ذلك هو الرغبـة فى تجنب الدخول فى منافسة مع إسبانيـا ، ولـكن أهميته ازدادت فى عهد الإمبراطورية المتأخر . وكان الفحم الظاهر على السطح يستخرج من عدة أماكن ، ولـكن الفحم لم يبلغ قط من الأهمية ما بلغه فى العصر الحديث . وكان الرومان يستخدمون جميع أنواع أحجار البناء الرئيسية فى بريطانيا كما استغلوا أيضاً الملح فى دروتوتش وتشيشير .

وعلى الرغم من أن أجريكولا دأب على امتداح المستقبل الذى ينتظر البريطانيين فإن الولاية البريطانية لم تسهم قط أى إسهام خطير فى ثقافة العالم الرومانى . والـكاتب الرومانى البريطانى الوحيد المعروف هو بيلاجيوس Pelagius الذى كان معاصراً وخصما لأوغسطين . وما من شك فى أن اللغة اللاتينية كانت هى لغة القرآة والـكتابة . فلم يتسن العثور على نقش واحد باللغة الكلتية ، ومع ذلك فتاريخ اللغة فى بريطانيا يختلف اختلافا كبيرا

عن مثيله فى بلاد الغال . فقد كتبت الحياة للغتين الكلتيتين (الويلزية والكورنية) فى تلك المناطق من الجزيرة التى أفلتت من غزو البرابرة المتكلمين باللغة التيوتونية فى العصور الوسطى . والمعتقد أن الكلتية كانت بالنسبة لمعظم سكان بريطانيا الرومانية هى لغة الحياة اليومية .

وتهيء المناطق العسكرية فى بريطانيا لدراسة قدر لها أن تجتذب بعض كبار علماء الآثار فى العصر الحديث . فقد كانت ويلز تخضع لأربع نقط استراتيجية ، ففى الشرق كانت تواجه قواعد الفرق الرومانية فى شستر وكايرليون وفى الغرب قلاع كايرنارفون وكارمارفن التى تربطها ببعضها البعض سلسلة من الحصون والطرق الاستراتيجية . وقد ثبت أن الحل الذى طبق على ويلز من المتعذر تطبيقه على كاليدونيا (اسكتلندا) حيث أقنعت أعمال الارتياد التى قام بها أجريكولا فى البر والبحر الحكومة المركزية بعدم جدوى الغزو . وتكشف لنا فقرة جميلة بقلم تاكيتوس رد الفعل لدى الرومان إزاء مشهد الأخاديد البحرية الواقعة فى غربى الهضاب إذ يقول: «ليس هناك من موضع آخر اقتطع فيه البحر لنفسه ملكا أوسع من ملكه هذا ، إنه يتلوى ذات اليمين وذات اليسار ويشق طريقه داخل اليابسة كما لو كانت هذه تدخل فى حدود سلطانه » . وإن أى امرىء قدر له أن ينتظر مركبا تعبر به منطقة الهضاب لابد أن يوافق تاكيتوس على ما ذهب إليه. وكان من المحتم إيجاد حدود شمالية . وقد سبق أن ألمعنا إلى الحل الذى أوجده هادريان بإقامة ذلك الحاجز العظيم الذى يتمثل فى السور الرومانى الممتد من تاين Tyne إلى سولوى Solway والذى يضم ١٦ قلعة و ٨٠ حصنا يبعد الواحد عن الآخر مسافة ميل و ١٦٠ برجا للإشارة تدعمها كلها قاعدة للفرق الرومانية فى يورك وقلاع فى جبال بنين . وبعد مضى عشرين سنة على ذلك التاريخ جعل سور أنطونينوس فى الوسع تخفيض عدد أفراد الحامية المرابطة على سور هادريان كما مكن من السيطرة على

جنوبى اسكتلندا . ولكن ذلك أيضاً لم يكن هو الحل النهائى . وأصبح من المحتم قرابة عام ٢٠٠ ميلادية الانسحاب إلى سور هادريان . ولعل أهم مايلفت الأنظار ويثير الدهشة فى هذا النظام كله هو تلك القوى البشرية العظمى التى احتجزت فى بريطانيا ، ذلك لأن الحامية البريطانية التى كان يتراوح عددها بين ٤٠ ألف و ٥٠ ألف جندى ، كانت تمثل نسبة تتراوح بين ثمن وعشر القوات المسلحة لدى الإمبراطورية . فما الداعى إلى مرابطة كل هذه الأعداد فى مثل هذه الولاية البعيدة ؟ وهل كان هناك جدوى من ذلك ؟ صحيح أن بريطانيا ذاتها أمدت الرومان دون شك بما يقرب من ثمانية عشر ألف جندى من المقاتلين الأشداء ، ولكن هذه المسألة تنطوى مع ذلك على مشكلة لا يمكننا أن نحر فيها جواباً .

أما ولايتا ألمانيا العليا والسفلى اللتان كانتا من خلق دوميتيان فكانتا تعدان من الوجهتين الاقتصادية والاستراتيجية امتداداً لبلاد الغال . فتحت تأثير جيوشهما ، وتأثير قدماء المحاربين الذين استوطنوا المناطق القريبة من حامياتهم القديمة ، اصطبغت أراضى الراين بالصبغة الرومانية . ويمكن أن نشهد كيف كانت المدن الشهيرة تنشأ حول المراكز العسكرية الرومانية ، وقد بات هذا الأسلوب شائعا ومعروفا حينئذ فى بلاد مثل كولونيا ومايتز واستراسبورج — وكان الزجاج يصنع فى بولونيا والحديد بالقرب من أشين والفخار فى مايتز . وقامت هناك مدارس شهيرة للبنائين فى نيوميجن Neumegen وآرلون Arlon فى وادى موسيل الذى تصور آثاره الجنائزية حياة التجار الأثرياء فى تلك المنطقة . وقد سميت الأراضى العشرية Agri Decumantes فى جنوب غرب ألمانيا بهذا الاسم منذ عهد المستوطنين الغاليين الذين قدموا إلى البلاد فى أواخر القرن الأول (ويقصد بالأراضى العشرية تلك التى تدفع خراجاً يقدر بعشر إنتاجها) . وفيما وراء حصون دوميتيان واستحكاماته كانت الأراضى تشغلها الغابات والمزارع

الصغيرة وبخاصة فى وادى نيكار Nackar كما كانت تقوم بها بعض المدن القليلة رغم أن مدن فيسبادن ورودفيل وبادبادن تقوم فى مواقع رومانية.

ولقد رأينا كيف أن الاعتبارات الاستراتيجية هى التى دفعت روما إلى السيطرة على أراضى الألب والدانوب منذ عهد أوغسطس ، فلم يكن يرجى لأية حضارة آمنة أن تتطور وتنمو فى بلاد الغال فيما وراء الألب دون التحكم فى الممرات التى تصل بين ألمانيا وإيطاليا . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت الحاجة تدعو إلى طريق برى يربط ما بين الشرق والغرب أى ما بين الجيوش المرابطة على الراين والدانوب والجيوش المرابطة فى سورية . وقد عثر على هذا الطريق فى الشريان الذى يجرى من أكويليا Aquileia إلى بيزنطة عن طريق وادى سافا ونايسوس وأدريانوبل . وهكذا دخلت بحلول عهد هادريان تلك المنطقة المترامية الممتدة من سويسرا إلى البحر الأسود والتى تضم سكانا من الكلتيين والجرمانيين والالليريين والتراقيين وكثير من الشعوب الأخرى ، فى نظام الولايات الذى امتد إلى شمال الدانوب بعد غزو تراجان لبلاد داكيا Dacia . ولكنه لا ينبغى النظر إلى ولايات الدانوب هذه على اعتبار أنها منطقة عسكرية فحسب ، فقد نشأت فيها حياة اقتصادية متعددة الجوانب ، بل نشأت أيضاً بها فى بعض أجزائها حضارة تقوم على نظام المدن . والنمسا هى البلد الوحيد من بين هذه البلاد الذى له من التاريخ ما يمكن مضاهاته بروما . ولقد أثبت بارفان Parvan وهو باحث من رومانيا كيف أنه قد مهد لحركة انتشار الحضارة الرومانية جميعها التى بلغت غاية من السرعة ، التجار ورجال الأعمال والمهندسون الإيطاليون الوافدون من أراضى الدانوب فى وقت كانت فيه البلاد لم تزل خاضعة لسيطرة البرابرة . ففى هذه المنطقة كما حدث فى الإمبراطورية الرومانية فى كثير من الأحيان سارت راية الدولة الغالبة فى أعقاب قوافل التجار .

ولم يطرأ على ولاية رايتيا Rhaetia الألبية (وهى جزء من سويسرا

الحديثة) كثيرمن التقدم ، لأن الرومان لم يكن يجيدون التزحلق على الجليد أو علاج مرض السل . وكان عليهم أن يتحملوا عبء حياتهم كاملا . غير أن عاصمة هذه الولاية وتسمى أوغسطافنديليكوروم Augusta Vindelicorum مازالت تحتفظ فى الاسم الحديث لها أوغسطبرج باسم مؤسسها ، كما تقوم مدينتى انسبروك ورجنزبورج فى مواقع رومانية .

وكانت مملكة نوريكوم Noricum الكلتية القديمة ، تجد فى خام الحديد الوفير فى ستيريا Styria ، سلعة ظلت تحظى بطلب كبير آلافا من السنين . وكانت نوريكوم تحتفظ منذ زمن طويل بعلاقات ودية مع روما وحولها أوغسطس إلى ولاية ، كما نشأت بها حضارة لاتينية كلتية تشبه إلى حد بعيد حضارة الغال التى كانت على اتصال وثيق بها ، وثمة آثار رائعة على هذه الحضارة لم تزل باقية فى فنون عاصمتها القديمة نوريا Noreia .

وقد أصابت حركة نشر الحضارة الرومانية فى بانونيا وهى الولاية التالية للولاية السالفة جهة الشرق وذلك فى وديان سافا ودرافا قسطا كبيراً من النجاح ، حتى لقد اعتبر هذان الواديان امتدادا شرقيا لإيطاليا ، وأصبحت مدن ناوبورتوس Nauportus وسيسكيا Siscia (سيزاك الحديثة) وسيرميوم Sirmium وسنجيدونوم Singidunum (بلغراد الحديثة) . من المدن الهامة . وكان ثمة أسطول رومانى يخفر نهر سافا — كما بلغت السفن التجارية فى رحلاتها النهرية البحر الأسود . وقامت على شاطىء الأدرياتيك مدن بولا Pola وترجيستا Tergeste (تريستا الحديثة) وسالوناى Salonae وهى مدن يمكن مضاهاتها بمدن إيطاليا . وتقع بالقرب من بولا فيلا بريونى جراندى Brioni Grande الشهيرة : وكانت من أفخم مبانى الإمبراطورية .

أما فى وسط القارة فقد كانت الهضبة الجيرية فى دلماشيا تمثل منطقة

مختلفة ، غير أن القوى البشرية فى كل من بانونيا ودلماشيا — وهى المنطقة التى كانت تسمى فى شىء من التجاوز ولاية الليريكوم — كانت بالغة القيمة بالنسبة لجيوش الإمبراطوية .

وقد قدر للأباطرة والجنود الإلليريين أن يعبروا بالعالم الرومانى محسن القرن الثالث . وإذا ما اتجهنا شمالا فإننا نقف على طول جبهة الدانوب على عالم معسكرات الجيش وحملات الحدود . وكانت كارنتوم Carnuntum التى تخلفت عنها آثار كبيرة هى مقر قيادة الفرقة الرابعة عشر والقاعدة الرومانية الرئيسية . وكانت فيندوبونا Vindobono قاعدة للفرق الرومانية أيضاً ومرفأ لأسطول الدانوب ، وقد نشأت عنها مدينة فينا . أما غريمتها بودابست فنشأت عن مدينة اكوينكوم Aquincum .

وقد امتد كوديوس بولاية مويسيا Mocsia وهى أقصى ولايات الدانوب جهة الشرق ، إلى البحر المتوسط . وكانت عاصمتها هى نايسوس Naissus (وهى مدينة نيس الحديثة) وأسس تراجان مدنا أخرى واستطاعت سلسلة من المستعمرات أن تنشر الحضارة الرومانية فى وادى الدانوب الأدنى ومما تجدر الإشارة إليه ، ما قام به بلوتيوس سيلفانوس Plautius Silvanus بين عامى ٥٢ و ٥٣ ميلادية من توطين مائة ألف من البرابرة على الضفة الجنوبية لنهر الدانوب ، بعد أن كانوا يقطنون الضفة الأخرى . وقدر لأعمال التهجير هذه أن تصيب شيئاً كبيراً من الذيوع ، كما أصبحت مصدراً كبيراً للخطر فى عصر الإمبراطورية المتأخرة ، وكان كلوديوس أيضاً هو الذى ضم تراقيا إلى الإمبراطورية وجعلها ولاية تربط بين مويسيا ومقدونيا . أما التراقيون فكانوا يمثلون معدنا طيباً للجنود كما أسهموا بعدة وحدات من القوات المساعدة .

ولو أمكننا استعادة قصة استعمار داكيا كاملة لأصبح بين أيدينا فصلا

من أهم الفصول فى تاريخ الإمبراطورية . ومن المعروف أن دلماتيا Dalmatia وآسيا الصغرى قد أسهمتا بعدد كبير من المستوطنين الذين وجدوا فى اللغة اللاتينية رطانة مشتركة . وجرى العمل على نطاق واسع فى استغلال مناجم الذهب ومصادر الملح بها وكانت بها ضياع شاسعة تتبع الإمبراطور وتسير فى إدارتها على نمط الضياع الإفريقية ، ومستعمرات لقدامى المحاربين ، وتتطورت قراها إلى مدن تقوم بها الأسواق وتتمتع بالحقوق المدنية وكانت هذه هى آخر نقطة لزحف الحضارة الرومانية .

لقد قيل دائماً إن بلاد اليونان كانت تعانى فى ظل الإمبراطورية من نقص متزايد فى عدد السكان ومن الانحلال والضعف . ويأتى الدليل على ذلك من أدباء أمثال سترابو وديو خروسوستوم اللذين يؤكدان أن المدن الصغيرة بالأقاليم الريفية كانت فى سبيلها إلى الانهيار . غير أن البحوث الحديثة تعرض لنا صورة مخالفة من أهم معالمها ظهور الضياع الضخمة التى يعمل فيها المستوطنون Coloni ونشأة بعض المدن الكبيرة . ولقد أفادت بلاد اليونان بوجه عام ، وأثينا بوجه خاص من روح الميل للهلينية التى كان يتسم بها نيرون . ولقد جعل الفن والتعليم وصناعة السياحة فى وسع أثينا أن تجتنى رزقاً طيباً استناداً إلى ماضيها المجيد ، كما وجدت من صاحب الملايين هيروديس أتيكوس (توفى عام ١٧٧) نصيراً وراعياً لها ، كما تمتعت فى عهد هادريان بحقبة من حقب البناء العظيمة فى تاريخها . أما اسبرطه فقد خلدت إلى السلام ، والتجارة ، واستغلال محاجر تايجيتس Taygetus على نحو رتيب لا تألق فيه .

وكانت كورنثة تمثل سوقاً بين الشرق والغرب ، كما اشتهرت أو هى بالأحرى اكتسبت سمعة سيئة باعتبارها مدينة للهو . أما عن مشروع نيرون لشق قناة تقطع خليج كورنثة فلم يقدر له أن يتم قط ، وازدهرت من بين مستعمرات أوغسطس باتراى Patrae (باتراس Patras)

باعتبارها محطة ملاحية للسفن المتجهة إلى إيطاليا ، أما نيكوبوليس Nicopolis فإنها لم تنل مثل حظ باتراى . وكانت تربية الماشية من الأعمال الهامة فى كثير من أنحاء اليونان . فكانت تساليا تربى الخيل الذى يستخدم فى الملاعب والجيش ، وكانت أركاديا تنتج الحمير ، والبغال العفية . وظلت بعض الاتحادات الفيدرالية التى ظهرت إلى الوجود فى العصر الهلينستى قائمة . واستمرت الاحتفات الرياضية مع إضافة مباريات كانت تقام فى نيكوبوليس إحياء لذكرى موقعة أكتيوم . وكانت دلفى قد أصابها الانحلال غير أن أسرار إليوسيس وعقيدة اسقولاب فى إبيد أوروس احتفظتا بهيبتهما ومكانتهما .

وكانت مقدونيا لم تزل بلاداً قبلية إلى حد بعيد . وظل التقسيم الذى وضع لها فى القرن الثانى ق. م إلى مناطق أربع تتمتع كل منها بالحكم الذاتى المحلى سارياً . ولكنه كان يوجد فى بضعة مدن عنصر لاتينى قوى كما فى فيلبى حيث كانت قد تأسست مستعمرة لقدماء المحاربين ، فى جيش أنطونيوس وكانت بيرويه Beroea مركزاً تجارياً هاماً . وقدر لمدينة تسالونيكى التى حلت محل العاصمة القديمة بيلا Pella أن تصبح أعظم مدينة فى شمال اليونان وهى لم تزل كذلك حتى اليوم . وتضم آسيا الصغرى تلك الكتلة من الأراضى الواقعة بين البحر الأسود ، وسواحل الشام المطلة على البحر المتوسط . وهى فى سعتها واختلاف تضاريسها تكفى لأن تصبح شبه قارة . ولقد اخضعتها روما لحكم موحد الأمر الذى لم تعهده إلا فى فترات قليلة للغاية من تاريخها . ولقد دخلت روما هذه المنطقة ، خليفة للممالك الهلينستية التى كانت عهودها تتميز على الدوام بوجود بون شاسع ، وفارق كبير بين المدن المزدهرة الواقعة على الأطراف الساحلية فى الشمال ، والغرب ، وبين حياة التخلف على هضبة الأناضول .

ولقد رأينا كيف أن العشارين الرومانيين Publicani فى الجمهورية

كانوا يسلبون أهلها . وفضلا عن ذلك فقد حيل بينها وبين استعادة قوتها من جراء التبرعات التى فرضت عليهم والتى كانت تجنى منهم قسراً لصالح جيوش بروتوس ، وماركوس أنطونيوس . غير أن الإمبراطورية قد جلبت السلام ونشرت ظلاله . وقد ارتفعت النهضة الاقتصادية التى قامت فى عهد أوغسطس بحالة الرخاء فى آسيا فى أوائل القرن الثانى إلى مستويات عالية لم تتح من قبل ، والحقيقة أنها لم تتكرر قط ، لأن الأحوال الاقتصادية بهذه البلاد لم تصل مرة أخرى إلى المستوى الرومانى .

وثمة شبكة رائعة من الطرق امتدت إلى داخل البلاد وهيأت سبل التغلغل فيها كما أدت إلى نشأة المدن فى كل من فريجيا وبيسيديا . غير أن المدن الساحلية بقيت هى المدن التى تحظى بأكبر قسط من الرخاء والازدهار . فكان هناك ما لا يقل عن ست مدن يتجاوز عدد سكانها المائة ألف نسمة كما أن هذه المدن أخذت تتبارى منذ عهد فلافيوس فى إنشاء المبانى العامة الفخمة ، وفى التنافس حول ألقاب مثل « عاصمة آسيا » . وهناك خطبة ألقاها أيليوس أرستيديس Aelius Aristides حول مباهج الحياة فى أزمير تعتبر كفيلة بأن ترفع شأن أى مكتب حديث للدعاية درجات ، ودرجات لو استطاع أن يأتى بمثلها . وترجع نهضة أزمير إلى التاريخ الذى ساندت فيه روما ضد مثريداتيس . وقد أصبحت بعد ذلك ميناء عظيما ومركزاً للعلوم والطب . وكانت أفسس هى أضخم مدينة فى العالم اليونانى بعد الإسكندرية وإنطاكية . ولم يكن كهنة معبد ديانا يشرفون على أشهر العبادات الآسيوية بل يشرفون أيضاً على واحد من أضخم المصارف المالية فى العالم الرومانى . واكتسبت فى شمال غربى المنطقة مدينة طروادة الاسكندر Alexandria Troas أهمية كبرى . وكانت مدينة كيزيكوس Cyzicus على بحر مرمرة من المدن المنبوذة فى عصر الإمبراطورية الأول ولكنها وجدت فى هادريان نصيراً وراعياً صالحاً لها . وفى بيسينيا قامت المنافسة بين نيقيا ، ونيكوميديا المدينتين التوأمين وانتهت فى صالح مدينة

نيكوميديا فى القرن الثالث عندما أصبحت هذه المدينة عاصمة للإمبراطورية.
أما عن مدن السواحل الجنوبية فلم يقدر لغير مدينة طرطوس وحدها ، فى
كيليكيا التى اشتهرت بصناعة الأقمشة الكتانية أن تنمو بعض الشىء .
وأن عبارة بولس الرسول التى وصف فيها هذه المدينة بقوله « إنها مدينة
ليست بالوضيعة » لقول مشهور كما أنه يذكرنا بما نحصل عليه عرضاً من
معلومات كثيرة من سفر أعمال الرسل حول مدن آسيا فى القرن الأول .
وكانت كل هذه المدن الآسيوية عرضة للزلازل فى كثير من الأحيان .
ويتناهى إلينا مراراً وتكراراً أن منحا قدمها الإمبراطور لإصلاح ما وقع
من تخريب وظلت غلاطية موقعاً حربياً كلتياً متقدماً . وكان أفراد
الإرساليات الدينية يأتونها من بلاد الغال للوعظ باللغة الكلتية . وذلك
فى القرن الثانى ، وقد ظلت هذه اللغة قائمة حتى القرن الرابع على
أقل تقدير .

وكانت صناعات آسيا هى أكثر الصناعات تطورا فى العالم . وكانت
المنسوجات تأتى فى المرتبة الأولى وتقوم صناعتها على أصواف سلالات
شهيرة من الأغنام والماعز التى ترعى فى مراعيها الفسيحة الجيدة . وكان
هناك الكثير من أنواع الأقمشة الخاصة التى تتراوح بين اللباد الثقيل وبين
الأقمشة الفخمة التى كانت تنتجها ميليتوس وكوس . وكانت لأودكايا
تنتج صوفا داكنا مشهورا . وبلغت صناعة الجلود فى آسيا الغاية فى الرواج
والازدهار . كما كانت آسيا تنتج الأوانى الفخارية التى قدر لها أن تطغى
على كل السوق الشرقية وكانت تزرع أنواع متعددة من الأعشاب بقصد
استخدامها فى صناعة العقاقير والعطور ، وأن زراعة الخس فى كوس لتذكرنا
بمهارة زراع الخضروات الآسيوين الذين كانوا يعدون إنتاجهم للسوق .
وكانت بونتوس وكيليكيا تصدران الأخشاب التى تستخدم فى صناعة
السفن . أما تجارة « النقل » مع الغرب التى ، شل الإيطاليون حركتها فى ظل

الجمهورية فقد عادت من جديد إلى أيدى آسيوية . ولم يعد يرتفع علم أى مدينة فوق صاريات السفن التى تتخذ هذه الطرق الهامة سوى سفن قادش. وكانت هناك أنواع كثيرة من الرخام الثمين وخاصة الأحجار القرمزية التى تنتجها بروكونيسوس Proconnesus وتصدر من من كيزيكوس فى رحلات بعيدة تصل إلى بلاد الغال ذاتها . وظل الحديد يستخرج من بونتوس . ويعد البحر الأسود وخليج البوسفور من أحسن مناطق صيد الأسماك فى العالم حيث يصطاد الكفيار والتونةأوسمك موسى والسردين والجمبرى وسرطان البحر والقواقع . وكان هناك الكثيرون من أصحاب الأراضى الكبار من الأفراد . كما كانت هناك أيضا الضياع الإمبراطورية التى تشتمل على أراض زراعية ومناجم ومحاجر فى كثير من أنحاء أسيا — كما كانت هناك الضياع الكبيرة التى تتبع المعابد . وكثير منها يرجع إلى أزمنة غابرة . وينبغى الرجوع إلى القسم الخاص بأسيا فى مؤلف تينى فرانك Tenney Frank بعنوان (دراسة اقتصادية لروما القديمة) إذا ماأريد ثبتا كاملا تاما بالوثائق التى تصور هذا الاقتصاد الذى بلغ الغاية من التطور والتنوع

ونقف على مثل هذه الدرجة من الرخاء فى الشرق الأدنى الرومانى فيما عدا فلسطين . لقد كانت الولايات الرومانية فى كل من سوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى الولايتين الغربيتين التابعتين للإمبراطورية وهما ولاية مابين النهرين وبابيلونيا تؤلف عالما تتجاوز فيه وحدته الثقافية والاقتصادية الخلافات المحلية . ولقد كان لهذا العالم تأثير كبير عميق على حضارة العـــالم الرومانى ، فقد أخرج الكثير من الكتاب والفلاسفة والسفسطائيين اليونانيين الكبار فى فترة الإمبراطورية الأولى كما كانت بعض مدن هذا العالم مراكز للتعليم اليهودى والسريانى . كما ابتدع أنماطا جديدة فى فن المعمار كان لها تأثير على طراز البناء فى العصور الرومانية

والبيزنطية المتأخرة وهو مايمكن أن نشهده فى مدن هليوبوليس وتدمر والبتراء وكتيسيفون Ctesiphon .

وقد خرجت من هذا العالم أعظم ديانتين عالميتين وهما ديانة مثراس التى تؤمن بالإله الشمس ثم بالمسيحية .

ومن المرجح أن عدد سكان سوريا وفلسطين كان يبلغ عشرة ملايين وبغض النظر عن المدن الفينيقيةالساحلية القديمة ، فقدكانت المنطقة لاتضم سوى قلة من المدن الهلينستية الكبيرة التى بثت فى منطقة ريفية يتحدث أهلها باللغة الأرامية . كانت اليونانية هى لغة الثقافة بالبلاد ، أما اللاتينية فكانت لغة الحكم والإدارة . وكانت إنطاكية على نهر العاصى وهى عاصمة ولاية سورية ثالث مدينة فى العالم الرومانى وتضم من السكان مايقدر فيما يرجح بستمائة ألف نسمة . وكانت المنطقة الواقعة فيما حول المدينة بمالها من ضياع ومنازل ريفية كبيرة ، تؤلف فى مجموعها فى واقع الحال إقليما حضريا مركزيا ، بل إن أيا من كورنثة أوكانوبوس Canopus فى مصر لم تستطيعا منافسة حدائقها الترويحية فى ضاحيتها المعروفة باسم دافنى . أما بيروتوس Berytus (بيروت) فقد كانت ميناء ومركزاً ثقافيا يضم مدرسة شهيرة للقانون الرومانى . وقد ازدهرت الموانى الفينيقية القديمة . وكان التجار السوريون يذهبون إلى مسافات بعيدة تصل إلى بريطانيا . وطار صيت صور وذاع فى كافة أنحاء العالم ، لصناعة الصبغة القرمزية التى كانت تقوم بها . ونهضت صيدا على أساس من الاختراع الجديد ، وهو نفخ الزجاج . وفى وسعنا أن نتتبع تاريخ شركة صناعية واحدة وهى شركة إنيون Ennion فى صيدا . وقد عثر على أوانى هذا الصانع الزجاجية فى مصر وروسيا وإيطاليا . وقد افتتح إنيون فيما بعد فرعا له بالقرب من روما ثم نقل فى النهاية مصانعه كلها إلى هناك . وفى عهد هيرودس الزاهر كانت أورشليم تضم عدداً من السكان يقارب مائة ألف نسمة ، ولكن الفقر

قد ضرب عليها مع أراضى فلسطين برمتها من جراء الحروب التى دارت فى عهدى فيسباسيان وهادريان .

ولكن حركة مرور القوافل هى التى كانت العامل الأول فى إثراء سوريا بل المنطقة جميعها . وكانت أهم طرق القوافل هى التى تصل ما بين ساحل البحر المتوسط وبلاد الفرس وأفغانستان والهند والصين . أما فى الشمال فكانت طرق القوافل تبدأ من إنطاكية وتصل إلى سلوكية على نهر دجلة عن طريق حلب وثابساكوس Thapsacus ، وتبدأ إلى الجنوب من ذلك من دمشق حتى دورا على نهر الفرات عن طريق تدمر . وكانت هناك طرق أخرى تصل عن طريق البتراء إلى شبه الجزيرة العربية وخليج العقبة ، وأخرى تمتد من إفريقية إلى أرمينيا والبحر الأسود . وكانت حركة المرور على طول هذه الطرق تتبع نظاما غاية فى الإحكام ، كما كانت بها الشرطة ودوريات الحراسة . وكانت المياه تختزن على مسافات منتظمة ، كما كانت تنتظم على طولها الفنادق ، والاستراحات . وكانت القوافل تسير فى طوابير تحت رعاية حداة مدربين . وعلى طول هذا الطريق كانت ترد أقمشة الصين الحريرية والقرفة والفلفل وتوابل الهند وبخور شبه الجزيرة العربية . وكانت هذه التجارة هى مصدر ثراء الأفراد ومدن القوافل الشهيرة . والمدينة المعروفه الشهيرة من هذه المدن فى الوقت الحاضر هى دمشق التى تتوسط واحة غنية تنمو بها أشجار النخيل والبلسم . أما فى القرنين الأولين من الميلاد فقد كانت تدمر تعد أعظم هذه المدن . فإن واحتها كانت تزرع بأكملها وبلغت من الثراء حدا جعلها جديرة بأن تصبح فى القرن الثالث عاصمة جزء مستقل من الإمبراطورية . ومن بين النقوش التى عثرت بها نقشا يذكر التعريفة الجمركية فى عهد هادريان . كما أن جباناتها تعد من عجائب الآثار فى الشرق الأدنى، بل إنه لأدعى من هذه إلى العجب والدهشة تلك القبور الصخرية التى كانت لغريمتها البتراء والتى كان لاكتشافها فى القرن التاسع عشر

صدى طيب فى جميع أنحاء العالم . وإلى الشرق من الصحراء — وفيما وراء حدود الإمبراطورية فى العادة — كانت تقوم سلوكية (بالقرب من بغداد ودورا) وبقيت سلوكية التى كانت فيما سبق العاصمة الشرقية لسوريا الهلينستية والتى كانت فى اتساع إنطاكية مركزاً للثقافة اليونانية فى بلاد ما بين النهرين . وكان تدميرها على يد أفيـــديوس كاسيوس Avidius Cassius عام ١٦٤ تهوراً ونزقا بحت ، لأنه قوض بذلك أركان الحضارة الهلينية غربى بارثيا ، ودعم نزعة قومية شرقية متأججة تناصب روما العداء . وإننا نعلم عن مدينة « دورا » أكثر مما نعلم عن أية مدينة من مدن القوافل الأخرى . والفضل فى ذلك يرجع لأعمال الحفر التى قامت بها جامعة ييل . وقد كشفت هذه التنقيبات عن الصورة التى تم بها اندماج عناصر يونانية وبارثية ورومانية ويهودية فى حياة مجتمع كان رخاؤه يتوقف على السلام المنعقد بين إمبراطوريتين ، وهو المجتمع الذى حطمه البارثيون فى النهاية عام ٢٥٧ . وقبل هذا التاريخ ظل هذا المجتمع فى قبضة الرومان ما يقرب من قرن كامل . كما أن حفريات القلعة الرومانية قد أخرجت إلى النور مجموعة رائعة من الوثائق العسكرية . وتثير الفنون الدينية أيضاً فى معابد دورا ومجامعها عظيم الاهتمام . كما أن ميكائيل روســـتوفتزف Michael Rostovtzeff عالجها فى سلسلة من الدراسات الطريفة الرائعة .

أما مصر الرومانية فلا تعوزنا عنها الوثائق ، ولكنه من الصعب أن ننسق بينها فى وحدة مترابطة فإن العدد الهائل من أوراق البردى — ومعظمها من أوكسيرينخوس Oxyrhynchus والفيوم — تقدم لنا أكداسا من المعلومات، التى يختلط فيها الغث بالثمين والصالح بالطالح والتى تدور حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كما كانت جنوبى الدلتا . وتكتظ هذه الوثائق بالشكاوى من ارتفاع الضرائب وظلم المسئولين وتضخم الأسعار والسخرة والمجاعة وفرار الفلاحين من الأرض . ومع ذلك فإن المدينتين أو المدن الثلاث التى أجريت فيها أعمال التنقيب تدل على أن حالة الرخاء ظلت قائمة

حتى القرن الثالث . ولقد قيل إنه ينبغى التغاضى عن جانب كبير على أقل تقدير من طابع الكآبة الذى يسود الوثائق البردية ، ذلك لأن ماهو شاذ يخرج عن المألوف ، هو مايكتب على الورق ويبلغ للمسئولين ، كما أن الشكاوى وحدها هى التى تودع بالملفات ! وعلى الرغم من ذلك فلا جدال فى أن الفلاح المصرى وجد من الإمبراطورية الرومانية صاحب عمل غاية فى الشدة والصلابة . ولقد سبق أن شرحنا كيف أن أوغسطس تسلم من البطالمة قطراً مصرياً منظماً تنظيماً علمياً دقيقاً ويخضع لنظام محكم للضرائب باعتباره ضيعة ملكية . وقد تراخى هذا التنظيم فى عهود الحكام المقدونيين المتأخرين فجاءت الكفاءة الرومانية وشدت وثاقه وزادت من إحكامه . ومهما بلغ طمى النيل من خصب فقد كان من الأيسر انتزاع آخر مليم من الضريبة وآخر سعر من الجهد من الفلاح المصرى عن استغلال قدرة الأرض الإنتاجية إلى أقصى حد ممكن .

بيد أن ثمة طبقات أخرى فى المجتمع كانت تحظى بعطف الحكم الرومانى ورعايته فكثير من قدماء المحاربين قد استقروا فى البلاد وألفوا طبقة أرستقراطية داخل القرى كما فعل الجنود المرتزقة اليونانيون من قبلهم . وتدفق التجار وأصحاب الأعمال على المدن وأتيحت فرص جديدة بتخلى الإمبراطورية عن بعض ألوان الاحتكار ، على الرغم من أن الاحتكار على الكتان وأوراق البردى فيما يحتمل ظل قائماً : وكانت المناجم والمحاجر تخضع للملكية الإمبراطور الخاصة . ولكنها كانت تؤجر فى العادة للمقاولين من الأفراد .

أما المحاجر الرومانية فى مصر ، فغنية عن التعريف وخاصة جبل كلوديانوس الذى ظلت أحجار الجرانيت الرمادية تقطع منها طوال سبعين سنة . وكانت حركة الملاحة فى النيل والقنوات منتظمة تنظيماً محكماً لأن

المجارى المائية كانت وسيلة نقل معظم السلع التى يدور حـــولها النشاط التجارى بالبلاد .

وقد أحالت السوق العالمية ، الاسكندرية ، إلى أعظم مستودع للبضائع ، فكانت الطرق البحرية المؤدية للهند تجلب منتجات الشرق إلى موانى خليج السويس ثم تنقل هذه المنتجات بوساطة القنوات إلى الاسكندرية ثم يعاد تصديرها من هناك (بعد تصنيعها وهى مازالت مواد خام) إلى الغرب . وكان هناك طريق آخر لجلب منتجات الحبشة وصعيد مصر بالسفن إلى مصب النيل . وكانت مصانع الاسكندرية تحقق إنتاجا ضخما من المصنوعات المدنية وأدوات الترف والعطور والزجاج . وكانت سفن الشحن الضخمة التى تتراوح حمولتها بين ثلاثة أو أربعة آلاف طن وهى أضخم السفن التى بنيت فى العالم القديم تحمل الغلال المصرية إلى أوستيا Ostia أداء للجزية السنوية . وكانت مدينة الاسكندرية تضم من السكان مايقدر بثلاثة أرباع المليون نسمة ، أى أنها تأتى من حيث عدد سكانها فى المرتبة الثانية بعد روما . أما عن عدد السكان بمصر فكان يقرب من سبعة ملايين . وظلت الاسكندرية مركزاً ثقافياً عظيما . وبذل المتحف أو مكتبة الاسكندرية التى شجعها عدد من الأباطرة الرومان جهداً طيباً فى ميادين الطب وفقه اللغة والفلسفة . أما فى ميدان العلوم فقد كانت عهوده الزاهرة قد انقضت على الرغم من أنها قد أخرجت بالفعل العالم الفلكى والجغرافى بطليموس (وسطع نجمه فى ١٥٠) . ولعب العلماء اليهود المتأغرقون فى الاسكندرية دورا هامة فى الفكر اليهودى والمسيحى . واشتهرت المدينة أيضاً فى ناحية لا تحمد لها وهى جمهورها من الدهماء الذى كان نزاعا إلى أعمال الشغب والاضطراب وإلى ذبح الأثرياء وإلى الظهـــور بمظهر القحة أمام الزوار الكبار .

أما فى خارج الاسكندرية فالمدينة الجديدة الوحيدة بمصر كانت هى أنتينوبوليس Antinopolis التى أسسها هادريان إبقاء لذكرى صديقه المقرب أنتينوس والتى كان معظم شعبها من اليونانيين ، وقد قدر لبعض المراكز الإدارية المصرية القديمة أن تزدهر وتنمو بحيث كانت تميل إلى إنشاء مبان عامة تجرى على نمط البناء اليونانى . غير أن الصورة العامة لمصر اليونانية باستثناء الاسكندرية لم تكن توحى بالبشر. فقد خضعت الأرض وخضع الشعب لمطالب الدولة التى لم يكن لهم منها فكاك . كما كان تسوقهم إلى العمل بيروقراطية استبدادية ضخمة ، وخلاصة القول إن مصر قد سبقت الإمبراطورية المتأخرة فى أحوالها المعيشية الكئيبة بمدة قرنين .

ونظمت جزيرة كريت وقيروان Cyrenaica فى ولاية واحدة على الرغم من أنه لم يكن بينهما ثمة صلة. فقد كانت كريت بلاداً متخلفة وعاصمتها هى مدينة جورتون Gortyn القديمة بيد أنه لم يحدث فيها تطور فى أى ميدان على الرغم من أن أقدم المعابد فى العالم اليونانى بها كان يجتذب السياح . أما قيروان فقد كانت زراعتها مزدهرة كما كانت تعتبر إلى حد ما صورة مصغرة لولاية أفريقية وقد تعرضت المنطقة للمحن والويلات إبان الثورة اليهودية التى قامت فى حكم تراجان .

وكان هناك كثير من أوجه التشابه بين صقلية فى عهد الإمبراطورية وبين بلاد اليونان . فقد تميزت كل منهما بنشأة الضياع الكبيرة ، وكانت تسمى فى صقلية باسم Massae ويقوم بزراعتها مستأجرون . وبعض هذه الضياع وجد أساساً لقيام عدد من القصور الريفية المترفة ، ومن هذه القصور الفيلا التى اكتشفت فى بيازا أرميرينا Piazza Armerina والتى تعتبر من بين الاكتشافات الأثرية الشهيرة التى تمت فى السنوات الأخيرة . وعلى الرغم من أن هذه الفيلا تنتسب إلى أواخر عصر الإمبراطورية إلا أنها بزخارفها الرائعة من الفسيفساء تقدم لنا صورة طيبة . وازدهرت بها بضعة مدن

كبيرة - كاتانيا Catania وسرقوسة فى الشرق ، وبانورموس Panormus (وهى مدينة بالرمو الحديثة) وليليبايوم Lilybaeum (وهى مدينة مارسالا الحديثة) فى الغرب غير أن انهيار مدن الأسواق الصغيرة ، لم يكن واضحاً وضوحه فى بلاد اليونان . وكانت صقلية تتمتع أيضاً بحركة سياحية نشطة ، لم يكن الحافز عليها هى آثار الجزيرة فحسب ، بل مناخها الطيب ، وشمسها المشرقة فضلا عن أعجوبتها الطبيعية العظيمة ، ألا وهى بركان إتنا . ويبدو أن حركة السياحة هذه كانت تخضع لتنظيم دقيق إذ كان الأدلاء المحترفون يصحبون السائح إلى قمة البركان ، حيث يمكنه أن يقضى الليل فى مكان مسقوف ، وأن يشهد شروق الشمس . كما كانت هناك الفنادق بالقرب من كثير من الينابيع الساخنة ، على سفوح الجبال. وفى غرب الجزيرة كان أعظم ما يجتذب السائح معبد فينوس فى إيريكس Eryx الذى قام بترميمه أكثر من إمبراطور واحد فضلا عن احتفالاتها الشهيرة وكانت صادرات صقلية تشتمل على الغلال التى تصدر لأوستيا ثم النبيذ الذى اكتسب شهرة عظيمة والكبريت من أجريجنتوم Agrigentum الذى يعد فى الوقت الحاضر من موارد الجزيرة الرئيسية .

وقد أرجأنا الحديث عن قلب هذه الإمبراطورية العالمية إلى النهاية . والمعتقد أن سكان إيطاليا الذين كان يبلغ عددهم قرابة خمسة عشر مليونا قد بلغ بحلول عهد تراجان عشرين مليونا من الأنفس. أما عن اقتصاد إيطاليا فإنه يتطلب دراسة مفصلة لأقاليمها المختلفة لا يتسع المجال لها فى هذه الصفحات، وقد استمر حال إيطاليا الجنوبية على ما كان عليه من التدهور والانهيار . كما يبدو أن اتروريا كانت بسبيلها أيضاً إلى الانهيار. غير أن هاتين البقعتين إنما تمثلان نقطتان مظلمتان فى صورة تبدو فى نواحيها الأخرى بهيجة تبشر بالأمل . فقد استمرت كامبانيا فى إقامة ذلك التوازن بين إنتاجها الزراعى وصناعتها وحركة السياحة بها بنسب متعادلة طيبة وكانت كابوا Capua

وليست نابولى هى أضخم المدن فى تلك الأنحاء . وبقيت بوتيولى Puteoli الميناء الرئيسى لإيطاليا إلى الوقت الذى اشتدت فيه منافسة أوستيا لهافطغت عليها . ولقد كان لثورة بركان فيزوف الهائلة عام ٦٩ أن حفظت لنا فى بطن حمم اللافا مدينتين من مدن كمبانيا وهما ميناء هيركولانيوم Herculaneum الجميل ومدينة بومبى Pompeii التى كانت ميناء وسوقا رائجة . وبفضل ما يقرب من مائتى سنة من أعمال الحفر أصبحنا نعلم من حياة هاتين المدينتين قسطا أكبر مما نعلمه عن الحياة السائدة فى أية مدينة أخرى من مدن العالم القديم . فقـــد كانت الشواطىء التى يهرع إليها الناس وقت العطلات — باياى Baiae وستابياى Stabiae وسورنتوم Sorrentum — والقصور الريفية الفخمة تنتظم على طول ساحل خليج نابولى . لقد كانت هذه أشبه بريفيرا أوفلوريدا العالم الرومانى . وكانت تقوم بلاتيوم وجبال ألبان وفيما حول تيفولى مناطق مماثلة . فلقد كانت فيلا دوميتيان فى ألبانو وفيلا هادريان فى تيفولى مقامتين على نطاق ملكى حق . وتدل سفن كاليجيولا التى رفعت بمحتوياتها من قاع بحيرة نيمى على الأبهة الإمبراطورية إذا ما أحاطت برعايتها عبادة قديمة . وإلى الشرق من ذلك كانت لاتيوم Latium بلاد المزارع الصغيرة والمدن المتواضعة ذات الأسواق والتاريخ العريق . كانت هذه هى الحقبة التى بلغ فيها وادى البو أوج ازدهاره . فقد كانت باتافيوم Patavium (بادوا الحديثة) بصناعاتها الصوفية تضم بين مواطنيها ما يربو على خمسمائة من الأثرياء .

وروما وحدها هى التى كانت تحظى بعدد يفوق هذا العدد ، وذلك بالنسبة لجميع أنحاء إيطاليا . وكانت مدينة أكويليا Aquileia هى سوق التجارة مع أراضى الدانوب وشمال أوربا وبحر البلطيق . وكان يجلب إليها الكهرمان والفراء والجلود والصلب أما هى فكانت تصدر النبيذ الإيطالى والفخار والمصنوعات المعدنية والملابس . وكان لهذا الرخاء الذى تمتعت به

أن أطلق عليها لقب روما الثانية (Roma Secunda) . أما رافنا Ravenna التى كانت مركز قيادة أسطول الادرياتيك فقد أقيمت على ركائز وعمد مثل مدينة البندقية . وكانت مديولانوم Mediolanum (ميلانو الحديثة) مركزاً صناعياً وعاصمة منطقة زراعية غنية وهمزة الوصل الرئيسية للطرق الممتدة فى شمال إيطاليا . وقد أصبحت كل من ميلانو ورافنا من العواصم الهامة فى عصر الإمبراطورية المتأخرة . كانت هذه البلاد الرئيسية فى أرض كانت ومازالت تعج بالحياة الحضرية النشطة المؤملة ، ويمكن أن نخرج بفكرة عنها من الآثار التى تخلفت عن أكويليا وسوسا وعن ملاعب فيرونا وبولا .

وتؤكد جميع التواريخ الاقتصادية الخسارة التى منيت بها أسواق التصدير الإيطالية خلال القرن الأول . فقد لقى النبيذ وزيت الزيتون والفخار والمصنوعات الصوفية والأدوات المعدنية منافسة شديدة من جانب الولايات الغربية خلال هذه الفترة . وأشهر مثل على ذلك طغيان الفخار المصدر من جنوب الغال على فخار أيتيوس . ولعل أصحاب المصانع الإيطالية قد أقاموا عن عمد فروعا لهم فى الولايات للحد من تكاليف النقل . وربما صدق هذا على الحالة التى نحن بصددها والحالات المماثلة الأخرى كما يفعل فى الوقت الحاضر أصحاب مصانع السيارات البريطانيون حين يقيمون أفرعا لهم فى استراليا . وفضلا عن ذلك فلعل نمو عدد السكان فى إيطاليا ذاتها كان فيه ما يعوض عن تلك الخسارة بيد أنه كان مقدرا أن تبلغ النتائج الاقتصادية فى المدى الطويل درجة كبيرة من الخطورة .

أما روما عاصمة العالم فقد كانت خليطا عجيبا بين فخامة القصور وقذارة الأكواخ . ولعل قصائد جوفينال الساخرة ونابلى أيضاً كما تبدو فى العصر الحديث تقدم لنا صورة لروما القديمة . وليس هناك من مدينة فى العالم الحديث تدانى روما فخامة وجلالا . ولقد رأينا عظم ماقام به أوغسطس

من أجل هذه المدينة . ومنذ وفاة أوغسطس إلى موت هادريان كان معظم عمليات البناء فى روما تتجه إلى وجهتين الأولى للترفيه عن الشعب الرومانى والأخرى لإعداد المسكن الملائم للإمبراطور وبلاطه . أما عن أعظم المشروعات قاطبة فى مجال إنشاء قصور الإمبراطور ، ألا وهو مشروع نيرون الخاص بإنشاء « الدار الذهبية » ، فإنه لم يتم قط . وكان يقصد به أن يقيم الإمبراطور فى فيلا فخمة مهيبة تنشأ وسط حديقة مخططة تخطيطاً رائعاً فى قلب مدينة روما. وعلى الرغم من أن الدار الذهبية لم يتم بناؤها إلا أنها تعد نقطة تحول فى تاريخ فن المعمار الرومانى . وقد واصل دوميتيان وكبير مهندسى المعمار لديه وهو رابيريوس Rabirius مشروعا كان من شأنه أن أحال فى واقع الأمر جبل بلاتين جميعه إلى قصر إمبراطورى . وكانت المشكلة الرئيسية التى تواجه بناة الملاعب العظيمة والمسارح والحمامات هى كيفية توفير المكان لأعداد غفيرة من الناس . وكان ملعب الكولوسيوم Colosseum يمنح خمسين ألف نسمة زادهم اليومى من متعة الإيذاء والانتقام الكامنة فى نفوسهم . وكان فى إمكان ٣٠٠٠٠٠ شخص أن يحضر سباق العربات الحربية فى حلبة ماكسيموس Circus Maximus كما كان فى وسع ٣٠٠٠٠ من النظارة مشاهدة الأحداث التى تجرى فى استاد دوميتيان الذى كان الإمبراطور من «الحكمة» بحيث زود أورقته الخارجية ببيوت للدعارة . كانت هذه هى الساحة التى صان لنا ميدان بيازنافونا Piazza Navona الجميل مقاييسها وأبعادها حتى اليوم . أما الحمامات العظيمة فلم تكن تمد روادها بوسائل الاغتسال فحسب ، بل كان بها المطاعم والبارات وقاعات المحاضرات وقاعات الموسيقى ومعارض الفنون والمحال التجارية وملاعب لمباريات الكرة . لقد كانت هذه الحمامات أشبه بما يعرف بالكورسال Cursaal حيث من الممكن أن يجد آلاف من الناس فرص الاستمتاع طيلة يوم كامل . وأقام فسباسيان ونيرفا أسواقا رومانية جديدة فى روما غير أن هذه الأسواق التى بنوها وغيرها من المنشآت السابقة مالبثت أن بدت

ضئيلة حقيرة إلى جانب السوق الرومانى الرائع الذى أقامه تراجان ووضع تصميمه أبولودوروس Apollodorus الدمشق والذى استمدت مواد بنائه من أسلاب الحروب التى جرت فى داكيا . فإن ميدان هذا السوق فى محيطه الذى يأخذ شكل أنصاف دوائر ثم ذلك البناء الفخم المعروف باسم باسيليكا أولبيا Basilica Ulpia (التى ظهرت نسخة أخرى منه فى كتدرائية القديس بولس ، ثم تلك المكتبات اليونانية واللاتينية والعمود ذاته Column بزخارفه البارزة إنما تكون جميعها تحفة معمارية دقيقة محكمة البناء أجمعت الآراء على أنه ليس لها نظير فى العالم . وكان هادريان من الحكمة بحيث أعرب عن أطماعه المعمارية فى المبانى العظيمة المنفردة وبخاصة ضريحه الذى أصبح الآن قلعة القديس أنجيلو القائمة بالقرب من النهر فى مواجهة ضريح أوغسطس .

وكان أيسر على العامة أن يحصلوا على ألوان التسلية من حصولهم على عمل ، ذلك لأن روما كانت تعيش عالة على اقتصاد العالم . إن أعمال المقايضة والبناء وتجارة القطاعى يمكن أن تكون عاملا لازدهار أية مدينة يزيد عدد سكانها على مليون نسمة ، غير أن روما لم يكن لديها غير عدد قليل من المنتجين كما لم يكن لديها ما تصدره باستثناء الحكام وموظفى الحكومة ، سوى الشيء القليل . أما عن شعبها المختلط الجنسيات فقد أتى إليها من أركان الأرض الأربعة ، ولكن مصدره الرئيسى كان هو آسيا وسورية . وإن الصورة التى يعرضها جوفينال فى قوله إن شعبها كان شعبا من المهاجرين واللاجئين لتجد سندا فى النقوش الجنائزية التى لا تضم من الأسماء الإيطالية سوى نسبة الربع .

ولمواجهة ضرورة تزويد هذا العدد الهائل من السكان بالمواد الغذائية نشأ ميناء كبير فى أوستيا ، ونشطت حركة مرور الصنادل نشاطا منقطع النظير على نهر التيبر . وليس ثمة موقع أثرى فى إيطاليا يفوق موقع أوستيا

أهمية . فيمكن لنا أن نستمد من هذه المدينة — وهو مالا يتيسر لنا فى روما — فكرة عن المنازل السكنية الضخمة التى تجاورها الخانات والمقاهى ، أى تلك المشاهد الدالة على حياة جماعية صاخبة متدفقة كتلك التى نراها فى مدينة تراستيفير Trastevere اليوم ، ثم كانت هناك المبانى الخاصة بالميناء والأرصفة والمخازن وثكنات الشرطة . وكانت بها المبانى العامة الفخمة ثم الكابيتوليوم الذى يرتفع فوق قاعدة عالية والحمامات المزينة بلوحات الفسيفساء الجميلة ذات المناظر البحرية ثم مجموعة من المبانى تضم المسارح ومعبد كيريس Ceres والميدان العظيم الذى تحيط به مكاتب شركات الملاحة التى تتعامل مع إفريقية وإسبانيا وبلاد الغال ومصر . وكان تراكم الرواسب عند مصب نهر التيبر من المشاكل الدائمة . وقد قام كاوديوس أولا ثم تراجان ببناء موانى وأرصفة جديدة . ويرجح أن أوستيا وضواحيها كانت تضم بحلول عهد هادريان مائة ألف نسمة .

أما عن النشاط التجارى الذى كان قائما بين الإمبراطورية والعالم الخارجى فإنه يعد من الدراسات الممتعة التى ينبغى أن نتخذ فيها من مؤلف السير مورتيمر هويلر الذى وضعه مؤخراً أعظم هاد ومرشد . والكتاب بعنوان « روما فيما وراء حدود الإمبراطورية » وكانت الحركة التجارية مع الهند هى أعظم أوجه النشاط التجارى قاطبة . ولقد سبق أن ذكرنا الطرق البرية التى تمتد من مدن سوريا الصحراوية إلى أفغانستان والهند والشرق الأقصى عن طريق بارثيا وذكرنا أيضاً طرق البحرية التى تبدأ بموانى البحر الأحمر . وقد اكتسبت الطرق البحرية أهمية كبرى عندما اكتشف شخص يدعى هيبالوس Hippalus كيفية الاستفادة من الرياح الموسمية فى القيام برحلات بحرية إلى الساحل الشرقى للهند ، ومنه مباشرة .

أما عن تاريخ ظهور هذا الشخص فلا يمكن تحديده ، ولكنه يبدو أنه لا يتجاوز عصر أوغسطس . ومعلوماتنا وفيرة عن هذا النشاط التجارى

ويرجع الفضل فى ذلك إلى كتاب Periplus Maris Erythraei وهو دليل للبحارة إلى المحيط الهندى كتب فى القرن الأول الميلادى وبه تفاصيل عن الموانى والأحوال الملاحية والشحنات بين خليج السويس وشرق إفريقية والهند . وكانت الحركة الملاحية فى شرق إفريقية تصل إلى زنزبار أو دار السلام حاملة الفخار أو الأدوات وآنية بالعاج والخل والقرفة وقرن الخرتيت . وكان ثمة ميناء عربى يسمى موزا Muza بالقرب من خليج باب المندب . وقد لعب هذا الميناء دوراً هاماً فى هذا النشاط التجارى وكان يشبه فى نشاطه ورواجه ميناء عدن اليوم . ولنا أن نتوقع الحصول على مزيد من الوثائق حول هذه الحركة التجارية بتطور الاكتشافات الأثرية فى أفريقية.

ويذكر كتاب المرشد السالف الذكر أن فى الهند محطتين نهائيتين هما باريجازا Barygaza (برواش الحديثة) على خليج كامبى وذلك بالنسبة للطريق البحرى الشمالى . أما بالنسبة للطريق البحرى الجنوبى فكانت المحطة النهائية هى موزيريس Muziris (كرانجانور الحديثة) على شاطىء ملبار ولكن هذا المرشد يذكر أيضاً كثيراً من محطات التجارة الأخرى (emporia) وقد قام ويلر وعلماء الآثار الفرنسيون بالتنقيب فى إحدى هذه المحطات وذلك فى أريكاميدو Arikamedo بالقرب من بوند يشيرى . وفى هذه المحطة كانت الواردات الغربية هى النبيذ وأدوات المائدة والمصابيح والزجاج . ويقارن هويلر Wheeler بين هذه المحطات التجارية ، وبين المصانع التى أقامتها الدول الأوربية فى الهند خلال القرن السابع عشر .

أما فى الشمال فقد عثر المنقبون على وثائق تدل على حركة نقل البضائع بطريق البر وذلك فى موقعين على وجه الخصوص وهما تاكسيلا Taxila بالقرب من بيشاور فى باكستان وبجرام Pegram فى أفغانستان بالقرب من كابول . وكانت كل من المحطتين تقعان على الطريق العظيم الذى يصل بين باكترا Bactra (بالخ الحديثة) وبين وادى نهر هندوس عبر إقليم هندوكوش . وكانت السلع الغربية الرئيسية فى هذه المنطقة تتمثل فى التحف

الفنية الرفيعة التي تتفق ونمط الفن البوذى المتأثر بالغرب في شمال الهند قرابة عام ١٥٠ ميلادية .

أما التجارة الرومانية مع أوربا الشمالية فتشهد بها مئات من الآثار التي عثر عليها في ألمانيا ، وبولندا والدانمرك ، وجنوب السويد بل وفي النرويج أيضاً . وكان هناك طريق رئيسي يصل بين أكويليا وكارنتوم Carnuntum على الدانوب ثم يأخذ طريق الأنهار من هناك إلى شواطىء بحر البلطيق . وبعض طرق الأنهار هذه كانت قد استخدمت لنقل الكهرمان منذ أوائل عصر البرونز ، وبهذه الطرق كان النبيذ الإيطالى ، والفخار والأدوات المعدنية والزجاج والسلع الكمالية تصل إلى رؤساء العشائر الأغنياء في الشمال ولعل الراحل الذى دفن في مدينة هوبى Hoby في جنوب الدانمرك شاهداً على ما نقول ، فقد نقل معه إلى القبر عدة أشياء مستحدثة وفخذتان من لحم الخنزير ، وطاقم من أدوات المائدة الفاخرة التي يرجع إلى عصر أوغسطس وأبرز من هذا الاكتشاف وأجدر بالملاحظة ، تلك الكمية الضخمة من الأوعية الفضية ذات طابع البحر الأبيض المتوسط التي عثر عليها في هلديشايم Hildesheim بالقرب من هانوفر . ولكنه ليس من المؤكد ما إذا كانت هذه الأشياء تمثل سلعاً تجارية أو أنها كانت أسلاباً منهوبة . وعندما بدأت منتجات بلاد الغال ، وبلاد الراين تروج في أسواق الشمال كانت ترسل شرقاً عبر نهر الراين من مدينتي فيتيرا Vetera وموجوتيـــاكوم Mogutiacum .

وفي عصر الإمبراطورية المتأخر نقف هناك على بعض الشواهد الدالة على قيام حركة تبادل للسلع بين البحر الأسود ، وبحر البلطيق على طول نهر دنيستر ، ونهر الفستولا . والمعتقد أن القوط كانوا يقومون بدور الوسطاء في هذه التجارة . وينبغي علينا لكى نختتم هذه الدراسة بأن نعرض للحركة التجارية التي قامت مع كاليدونيا Caledonia التي من أجلها أقيمت نقط

العبور والمراكز الجمركية فوق سور هادريان ، كما تجدر الإشارة إلى الحركة التجارية مع أيرلندا من جانب موانى بريطانية وغالية .

لقد كانت الأحوال فى الإمبراطورية تتميز بتباين لا حد له . ولا ريب أن هذا هو بالفعل الشعور الذى نخرج به من مثل هذه الدراسة ، ولكن ماذا عن مظاهر الوحدة ؟ وما مدى الشعور بالولاء المشترك سواء كان مصدره المصلحة الذاتية ، أو الإيمان الشخصى أو كانت تعزز منه رسمياً تلك الحيل التى تتمثل فى عبادة الإمبراطور وفى عقيدة روما ؟ أما فيما بين القوات المسلحة ، فلا ريب فى أن سياسة نشر الحضارة الرومانية كانت فى غاية من النشاط بالنسبة لوحدات القوات المساعدة ، وإن تقويم مدينة دورا المعروف باسم فيليالى دورانوم Feriale Duranum وهو تقويم عسكرى ظهر فى دورا فى القرن الثالث قد يعيننا على فهم هذه النقطة .

فقد كانت الوحدة العسكرية المكلفة بالخدمة فى هذا الموقع المتقدم فى الشرق من بين قوات تدمر ، ومع ذلك فليس هناك من عيد واحد خلال السنة كلها يختص بغير العقيدة الرومانية ، وبغير الاحتفالات التى تقام فى ذكرى الأباطرة . فبغض النظر عن جنسية الجندى فى القوات المسلحة ، وبغض النظر عن الموقع الذى يرابط فيه سواء كان على ضفاف نهر الفرات أو نهر الراين وبين ثلوج أرمينيا ، أو فوق مستنقعات هضاب نورثمبرلاند حيث يغرد الكروان وسط الأمطار المنهمرة ، فقد كان هذا الجندى يدفع إلى الشعور بأنه جندى رومانى . وكانت حقوق المواطنة الرومانية التى تمنح له وحده بالإضافة إلى زوجته ثم ذريتهما هى المكافأة التى يحصل عليها عند تسريحه . أما المسئولون ذوى المناصب العليا ، سواء من المدنيين أو العسكريين فقد كان من الممكن بطبيعة الحال أن تتسع نظرتهم فتشمل العالم كله . وإنى أنتخب هنا من بين عدد كبير من النقوش التى تسجل أعمالهم وحياتهم العامة مثلين . فإن باوتيوس سلفانوس الذى ذكرناه من

قبل قد دفن فى ضريح أسرته فى تيفولى . ويقول النقش المكتوب عنه إنه خدم فى أول الأمر فى ألمانيا تحت قيادة تيبريوس ، ثم كان من بين هيئة أركان حرب كلوديوس أثناء غزو بريطانيا ، وتولى منصب القنصلية سنة ٤٧ ، ثم أصبح حاكماً لولاية آسيا التابعة لمجلس الشيوخ ، ثم نصبه أوغسطس بعد ذلك حاكماً لمويسيا Moesia وكانت هذه هى أخطر مرحلة وأبرزها فى حياته العامة ، وقد عمل على توطين أعداد كبيرة من القبائل على الضفة الرومانية من النهر . وقمع ثورة قامت بين السرماتيين ، واشترك فى الحروب ، والنشاط السياسى على طول وادى الدانوب الأدنى جميعه وفى البحر الأسود حتى القرم . وأرسل كمية ضخمة من الغلال وكانت أول شحنة يرسلها من ولايته إلى روما . أما فى عهد نيرون فلم يكن ممن يرضى عنهم الإمبراطور . ولكن فسباسيان نصبه أول الأمر حاكماً على إسبانيا تراكوننسز Hispania Tarraconensis ثم ضابطاً لإحدى المدن ثم منحه رتبة القنصلية مرة أخرى عام ٧٤ . وفى القرن التالى كان هناك شخص يدعى ماركوس كلوديوس فرنتو M. Claudius Fronto تولى قيادة خاصة فى داكيا ، ومويسيا العليا ، واشترك فى حرب بارثيا تحت إمرة فيروس . ونال مرتبة الشرف ، وأصبح بعد ذلك ضابطاً للتجنيد فى إيطاليا ، ثم قام بقيادة قوات مختلطة الأجناس زاحفاً على أرمينيا وأوزروهوينى Osrhoeme وتولى قيادة الفرقة الأولى ، ثم الحادية عشر على التوالى . وكان آخر خدمة له فى الجيش إبان حرب ماركومانيا ، حيث سقط بعد عدة معارك مظفرة ضد الجرمانيين والجازوجيين Jazges وهو يقاتل فى بسالة واستماتة من أجل بلاده . ومن أجل ذلك ، وبمرسوم صدر عن مجلس الشيوخ بأمر من الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، أقيم تمثال له بزيه العسكرى على نفقة الحكومة فى سوق تراجان » .

وقد أشاد الأدب بالنعم التى أسبغها السلام الرومانى فى موضعين شهيرين وهما أولا الخطبة التى ألقاها تاكيتوس ، على بيتيليوس كرياليس

Petilius Cerealis بعد ثورة الغال عام ٧٠ والخطبة التى تحمل عنوان « إلى روما » والتى ألقاها فى مدينة روما ، السوفسطائى اليونانى أيليوس أرستيديس Aelius Aristides عام ١٥٠ . وكلتا الخطبتين تؤكدان انتشار السلام ، وذيوع الرخاء ، ومنح الامتيازات وحقوق المواطنة الرومانية فى سخاء وكرم ، والمساواة المكفولة للجميع أمام القانون وأمام الإمبراطور . ولكنه ينبغى علينا ألا ننسى أنه قد كان هناك صوت آخر وهو صوت من كانوا يكنون الكراهية لروما . وقد أتاح تاكيتوس لنا سماع هذا الصوت فى خطبة رئيس العشيرة الكلدونية كلجاكوس Calgacus قبل أن يواجه أجريكولا ، إذ قال « إن الرومان يصنعون صحراء ويسمونها سلاما » . ويعرب بوديكا Boudicca فى مؤلفات ديوكاسيوس عن مشاعر مماثله . كما نسمع عن المشاعر المعادية للرومان فى الكتابات المعروفة باسم أعمال الشهداء الوثنيين التى ظهرت فى الإسكندرية . وبطبيعة الحال وبالنظر إلى تاريخ اليهود فإن هذه المشاعر كانت تتردد فى الأدب اليهودى الذى ظهر خلال القرنين الأول والثانى، بل وتظهر على أوضح صورة فى رؤيا يوحنا اللاهوتى : « وألقوا تراباً على رءوسهم وصرخوا باكين ونائحين قائلين ويل ويل . المدينة العظيمة التى فيها استغنى جميع الذين لهم سفن فى البحر من نفائسها لأنها فى ساعة واحدة خربت . أفرحى لها أيتها السماء والرسل والقديسون والأنبياء لأن الرب قد دانها دينونتكم » .

* * *

الفصل الثانى عشر

الانهيار والسقوط : ١٩٣ إلى ٤٧٦ ميلادية

وعلى الرغم من الآمال التى راودت مؤلف رؤيا يوحنا اللاهوتى فإن الإمبراطورية لم تواجه نهاية عاجلة . فإن ثلاثة قرون تقريباً تفصل بين موت كومودوس وبين آخر إمبراطور رومانى فى الغرب . ولكنه كان من الممكن أن يحل الانهيار التام والتفكك النهائى للإمبراطورية فى منتصف القرن الثالث، عندما انتهكت حدود الراين والدانوب. وقامت إمبراطوريتان فى كل من بلاد الغال والشرق ، واجتاح ما بقى من ملك روما التدهور الاقتصادى والفوضى الاجتماعية . وكان الفضل فى درء هذه الكارثة يرجع اولا إلى الجهود التى بذلها ثلاثة أباطرة إلليريون هم كلوديوس جوثيكوس Claudius Gothicus وأوريليان وبروبوس ، ثم ، وفى خلال فترة الهدوء التى نجمت عن ذلك ، إلى الإصلاحات التى قام بها دقلديانوس وإلى الجهود التى بذلت أيضاً لتعديل هذه الإصلاحات ودعمها خلال عهد قسطنطين الطويل (٣١٢ — ٣٣٧) . ولكن هذه الإصلاحات بلغت من الصرامة والتطرف حدا جعلها تقلب نمط الحياة فى الدولة رأساً على عقب . وإن الفرق بين الجمهورية وأوائل عصر الإمبراطورية ليبلغ من الجسامة الحد الذى يبدو عليه الفرق بين عهد ماركوس أوريليوس وأواخر عصر الإمبراطورية . وتحمل هذه الحقيقة بالإضافة إلى اعتناق قسطنطين للمسيحية كثيراً من المؤرخين على النظر إلى عهد قسطنطين باعتباره بداية العصور الوسطى ونهاية العصر الكلاسيكى القديم . فمنذ سنة ٣٥٠ وما بعدها صاحبت المراحل الأخيرة لانحلال الإمبراطورية الغربية تجدد هجمات البرابرة على

نطاق واسع . وقد أمكن صد هذه الهجمات لفترة قصيرة من الزمن خلال عهدى فالنتينيان Valentinian وثيودوسيوس الكبير ولكنه بوفاة آخر الأباطرة عام ٣٩٥ انقسمت الإمبراطورية نهائيا إلى قسم شرقى وقسم غربى ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ٤٧٦ لا تتضمن قصة الغرب إلا سرداً لمواطن الضعف التام وللأزمات المتلاحقة ، ولو أن روما قدمت للإنسانية خدمة سياسيه أخيرة فى إيقاعها الهزيمة بآتيلا والشعوب الهانية (عام ٤٥١) . وما إن انتصف القرن الخامس حتى كانت بلاد الغـــال فى قبضة الفرنجة والبورجنديين ووقعت أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين والسويفيين ، واحتل الفاندال إفريقية وقطعت الصلة بين بريطانيا والإمبراطورية واجتاح بعض أجزائها الإنجليز والساكسون والبكتيون . أما روما ذاتها فقد استولى عليها وأعمل فيها يد التخريب والتدمير آلاريك القوطى عام ٤١٠ ثم واجهت المصير ذاته على يد جيزاريك Gaiseric عام ٤٥٥ ، وعندما خلع أودواكر Odoacer الجرمانى آخر الأباطرة الضعاف فى الغرب وهو روميولوس أوغسطولوس وأعلن نفسه رئيساً للجنود فى إيطاليا كانت النهاية قد حلت بالفعل .

ولا يمكن لنا أن نعالج موضوع هذه الفترة تفصيلا ، فإنه لو أن المجال كان يسمح بذلك فإن النتيجة التى سنحصل عليها ستكون أدعى إلى تشتيت فكر القارئ واختلاط الأمر عليه ، لأن الجانب الأعظم من هذه الدراسة سوف لا يعدو ترديدا لأحداث تتمثل فى اعتلاء سلسلة من الأباطرة القصيرى الأجل للعرش ثم مصرعهم . وحسبنا أن نسرد قصة طرف من الأحداث الرئيسية والاتجاهات العظمى خلال فترة تبدأ بالبوادر الأولى لاضمحلال أبهة الملك الإمبراطورى وتنتهى بشفا العصور الوسطى .

ولقد كانت الحروب الأهلية الطويلة التى أعقبت وفاة كومودوس بمثابة عوامل تخريب وهدم فى حد ذاتها وفى النتائج التى أسفرت عنها .

وكان الفائز النهائى فى هذه الحروب هو سبتيميوس سيفيروس ، وهو من أصل أفريقى ، وكان والياً على بانونيا ، ولم يغب عن باله قط أنه مدين فى انتصاره إلى الجيش وأن الاحتفاظ بولائه هو الهدف الأسمى . وكان سبتيميوس صارماً أشد الصرامة فى انتقامه من أنصار خصميه نيجر Niger وألبينوس Albinus وقد جمع لنفسه ثروة خاصة هائلة عن طريق مصادرة ضياعهم . وكان هذا هو الذى فعله أيضاً قائد الحرس الجمهورى بلوتيانوس Plautianus مدة رضاء الإمبراطور عنه . وبعد فترة من الوفاق انقلب سيفيروس على مجلس الشيوخ وسار علانية على نهج سولا وماريوس فأعدم ٢٩ من أعضاء مجلس الشيوخ وصادر ممتلكاتهم . وكانت إصلاحاته العسكرية تهدف أساساً إلى تحسين حال الجندى النفر وضمان مستقبله . وحل الحرس البرايتورى القديم وأقيم حرس جديد يسمح بدخوله لأى جندى لائق من جنود الفرق الرومانية . وكان الإمبراطور يعين فى المناصب الشاغرة بالقيادات العليا أفراداً من هذه الفرقة من الجنود التى كانت أشبه بكلية أركان الحرب . وقد كان سيفيروس يدلل الجيش بالإضافة إلى أنه كان يعمل على زيادة رواتبه بالمنح المتكررة . وهى فى الحقيقة رشاوى إن شئنا أن نسمى الأشياء بأسمائها . وقد بات من الضرورى أكثر من ذى قبل ، لمواجهة النفقات المتزايدة ، الالتجاء إلى المطالب الجبرية التى تتمثل فى العمل أو تقديم الخدمات سخرة . وقد قدر لهذه المطالب الجبرية أن تصبح من أنكى اللعنات التى حلت بأواخر عصر الإمبراطورية . ولكن الحدود قد استعيدت على أقل تقدير فى عهده كما سلمت الإمبراطورية من الغزو الخارجى . وقد أحيا ذكرى انتصاراته الهامة على البارثيين والعرب بإقامة قوس سيفيروس فى السوق الرومانية .

أما فى بريطانيا فقد كان يواجه موقفاً على جانب كبير من الخطورة . فإن انسحاب الفرق البريطانية عام ١٩٧ بقيادة ألبينوس أثناء محاولته

الاستيلاء على العرش أتاح للكاليدونيين فرصة نادرة ما كانت لتفلت من أيديهم . فقد اجتيحت الحدود الشمالية وهدم سور هادريان حتى أصبح أثراً بعد عين ، واحتلت الولاية حتى يورك وتشستر . وقد صد البرابرة وردهم على أعقابهم اثنان من الحكام فى بريطانيا . غير أن سيفيروس قرر أن يقوم بهجوم واسع النطاق . وفى خلال حملتين توغل فى أسكتلندا إلى مسافة لم يبلغها أى جيش رومانى من قبل . ويرجح أنه بلغ موراى فيرث Moray Firth غير أن الخسارة التى تكبدها الرومان فى الأرواح كانت باهظة . ولم يكن الإمبراطور الكهل ليقوى على مواجهة هذا الموقف العصيب . وفى عام ٢١١ قضى سيفيروس نحبه فى مدينة يورك ، وما لبث الجيش الرومانى أن تخلى عن فتوحاته باسكتلندا وأصبح سور هادريان يمثل الحدود الشمالية بعد أن بنى من جديد بكل عناية ودقة إلى الحد الذى ظل معه بعض علماء الآثار حتى القرن التاسع يعزونه إلى سيفيروس دون هادريان . وقد ترك سيفيروس وهو على فراش الموت وصيته السياسية إلى ابنيه فى عبارة يمكن أن نشرحها كالآتى : « اتحدا معاً وادفعا للجنود رواتبهم ، ثم لا تهتما لشىء بعد ذلك » .

أما عن الوصية الأولى فما لبثت أن ذهبت أدراج الرياح ، ذلك لأن كاراكالا اغتال شقيقه جيتا Geta وأعمل السيف فى آلاف من أنصاره ، ومحى اسمه من جميع النقوش . أما عن الوصية الثانية فقد تمسك بها كاراكالا ولم يتخل عنها قط . وقد اعتاد القول : « لا ينبغى أن يكون لأحد مال سواى ، حتى أستطيع أن أمنحه كله إلى جنودى » . واستطاع أن يحقق هذا الهدف باختياره جنوداً ليقوموا بدور الجواسيس والبوليس السرى بل لقد بلغ فى ذلك إلى الحد الذى ألغى فيه ، فى كثير من الأحيان ، دوره كوسيط . وشهد عهده أيضاً تدهوراً فى القيمة الفعلية للعملة (عام ٢١٥) مما كان مظهراً من المظاهر الدالة على انهيار الإمبراطورية وأحد الأسباب التى أدت إلى ذلك الانهيار . ولعل فى الإمكان تفسير المرسوم الشهير

الذى صدر عام ٢١٢ والذى منحت بموجبه حقوق المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية فى واقع الأمر على أنه إجراء قصد به زيادة أعداد ممولى الضريبة . ويميل الباحثون المحدثون إلى النظر إلى هذا المرسوم باعتباره حجر الزاوية فى التاريخ الدستورى الرومانى كما يميلون إلى امتداح روحه التحررية . أما فى ذلك العصر فلا يبدو أن هذا المرسوم قد أثار كثيراً من التعليقات ، أما ما ظهر منها فعلا فكان متسما بالشك والريبة . وما يبدو واضحاً هو أن حقوق المواطنة الرومانية أصبحت عامة ، عندما لم تعد امتيازاً بل عبئاً . ومما يشهد بأن كاراكالا كان بوسعه أن يطمح إلى مشروعات جليلة ضخمة ، خطته من أجل إنشاء إمبراطورية رومانية بارثية يقوم فيها هو نفسه بدور الإسكندر الجديد ، فقد قام بقراءة سيرة الإسكندر واستظهرها ، ثم درب فيلقاً مقدونياً وزوده بالأسلحة الملائمة رغبة منه فى أن يضفى على مشروعه شيئاً من الواقعية ، ثم شن هجوماً على بارثيا فى حماس يقل بعض الشيء عن حماس النموذج العظيم الذى احتذاه (عام ٢١٥) ولم يكن قد تحقق شيء حاسم فى هذه الحرب عند ما لقى حتفه عام ٢١٧ .

ويخيم على هذه الحقبة الغريبة حكم أغرب منها طبيعة وهو حكم باسيانوس Bassianus الذى خلفه بعد فترة قصيرة من حكم ماكرينوس Macrinus فإن ذلك الغلام المسمى باسيانوس ذو الأربعة عشر ربيعاً والكاهن الأعلى لإله الشمس المعروف باسم إيلاجابال Elagabal فى إيميسا Emesa والذى كان يعرف عادة باسم إيلاجابالوس Elagabalus (أو هيليوجابالوس Heliogabalus) قد نصب على العرش بمساندة الفرق الشرقية التى اشتراها بأموال المعبد التى أطلق فيها يده دون ما حرج . وقد تحولت الحياة فى روما خلال السنوات الثلاث التى تولى فيها الحكم إلى ألوان من مظاهر الانحراف التى باركها الدين . ويمكن أن نقرأ التفاصيل المذهلة لهذا الحكم فى مؤلف « التاريخ الأوغسطى Historia Augusta . وفى عام ٢٢٢ اغتاله الحرس البرايتورى هو وأمه وخلفه على العرش ابن عمه الإسكندر سيفيروس

وهو شاب واسع الأفق عظيم الخلق لكنه كان واقعاً إلى حد كبير تحت تأثير أمه جوليا ماميا Julia Mammaea ويظهر عهده سواء عن حق أو غير حق على أنه عصر هدوء ونهضة اقتصادية وتعاون بينه وبين مجلس الشيوخ . ولكن الحرب نشبت عام ٢٣٥ على الحدود الجرمانية . فسارعت قواته وقد أثار سخطها خمول الإمبراطور — أو العطف الذى أبداه على الفرق الشرقية — إلى اغتياله ، ونصبوا مكانه واحداً من بينهم وهو الجندى ماكسيميوس ثراكس Maximius Thrax . وهو أول إمبراطور رومانى يخرج من بين صفوف الجنود . وصاحبت عهده بداية عصر مروع من الاضطرابات التى منى بها العالم الرومانى . فقد قام به اثنا عشر إمبراطوراً واجتاحته الحروب الأهلية التى ماكادت تنقطع إلا فى القليل وذلك بين عامى ٢٣٥ و ٢٦٠ . واستنزفت الضرائب وقرارات المصادرة والاستيلاءات قوى المدن وهبطت بالأثرياء إلى درك الفقر واليأس . وحل وباء رهيب اجتاح البلاد دون ما عائق مدة خمس عشرة سنة ودمرت الزلازل كثيراً من مدن آسيا وتدهورت التجارة وتركت الأراضى بغير فلاحة وباتت بلاد فارس فى ظل الأسرة المالكة الساسانية الجديدة عدواً رهيباً يخشى بأسه .

وقد أسر سابور سنة ٢٦٠ الإمبراطور فاليريان . وفى هذه الأثناء ظهر عدو شديد الغدر على طول نهر الدانوب ، وهم القوط ، فقد انحدر هذا الشعب الرهيب من جنوبى السويد — حيث تحتفظ أراضى القوط Gotland حتى الآن باسمهم — وانتشروا إلى الوادى الأدنى لنهر الفستولا حتى بلغوا البحر الأسود . وخلال السنوات التى ظهر فيها الضعف على الرومان أخذوا فى شن غاراتهم على أراضى الدانوب وعلى بلاد اليونان وآسيا فى صورة تشبه الغارات التى شنها الفايكنج على غرب أوربا بعد قرون من هذا التاريخ . وقد سقط الإمبراطور ديكيوس صريعاً فى معركة ضدهم عام ٢٥٠ . وفى عام ٢٥٧ قاموا بحملة سلب ونهب بطريق البر والبحر واستولوا على

خلكيدونية ونيقيا ونيكوميديا . وفى عام ٢٥٨ غزا شعب جرمانى آخر هو الشعب الألمانى Alamanni إيطاليا نفسها ، ولم يتيسر صده حتى كان قد بلغ ميلانو . ولا غرو وهذه حال الحكومة المركزية من الضعف والوهن أن انفصلت عنها بعض أجزاء الإمبراطورية لتصرف شئونها بنفسها . ففى الغرب أقام بوستوموس Postumus إمبراطورية للغاليين ، اعترفت بها القوات المرابطة فى كل من إسبانيا وبريطانيا . وفى سوريا قامت إمبراطورية شرقية قصيرة الأجل أعقبتها محاولة كتب لها قسط أكبر من النجاح على يد أذينة Odenath ملك تدمر وقد قام بطرد سابور خارج الولايات الرومانية ونال هو نفسه اعتراف الإمبراطور الرومانى جاليانوس .

وفى عهد جاليانوس (٢٦٠ — ٢٦٨) طرأ هناك بعض التحسن . فقد ألفت قوات احتياطية خفيفة الحركة ولقى القوط هزيمة منكرة قرب نايسوس Naissus (٢٦٧) . ولم يكن الوقت قد حان بعد لاستعادة الأجزاء الضائعة من الإمبراطورية . غير أن الخطوة الأولى قد اتخذت فى هذا السبيل وتبعتها خطوات ناجحة أخرى نتيجة لجهود ثلاثة أباطرة إلليريين : هما كلوديوس جوثيكوس (٢٦٨ — ٢٧٠) وأوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥) وبروبوس (٢٧٦ — ٢٨٢) وأصبحت العملة تحمل شعار الفخر الذى يقول « بسالة الإلليرين » (Virtus Illyricorum) . وقد سطعت هذه البسالة بين الجنود وفوق رأس الإمبراطور خلال هذه الحقبة . فقد دحر كلوديوس أثناء فترة حكمه القصير جيش القوط العظيم فى معركتين . وطهر البحر الأسود من سفنهم وعمل على توطين من استسلم منهم فى المستعمرات التى أقامها بأراضى الدانوب . أما أوريليان فقد دفع الغزاة الجرمانيين خارج إيطاليا وإلى ما وراء الدانوب وحصن روما بسور هائل يبلغ طوله اثنى عشر ميلا ويحمل اسم أوريليان . وهذا السور يعد فى الوقت الحاضر من أروع

الآثار فى روما ويقوم شاهداً على العصر الذى بنى فيه . ثم اتجه أوريليان شرقاً لمهاجمة إمبراطورية تدمر التى أصبحت آنذاك تخضع لحكم الملكة المتألقة الموهوبة زينب Zenobia وحكم ابنها وابلاث Waballath . وما لبث أن كسرت شوكة تدمر خلال حملتين شاقتين ثم سقطت المدينة واقتيدت زينب إلى روما أسيرة لكى تسام متاعب القرار الذى قضى بتحديد إقامتها فى فيلا هادريان فى تيفولى. وفى عام ٢٧٤ لقى الإمبراطور الغالى تتريكوس Tetricus الهزيمة واستعيدت وحدة الإمبراطورية ورغبة فى دعم هذه الوحدة أنشأ أوريليان ديانة رسمية جديدة هى عقيدة « الشمس التى لا تقهر التى لها السيادة على الإمبراطورية الرومانية » . وكان مقدراً أن يكون لهذه العقيدة أثر كبير على طبيعـــة الحـكم الملـكى فى الإمبراطورية لو أن الإمبراطور أوريليان قد أعلن — وهو ما يبدو أنه قد فعل — أن العرش هو منحة من الله وليس من قبـل مجلس الشيوخ أو من الجيش ، ولم يعد الإمبراطور الرومانى على ذلك أول مسئول فى روما بل أصبح مختاراً من الله. ومن ثم تحولت الإمبراطورية إلى حكومات استبدادية كالتى كانت قائمة فى بلاد الفرس . وعلى ذلك فعلى الرغم من أن قطع العملة لدى أوريليان كانت تعلن أنه Restitutor Orbis (مصلح العالم) فإن العالم الذى اتخذه لم يكن هو عالم أوغسطس أو عالم هادريان ، فقد كان ذلك قد ذهب وولى بلا رجعة إبان الفوضى التى اجتاحت القرن الثالث كما أن الإمبراطورية لم تكن تمثل من الناحية الجغرافية أيضاً العالم الذى كانت تمثله فى الماضى لأن أوريليان قد تخلى عن داكيـا — وقد كانت آخر الولايات الرومانية فى أوربا التى أقامتها روما ، وأول ولاية تخرج من حظيرتها — واستولى عليها القوط . غير أن الجهود التى بذلها وجهود خليفته بروبوس الذى تابعهـا ودعمها ضمنت للإمبراطورية فترة جديدة من الحياة . أما عن الصورة التى قدر أن تأخذها هذه الحياة فقد رسمتها إصلاحات دقلديانوس وقسطنطين .

ولطالما ترددت الإشارة إلى أوجه التشابه بين أوغسطس ودقلديانوس . فقد اعتلى كل منهما كراسى الحكم فى عالم أنهكته الحروب والمنازعات ، وكان كل منهما يميل إلى الأخذ بإجراءات متطرفة رغبة فى صون السلام . وقد تمتع كل منهما بحكم طويل إذ امتد حكم أوغسطس إلى خمسة وأربعين سنة ، وقضى دقلديانوس قبل أن يعتزل منصبه عشرين سنة فى الحكم . غير أن المشاكل التى واجهت دقلديانوس كانت تفوق فى خطورتها وشدتها المشاكل التى واجهت أوغسطس . كما أن الأمل فى التغلب على هذه المشاكل كان ضعيفاً للغاية . فعلى حين أن أوغسطس كان الطبيب الذى يسفر علاجه عن شفاء المريض وتحسن صحته فقد كان دقلديانوس يلعب دور الجراح الذى يقدم على عملية خطيرة لكى يسمح لمريضه بالعيش بضع سنوات أخرى فى مستوى ضعيف من الصحة .

وكانت المهمة الأولى التى تواجه دقلديانوس هى أن يضع حداً للانقلابات العسكرية والمنازعات المتصلة من أجل الوصول إلى العرش . ومن ثم جاء نظام الحكم الرباعى الشهير Tetrarchy أو مجلس الأباطرة الأربعة الذين ينبغى عليهم أن يقسموا الإمبراطورية فيما بينهم ، اثنان منهم فى مرتبة الأغسطيين Augusti أو الإمبراطورين الكبيرين الذى ينبغى على كل منهما أن يختار قيصراً ينوب عنه . فعندما يموت الأوغسطس أو يحال إلى التقاعد (ويبدو كما لو أن مدة حكم الأوغسطس قدرت بعشرين سنة) يخلفه قيصر تمرس بالفعل على شئون الحكم . ورغبة فى الحيلولة دون قيام الانقلابات على أيدى حكام الولايات الطموحين ، فقد قسمت الولايات إلى وحدات صغيرة — بلغ عددها مائة وحدة تقريباً — وأعيد تنظيمها فى اثنتى عشرة دوقية ست منها فى الشرق وست فى الغرب . وفى كل ولاية من هذه الولايات كانت السلطة المدنية منفصلة انفصالا تاماً عن السلطة العسكرية . وثمة تنظيم شامل كلى للبناء العسكرى بدأه دقلديانوس وأتمه

قسطنطين . وقد رأينا أن من الصواب وصف هذا النظام فى صورته النهائية .

ثمة درسان بارزان تمخضت عنهما الكوارث العسكرية التى وقعت فى القرن الثالث . الدرس الأول هو أن نظام أوغسطس القائم على مرابطة الجيوش على الحدود لم يعد صالحاً للعمل به إذ أنه لم يكن يوفر قوات احتياطية مركزية ، ولم يكن من الممكن مواجهة خطر يتهدد نقطة بعينها إلا عن طريق إضعاف وسائل الدفاع فى نقطة أخرى ، أما وقد أصبحت الحقيقة المرة هى ضرورة القتال فى عدة جبهات كبرى فى وقت واحد ، فإن مواصلة العمل بهذا النظام معناه طلب الكوارث والبحث عن المتاعب ، وهذا هو ما أدركه جاليانوس . والدرس الثانى هو تلك الحقيقة العسكرية التى أكدتها الحروب الفارسية والقوطية وهى أن التفوق العسكرى قد آل إلى سلاح الفرسان ، فلم يعد للجنود المشاة السيطرة بعد على ميدان المعركة .

وعلى ذلك فقد نظمت أفضل الوحدات من الفرسان والمشاة فى قوة ضاربة جديدة تنقسم بدورها إلى كتائب حراسة palatini وإلى وحدات أخرى باسم كوميتاتنسيس comitatenses . وكانت كل من هاتين القوتين تجندان أساساً من بين الجرمانيين والإلليريين . وكان للفرسان فى كل منهما مركز الصدارة . أما قوات الحدود limitanei فقد أصبحت قوات محلية من الحرس الوطنى يختار جنودها من بين أبناء الولاية التى يخدمون فيها . ولم تكن لهذه القوات أية أهمية عسكرية تتعدى كونها سياجاً دفاعياً أمامياً .

ولعله من الواضح أن جميع هذه الإصلاحات قد زادت من ضخامة قوائم الرواتب التى تدفعها الدولة للجنود زيادة بالغة . فقد قامت هناك فى ذلك الوقت قصور أربعة بحاشياتها وأربع عواصم إمبراطورية فى كل من نيكوميديا وتريفيس وسيرميوم وميلانو أو روما . وزادت أعداد

القوات المسلحة وهيئة الموظفين ذوى النزعة البيروقراطية المغالية . كيف كان يتسنى دفع رواتب كل هؤلاء حين كانت الدولة قد ضرب عليها الفقر وحين كان الإنتاج فى هبوط وتدهور ؟ لم يكن هناك من سبيل إلا بالالتجاء إلى نظام ضرائبى صارم لا يستطيع أحد أن يفلت منه ، ثم بالاستيلاء على السلع والخدمات لإضافتها إلى ما يتجمع من مال عن طريق الضرائب . وعلى ذلك فلم يكن هناك مفر من أن تقطع إصلاحات دقلديانوس بالإمبراطورية أشواطاً بعيدة فى طريق الدولة الاستبدادية . فقد أجبرت النقابات أو الجمعيات collegia التى توفر الخدمات الأساسية — الخبازون والطحانون وأصحاب السفن ومن شابههم — على تقديم خدمات مجانية للدولة . ولم يكن فى وسعهم تحاشى هذا العمل الذى لا يعود عليهم بأى أجر عن طريق اعتزال عملهم لأنهم كانوا موثوقين إلى مهنتهم مقيدين بها . كما كان ذلك حال أبنائهم من بعدهم . وكان يتحتم على أبناء الجنود أيضاً أن يتبعوا حرفة آبائهم . كما كان المستوطنون فى الضياع العظيمة مرتبطين بأرضهم . والهدف من ذلك هو الاحتفاظ بمعدل الإنتاج الزراعى ثابتاً . وقد أجبر أعضاء مجالس المدن على القيام بدور محصلى الضرائب دون أجر من أجل الدولة . كما كان عليهم أن يسدوا بأنفسهم أى نقص فى حصيلة الضرائب المفروضة على مجتمعاتهم .

وما لبث وضعهم الاجتماعى باعتبارهم أعضاء المجالس البلدية أن أصبح وضعا منبوذاً مكروهاً من الجماهير ، ثم بات هذا العبء وراثياً أيضاً . ومن ثم فقد نشأ هناك نظام للشيع والنحل يشبه ذلك النظام الذى كان سائداً فى الممالك الشرقية القديمة أو الذى ساد العصور الوسطى . وكان هذا أبعد ما يكون عن الحرية التى كان يتمتع بها المواطن الرومانى فيما مضى . غير أن دقلديانوس نفسه أدرك أن هناك حدوداً لما يمكن أن تفرضه الدولة . فقد حاول فى مرسوم الأسعار الشهير الذى أصدره عام ٣٠١

والذى مهد له — الأمر الجدير بالملاحظة — باستنكار لتعدى الانتهازيين على رواتب الجند وسلبهم لها بطريق أو آخر ، أن يفرض حداً للأسعار والأجور فى جميع أجزاء الإمبراطورية . غير أن هذا المرسوم تعذر تطبيقه وتحتم سحبه من جديد وقد قدم لنا هذا المرسوم على أقل تقدير أخطر وثيقة اقتصادية شاملة عن العالم القديم . ومع ذلك وعلى الرغم من جميع الأغلال التى أحاط بها دقلديانوس أعناق الناس فإنه لم يكن طاغية كما لم يكن فى شخصه نزاعاً إلى المطامع الواسعة . فإنه بعد أن قضى فى منصب الأوغسطس عشرين سنة ، اعتزل هذا المنصب كما يقضى النظام الموضوع ، وعاش بعد ذلك فى قصره المقام فى مدينة اسبالاتو Spalato (سبيليت الحديثة) والذى يعد فيما يرجح أفخم المبانى الرومانية التى آلت إلينا على الإطلاق . كما أنه حمل زميله ماكسيميان على اعتزال الحكم أيضاً . وكان لاعتزالهما الحكم أهمية بالغة بالنظر إلى أن إصلاحات دقلديانوس قد أضفت على مركز الإمبراطور هالة جديدة من المجد ، فدفعت بذلك التيار الذى كان يتجه إلى نمط من الحكم يشبه نمط الملكيات الشرقية ، وهو ذلك الاتجاه الذى ظهر أول الأمر فى عهد أوريليان ، بل وفى عهد جاليريوس فأصبح الإمبراطور يلبس آنذاك التاج وكان يحاط بمراسيم معقدة مستمدة من نظام البلاط الفارسى . ولم يعد تأليه الإمبراطور بعد وفاته بكاف . فقد زعم دقلديانوس أنه ينحدر عن جوبيتر وادعى ماكسيميان أنه من سلالة هرقل ونادى كونستانتيوس كلوروس Constantius Chlorus والد قسطنطين بانحداره عن أبولو . وهكذا فقد بذل كل جهد لكى يصبح الإمبراطور شيئاً مستقلا يفوق سائر بنى البشر .

وظل نظام الحكم الرباعى قائماً وصالحاً طوال المدة التى كان دقلديانوس يدير فيها دفته ، فقد أمكن صون الحدود وأمكن قمع الاضطرابات التى قامت فى عدة أجزاء من الإمبراطورية بصورة أكثر فاعلية مما لو كان قد قام

بهذا العمل حاكم واحد . وأبرز هذه الاضطرابات كان قيام الإمبراطورية البريطانية على يد كاروسيوس Carausius قائد أسطول بحر المانش ، وذلك فى عام ٢٨٩ . وقد تم لكونستانتيوس كلوروس قمع هذه الثورة نهائياً عام ٢٩٦ الأمر الذى ابتهج له سكان الولاية . وهناك قلادة ذهبية تخلد ذكرى إغاثة لندن وتدعو كونستانتيوس بأنه Redditor Lucis Aeternae أى الذى أعاد نور الحضارة الرومانية السرمدية ، غير أن هذا الجهاز ما لبث أن تعطل بعد تقاعد دقلديانوس كما أنه من العسير أن يجد المرء أى سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا النظام كان من الممكن أن يبقى بعد اعتزال مؤسسه له . فعلى النقيض مما كان مرجواً من هذا النظام وهو القضاء على المنازعات والمنافسات من أجل بلوغ كرسى الحكم ، فإنه قد نظم من هذه المنازعات وذكى من نيرانها . فقد حدث خلال سنوات الاضطراب التى أعقبت عام ٣٠٥ أن كان يعتلى الحكم فى بعض الأحيان أغاطسة ستة — لأن أحداً من الناس لم يكن ليقبل تولى منصب القيصر الذى يأتى فى المرتبة الثانية بعد منصب الأوغسطس — ثم هبط عدد الأغاطسة إلى أربعة مرة أخرى . وفى الخطوة التالية أزاح قسطنطين خصمه فى الغرب ، ماكسينتيوس ، فى معركة قنطرة ميلفيان Milvian (٣١٢ ، كما تخلص ليكينيوس من خصمه فى الشرق ، وظلت الشركة المزعزعة بين قسطنطين وليكينيوس قائمة حتى عام ٣٢٣ عند ما انتصر قسطنطين بعد سلسلة من المعارك الكبيرة فى الجولة الأخيرة واستحوذ لنفسه على الجائزة المنشودة ، إذ أصبح الحاكم الوحيد للعالم .

وتعد أعظم المشاكل السياسية أهمية فى عهد قسطنطين هى تلك التى تتصل بعلاقاته مع الكنيسة المسيحية . ولقد كان للقرارات التى اتخذها خطراً بالغاً فيما يتعلق بنتائجها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية وللعالم أجمع . وعلى الرغم من الاعتقاد الشائع ، فإن اضطهاد الحكومة الرومانية للمسيحية

لم يكن كثير الحدوث ، كما لم يكن واسع النطاق . غير أن المسيحية لم تكن عقيدة مسموحا بها religio licita وتلوثت سمعة معتنقيها بالنظر إلى أنهم يرفضون تقريب الذبائح إلى المعبودات الرسمية نيابة عن الإمبراطور . ومن ثم فقد كانت المسيحية عرضة للشك والريبة على الدوام ، بل كانت هدفاً للهجوم أثناء المحن والأزمات وعندما تدعو الحاجة إلى وجود ضحية ينحى عليها باللوم أو كبش للفداء . ولقد رأينا ما وقع للجالية المسيحية فى روما وقت نشوب النيران فى المدينة فى عهد نيرون . وكان بلينى قد طلب من تراجان النصح بما يتبع فى معالجة أمر المسيحيين فى بيثينيا . وكان رده هو أنه لا ينبغى أن تجرى تحقيقات أو محاكمات أو يلتفت إلى البلاغات المجهولة . أما من يبلغ عنهم بالطريقة الرسمية ويجرى معهم التحقيق وتثبت إدانتهم فينبغى عقابهم إذا ما ظلوا يرفضون عبادة الآلهة الرومانية .

لقد كانت هذه هى عصور التسامح والتحرر ، غير أن مثل هذا التسامح لم يظهر خلال كوارث القرن الثالث . فقد وقع اضطهاد مفجع فى عهد ديكيوس عام ٢٥١ وفترتان أخريتان من الاضطهاد فى عهد فاليريان عامى ٢٥٧ و ٢٦٠ غير أن هذه الاضطهادات واستشهاد بعض الأفراد على فترات متباعدة لم يكن ليفت فى عضد الديانة المسيحية أو يضعف من الإيمان بها ، بل إن دماء الشهداء كانت على العكس من ذلك هى فى واقع الأمر بذور الكنيسة النامية . وما إن حل عام ٣٠٠ حتى كانت تقوم الكنائس المسيحية فى جميع الولايات كما أضحت الكنيسة أقوى منظمة فى الإمبراطورية ، ينضوى تحت لوائها ما يقدر فيما يبدو بعشرة فى المائة من سكان الإمبراطورية . وكانت الاضطهادات الكبيرة الأخيرة التى جرت تحت حكم دقلديانوس ، على الرغم من أنها كانت ترجع إلى حد كبير إلى نفوذ جاليريوس ، هى آخر محاولة لسحق المسيحية . ولم يكن قسطنطين أو أبوه يؤيدان القائمين بالاضطهاد ثم إنه بعد معركة قنطرة ميلفيان أصبح مستقبل الكنيسة يبشر بأعظم الآمال ،

وتغير بذلك كلية عما كان يبدو عليه قبل وقوع هذه المعركة . وفى عام ٣١٣ أعلن مرسوم ميلانو حرية العبادة للجميع وأحال الكنائس إلى منظمات مشروعة . وقد أبدى قسطنطين منذ ذلك التاريخ حتى نهاية حكمه تحيزاً نحو المسيحية فى كل ناحية من النواحى . فقد عمل على إصدار تشريعات فى صالحها . وكان يشترك فى مراسيمها ، وترأس مجمع نيقيا عام ٣٢٥ وشيد كاتدرائيتى القديس يوحنا لاتيران والقديس بطرس فى روما إلى جانب الكنائس العظيمة الأخرى وأسس العاصمة المسيحية الأولى ، ألا وهى القسطنطينية ، ودخل سر المعمودية المسيحى وهو على فراش الموت .

ولقد قامت هناك المجادلات التى لا تنتهى حول ما إذا كان تأييده للمسيحية ، يرجع إلى إيمانه الشخصى أو إلى ضرب من الانتهازية السياسية . ولكننا نعلم على أقل تقدير ماقاله قسطنطين نفسه إلى أوسيبيوس ، أسقف قيصرية . فإنه فى أثناء زحفه فى جرأة على إيطاليا لتحدى قوات ماكسينتيوس التى كانت تفوق قواته إلى حد بعيد ، عدداً وعدة ، تراءى له الصليب فى السماء وقد كتبت عليه عبارة In hoc signo vincas أى بهذه العلامة تغلب أعداءك . وظهر له المسيح فى حلم فى تلك الليلة وأكد له أن النصر سيكون حليفه . ولقد ظفرت قواته بانتصاراتها ضد ماكسينتيوس كما خاضت الحرب ضد ليكينيوس فيما بعد تحت الراية الشهيرة باسم لابروم Labarum وهو اللواء الذى يحمل شارة الصليب . وبعد أن تم له النصر النهائى ، أعلن قائلا : « إننى الوسيط الذى رأى الله أن من الملائم الإفادة من خدماته لتحقيق مشيئته » وعند ذلك نظر قسطنطين إلى المسيح على أنه مانح النصر كما لم يخب ظنه فى ذلك قط . وكان ينتظر من المسيحية أن تكون أساساً للوحدة لا فى داخل الإمبراطورية فحسب ، بل مع هؤلاء الذين يقطنون فيما وراء الحدود فيما يبدو أيضا . ولكنه فى هذه النقطة خاب أمله ، لأن المسيحية فى ذلك الوقت كانت نهبا لطائفة من البدع ، مما يفسر

حرصه على القضاء على بدعتى دوناتس وآريوس على الرغم من أن الإمبراطورية لم تحتم المذهب الأرثوذكسى على الجميع إلا بعد مضى خمسين سنة على هذا التاريخ ، وذلك تحت حكم ثيودوسيوس . ولم يكن من الممكن إعلان ذلك فى عصر قسطنطين حين كانت العقائد الوثنية ما زالت قوية وبخاصة فى روما . وكان عليه أن يلزم طابع الغموض المتعمد الدقيق فى سياسته الدينية للأسباب ذاتها التى دعت الملكة اليصابات الأولى إلى ذلك فى انجلترا . وإن الأشباح القائمة التى خيمت على عهد اليصابات من جراء إعدام الملكة مارى الأسكتلندية تضاهيها الظلال الكئيبة التى اكتنفت حادثتين تبلغان الغاية من البشاعة ، وقعتا فى عهد قسطنطين وهما إعدام ابنه كريسبوس فى أول الأمر ثم إعدام الإمبراطورة فوستا زوجته بعد ذلك .

وقد تأسست مدينة القسطنطينية لكى تواجه الحاجة المحلية إلى إيجاد عاصمة للقسم الشرقى من الإمبراطورية . ولقد لعبت نيكوميديا هذا الدور فترة من الزمن ولكنه كان من الواضح أن تأسيس مدينة جديدة سيكون له فى المدى البعيد ميزات كبرى على أية مدينة قائمة بالفعل . فقد دار الحديث فترة من الوقت حول المشروع القديم الذى كان يهدف إلى إعادة تأسيس طروادة . كما اتجهت النية كذلك إلى اتخاذ نايسوس ، مسقط رأس قسطنطين ، عاصمة للإمبراطورية الشرقية غير أن المزايا الطبيعية الكبيرة التى يتمتع بها موقع القسطنطينية هى التى ظفرت بالقبول فى النهاية . ففى هذه البقعة يعبر الطريق البرى العظيم الذى يصل ما بين الدانوب وآسيا الممر المائى الممتد بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط ، ولو أن ذلك لم يكن فيه الكفاية فإن القرن الذهبى التى تحيط به اليابسة يهىء واحداً من أصلح المرافىء الطبيعية فى العالم . وقد جاء وصف كل ذلك فى فقرة رائعة كتبها جيبون ، يجدر على أى دارس للتاريخ الرومانى أو للنثر الانجليزى أن

يقرأها . وكانت تحتل هـذا الموقع منذ وقت بعيد المستعمرة اليونانية المزدهرة بيزنطة Byzantium غـير أن المدينة الإمبراطورية الجديدة قد طغت عليها . وأن هذه المدينة لتعد بحق أول مدن العالم الكبرى . وقد بدأت أعمال البناء عام ٣٢٥ وافتتحت المدينة رسمياً فى الحادى عشر من مايو سنة ٣٣٠ . ولما كانت هذه المدينة قد كرست للثالوث الأقدس والسيدة العذراء فقد كانت مؤسسة مسيحية . غير أن نظمها كانت رومانية الطابع فى كل نواحيها إلى حد توزيع جرايات من الغلال على سكان المدينة الفقراء . كما أن مكتبتها ومتاحفها جعلت منها قلعة من قلاع الحضارة الهيلينية . وكان شعبها المختلف الأجناس يضم عدداً كبيراً من المتحدثين باللاتينية الوافدين من أراضى الدانوب ومن إيطاليا أيضاً . وعلى الرغم من أن اسم القسطنطينية ما لبث أن حل محل الاسم الذى اختير لها وهو « روما الجديدة » فقد ظل سكانها يدعون أنفسهم باسم الرومانيين (Romaioi) حتى النهاية .

وهكذا بدأت القسطنطينية رسالتها النبيلة باعتبارها معقلا للمسيحية وقاعدة للحضارة القديمة ، وهى الرسالة التى حملتها خلال كثير من الاضطرابات حتى ذلك اليوم المشئوم وهو التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣ وهو تاريخ استيلاء الأتراك عليها .

وثمة خدمتان أخريتان قدمهما قسطنطين إلى الدولة ، حقيقتان بالتنويه ، الأولى — إذا كان فى الوسع أن نعزوها إليه وليس إلى دقلديانوس — هى إقامة مجلس شورى جديد وهو الكونسيستوريوم consistorium الذى كان جميع رؤساء المصالح الكبرى أعضاء فيه . وكان المجلس القديم المعروف باسم كونسيليوم consilium يتألف فى غالبيته من أعضاء يعينهم الإمبراطور . والخدمة الثانية هى الإصلاح الذى أدخله على العملة — وهو التعديل الثالث منذ عهد أورليان — وذلك بإدخال قطعة ذهبية ثابتة القيمة هى السوليدوس solidus . وقد أثبتت هذه القطعة الذهبية ثبات قيمتها

وقدرتها على الصمود فى عالم يجتاحه التضخم المالى وتسوده الأزمات الاقتصادية المتفاقمة . وفيما عـــدا ذلك فلم يستطع أى من دقلديانوس أو قسطنطين أن يقدم أى قدر من العون لمواجهة المشكلات الاقتصادية . وزادت وطأة الضرائب أضعافاً مضاعفة وتضخم النظام البيروقراطى وازدادت فساداً وعجز عن أداء واجبه . وإن هناك تناقضاً يثير الرثاء بين الطابع الإنسانى الذى ساد بعض التشريعات المتأخرة مثل مجموعة قوانين ثيودوسيوس التى صدرت تحت التأثير المسيحى ، وقسوة العقوبات ووحشيتها المتزايدة حيال محاولات خداع خزانة الدولة والمراوغة من مطالبها الجشعة . ولكنه على الرغم من فشل دقلديانوس وقسطنطين فى النواحى الاقتصادية فإنهما قد دعما الدولة وشدا من أزرها، بل إنهما أسهما فى عودة مستوى لا بأس به من الرخاء . وقد قدر لحالة الرخاء النسبى هذه أن تبقى قائمة حتى سنة ٣٥٠ تقريباً .

بيد أن الأحداث ما لبثت أن تحولت تحولا مروعاً إلى عواقب وخيمة . ففى أول الأمر وقعت كارثة جرها الرومان على أنفسهم وهى ذلك الصراع الذى نشب بين كونستانتيوس الثانى وماجنتيوس Magnentius مغتصب عرش الإمبراطورية الغربية . وشهدت معركة مورسا Mursa عام ٣٥٣ الرهيبة أرقى جيوش الإمبراطورية يخوضون غمار مذبحة مشتركة . وثمة كارثة أخرى جرها الرومان على أنفسهم أيضاً على نحو ما إذ أنها قد نشأت عن ميل لا ينقطع إلى الهرطقة التى منيت بها الكنيسة المسيحية طوال القرن الرابع . ولم يستطع مجمع نيقيا الذى دعا إليه قسطنطين ليرسى قواعد الوحدة فى الكنيسة ، أن يضع حداً لبدعة آريوس القوية . وقد ذهب الأمر إلى أن قسطنطين نفسه جنح إلى ذلك الاعتقاد فى أواخر سنى حياته . أما كونستانتيوس فقد كان أكثر إيجابية فى تأييدها ومساندتها . وقدر للنزاع الذى قام بين المذهب الأرثوذكسى ومذهب آريوس (الذى

أنكر أن طبيعة الابن كانت هى ذات طبيعة الأب) أن يسفر بالنسبة للإمبراطورية عن النتائج الوخيمة ذاتها المتمثلة فى الصراع والتفكك التى أسفرت عنها المنافسة بين المذهب الكاثوليكى والمذهب البروتستنتى خلال حرب الثلاثين بالنسبة لأوربا . وكان الكثيرون من البرابرة خارج حدود الإمبراطورية قد اعتنقوا مذهب آريوس . وكان من بين هؤلاء القوط والفرنجة . وكانت خيبة الأمل فى المسيحية هى السبب فى قيام رد الفعل الوثنى القصير الأجل الذى سانده جوليان المرتد (٣٦٠—٣٦٣) . وليس بغريب ان يصور التاريخ المسيحى جوليان فى صورة الخصم الأعظم ، ولكنه كان فى الواقع بطلا من الأبطال الذين هم على شاكلة بيرون أى أنه كان شاباً يافعاً ممتلئا بالحماس ، نزاعاً إلى الثورة مآله أن يموت ميتة مبكرة فى سبيل قضية خاسرة . ذلك أن التيار الوثنى الجديد لم يكتسب الكثير من الأنصار : أما محاولته فى أن يقتفى فى حكمه أثر ماركوس أوريليوس ، وقد بعث من جديد فى شخصه ، فقد كانت محاولة يائسة للعودة بعجلة التاريخ إلى الوراء . أما من الناحية السياسية فقد قدم للإمبراطورية خدمة جليلة بأن طهر بلاد الغال من غزو قام به الفرنجة والألمانيون . غير أن حملته ضد بلاد الفرس كانت سيئة التنظيم ضعيفة القيادة . وقد دفع جوليان حياته ثمناً لها . أما بالنسبة للإمبراطورية فقد خسرت بذلك آخر جيش يمكن لها أن تعبئه من أجل القتال فى الشرق . أما عن حكم جوليان وخليفته فالينتينيان (٣٦٤ — ٣٧٥) الذى تلاه بعد إمبراطور واحد ، فمعلوماتنا عنه وفيرة . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أميانوس ماركيلينوس Ammianus Marcellinus وهو المؤرخ الكبير الوحيد الذى جاء بعد تاكيتوس .

وقد عمد فالينتينيان إلى تجنب المشكلات الدينية إذ أنه كان فى شغل شاغل عنها بغزوات البرابرة الجديدة التى كانت تفوقها خطورة . وإن

الهجوم العظيم الذى وقع على بريطانيا عام ٣٦٧ إنما يدلنا على النطاق الكبير التى كانت تجرى عليه هذه الغزوات بالذات . فقد وقع هجوم موحد التوقيت من جانب الأيرلنديين والبيكتيين والساكسون على الولاية ، لعبت فيه المخابرات دوراً كبيراً فى مجال تنسيق الخطط . فاكتسحت الحصون والمواقع الدفاعية وتعاون جنود الحدود مع الغزاة وسقط نكتاريدوس Nectaridus الذى كان يشغل منصب كونت الشاطىء الساكسونى، كما سقط فولوفوديس Fullofaudes دوق بريطانيا وقائد الجيش المقاتل صريعين فى مراكز قيادتهما . ولا بد أن أجريكولا كانت ستستبد به الدهشة لاسميهما البربريين كما كان سيدهش أيضاً للواجبات الدفاعية الأساسية الملقاة على عاتقيهما . غير أن الموقف قد استعيد من جديد على يد ثيودوسيوس والد الإمبراطور المقبل الذى يحمل نفس الاسم . وعادت من جديد الحاميات فوق سور هادريان ، على الرغم من أنها كانت تتألف من ذلك الصنف الجديد من الجنود ألا وهو طائفة الجنود الفلاحين .

وفى عام ٢٧٥ أى فى تلك السنة التى توفى فيها فالينتينيان ظهرت قلاقل جديدة على حدود الإمبراطورية المحاذية لنهر الدانوب . وكان الهانيون وهم شعب بدوى مقاتل معروفون من زمن بعيد لدى الصينيين باسم هسيونج نو Hsiung-Nu. وقد أقيم سور الصين العظيم لصد هذا الشعب (نحو عام ٢٠٠ق م) كما استطاعت الأسر الصينية المالكة القوية أن تصون الحدود . وأدى ذلك إلى أن اتجه الهانيون صوب الغرب لكى ينشئوا لهم دولة قوية فى تركستان شمالى جبال تين شان ، ودفعتهم أراضى الاستبس المترامية ناحية الغرب إلى ما وراء بحر آرال وبحر قزوين . وفى عام ٣٧٥ انقضوا كالسيل الجارف على مملكة القوط بين نهرى دنيستر والدانوب فقوضوا أركانها . وفى عام ٣٧٥ ظهر جزء من شعب القوط ، تحت السلاح ، على نهر الدانوب ، وطلب الدخول إلى حظيرة الإمبراطورية . فأجيبوا إلى طلبهم ولكنهم لم يلبثوا

أن شكوا من الضغط الواقع عليهم وراحوا يغيرون على مقدونيا . فاستدعى الإمبراطور فالينس الجيش المقاتل بالشرق لمواجهتهم . ولكنه منى بالهزيمة ووقع صريعاً فى التاسع من أغسطس سنة ٣٧٨ على يد القوات القوطية وذلك بالقرب من أدريانول . ولقد كانت هذه المعركة كما قال آميانوس « كارثة تستعصى على العلاج ، كلفت الدولة الرومانية غالياً » .

وكان السبب فى أن معركة أدريانوبل الخاسرة مستعص علاجها هو أن الإمبراطورية لم تعد قادرة على أن تعوض خسائرها اعتماداً على مواردها . فقد قام الإمبراطور الذى بقى على قيد الحياة وهو جراتيان Gratian باستدعاء ثيودوسيوس لانقاذ ما يمكن إنقاذه . ولكن هذا الأخير اضطر إلى عقد الصلح مع القوط ومنحهم كثيراً من المناصب الخطيرة داخل الإمبراطورية وسلم الدفاع عن الدانوب لقوات قوطية (foederati) تعمل تحت إمرة قوادها . أما ما كانت تعنيه عبارة الجيوش الرومانية فى تلك الحقبة فيظهر فى وضوح وجلاء من معركة سيسكيا Siscia (٣٨٣) ، فقد قاد ثيودوسيوس ماكسيموس الذى حاول الاستحواذ على الإمبراطورية الغربية جيشاً يتألف من القوط والألانيين والهانيين للانتصار على جيش غربى يتألف من الغاليين والبريطانيين والجرمانيين الذين يعدون آخر الممثلين الحقيقيين للجيش الرومانى القديم . وكان من بين قواد ثيودوسيوس أربوجاستيس Arbogastes وهو من الفرنجة ، وقد أصبح فيما بعد رئيساً للجند magister militum لدى إمبراطور الغرب فالينتينيان الثالث . وقد قدر لهذا المنصب أن يكون أكبر مصدر للسلطة فى المرحلة الأخيرة للإمبراطورية الغربية . ولكنه عند ما حاول أربوجاستيس مساندة الحزب الوطنى فى روما وإيطاليا لإقامة إمبراطورية إمعة من لدنه كسر ثيودوسيوس شوكته فى معركة فريجيدوس Frigidus بالقرب من أكويليا (٣٩٤) . وبعد هذه المعركة هجرت الطقوس الوثنية وتحولت المعابد الوثنية فى الغرب

إلى متاحف . وكانت هذه هي نهاية الوثنية باعتبارها قوة سياسية . وكان انتصار ثيودوسيوس للمذهب الأرثوذكسي أن أدى إلى إضعاف مذهب آريوس في الشرق إلى حد كبير . وهكذا استحق عن جدارة لقب «الكبير» الذي خلعه عليه التاريخ المسيحي كما خلعه على قسطنطين . وكان عصره عصر ازدهار للفن المسيحي والأدب المسيحي وعصر بناء الكنائس في روما (مثل كنيسة القديس بولس « بغير الأسوار ») وفي ميلانو . وكان القديس أمبروز أسقف ميلانو طليعة رجال الكنيسة العظام الذين ظهروا في العصور الوسطى ، وذلك عندما حمل الإمبراطور على التكفير عن نصيبه من الفظائع التي ارتكبت في مذبحة تسالونيكي .

غير أن ثيودوسيوس كان آخر من تولوا الحكم في إمبراطورية موحدة . إذ أن الإمبراطورية قسمت إثر وفاته (٣٩٥) بين ابنيه هونوريوس Honorius على الغرب وأركاديوس Arcadius حاكماً على الشرق . ولم يقدر لهذين النصفين أن يلتئما قط إلا في فترة قصيرة وفي أجزاء دون أجزاء نتيجة لفتوحات جستينيان في القرن السادس . وكانت آخر مرحلة للانحلال قد حلت حينئذ بالغرب ، فقد كان جميع أباطرته تافهين لا حول لهم ولا طول . فأما هونوريوس فكان يربي الدواجن ، ورقي جليكيريوس Glycerius من منصب الإمبراطور إلى منصب أسقف سالوناي Salonae وقد بلغ منصب الإمبراطور من التفاهة وهوان الشأن أن استطالت عهود بعض الأباطرة إلى درجة بعيدة . فقد تولى هونوريوس الحكم ٢٩ سنة . وبقي فالنتين الثالث إمبراطوراً مدة واحد وثلاثين عاماً ، وطلبا للأمن نقل البلاط إلى مدينة رافنا Ravenna وهي مدينة حصينة تقع وسط منطقة من المستنقعات فضلا عن كونها ميناء يمكن الجلاء منه على وجه السرعة إن لزم الأمر . وأصبحت إدارة الأقاليم في يد مجلس الشورى consistorium الذي كان على الدوام ضعيف الرأي وإن كان يجد القدرة من وقت لآخر على

أن يضرب فريقاً من البرابرة بفريق آخر . أما السلطة الحقيقية فكانت في قبضة رؤساء الجند magistri militum . وقد كان جميعهم من البرابرة ذوى الأطماع الذين لا يؤمن جانبهم . أما أوربا الوسطى والشمالية فقد كانت تجتاحها دوامة تتمثل في أخطار الهجرات الجماعية التي وقعت في التاريخ. وكان القوط قد اخترقوا حدود الإمبراطورية ، ولم يكن من المعروف أين ستكون وجهتهم . لقد كانت الإمبراطورية أشبه بحوت عظيم قامت في وجهه وأبطأت من سيره شرذمة من القتلة هم البرابرة الذين أطبقوا عليه ليمزقوه إربا . وقد اجتاح القوط بلاد اليونان ثم انتقلوا بعد ذلك إلى إلليريكوم . وعندما هاجموا إيطاليا صدهم قائد عظيم هو استيليكو Stilicho الذى كان يحتل منصب رئيس الجند لدى هونوريوس ، غير أن حصون الراين قد انهارت في الليلة الأخيرة من عام ٤٠٦ أمام جحافل الفاندال والآلان والسويبيين الذين تدفقوا إلى بلاد الغال وزحفوا إلى ماورائها حتى إسبانيا . وكانت بريطانيا قد انقطعت صلتها بالفعل عن الإمبراطورية إلى ما لا نهاية فيما يرجح ، على الرغم من أن بعض المؤرخين يعتقدون أن الوضع قد عاد إلى ما كان عليه فترة وجيزة من الزمن بين عامى ٤١٠ و ٤٤٦ . وعندما اغتيل استيليكو عام ٤٠٨ بناء على أمر هونوريوس الذى جانب فيه الحكمة والصواب ، لم يعد هناك ما يعترض طريق القوط إلى إيطاليا ، وكان لاستيلاء آلاريك Alaric على روما في عام ٤١٠ صدى رهيب في جميع أنحاء العالم . فقد تساءل الناس قائلين : «وما نفع أضرحة الرسل إذن؟». ولقد كان هذا تساؤلا يمس نقطة بالغة الحساسية بالنظر إلى أنه قبل ما لا يزيد على جيل واحد أزيح تمثال «النصر» من قاعة مجلس الشيوخ على الرغم من احتجاج الوثنيين الشديد ودعوتهم إلى المحافظة على التقاليد والإبقاء على رمز الحظ والتوفيق الذى تمتعت به روما فترة طويلة من الزمن . أما الرد المسيحى على هذا التساؤل فقد قام به أوغسطين في كتابه « مدينة الله » الذى دلل فيه على أنه ليس بهذا العالم موطنا لمدينتنا الراسخة على مر الزمن . بيد أنه

على الرغم من أنه لم يكن ثمة أمل فى نهضة ما إلا أن نهاية روما لم تكن قد حانت بعد . وتجاوز آلاريك روما متجها صوب الجنوب ، ولقى حتفه فى كالابريا Calabria . وقد شجع ذلك القوط على العودة إلى بلاد الغال وفتحها من جديد ، لصالح الإمبراطورية . وعندما تزوج أتولف Ataulf ملك القوط جالا بلاكيديا Galla Placidia ابنة ثيودوسيوس بدا كما لو أن القوط قد أصبحوا هم حماة الإمبراطورية البرابرة الذين يقومون بدورهم خير قيام . واقتسم بونيفاكى Boniface الكونت على إفريقية وآيتيوس Aëtius رئيس الجند فى إيطاليا ما تبقى من الإمبراطورية فى الغرب . ولسوء الحظ دب دبيب الخلاف بينهما ، وإثر هزيمة بونيفاكى استولى الفاندال على إفريقية وأقاموا مملكة قوية مقرها قرطاجة . ثم أعقبت ذلك أشد غزوات البرابرة رهبة ، ألا وهى غزو الهانيين بقيادة ملكهم آتيلا Attila الملقب « بسوط الله » . وبعد أن اكتسح آتيلا إلليريكوم ، عبر نهر الراين و توغل فى بلاد الغال عام ٤٥١ . فجند آيتيوس ضده جماعة مؤتلفة تتضمن جميع الغزاة السابقين لبلاد الغال وهم القوط والفرنجة والبرجنديون والألانيون والأرموريكانيون بالإضافة إلى ما بقى من الجيش الإمبراطورى ، وتمكن هذا الخليط العجيب من إيقاع الهزيمة بالهانيين عند « شالون سيرمارن » Châlons-sur-Marne وهى أول معركة على نهر مارن ترتقى إلى مصاف المعارك الحاسمة فى العالم . وعندما قام آتيلا بغزوة أخرى فى العام التالى ، رد على أعقابه من جراء خليط أعجب من الخليط السابق قوامه عوامل متباينة كالذهب والصلوات والرهبة التى أثارها البابا ليو Leo والافتقار إلى معدات الحصار واضطراب تفكير البرابرة . ولكن الهانيين محقوا أكويليا ومحوها من الوجود قبل رحيلهم . وأسس اللاجئون الذين فروا من المدينة قرية كانت هى الأصل الذى نشأت عنه مدينة البندقية . وفى عام ٤٥٣ مات آتيلا . وهكذا مضت لحظة الخطر الداهم ولم يكن يقدر لأوربا أن تصبح أقصى ولاية فى الإمبراطورية المغولية جهة الغرب . فلم يكن هناك من شخص

أحق من آيتيوس بالغرب ، وقد فاز بجائزته وهى أنه أغتيل على يد فالينتينيان الثالث .

وتتابعت الأحداث فى الإمبراطورية الشرقية بعد وفاة ثيودوسيوس على نفس النمط الذى سارت عليه الأحداث فى الغرب إلى حد كبير . لقد كان هونوريوس يربى الدواجن وهنا رأينا أركاديوس ينسخ المخطوطات . كما أن السلطة وقعت فى الحالتين فى قبضة رؤساء الجند البرابرة . غير أنه قد قامت مذبحة طيبة للقوط عام ٤٠٠ . وعقد السلام مع الفرس وأمكن درأ خطر الهانيين فترة من الزمن عن طريق أداء الجزية لهم . وكان رحيلهم إلى الغرب ضربة عظيمة من ضربات الحظ بالنسبة للقسطنطينية . ثم حدث فى عام ٤٥٧ أن تمخض الشرق — الأمر الذى لم يتسن للغرب بعد ثيودوسيوس — عن إمبراطور قوى قدير فى شخص ليو الأول . وقد استطاع أن يدعم قوة الغرب إلى الحد الذى يمكنه من القيام بهجوم على إفريقية تمهيداً لإعادة فتح الغرب . بيد أن الفاندال وقفوا فى طريقه . وهكذا أفلتت الفرصة منه ، غير أن مغزى هذه الحملة لم يخف على القواد البرابرة الذين كانوا يسيطرون على الغرب . فقد خرجوا منها بدرس نافع . وهكذا فعندما بدا أن مارجوريان Marjorian يليق بهذا الدور فى فترة من الزمن خلع عن عرشه (٤٦١) وتلته سلسلة من الأباطرة الضعاف القصيرى الأجل تحت إشراف ريكيمر Ricimer رئيس الجند . وفى النهاية عثر أودواكر Odoacer على حل موفق فقد خلع الإمبراطور الغلام رومولوس أوغستولوس Romulus Augustulus وحمل مجلس الشيوخ على إصدار قرار مؤداه أنهم يرتضونه رئيساً للجند فى إيطاليا . وأعيدت أبهة الإمبراطورية إلى القسطنطينية . وكانت الإمبراطورية الغربية قد بلغت نهايتها ، فلم تعد الدولة الرومانية تعيش إلا فى العالم الذى تحكمه القسطنطينية وفى أذهان البشر .

وعلى الرغم من ذلك فإن المعاصرين لهذه الفترة لم يكونوا يعتقدون أن

سنة ٤٧٦ تمثل نقطة تحول . والواقع أن إجراء أودواكر قد صان وحدة الإمبراطورية على نحو ما بالنظر إلى أنه حفظ إيطاليا للإمبراطور زينو Zeno وهو الإمبراطور الرومانى فى القسطنطينية : ولعل وحدة الدولة الرومانية كانت شبحا ولكنه كان من الأشباح التى يصعب تهدئتها . فقد أعاد بالفعل الإمبراطور جستينيان فى القرن السادس كيان الدولة الرومانية من جديد لفترة من الزمن بغزوه إفريقية وإيطاليا وصقلية وقسم من إسبانيا . وبعد زوال سلطة بيزنطة فى الغرب كان تتويج شارلمان باعتباره إمبراطورا رومانيا عام ٨٠٠ هو أصل تلك الظاهرة الغريبة ألا وهى الإمبراطورية الرومانية المقدسة للشعوب الجرمانية ، وهى وإن لم تكن مقدسة أو رومانية أو لها صفة الإمبراطورية على الإطلاق فقد بقى اسمها على أقل تقدير حتى عام ١٨٠٦ حين نبذه فرانسيس الثانى Francis II مفضلا عنه لقب إمبراطور النمسا . وإن شئنا قسطا أكبر من الواقعية لقلنا إن مكانة البابوات العظام مثل جريجورى وهيلدبراند Hildebrand وإنوكنت Innocent الثالث هى التى كانت توحى بدوام سلطة روما فى العصور الوسطى . ثم قامت فى القرن العشرين الإمبراطورية الرومانية الحديثة على يد موسولينى .

ولكنه ينبغى على المؤرخ أن يقف فى ثبات وألا يروج للأوهام والخيالات فلو قام أحد بإنكار أن سقوط الإمبراطورية الغربية وقع فى عام ٤٧٦ ففى وسع المؤرخ أن يستند إلى حجة غير معهودة . فعندما ناشد كل من رومولوس وريموس عام ٧٥٣ السماء لكى تبعث لهما بعلامة تدلهما على من يقوم منهما بتأسيس المدينة الجديدة فاز رومولوس بتسجيل أثنى عشر نسرا مقابل ستة نسور لمنافسه ، وتنبىء هذه النسور الاثنى عشر وفق الأساطير الغيبية الرومانية بأن حياة روما ستمتد إلى ١٢٠٠ سنة . والحقيقة أن الفترة بين ٧٥٣ ق م و ٤٧٦ ميلادية هى ١٢٢٩ سنة ، ومن ثم فإن معدل الخطاء ليس جسيما .

الفصل الثالث عشر

الثقافة القديمة والمسيحية : ١٤ — ٤٧٦ ميلادية

ليس من اليسير بأى حال من الأحوال أن نسبغ طابع الوحدة والتماسك على تاريخ الإمبراطورية الثقافى . فالحقيقة أنه على الرغم من أن الأدب اليونانى يكاد لا يحوى اسماً واحداً لكاتب فى المرتبة الأولى ، فإن تياره لم ينقطع منذ عهد أوغسطس حتى القرن الرابع . أما بالنسبة للأدب اللاتينى فالأمر يختلف عن ذلك . فإن العصر الفضى للأدب اللاتينى الذى يبدأ بموت أوغسطس لا يمتد إلى ما بعد موت هادريان فى عام ١٣٨ . وبعد ذلك التاريخ يظهر أبوليوس Apuleius وفرونتو Fronto فى عهد الأباطرة الذين ينحدرون عن انتونينوس Antonines ثم خيم سكون مطبق طويل ، ثم وقع للأدب انتعاش أخير فى القرن الرابع فى عهد أميانوس ماركيلينوس Ammianus Marcellinus وكلاوديان Claudian وأوسونيوس Ausonius . ولهذا السبب تختتم المدارس والجامعات دراستها للأدب اللاتينى بتاكيتوس Tacitus وجوفينال Juvenal وهما آخر كاتبين من الكتاب اللاتينيين « الكلاسيكيين » حقاً . ولكننا لو أردنا أن نضع قائمة الكتاب اللاتينيين الذين خلف إنتاجهم أعظم الأثر على الإنسانية ، فهناك اسم ثالث ينبغى أن يوضع إلى جانب شيشيرون وفيرجيل وهو اسم أوغسطين Augustine . ففيه امتزجت التقاليد القديمة والتقاليد المسيحية فى أسمى مستوياتهما . فما من مؤلف لاتينى حظى بالقراءة فى إلحاح ودون انقطاع مثلما حظيت الترجمة اللاتينية للإنجيل المعروفة باسم Vulgate التى قام بها جيروم Jerome . ويؤكد هذان المثلان القويان ، فى حد ذاتهما ، أن الموضوع الرئيسى فى تاريخ الإمبراطورية الثقافى منذ القرن الثانى وما تلاه

هو التفاعل الذى تم بين المسيحية والثقافة القديمة فى الدين والفلسفة والفن والأدب على حد سواء .

ولكن بوادر هذا الصراع الثقافى الهائل لم تظهر قبل عهد الأباطرة المنحدرين عن أنتونينوس . وقد استمد الأدب اللاتينى الذى ظهر فيما بين عهدى أوغسطس وهادريان ، أصوله من أدب عصر الجمهورية المتأخر وعهد أوغسطس كما تطور وفقاً للأحوال التى كانت سائدة فى أوائل عصر الإمبراطورية . وكانت أهم هذه الظروف هى تأثير البلاغة والشهرة الطاغية التى كان يتمتع بها بعض كتاب العصر الذهبى ، ولا سيما فيرجيل وقيام حكومة إمبراطورية كان لها أن تتخذ إجراءات عنيفة رادعة ضد الكتاب الذين كانت لا ترضى عنهم . وتجتمع هذه العوامل على صبغ الأدب فى هذه الفترة بصبغة موحدة اصطلح على تسميتها « اللاتينية فى عصرها الفضى » . والفضة معدن نفيس يأتى فى المرتبة الثانية بعد الذهب مباشرة . وقد أنجب العصر الفضى كتاباً ذوى مكانة رفيعة . ففى الإمكان مقارنة تاكيتوس وجوفينال بأى كاتب آخر من لونهم فى أى عصر من العصور . كما أن لوكان Lucan وبترونيوس Petronius وسينيكا Seneca ومارشال ، على سبيل المثال لا الحصر ، يعدون من الكتاب الجديرين باهتمام القارىء من أجل ذواتهم من ناحية ولما كان لهم من تأثير على الأدب فى العصور التالية أيضاً .

وإذا كان المرء يحس فى أغلب الأحيان أن هذه الفضة لم تكن خالصة نقية بل مجرد غشاء سطحى يغلف معدناً رخيصاً آخر ، فمرد ذلك إلى أثر البلاغة على أدب ذلك العصر . وقد رأينا كيف بدأت البلاغة تطغى على التعليم الرومانى فى عهد أوغسطس وكيف تظهر آثارها واضحة فى شعر أوفيد Ovid كما تبدو فى سعيه الدائم فى سبيل التأثير على القارىء بالالتجاء إلى الأمثال والأقوال المأثورة ثم إلى الطباق والجناس ، والاستعراض

اللغوى أيضا . وكانت هذه المحسنات هى التى تؤهل للحصول على الدرجات النهائية فى المسابقات، التى تعقدها مدارس البلاغة . وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هذه المحسنات تطبق على موضوعات لا تمت إلى الواقع بصلة ، كما هو الحال مع القصص الخيالية التى تدور حول الفضاء الخارجى فى العصر الحديث . ويشكو بترونيوس من ذلك بقوله « إنهم يتعاملون دائماً مع حكام طغاة يأمرون الأبناء بقطع رءوس آبائهم ، أو نبوءات تطالب بالتضحية بثلاث عذارى . . . . فإذا ما كان هذا هو غذاؤهم الذهنى على الدوام فما هى الفرص المتاحة لهم لتعلم الإدراك السليم ؟ ولا بد أن نقرر هنا أن الإدراك السليم لم يكن هو طابع جانب كبير من المؤلفات اللاتينية فى العصر الفضى . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الميول التى تدعمها وتذكيها المدارس البلاغية كانت تنميها أيضاً التلاوات العامة . وفى ذلك المجال كانت تقوم الشهرة وتبقى راسخة على الدوام ، وفى ذلك المجال أيضاً كان كل شىء يهدف إلى المظاهر لا الجوهر . فقد كان الجمهور يريد أن يشعر بقشعريرة تسرى فى بدنه إذ يستمع إلى ماهو مفزع مرعب وأن يحمل معه الآراء السديدة والأقوال المأثورة ، والأبيات الجارية بالحكمة والفقرات التى يتلاعب الكاتب فيها بالألفاظ بما يثير الدهشة والغرابة فى النفوس . وفى مثل هذه المباريات الكلامية لم يكن يناله التصفيق والإعجاب سوى الضربات الحاسمة .

ولكن لو تقبلنا تقاليد تلك الفترة (كما هو الحال بالنسبة لفن المعمار الغريب الذى ظهر فى العصور الوسطى) ففى وسعنا أن نستمد قدراً كبيراً من المتعة من أكثر المؤلفات اللاتينية التى ظهرت فى العصر الفضى . وقد وجدت فترات معينة مثل انجلترا فى العهد الأليصاباتى واليعقوبى أن هذه المؤلفات تبلغ من الطرافة حداً يجعلها مصدراً رئيسياً من مصادر الوحى . ويصدق ذلك على التراجيديات التى وضعها سينيكا (وعاش من ٥ ق م

إلى ٦٥ ميلادية) التى كان لها على المسرح فى كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا تأثير أكبر من مؤلفات أيسخيلوس Aeschylus وسوفوكليس Sophocles التى تفوقها جمالا وروعة . فإننا لا نخلص من قراءة مسرحية ثيستيس Thyestes إلا بمعرفة الموطن الذى انحدر عنه تيتوس أندرونيكوس Titus Andronicus . وكان على ثيستيس كما تقضى الأسطورة أن يأكل لحم بنيه ولكن سينيكا يصف كيف أن لحمهم هذا قد طهى ، كما يصور ثيستيس متجشئاً . وإن العالم الذى يصوره سينيكا غاصاً بالأشباح والقتل والخيانة والانتقام يوشك حقاً أن يبلغ حد السخف المزرى . ولكن كم بلغ عدد الجثث فى مسرحية هاملت ؟ لقد رأينا أخيراً أن مسرحية مثل أندرونيكوس يمكن تقديمها على خشبة المسرح . كما أن قراءة مسرحية من مسرحيات سينيكا التراجيدية فى عهد نيرون لم تكن تخلو من متعة وعمق .

أما عن مؤلفاته الفلسفية فهى أعسر على الفهم . فإن الصور الخلقية والمواعظ الأدبية التى أوردها سينيكا مثل صورة الزاهد الرواقى الذى احتفظ بثروته لأن الثراء العظيم لا يختلف من حيث أثره على الفضيلة عن الفقر المدقع والمؤلف الذى كتب بحثاً عن الرحمة De Clementia فى حين أن قسوته فى المطالبة بما له من ديون قد عجلت من قيام ثورة بوديكا Boudicca ، لم يكن لها أن تجتذب السامعين ، إن اعتمدت فحسب على بلاغة الأسلوب . ولكن من الممكن تذوق قصيدته المسماة أبوكولوكينتوسيس Apocolocyntosis وهى قصيدة هجائية مؤداها أن الإمبراطور كلاوديوس قد تحول إلى « قرعة » بدلا من تحوله إلى إله ، وذلك لما تنطوى عليه من فكاهة وإن لم يكن بوسعنا أن نتغاضى عن النغمة المستهجنة السائدة فيها ، إذ أن ناظم هذه القصيدة هو أحد الشعراء الذين كانوا من صنيعة كلاوديوس وقد وضعها للتسرية عن قتلته . ولكن سينيكا نفسه عندما حكم عليه بالاعدام لاشتراكه فى مؤامرة ضد بيزو Piso استطاع أن يختتم حياته بخاتمة مشرفة ضرب فيها المثل للنبلاء الرومان فى عهد نيرون ودوميتيان .

ويمكن أن نحقق قدرا أعظم من النفع من قراءة لوكان Lucan وهو ابن أخيه الذى لقى المصير ذاته وهو فى السادسة والعشرين من عمره. ويتناول مؤلفه بعنوان « الحروب الأهلية » إحدى القضايا الكبرى فى التاريخ الرومانى ألا وهى الصراع بين قيصر وأنصار الجمهورية ، من وجهة نظر أولئك الذين كانوا يعطفون على الجانب الخاسر فى هذا الصراع . وهو يصور فى براعة فائقة تمسك كاتو Cato الشديد بأهداب الفضيلة والخلق ونشاط قيصر الخبيث ، وعلى حين أن معالجته لأحداث الحرب تتميز بطابع يجنح إلى المزج بين ما هو مبهج وما هو محزن فى الوقت ذاته إلا أنها فى بعض الأحيان ترتفع إلى مستوى المأساة . وقد تصدى لأحد الطغاة وذلك قبل أن يقضى نحبه ، كما أوحى لغيره من الناس بقتل الحكام الطغاة .

أما عن الملاحم الأخرى فى الأدب اللاتينى فى عصره الفضى فليس فى إمكاننا أن نذكر عنها سوى النذر اليسير . وقد تخير سيليوس ايتاليكوس Silius Italicus الحديث عن الحروب البونية وهو موضوع طيب ولكن لم يفعل بعد ذلك أكثر من نظمه لأطول قصيدة كتبت باللاتنية (وعاش بين ٢٦ — ١٠١) وألف فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus (الذى توفى عام ٩٠) عن أسطورة بحارة أرجوس . وقد ذهب البعض إلى القول بأن مستوى معالجته لقصة حب ميدياوياسون Medea-Jason يعد أرفع من مستوى أبولونيوس Apollonius الرودسى الذى كان فاليريوس يتخذه أنموذجا له فى هذه القصة بل تجاوزوا ذلك إلى القول بأنها أرفع أيضا من معالجة فيرجيل لقصة أينياس Aeneas وديدو Dido ... ياله من ذوق غريب ! أما ستاتيوس Statius (عام ٤٥ — ٩٦) الذى نظم قصائده فى عهد دوميتيان فقد نظم ملحمة طيبية Thebaid فى ستة كتب وملحمة أخيليوس Achilleid فى كتابين ، وقد نعم بشعبية فى عصره وعده دانتى Dante فى مصاف فيرجيل وأوفيد . وقد وجدت ملاحمه عددا ضئيلا

من القراء فى العصر الحديث ولكن بعض قصائده القصيرة مثل الرياض Silvae تجد مكانها دائما فى أية مختارات من الشعر اللاتينى .

ويعد مؤلف بيترونيوس Petronius الساخر بعنوان Satyricon من أروع المؤلفات فى عهد نيرون . وما آل إلينا لا يعدو جزءا من قصة ضخمة عن المتشردين تتناول المغامرات التى قام بها ثلاثة من الشباب المنحل فى حانات وموانى إيطاليا ومواخيرها . وأكثر مقطوعاتهم شهرة هى المقطوعة المعروفة باسم كينا تريمالخيونيس Cena Trimalchionis وهى قصة هزلية صاخبة تصف حفل عشاء يقيمه غنى محدث النعمة . وقد أبدع الكاتب فى أسلوب الكشف عن هذه الشخصية الضاحكة بأن سمح لها فحسب بأن تتحدث عن نفسها . وهو لا يعدو شخصية واحدة من عدد كبير من الشخصيات التى كانت كلها شائنة السمعة وإن لم تكن منفرة تماما ، ولكن بيترونيوس أحالها شخصية حية ماثلة للأذهان .

وكان مرتيال Martial (٤٠ — ١٠٤) — فى النطاق الذى رسمه لنفسه — من أكثر الشعراء الرومان براعة . فهو يتميز بالفطنة والرشاقة والحس المرهف كما تعرض كتبه الاثنا عشر التى تضم مقطوعات عن الحياة فى روما فى عهد دوميتيان صوراً تنبض بالحياة . ولا يقصيه عن المرتبة الأولى من الشعراء سوى افتقـــاره إلى القيم الخلقية وإلى شعور بالكرامة الشخصية .

ولعله ليس هناك من بين العديد من شعراء العصر الفضى الذين ضاعت أعمالهم من هو ادعى إلى أسفنا من الشاعر البينوفانوس بيدو Albinovanus Pedo . وقد عاش فى عهد تيبيريوس وكتب عن حملة جيرمانيكوس Germanicus إلى المياه الشمالية . وقد بقى من هذه القصيدة ما يقرب من عشرين بيتا . وتتميز هذه الأبيات بطابع فريد أصبحت معه هذه القصاصة من بين أشد المنظومات تشويقاً فى الأدب اللاتينى . وكم سيكون

رائعاً لو أمكن الحصول على هذه القصيدة لتوضع إلى جانب تلك القصائد التى تسجل رد الفعل الذى ظهر لدى أبناء أوربا تجاه قارة أمريكا الجديدة قبل أن يتم ارتيادها .

وقد تعرضنا من قبل إلى الرسائل التى تبودلت بين بلينى وتراجان والتى تمثل أحد كتب بلينى العشرة الخاصة « بالرسائل » Epistles . عاش بلينى (من عام ٦١ إلى نحو عام ١١٤) حياة عامة مرموقة . وكان يمتلك ضياعا كبيرة فى شمال إيطاليا . وتصور رسائله عالم الأقاليم الذى يتميز بروحه العامة وإن كان لا يمثل أية قيم أدبية ذات بال ، بحيث يبدو متناقضا أشد التناقض مع حياة العاصمة المتألقة . وقد حقق كوينتيليان Quintilian (نحو عام ٣٥ — ٩٥) وهو أول من تولى كرسى البلاغة فى روما ، ذلك العمل الفريد ، وهو الكتاب المتزن الذى وضعه عن التعليم ، وذلك على الرغم من أنه لم يستطع أن يتجنب طابع الملل الذى يفرضه عليه منصبه التعليمى هذا فى مؤلفه بعنوان « النظام الخطابى » الذى يتألف من اثنى عشر كتابا .

وكان تاكيتوس Tacitus وجوفينال Juvenal هما آخر الكتاب اللاتين التقليديين ممن يحتلون المرتبة الأولى . فكل منهما يكشف عن خصائص الأدب اللاتينى فى عصره الفضى ولكنه يتجاوز حدوده أيضاً بصورة لن تتأتى لأى كاتب آخر . وقد كتب كل منهما إبان العهود السعيدة لكل من تراجان وهادريان ولكنهما أصيبا بصدمات لا يمحى أثرها من جراء طغيان دوميتيان . وإننا لا نعرف الكثير عن حياة تاكيتوس فيما خلا انتسابه إلى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ ، ولكنه فى حياته العامة احتل منصب القنصل (عام ٩٧) وولى على آسيا (عام ١١٢) كما قد اقترن بابنة أجريكولا Agricola . وكان أول مؤلف تاريخى له بمثابة تاريخ لسيرة حماه . ويعد هذا المؤلف من أعظم السير التى كتبت فى العصر القديم ولكنه

لا يشبع نهم الباحث فى موضوع بريطانيا الرومانية التى يتحدث عنها تاكيتوس حديثاً مثمراً مفيداً ولكنه كان بوسعه أن يفيض فى الحديث ويسترسل فيه ويعرض من جوانب الحياة فى بريطانيا الرومانية أكثر مما فعل . ولكن هذه الولاية لم تكن تثير اهتمام تاكيتوس إلا باعتبارها صورة خلفية تبرز أعمال أجريكولا الفذة وانتصاراته الضخمة . أما عما كتبه عن توزيع السكان وعاداتهم وعن تضاريس ولاية جرمانيا ، فقد كان أوفر مما سبق تفصيلا مما جعل للمؤلف أهمية ثابتة على الزمن باعتباره الوثيقة التاريخية الأولى التى كتبت حول ألمانيا . وثمة جانب طريف أيضا يختص بهذه الوثيقة ويكمن فى أنها المرة الأولى التى ظهر فيها موضوع «الهمجى النبيل» . ومما يدعو إلى الأسف أنه قد قام على أساسه جانب كبير من الهراء فى القرن التاسع عشر حيث جرى الحديث عن منابع الديمقراطية فى غابات جرمانيا . وكانت هذه الرسائل والمقالات تمهيداً لمؤلفاته التاريخية الكبرى وهى التاريخ Histories التى تعالج الأحداث التى جرت بين عامى ٦٩ و ٩٦ ، ثم المؤلف العظيم التالى وهو «الحوليات» Annals التى تعالج الفترة الممتدة من وفاة أوغسطس إلى موت نيرون . وإنه ليحتل بهذين المؤلفين مكانه بين أساطين الكتاب . وثوكيديديس Thucydides هو الوحيد الذى يقف معه على قدم المساواة فى قدراته على المعالجة الدرامية . كما أن مؤلفات تاكيتوس باتت بمثابة ينبوع متدفق اغترف منه كتاب المسرح المتأخرين . ومهما قيل عن قدرته على النقد وضيق نطاق اهتماماته وأفقه المحدود أو عن تحيزه الدائم ضد الإمبراطورية وكل ما يتعلق بها فإن أحدا من الدارسين لتاكيتوس لا يمكن قط أن تفوته تلك القوة الطاغية التى تكمن فى شخصية تاكيتوس وفى نظرته إلى الأمور . ففى أى موضوع من الموضوعات يجد المرء فى نفسه اهتماما وحافزا على أن يعرف ما سوف يقوله تاكيتوس وعلى أى نحو سيعرب عما دار بخلده . وحياة تاكيتوس تقوم على أساس مخطوط واحد يمثل خير مؤلفاته التاريخية العظمى .

أما جوفينال (نحو عام ٥٠ حتى عام ١٢٧) فقد كان وضيع الأصل مما لا يرتقى به إلى مرتبة تاكيتوس ، فقد انحدر عن أسرة برجوازية كانت تعيش فى بلدة أكوينوم Aquinum بالأقاليم . وكانت آماله فى أن ينخرط فى سلك حياة عامة مرموقة قد عصفت بها الأنواء وهو مايزال فى ميعة الصبا . وقد ذاق طوال الجانب الأعظم من حياته مرارة الاعتماد فى معاشه على أحد النبلاء فى روما . ويبدو أن الإمبراطور هادريان قد منحه فى شيخوخته شيئاً من المعاش الأمر الذى تدل عليه تلك اللهجة اللينة المخففة التى تبدت فى كتاباته الأخيرة . بيد أن « تلك الغضبة النارية الجامحة » (saeva indignatio) التى اتسمت بها باكورة مؤلفاته هى التى ترفعه بالفعل إلى مصاف كتاب مثل « فولتير » و « سويفت » . وإن قصيدته الهجائية الثالثة التى تتحدث عن حياة البؤس والشقاء التى يعيشها الفقراء فى روما والتى تعتبر استنكاراً صارخا لما وصفه لويس ممفورد « Lewis Mumford » بالعاصمة التى تجرى فوق مسرحها أحداث الحياة الإنسانية ، كما أن القصيدة الساخرة السادسة التى تدور حول مباذل النساء ورذائلهن والقصيدة الهجائية العاشرة التى تدور حول بطلان الآمال الإنسانية ، وانعدام جدواها ، إن هذه كلها نالت المجد والشهرة عن جدارة واستحقاق ، كما ظهر لها كثير من المقلدين . بيد أن صفات جوفينال وخصائصه لا تظهر فيما يبدو فى أى موضع آخر كما تظهر فى القصيدة الهجائية التاسعة التى تصف اجتماعا لمجلس الإمبراطور دوميتيان الخاص . والمناسبة التى اجتمع المجلس من أجلها مناسبة مضحكة ساخرة إذ اجتمع ليقرر كيف يتم له التخلص من سمكة « ترسة » كبيرة ، إلا أن وصفه لأذناب الطغاة وبطانتهم يبلغ حد الكمال . ويتمثل أحد هؤلاء الأذناب فى مخبر « فى وسعه أن يجز الرقاب بهمسة من شفتيه » وآخر يظهر كشيخ دمث الخلق رقيق الطباع يعزى طول أجله إلى أنه لم يسبح ضد التيار قط . ولم يمنح دوميتيان فيما جرى من حوار ، الحاضرين سوى

عبارة واحدة لا تعدو ملاحظة عادية لرئيس مجلس من المجالس ، غير أن المرء ليحس مع ذلك بإحساس مفزع بأنه خبيث ماكر ، قوى صارم .

وكان تاكيتوس وجوفينال يمثلان شخصين قويين وأصيلين حتى إنه لم يظهر بعدهما من يخلفهما . بيد أن المؤرخين يدينون بالفضل إلى سويتونيوس Suetonius (نحو عام ٦٩ حتى عام ١٤٠) . وقد كان يشغل وظيفة أمين للمحفوظات بحكومة الإمبراطورية تحت حكم هادريان . وقد كان فى متناول يده كثير من الوثائق التى يمكن أن نطلق عليها عنوان « مواد مفهرسة » . أما عن « سير القياصرة الاثنى عشر » فإن هذا المؤلف على الرغم من أنه لا يرقى ، إلى حد بعيد ، إلى مستوى مؤلف بلوتارخ ، إلا أننا نجد فيه عونا فى كل ما أغفل تاكيتوس ذكره .

ولعله من الأصوب أن نذكر هنا الكاتبين الإفريقيين فرونتو Fronto وأبوليوس Apuleius على الرغم من أنهما لا ينتسبان إلى العصر الفضى للأدب اللاتينى . والحقيقة أن فرونتو ، أشهر خطباء عصره ، كان هو مبدع « الأسلوب الجديد » (elocutio novella) الذى قدر له أن يطغى على أدب العصر الفضى والذى كان فى حد ذاته مزيجا غريباً من الأسلوب القديم الدارس والأسلوب السامى وقد تم اكتشاف الرسائل التى تبادلها مع تلميذه ماركوس أوريليوس فى سنة ١٨١٥ . غير أن الأسلوب الجديد يظهر فى أرق صورة أدبية له وأجملها فى مؤلف أبوليوس (ولد سنة ١٢٣) الذى يحمل عنوان « الميتامورفوسيس » Metamorphoses أو عنوان « الحمار الذهبى » . وهذه هى القصة اللاتينية المطولة الوحيدة التى وصلتنا كاملة وهى تحوى الأقصوصة الشعبية القديمة الوحيدة التى تدور حول كيوبيد وبسوخى Psche . وتعتبر هذه القصة التى تصور مغامرة شخص يدعى لوكيوس بعد أن قلب إلى جحش ، نوعا من الأدب الرمزى إذ تلمح فى ذلك إلى أسرار الإلهة إيزيس وإنها فى أسلوبها ومضمونها إنما تمثل مؤلفا من أعظم المؤلفات طرافة فى اللغة اللاتينية . كما أن هناك ترجمة رائعة حديثة لها .

وقد أدى الرخاء الاقتصادى الذى عم الولايات الشرقية خلال القرن الأول كما أدى أيضاً فيما يبدو ما كان يكنه أباطرة من أمثال نيرون وهادريان من هوى وميل إلى الحضارة الهلينية إلى إحياء الأدب اليونانى . وترتبط حركة الإحياء هذه فى بعض نواحيها بمرحلة « السفسطائية الثانية » وهذا الاصطلاح يستخدم للدلالة على أوجه النشاط التى أصبح يمارسها نوع جديد من الخطباء والمحاضرين الجوالين . وقد نال هؤلاء الرجال ثراء كبيراً وصيتاً ذائعاً من وراء ظهورهم بين الجماهير ووقوفهم للخطابة والمحاضرة فى مدن الشرق العظمى ، بل ومدن إيطاليا والغال . ولعل علمهم كان سطحياً وربما لم يكونوا يحيطون بغير القشور من المعرفة غير أن بلاغتهم كانت عميقة الأثر فى النفوس . كما أن شخصياتهم العامة كانت قوية أخاذة ، اكتسبوها بعد طول دربة ومران . وكان هؤلاء بمثابة مزيج من المحاضرين فى الجامعات والمعلقين الصحفيين والشخصيات التى تظهر على شاشة التلفزيون فى العصر الحديث . كما كانوا يشبهونهم أيضاً فى قيامهم فى بعض الأحيان باستعراضات كلامية تأخذ بالألباب غير أنهم كانوا يتناولون فى أحيان أخرى قضايا خطيرة. وكثير من أشهر هؤلاء المحاضرين والخطباء المتجولين لا يمثلون لدينا سوى أسماء مجردة ولكن بوسعنا أن نحكم على عملهم استناداً إلى الخطب الثمانين التى بقيت لنا من ديو خريسوستوم Dio Chrysostom (من عام ٤٠ إلى نحو عام ١١٢) والخمسة والخمسين خطبة لأيليوس أرستيديس Aelius Aristides (وحاضر فى روما سنة ١٥٦ . ومن الخطب الشهيرة الخطبة التى ألقاها ديو فى حضرة تراجان والتى دارت حول النظام الملكى وكذلك تقريظ أرستيديس لروما . أما فيما عدا هاتين الخطبتين اللتين حظيتا بالاهتمام فإن هذه الطائفة من المؤلفين لم تلق غير الإهمال على الرغم من أن مؤلفاتهم تعد مصدراً ثميناً من المصادر التى تصور حياة العالم اليونانى فى عصرهم . وقد وجد هؤلاء السفسطائيون أن لهجة كوينى Koine العامية أى اللهجة اليونانية السائدة فى الولايات الشرقية

لا تتلاءم أغراضهم مما أدى إلى إحياء اللهجة الآتيكية فى ميدانى الخطابة والأدب .

وهذه اللهجة الآتيكية إنما تظهر فى أبرع صورة لها فى مؤلفات لوكيان من ساموساتا فى سورية (وولد حوالى عام ١٢٠) وكان من أشد الكتاب الفكاهيين نجاحا فى العالم القديم . وكان لوكيان سفسطائيا فى مرحلة بعينها من مراحل حياته ولكنه اشتغل بعد ذلك بالفلسفة وكتب المحاورات الساخرة Dialogues التى تقوم عليها شهرته . وتبين « محاورة الموتى » والرحلة إلى القمر التى وردت فى مقطوعة بعنوان « التاريخ الحقيقى » على أسلوبه فى مهاجمة النزق والرذيلة عن طريق السخرية بهما .

أما بلوتارخ من خيرونيا (من حوالى عام ٤٦ إلى عام ١٢٠) فإنه قد اتبع الأسلوب المخالف لذلك وهو أن يزين للفضيلة ويقربها من الألباب . وكان كاتبا غزير الإنتاج غير أن كتابا واحدا من بين كتبه هو الذى خلف تأثيراً كبيراً وهو الكتاب الطيب الذى يحمل عنوان « سير متماثلة لإغريق ورومان » وقد كان مؤلفه عن السير المتماثلة ، شأن كتاب « سير عظماء الرجال فى كبرى أمم العالم » من الكتب التاريخية المفضلة للقراء فى أوربا إبان عصر النهضة . وقد وجد الأمراء فى هذه السير نفعا كبيراً باعتبارها هاديا ومرشداً لهم فى سلوكهم كما حالف هذه السير التوفيق بأن وقع لها مترجمون مهرة مثل أميوت Amyot فى فرنسا ونورث North فى انجلترا . ومما يذكر أن شكسبير قد استمد فكرته عن العالم الرومانى من ترجمة نورث لبلوتارخ بصفة رئيسية . وثمة مؤرخان قديران قد كتبا عن روما وهما المؤرخ آبيان Appian فى عهد أنطونينوس ، وديوكاسيوس Dio Cassius فى عهد الاسكندر سيفيروس . وكتب آريان (وسطع نجمه حوالى عام ١٤٠) وهو يونانى من بيثينيا غير أنه كان حاكما لإحدى الولايات الرومانية وقائداً قديراً ، تاريخا للاسكندر الأكبر يعد أوثق وأصدق تاريخ بين أيدينا .

ولم يحرز الرومان أى تقدم علمى فى عهد الإمبراطورية غير أن جهودا مثابرة عظيمة قد كرست لأعمال التجميع والتصنيف والحقيقة أن هذا الجد والمثابرة هو أعظم فضيلة يتحلى بها مؤلف « التاريخ الطبيعى » الذى وضعه بلينى الأكبر . وقد أطلق على هذا المؤلف « مختصر جميع أخطاء العالم القديم » وهى التسمية التى اكتسبها مؤلفه بالنظر إلى ذيوعه الكبير خلال العصور الوسطى . وثمة خطأ جسيم واحد هو الذى شاب مؤلف الفلكى الإسكندرى العظيم بطليموس (حوالى ١٥٠) الذى كان معروفاً فى العصور الوسطى تحت عنوانه العربى « المجسطى » والذى روج للنظرية القائلة بأن الأرض هى مركز الكون حتى أطاح بها كوبرنيكوس . كما كان لجغرافية بطليموس — سواء من ناحية مميزاتها أو أخطائها أثر كبير على عظماء المكتشفين فى عصر الاكتشافات الجغرافية . ومن شأن الكاتب حين يصبح عمدة فى موضوع بعينه أن يتحول إن آجلا أو عاجلا إلى عقبة تعرقل طريق المعرفة، غير أن من الواجب أن نعترف بفضل بطليموس علينا من أجل هذا المؤلف الثمين ويصدق هذا القول على كل من كلسوس Celsus وغالين Galen فى الطب وديوسكوروديس Dioscorides فى علم النبات .

ولم تأت الفلسفة بجديد ، فإن مدارسها فى كل من أثينا والإسكندرية وغيرهما من مراكز العلم كانت تجتذب إليها الطلاب والدارسين وتشرح لهم المذاهب القديمة التى تلقتها هى عن السلف . وكان الكلبيون يدعون إلى القيم الخلقية السائدة فيما سموه « فلسفة الفقراء » وذلك فى الأسواق وفى ميادين المدن اليونانية . وكان المذهب الكلبى بمثابة جناح يسارى للمذهب الرواقى ، وكان له تأثير كبير على كثير من الرواقيين فى ذلك العصر مثل ابيكتيتوس Epictetus . وفى روما لم يكن غير المذهب الكلبى هو الذى يحتل مكانة ذات بال فى أوائل عصر الإمبراطورية . وكانت الصلة الوثيقة بين المذهب الرواقى وحزب المعارضة فى مجلس الشيوخ الرومانى فى القرن الأول هو التزام تقاليد بروتوس وكاتو . غير أن ذلك لا يقضى بالضرورة

بوجود تحالف بين المذهب الرواقي والمعارضة . وفيما بعد عهد دوميتيان أخذت الرواقية جانب الدعوة إلى استقرار النظم الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، وهو مايعرف بالإنجليزية باسم Establishment . وقد كانت الرواقية هي التي وضعت الأفكار الخاصة بالنظام الملكي والتي استوحاها كل من تراجان وهادريان والتي أقامت أحد الرواقيين على عرش الإمبراطورية ، يتمثل في شخص ماركوس أوريليوس . وتتمثل المؤلفات الرواقية الضخمة لنـــا في كتابات سينيكا وموسونيوس روفوس Musonius Rufus وفي كتيب ابيكتيتوس ، وفي مؤلف ماركوس أوريليوس بعنوان « تأملات » . أما ابيكتيتوس فهو أقربهم جميعاً إلى إثارة فضولنا وتشوفنا . وكان ابيكتيتوس قد أقام بعد أن كان عبداً فيما سبق ، طرده دوميتيان من روما ، مدرسة في نيكوبوليس Nicopolis اجتذبت إليها الباحثون من جميع الطبقات . وكان يقوم بتلقين مبادئ خلقية صارمة تثير الحمية في النفوس وتهيء البشر لمواجهة أي موقف من المواقف بالإيمان والثقة بالعناية الإلهية . ووجود الله كان يتأكد بالنسبة للرواقيين عن طريق العقل وهو أهم جزء في الإنسان . أما آخر المدارس الكبيرة من مدارس الفلسفة التقليدية ، ألا وهي المدرسة الأفلاطونية الجديدة ، فقد قامت على أساس من الجانب الصوفي الكامن في أفكار أفلاطون وكان داعية هذه المدرسة الأول هو أفلوطين Plotinus (٢٠٥ — ٢٧٠) الذي كان يقوم بالتدريس في روما في عهد جالينوس . ويعد مؤلفه الذي يحمل عنوان « طوائف الآلهة » Enneads من بين كتب التصوف العظمى .

وقد نادى بسمو الله واستعلائه وبأنه هو العقل الخالص الذي لا يمكن أن يدركه غير العقل وحده فيقول : « لنمتد بعقولنا إليه سبحانه في صلاتنا لأن هذا هو السبيل الوحيد الذي نستطيع به أن نرفع صلاتنا إليه وحده الإله الأوحد » . ولا يتيسر هذا الامتداد بالعقل إلا عن طريق الرياضة الروحية التي يمارسها الناسك الذي تتمثل جائزته الكبرى في « رؤيا النعيم » ،

التى نالها أفلوطين ثلاث مرات فى حياته . وقد حظيت الأفلاطونية بكثير من الأتباع فى القرنين الثالث والرابع كما أن فنون العصر تصوره «الفيلسوف» عادة وقد رفع بصره إلى السماء فى تأمل واستغراق . لقد أصبح الفيلسوف معلما دينيا .

ولقد كان من الطبيعى أن تنتهى الفلسفة بالدين فى عصر كان الدين فيه يستأثر شيئاً فشيئاً بالكثير من عقول البشر وطاقاتهم . ويقوم عدد هائل من النقوش التى عثر عليها فى كافة أنحاء العالم الرومانى شاهداً على آلاف العبادات والعقائد التى ازدهرت فى ظل ديانة تؤمن بتعدد الآلهة وتطرق سبيل اليسر والتسامح . فلم تختف الآلهة الوطنية التى كانت تؤمن بها الشعوب الكلتية والجرمانية والإسبانية ، فقد اكتسبت هذه الآلهة كما اكتسبت عبدتها الطابع الرومانى بصورة أو بأخرى ، كما كان لها أيضاً تحت قناعها الجديد أن تجتذب فى كثير من الأحيان العبدة الرومانيين الذين كانوا يعادلون بينها وبين الآلهة المعروفة بالفعل . وهكذا قام مذهب التوفيق بين العقائد المختلفة المعروف باسم « سونكريتزم » Syncretism وهو يعد من أبرز الظواهر الدينية للإمبراطورية فى عهدها الأول . وقد يتخذ هذا المذهب صورة زواج إلهى كأن تقترن الآلهة الكلتية روزمرتا Rosmerta إلهة التجارة بنظيرها الرومانى الإله ميركورى Mercury . وقد يتخذ فى أحيان أخرى الإله المحلى اسماً رومانياً كما كان يفعل العدد العديد من عبدته . وهكذا فقد كان الإله مارس بيلاتوكادر Mars Belatucader وهو يمثل اندماجاً بين إله الحرب الرومانى ومثيله الكلتى تقام له شعائر العبادة فى منطقة صغيرة محدودة بالقرب من سور هادريان . أما عن المدى الكبير الذى يمكن أن تبلغه هذه الحركة القائمة على إدماج العقائد المختلفة فذلك ما يؤكده مثال آخر من بريطانيا . ففى مدينة ليدنى وفوق تل منخفض يطل على نهر سيفرن أقيم معبد لمعبود كان يعرف فى اللغة الكلتية باسم نودنس Nodens وهذا الاسم يبدو من الناحية اللفظية قريباً من اسم أحد آلهة البحر

الأيرلنديين . وليس هذا بغريب لأن تيار نهر سيفرن الجارف الذى يمرق بجانب مدينة ليدنى يمكن له أن يكون إلهاً عظيم القوة والسلطان . غير أن الرومان قد وحدوا بينه وبين إله الغابات سلفانوس . وليس فى ذلك ما يدعو إلى الغرابة ايضاً فهو من هذه الوجهة سيكون إله الصيد فى غابة « دين » Dean ، ومع ذلك فإن أعمال التنقيب الذى أجراها السير موتمر هويلر Mortimer Wheeler فى المبانى القائمة فى نطاق المعبد تدل على وجود عقيدة تختص بعلاج الأمراض لها جوانب مثل العلاج بطريق « النوم فى المعبد » وهو ما يظهر أيضاً فى عبادة اسكولابيوس فى مدينة إيبيداوروس. وليس هذا هو كل ما فى الأمر ، فإن تصميم أرضية المعبد يشبه إلى حد بعيد تصميم أرضية الكنائس فى عهد المسيحية الأول ، ولو أن القرائن التاريخية تشير إلى تاريخ إحياء الديانة الوثنية فى عهد جوليان . وهكذا امتزجت المظاهر الدينية الكلتية والرومانية واليونانية فى عبادة نودنس وسيلفانوس .

غير أن مثل هذه العبادات لم تكن تحظى بغير أهمية محلية كما كانت وظائفها محدودة . كما أنها — بقدر ما نعلم — لا تستطيع أن تمنح العابد قدراً كبيراً من الحياة الدينية . والمظهر الهام حقيقة للقرنين الأول والثانى هو انتشار الديانات الشرقية العظيمة التى تستأثر بإعجاب كثير من أقطار العالم . ولقد أوضحنا بالفعل كيف وفدت عبادات كيبيلى Cybele وباخوس Bacchus وإيزيس إلى روما فى أواخر عهد الإمبراطورية ، وكيف أنها اصطدمت فى بعض الأحيان بعداء الحكومة . أما فى ظل الإمبراطورية فلم يعد لهذا العداء وجود . فقد شجع كاليجيولا على عبادة المعبودين المصريين إيزيس وسيرابيس كما ضمهما إلى قائمة عبادات الدولة . وهذا ما فعله أيضاً الإمبراطور كلوديوس بالنسبة للإلهة كيبيلى التى لم يعد كهنتها محصورين فحسب فى المعبد المقام على جبل بالاتين . وكانت تتميز كلتا العبادتين بالطقوس المعقدة البالغة الفخامة والأبهة . وكانت تقام فى معابد إيزيس

طقوس يومية ، كما تقام الاحتفالات الكبيرة ذات الطقوس البالغة الروعة في مواسم معينة من السنة . ويصف لنا أبوليوس عيد سفينة إيزيس Navigium Isidis في الخامس من شهر مارس حيث يلبس المحتفلون الأقنعة ويسيرون في مواكب رائعة وحيث تنزل إلى الماء السفينة المقدسة. ويقال في بعض الأحيان إن هذا العيد هو الأصل الذى نشأت عنه الاحتفالات التنكرية في مدن البحر المتوسط .

وفي شهر نوفمبر كان يجرى احتفال « العثور على أزوريس » مع ما يصاحبه من مشاهد درامية مقدسة تمثل الموت والبعث . وكان هناك احتفال آتيس Attis الربيعى ، وهو أعظم الاحتفالات في عبادة كيبيلى. ويستغرق هذا الاحتفال اثنى عشر يوما (من ١٢ مارس إلى ٢٥ منه) ويختتم بنوبة من الطرب والمرح والقصف والعربدة في عيد هلاريا Hilaria (عيد البهجة) . ولقد كرس الباحث البلجيكى العظيم فرانتس كيومنت Franz Cumont حياته كلها لإبراز أهمية هذه الديانات الشرقية جميعها التى كانت طلائع للديانة المسيحية . وليس بوسعنا هنا إلا أن نورد وصفا كاملا بعض الشيء لأهم هذه الأعياد قاطبة ألا وهو عيد ميثراس Mithras . .

وقد انتشرت عبادة ميثراس في العالم الرومانى خلال النصف الثانى من القرن الأول الميلادى . وقد أتت من بلاد فارس حيث كانت معروفة منذ أقدم العصور كما حملها العبيد الشرقيون إلى موانى البحر الأبيض العظمى كما حملها الجنود الرومان الى جميع أقطار الإمبراطورية حيث كانت قوية النفوذ بين حاميات الراين والدانوب بوجه خاص . ومما يستلفت النظر ، انعدام هذه العبادة في العالم اليونانى . والإله ميثراس في صورته الفارسية هو إله النور والوسيط بين الإله الأعلى للكون والإنسانية ، وثمة ملحمة إلهية تحكى قصة حياته في هذه الدنيا . وقد اكتشف الرعاة ميلاده العجيب من علامات الصخور ، وأحضروا إليه الهدايا . وقد قام وهو ما زال شابا يافعا بسلسلة من الأعمال البطولية الفذة التى بلغت ذروتها في ذبحه للثور

الالهى الذى انبثقت عن دمائه جميع النباتات وسلالات الحيوان النافعة للإنسان ، وما إن ارتفع إلى السماء حتى أولى رعايته لأرواح المؤمنين من أشياعه .

وقد فقدت الكتابات المقدسة الخاصة بالإله ميثراس . ولكننا على علم ببعض ما كان يجرى فى الاحتفالات ، والمراسيم التى كانت تقام له . فقد كانت هناك سبع درجات للمعتنقين لديانته تحمل أسماء الغراب ، والمستور ، والجندى ، والأسد ، والفارسى ، وعداء الشمس ، والأب . وكانت المراسيم المعقدة تميز حفلات التدشين التى يجرى فيها رفع المؤمن من طبقة إلى أخرى . ومن المحتمل أن الدرجات الأربع الأخيرة هى التى يستطيع فيها العضو الجديد أن يشهد الأسرار المقدسة ، ولا بد أن المراسيم التى تختص بميثراس ، والتى كانت تقام فى كهف تحت الأرض ، أو فى معبد يضاء بنور باهر ، ويجتمع فيه الأعضاء من مختلف الرتب ، وهم يلبسون أقنعتهم ، وأزياءهم المميزة ، من المشاهد التى تترك أعظم الأثر فى النفوس. وكانت هناك أسرار العماد ، وتثبيت العماد والتناول . وكانت المعابد ملكا لجماعات المصلين التى كانت فى العادة صغيرة ، لا تزيد فيما يرجح على مائة شخص . وعندما كان عددهم يتجاوز هذا الحد ، تنشأ جماعة جديدة . وكانت النساء مبعدات عن هذه العقيدة . أما معابد ميثراس فكانت تشبه إلى حد بعيد الكنائس المسيحية الأولى التى كانت تجرى على النمط البازيليكى الرومانى ، أى أنها كانت مبانى مستطيلة الشكل ، تتوسطها قاعة تصطف على جانبيها الأعمدة التى تفصلها عن ممرين جانبيين ، ثم الهيكل ، وقبو تحفظ فيه النصب المقدسة . وكانت هذه المعابد تقام تحت الأرض ، فى كثير من الأحيان، تخليداً لذكرى الفترة التى كانت عبادة ميثراس تجرى فيها فى المغاور والكهوف . كما كان هناك فن مقدس معقد أيضاً ، أبرز معالمه هو تصوير ميثراس وهو يقتل الثور المقدس بصحبه رفيقاه الإلهيان كوتيس Cautes وكوتوباتيس Cautopates . ويكون هؤلاء جميعاً ثالوثاً من الآلهة . ولعل هذان المساعدان اللذان يحملان المشاعل يمثلان

الشمس فى الفجر وعند الغروب فى حين أن ميثراس نفسه هو الشمس فى أوجها .

وكان من الطبيعى أن يناصر الأباطرة المقاتلون العظماء الذين ظهروا فى القرن الثالث ، هذا الإله الذى يحظى بشعبية كبيرة بين الجنود : كما رأينا كيف أن جيوش أوريليان ودقلديانوس حاربت ، تحت شعار إله الشمس التى لا تقهر . كانت هـــذه الفترة هى ذروة ازدهار هذه العبادة ، بيد أن المسيحية كانت تنظر إليها دائماً نظرة عداء ، لا هوادة فيه ، والسبب فى ذلك فيما يبدو هو وجود بعض أوجه التشابه الواضحة بين العقيدتين استغله أعداء المسيحية استغلالا عاد بأشد الأضرار . وعلى أثر انتصار المسيحية فى القرن الرابع ، انحدرت العقيدة الميثراوية إلى الكهوف وإلى المغاور ، بالمعنى الحرفى ، فى بعض الحالات مثلما هو الحال مع معبد ميثراس الذى يقع تحت كنيسة القديس كليمنت فى روما . ولكن بعض سماتها ومظاهرها عادت إلى الظهور من جديد فى بدعة مانيخيوس ، وما تلاها من بدع فى العصور الوسطى .

وينبغى أن يقتصر اهتمامنا هنا بالمسيحية على ما كان لها من أثر على تاريخ الإمبراطورية الرومانية وحضارتها . أما أن نتناول فى تفصيل ، وفى إسهاب ، حياة السيد المسيح ، وذيوع التبشير بالمسيحية ، وعلاقة المسيحية باليهودية ، وقوانين المسيحية ، وسننها ، وتنظيم الكنيسة المسيحية ، وظهور البدع ، والهرطقة ، والخلافات اللاهوتية الكبرى فذلك ما يخرج بنا عن موضوعنا .

وتبدو المسيحية ، فى نظر المؤرخ الإمبراطورية الرومانية ، على أنها آخر الديانات العالمية وأعظمها ، وقد قدمت شأنها فى ذلك ، شأن الديانات السابقة عليها ، عن طريق الطقوس ، والأسرار ، ضرباً من

التجارب الروحية الفردية ، كما دعت إلى وجود حياة بعد الموت ، وإلى الخلاص عن طريق منقذ إلهى . ومثل هذه الأفكار كانت شائعة معروفة بالفعل فى العالم اليونانى الرومانى . ومن هذه الوجهة ، لم تظهر المسيحية فى ثوب غريب غير معهود ، غير أنها كانت فى واقع الأمر جديدة تثير الدهشة والعجب فى ناحيتين معينتين . فالحياة بعد الموت كما هو فى المفهوم المسيحى ليست قاصرة على معتنق الديانة المسيحية فحسب، بل هى للإنسانية جمعاء ، وقد نالها لهم « مخلص إلهى » يمثل علاوة على ذلك شخصية تاريخية . فيسوع الناصرى ، الذى انحدر عن أبوين فقيرين ، فى عهد الإمبراطور أوغسطس قام بالدعوة إلى ديانته ، قرابة ثلاث سنوات فى الجليل ، وأورشليم . وقضى حياته كلها فى فلسطين ، وعلم باللغة الآرامية . كما لا يمكن فهم عمله إلا فى ضوء الديانة اليهودية . وكان تعليمه ، هو تعليم « النبى » على النحو الذى ترسم به التقاليد اليهودية أنبياءها . ولعله من الطريف أن نقارن بين عظة الجبل وإحدى محاورات سقراط . فعظة الجبل إنما هى كشف للحقيقة على لسان إنسان ذى بصيرة روحية سامية ، فهو يقول . « الحق ، الحق أقول لكم » . واستطاع المسيح أن يحصل على استجابة سامعيه عن طريق ضرب الأمثال . وكان يستمدها من مجريات الحياة اليومية ليستشهد بها على تعاليمه . وكان سقراط يدخل فى محاورة مع واحد أو أكثر من الرفقاء . ولما كان سقراط يتمتع بقوة ذهنية فائقة فقد كان يحملهم على تتبع حججه ومناقشاته حتى يصل بهم إلى النتيجة التى يريدها ، كما كان السيد المسيح نفسه يحترم التعاليم اليهودية القديمة ، « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » .

وكان الكثيرون من أبناء وطنه ، على استعداد لأن يروا فيه مسيح الله الذى طال انتظاره وترقبه . غير أن الأفكار التى دعى إليها لم تكن تصادف هوى فى نفوس كهنة أورشليم الرسميين . واستطاعوا أن يحصلوا على حكم

بإعدامه ، وذلك بطريق الصلب ، باعتباره مجرماً عادياً ، وذلك فى عهد تيبيريوس (٣٠ ميلادية) هذه هى الحقائق التاريخية الصرفة عن حياة يسوع ، ولكن المسيحيين يقررون أن هناك حقائق أخرى ، تفوق هذه الحقائق وتتجاوز نطاقها المحدود ، فهو ابن الله ، وهو علاوة على ذلك وبعد الصلب . . . « قام فى اليوم الثالث من بين الأموات » .

وحياة وتعاليم المسيح ، وقيامته وما تنطوى عليها من معان ، تؤلف العقيدة المسيحية ، كما دعا إليها الحواريون . وقد بدا التعليم بالإنجيل فى أورشليم بعد خمسين يوما من القيامة . وبعد ثلاثين سنة من النشاط الجدى الذى قام به أول الرسل المسيحيين — وعلى رأسهم بطرس الرسول وبولس الرسول — أرسيت دعائم المجتمعات المسيحية فى المدن الرئيسية بكل من أسيا وسوريا واليونان ومقدونيا وفى الإسكندرية وروما أيضا . وقد علموا وكتبوا باللهجة الكونية Koine. وفى عهد نيرون اصطدمت المسيحية بسلطات الإمبراطورية واستشهد بطرس وبولس فى روما وأصبحت المسيحية ذاتها ديانة غير مشروعة ((religio non licita)) ولم تتخلص المسيحية من هذا الوضع حتى صدور مرسوم ميلانو فى عام ٣١٣ .

وكانت المسيحية فى ظل هذه الأحوال عرضة للاضطهادات . وقدسبق أن تعرضنا لأبرز هذه الاضطهادات فى فصل سابق ولكنه حين يبدو من المنطق أن يحصى التاريخ المسيحى حالات الاستشهاد بوجه خاص فإن المؤرخ لايستلفت نظره ذلك بقدر مايدهش لانتشار المسيحية إلى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية ، بل تخطيها أيضا للحدود الرومانية فى واقع الأمر ، وذلك عن طريق تنظيم الهيئة الكهنوتية وظهور كنيسة عالمية قوية الدعائم . وإن هاتين السمتين الأخيرتين هما اللتان تميزان بوجه خاص وضع الكنيسة فى القرنين الثانى والثالث عن المسيحية فى عهدها الأول ، فقد تقررت الرتب الكهنوتية الخاصة بالشماس والكاهن فى المجمع اليهودى

ولعل ذلك هو أصل الرتبتين . غير أن وظيفة الأسقف الذى يحكم أبروشيته التى كانت تتألف (فى الشرق على الأقل) من مدينة بعينها والأراضى المحيطة بها ، استمدت كما هو واضح من النظم الرومانية . أما المرحلة التالية — وهى مرحلة طويلة الأجل لم تنته حتى مضى جانب كبير من القرن الرابع — فكانت تقوم على تجميع الأبروشيات وظهور كبير الأساقفة ثم الصراع الطويل بين الأساقفة الكبار فى العواصم من أجل احتلال مركز الصدارة ، وهو الصراع الذى انتهى بسيادة روما فى الغرب والقسطنطينية فى الشرق .

وفى المراحل الأولى كان ظهور كنائس تحمل خصائص وطنية أو محلية مرده اختلاف الثقافات فى أنحاء الإمبراطورية ، وعلى ذلك فقد كانت هناك مسيحية فلسطينية وهى التى ضمت المسيحية اليهودية الأولى التى انحدرت عن دعوة المسيح وإن انطوت أيضا على مؤثرات وراثية سابقة نجمت عن الحروب اليهودية . وكانت هناك الكنائس الأجنبية البحت مثل تلك التى قامت فى مستعمرة هادريان الجديدة المسماه أليا كابيتولينا والتى بنيت فى موقع مدينة أورشليم المخربة . وكانت هناك مسيحية سورية تعلم بكل من اللغتين السريانية واليونانية ، ومقرها الرئيسى مدينة انطاكية . وكانت هناك مسيحية أسيوية ترأسها الكنائس السبع المكرمة وفى فريجيا وكبدوكية ظهر شكل مميز من أشكال المسيحية يتسم بنزعة التقشف والتعصب البادية على « النبوءة الجديدة » التى ابتدعها مونتانوس Montanus وهو أحد كهنة كيبيلى السابقين . وكانت تقوم ببلاد اليونان كنائس أثيناوكورنثة الشهيرة كما كانت هناك مسيحية مصرية اشتهرت بالباحثين الذين ظهروا فى الاسكندرية وبأنها كانت منبع نظام الرهبنة التى ظهر فى القرن الرابع . وأخيرا فقد كانت هناك مسيحية الغرب بمركزيها العظيمين فى روما ، مدينة الرسل وأفريقية . وأصبحت اللغة اللاتينية منذ قرابة سنة ١٥٠ لغة الكنيسة الغربية وأخرجت أفريقية أول أدب مسيحى ظهر باللغة اللاتينية .

وقد استمالت المسيحية الأولى بصفة رئيسية وإن لم تكن بصفة كلية فقراء المدن الكبرى . ولم يكن المسيحيون الأوائل يبالون بالثقافة القديمة بالنظر إلى أنهم كانوا بسطاء أميين ، إذ بدت لهم عديمة القيمة هينة الشأن لإيمانهم بقرب مجيء المسيح ثانية، غير أنه بحلول القرن الثانى بدأت المعتقدات الغيبية تذوى وتضمحل شيئا فشيئا ، فقد أصبح جمهور المؤمنين يضم جميع الطبقات الاجتماعية ومختلف الوظائف بما فى ذلك — كما قبل — أفراد الأسرة الإمبراطورية . وبدأت المسيحية تشعر بالحاجة إلى أن تفسر نفسها لعالم وثنى قدر لها ، كما كان واضحاً جليا ، أن تتعايش معه ، وبخاصة ذلك الفريق الذى تشرب بالتقاليد القديمة وتثقف بها ، ذلك لأن الثقافة القديمة واجهتها باعتبارها تقليداً تعليميا أولا وقبل كل شيء . لقد كانت «الدعوة» من الأساليب الرئيسية التى كانت المسيحية تنمى جمهور معتنقيها بوساطتها. وكان اعتناق الدين الجديد مسألة فردية . وكان معنى هذه الدعوة أو الهداية سواء تمت بطريق الوعظ أو ضرب المثل أو بالمحاجاة أو بالتجربة الصوفية، أن فرداً تثقف بالثقافة الكلاسيكية القائمة على البلاغة والأدب والفلسفة ينبغى أن تسعى العقيدة المسيحية إلى كسبه ، ثم الاحتفاظ به فى حظيرتها . فإذا كان العالم الوثنى عدواً لها فهو من ذلك الصنف من الأعداء الذى يتحتم أن يحارب فى هذا الميدان بأسلحته هو . ولم يكن مصدر الخطر هو الفكر الوثنى وحده ، فالهرطقة داخل الجماعة المسيحية نفسها كانت أشد هولا وأعظم خطراً ، إذا ما قدر لها أن تتزود بمنطق اليونانيين وفلسفتهم كما كان الحال مع ماركيون Marcion وفالنتينوس Valentinus اللذين ينتسبان إلى مذهب الأدرية . ولقد وصفت الأدرية بأنها الغول المتعدد الرءوس الذى ظهر للفكر الدينى والفلسفى فى القرنين الثانى والثالث . وجميع ألوان هذا المذهب العديدة تستمد أصولها من الفكر الأفلاطونى والرواقى ، وبخاصة الفكرة القائلة بوجود صلة بين الكلمة الإلهية

« لوجوس » Logos وذهن العارف الذى يستطيع بها التوصل إلى الحكمة السرية الخفية (gnosis) .

ورغبة فى مواجهة هذا الموقف ذاته ، أخرج الكتاب المسيحيون فى فى القرن الثانى أعمالهم ، الاحتجاجية ، وأبحاثهم العلمية . وكان الغرض من مؤلفات الاحتجاج هو شرح قضية الديانة المسيحية بالصورة التى يمكن للوثنى المثقف أن يفهمها بها . وقد خاطب جوستين Justin وأرستيديس Aristides الإمبراطور ذاته ناحين عليه باللوم . أما « احتجاج » ترتوليان Tertullian فقد كان موجها لحكام الولايات الرومانية ، أما فى مجال العلم والبحث ، فقد احتلت مركز الصدارة المدرسة المسيحية غير الرسمية فى الاسكندرية التى كان من أعظم أسمائها كليمنت (ولد قرابة سنة ١٥٠ م) . وأوريجن (١٨٥ — ٢٥٥ م) .

وقامت الأبحاث حول دراسة نص الكتاب المقدس وتفسيره وتخصصت المدرسة فى تقديم التوجيهات والنصائح للمهتدين. ويصور كليمنت فى كتابه بعنوان « المقتنعون » Protreptikes المسيحية على أنها الفلسفة الحقة ، حيث أنها تستوعب ، وتتفوق على كل ما تأتى لليونانيين من قبل .

ويمكن أن نطلق على كليمنت وأوريجن بالنظر إلى أساليبهما فى العمل وحياتهم خارج معاهدهم ، كما يصدق هذا على أمثالهما ، بأنهما سفسطائيان مسيحيان . أما الكاتبان الإفريقيان ترتوليان (حوالى ١٦٠ — ٢٢٥ م) وكيبريان Cyprian (حوالى ٢٠٠ — ٢٥٨ م) فإنهما لم يتأثرا بالفلسفة اليونانية، بل استوحيا عملهما من القانون والخطابة الرومانية . وقد استشهد كيبريان ، أسقف قرطاجة ، خلال اضطهادات الإمبراطور ديكيوس . وتعد الكنيسة المستطيلة العظيمة التى أقيمت لذكراه واحدة من أروع الآثار الأربعة المسيحية فى إفريقية . وإن كل ما كتبه ترتوليان ليفصح عن

خبرته فى ميدان المحاماة بل إن « احتجاجه » يقوم على المبدأ القائل بأن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم ، كما أن اعماله الجدلية يسودها الحقد المرير والرغبة فى الانتقام وهما نزعتان كثيراً ما شوهت المجادلات والمناقشات المسيحية . غير أن لهجة مخالفة لذلك كل المخالفة تسود مؤلفات لاكتانتيوس Lactantius (حوالى ٢٥٠ — ٣١٧) . واعتقاداً منه أن جدب الأدب المسيحى وافتقاره إلى طلاوة الأسلوب إنما يقومان عقبة فى سبيل الوثنيين المثقفين ، فقد خاطب هذه الطبقة فى كتابه بعنوان «النظم الإلهية» بأسلوب شيشيرون اللاتينى وأغرق كتابه فى لجة من الأدب اللاتينى .

وشهد القرن الرابع حركة بعث جزئية للأدب الوثنى . ولقد سبق أن ذكرنا المؤرخ آميانوس ماركيلينوس (ولد سنة ٣٣٠) . وكان هذا الكاتب اليونانى المنحدر عن إنطاكية والذى تعلم اللاتينية فى وقت متأخر من حياته، قد أخذ على نفسه أن يواصل العمل فى التاريخ الذى بدأه تاكيتوس ، وأصاب فى ذلك قسطا مذهلا من النجاح . وتوحى الكتب التى آلت إلينا والتى تعالج عهد فالينتينيان بصفة رئيسية بأن كتب آميانوس التى فقدناها جديرة بالاقتناء أيضاً . أما أوسونيوس Ausonius (توفى سنة ٣٩٥) الذى كان يقوم بالتدريس فى تولوس وبوردو ، فقد كان شاعرا غزير الإنتاج وإن كان متفاوت الإجادة .

وعلى الرغم من أن كتابه بعنوان «فى ذكرى أساتذة بوردو» قد يثير اهتمام رجال التعليم إلا أنه يصف فى حقيقة الأمر أشد الحجرات المشتركة للأساتذة كآبة على مر التاريخ . ولكن مؤلفه بعنوان « نظام المدن النبيلة » فإنه يكشف عن إحساس بالأماكن المختلفة . ومثل هذه الصفة بالإضافة إلى بصيرته بجمال الطبيعة تحيلان قصيدته بعنوان «موسيلا » Mosella قصيدة ممتعة حقاً . ويقال فى كثير من الأحيان إنها القصيدة الأولى فى الأدب الفرنسى . أما كاوديان (وسطع نجمه فيما بين عامى ٣٩٥ و ٤٠٤) فهو يمثل

شخصية كبرى على الرغم من أن النقش الرسمى الذى كتب على شاهد قبره ويوجد الآن فى متحف نابولى) يرفع من شخصه درجات أخرى إذ أنه يضعه فى مصاف هومر وفرجيل فى شىء من المغالاة . ومع ذلك فإن قصيدته بعنوان « اغتصاب بروزربين» تعد من أروع القصائد الأسطورية فى اللغة اللاتينية كما أن قصيدة « قنصلية استيليكو » تعالج موضوعا تاريخيا هاماً على نمط لوكان . وفى النهاية هناك قصيدة Pervigilium Veneris إذ أنها تنسب فيما يرجع إلى هذا العصر . وهى قصيدة فريدة فى اللغة اللاتينية لروعتها التى تثير الخيال وموسيقاها وإيقاعها الجميل وتعالج هذه القصيدة احتفال الربيع للإلهة فينوس فى صقلية ، وحسب المرء أن يقال إن هذه القصيدة تشبه لوحة الربيع Primavera للرسام بوتيشيلى .

ويمكن القول بوجه عام أن المسيحية قد اجتذبت صفوة المفكرين فى القرن الرابع . ولا يتضمن منهج هذا الكتاب مناقشة الخلافات اللاهوتية الكبرى التى شغلت أثناسيوس وآريوس ونظائرهما ، ولكنه من الجدير بالذكر أن العقول التى اصطرعت مع المبدأين اللذين يدقان عن الفهم ألا وهما التجسد والتثليث ، كانت عقولا مدربة على الفلسفة اليونانية . وكان هذا أيضاً حال العلماء الكبادوكيين الكبار وهم بازيل Basil وجريجورى من نيسا Gregory of Nyssa وجريجورى من نازيازين Gregory of Nazianzen الذين درسوا جميعاً البلاغة والفلسفة فى أثينا . واستغل الشاعر برودينتيوس Prudentius (ولد عام ٣٤٨) وهو أول شاعر مسيحى مرموق الوزن الغنائى فى الشعر اللاتينى كما أفاد من معرفته الواسعة بهوراس وفرجيل فى الموضوعات المسيحية التى تناولها . وإن الآباء اللاتين العظماء الثلاثة جيروم وأمبروز وأغسطين إنما يسيطرون على الفكر فى الغرب . وكان جيروم (٣٤٨ — ٤٢٠) على صلة بجميع التيارات الثقافية سواء القديمة أو الوثنية . وكان قد ولد فى دلماتيا Dalmatia وتعلم

فى روما ، وبدأ حياته الدينية أول الأمر فى تريفيز Treves أما دراساته اللاهوتية فقد شرع فيها وهو بإنطاكية ثم عاد إلى روما لينوط به البابا داماسوس مهمة مراجعة النص اللاتينى للأناجيل ، ثم توجه إلى مصر لتفقد حياة الرهبان . وفى النهاية (٣٨٩) أسس فى أورشليم البيت الدينى الذى أتم فيه بحثه العظيم ، فإن ترجمته المعروفة باسم فولجيت Vulgate للكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية ، لم تترك أثرها فحسب على اللغة اللاتينية المستخدمة فى الكنائس، بل أثرت أيضاً على الأدب الوطنى فى أوربا الغربية . كما يجب ألا يغيب عن الأذهان أن « تاريخه » Chronicle يعد من أفضل المراجع فيما يختص بتواريخ وسير الكتاب القدماء ونرى فى أمبروز (٣٣٧—٣٩٧) حاكما رومانياً عظيماً فى خدمة الكنيسة . فلقد كان حاكما لمدينة إيميليا Aemilia ولمدينة ليجوريا Liguria عندما عين أسقفا لميلانو التى كانت من أهم كراسى الأسقفية . وأصاب صيتا ذائعاً باعتباره أسقفا وواعظا وكاتباً وسياسياً وكاهنا محنكا . كما نظم أربعة أناشيد مسيحية تعد من أقدم الأناشيد وأروعها .

ويحسن بنا أن نختتم هذا العرض الموجز بأوغسطين (٣٥٤— ٤٣٠) . وبغض النظر عن أثره على الفكر المسيحى فإنه يحتل مثل فيرجيل مكاناً بالغ الأهمية فى التاريخ الثقافى الغربى بأكمله . فإنه لما كان فارها فى كل ناحية من نواحى الحياة الثقافية فى عصره ، فقد أحال كل ذلك فى مؤلفاته إلى لون جديد من التجربة كان نموذجا وفاتحا لعصر جديد . وكان قد تثقف بالثقافة اللاتينية المعروفة فى إفريقية (أما اليونانية فلم يكن يجيدها) كما أنه جنح فى فترة من حياته إلى مذهب مانيخايوس . وكان لمؤلف شيشيرون المعروف باسم «الشجاعة» Hortensius أن شده إلى الفلسفة ثم أصبح استاذاً للبلاغة فى روما أولا ثم فى ميلانو . ثم وقع تحت تأثير أمبروز . وفى سنة ٣٨٦ مر بتجربة التوبة التى وصفها وصفاً مؤثراً فى مؤلفه بعنوان « اعترافات » . فإنه لما كان

يتريض فى إحدى الحدائق ، وقد تحير فكره واختلط عليه ذهنه لأن دراسته للفلسفة اليونانية بدت له وكأنها قد أفضت به إلى غياهب حالكة الظلمة ، سمع صوت طفل يقول Tolle lege, tolle lege (خذ واقرأ) فأطاع هذا الفأل وفتح دون قصد رسائل بولس ووقع على النص الذى دفعه إلى اعتناق الديانة المسيحية (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٣ : ١٣ — ١٤) وعندما عاد إلى إفريقية انخرط فى سلك الكهنوت . وفى سنة ٣٩٥ أصبح أسقفا لهيبو Hippo التى باتت مسرح حياته العامة حتى مماته . ولم يظهر كاتب لاتينى آخر يفوقه سلاسة فى الأسلوب وغزارة فى المادة وأثرا على النفوس . ولعل كتاب « الاعترافات » بالإضافة إلى الكتاب المتأخر بعنوان « الإنكار » يعدان من أروع السير الذهنية والروحية التى كتبت بقلم أصحابها على مر التاريخ . ولكن أضخم مؤلفاته هو « مدينة الله » . وقد بدأ فى مؤلفه هذا فى عام ٤١٣ أى بعد مضى ثلاث سنوات على استيلاء الآريك على روما ، وقد بلغ عدد أجزائه اثنين وعشرين كتابا ، وكان ذلك بمثابة فلسفة مسيحية للتاريخ . وكان يهدف منه أن يوضح للمسيحيين كيف يمكنهم النظر إلى أعظم حدث دنيوى وقع فى ذلك العصر وهو انهيار سلطة روما فى الغرب . وفى معرض بحثه الذى يهاجم فيه ويدحض كل المبادىء التى بنى عليها التاريخ فى القديم ، ويناقض أيضاً القيم الخلقية التى استند إليها هذا التاريخ ، يقارن بين مدينة العالم ومدينة الله . إن مدن العالم كثيرة متعددة ولا ينبغى أن نمنحها ولاءنا . فهى جميعها مصيرها الزوال ، كما أن قيامها وسقوطها — حتى بالنسبة للإمبراطورية الرومانية — ليس لهما من معنى أو مغزى إلا فى نطاق خطة إلهية سامية . ولكن الإنسان ، لكونه إنساناً ، يعتبر مواطنا لمدينة الله . وعند انقضاء الدهر سوف تزول ممالك هذا العالم وبعد مجىء المسيح الثانى ويوم الدينونة ، ستقام مملكة السماء إلى الأبد وعبر التاريخ تهيب بنا أن نترقب العالم الآتى .

ولا ينبغى أن نظن أن المسيحيين كافة كانوا يقرون الاتصال بالثقافة

القديمة ، فقد تساءل ترتوليان قائلا : « وما شأن أورشليم بأثينا ؟ » . وكان هناك الكثيرون ممن هم على استعداد لأن يجيبوه قائلين : « لا شيء » . ولقد كانت الرهبنة الأولى ، بوجه خاص ، تنبذ الثقافة بالإضافة إلى كل ما ينتسب إلى العالم من متاع ، رغبة فى تحقيق القسط الأوفر من التقشف ، بل إن جيروم وأوغسطين كانا يحسان فى بعض الأحيان بالخطر الوشيك إزاء اجتذاب الثقافة القديمة لهما مع ما تحويه من أسباب الإغراء الشديد . وقد صاح جيروم مؤنبا نفسه قائلا : « إننى أتبع شيشيرون لا المسيح » . ويندد أوغسطين فى كتابه بعنوان « حول التعليم المسيحى » ، بدوره ، بكل الموضوعات التى يحويها المنهج الدراسى الوثنى . ولم يكن هناك مفر من أن يفضى الصراع بين الثقافتين إلى محن عصيبة . ولكن العمل المجيد الذى قام به الآباء اليونانيون واللاتين ، كما حاولنا أن نوضحه فى هذا العرض الموجز ، كان من شأنه إدماج المسيحية بالثقافة القديمة مما جعل فى مكنة المسيحية أن تنال قبولا عاما فى العالم الرومانى وأن تكتسب لها الحياة بعد سقوطه وانهياره وأن تصبح أشد العوامل فاعلية فى ثقافة الغرب .

الخاتمة

ماهى الأسباب التى أدت إلى انهيار سلطان روما فى الغرب؟ ليس هناك من سبيل إلى تجنب هذا السؤال على الرغم من أنه فى المكان الأول يعد من بين تلك المشاكل التاريخية التى وإن كان من الممكن أن تطرح على بساط البحث ، إلا أنه من المتعذر أن نضع لها حلولا نهائية وإجابات شافية . وهناك قدر هائل من البحوث التى تناولت هذا الموضوع سواء العلمية منها أو غير العلمية ، فنرى جيبون Gibbon لا يساوره أدنى شك فى الإجابة التالية إذ يقول : « لقد رويت قصة انتصار البرابرة والدين » . ولقد أضاف الباحثون المحدثون إلى هذين العاملين الأوليين عوامل أخرى من بينها الصراع بين الطبقات ، والعداء الذى كان قائما بين الجيش والطبقة الوسطى وفناء الأجناس بفعل بنيها وإجهاد التربة واستنزاف قواها وتقلب المناخ واختلاط الأجناس وامتزاجها فى روما وإيطاليا عن طريق هجرة الشعوب الشرقية ثم انتشار الملاريا والأوبئة وشيوع الإباحية الجنسية . ولقد أمدت هذه الكارثة العظمى التى نزلت بالإمبراطورية الدعاة الأخلاقيين بمعين لا ينضب من الأمثلة التى يمكنهم الاستناد إليها فى دعواهم ، فلطالما قيل لنا إن التاريخ إنما يعلمنا أن انهيار الإمبراطورية الرومانية إنما يرجع إلى كذا وكذا مما يخطر على بال القائل من الأدران والمباذل التى يرى مهاجمتها . ولكنه من سوء الحظ أن دروس التاريخ ليست بأية حال على هذا القدر من الوضوح . ذلك لأن تقدم المعرفة التاريخية قد بعد بنا أشواطاً كبيرة عن نظريات جيبون الهادئة التى كان ينادى بها دون أن يساوره شك فى صحتها . وإن أحداً لا يمكنه ، بغض النظر عن قلة محدودة ، أن يأخذ بذلك الحل القاطع قضية مسلما بها ، غير أن هناك بعض المقترحات المعينة التى تحظى بقسط

كبير من اتفاق الآراء ، وأول هذه الافتراضات أنه ليس هناك سبب واحد فقط يمكنه فى حد ذاته أن يكفل هذه النتيجة . ثانيا : أنه يتحتم على أى حل نهائى يمكن التوصل إليه أن يوضح لنا قبل أن يتسنى لنا الموافقة عليه الأسباب التى دعت إلى بقاء الإمبراطورية الشرقية قائمة طوال ألف سنة بعد انهيار الإمبراطورية الغربية . وفضلا عن ذلك ففى الإمكان أن نشير إلى عدد من مواطن الضعف فى المجتمع الرومانى ، وقد تختلف التقديرات بعضها عن بعض فى الحكم على مدى خطورة هذا الموطن ولكن لابد وأن نقاط الضعف مجتمعة كانت السبب إلى حد كبير فى ذلك الانهيار .

وقد أكد الباحث الألمانى ريم "Rehm" الدور الذى لعبته هذه المشكلة فى فكر العالم الغربى . وبين كيف أن أبناء العصور المختلفة عمدوا إلى شرح جوانبها وإيجاد حلول لها تتفق وخبرتهم الخاصة . وما من شك فى أن عصورنا الحديثة إن لم تكن تدرك شيئا فإنها تدرك خفايا العلوم التطبيقية ولا ريب أن كان هناك مواطن للضعف خطيرة فى مجال العلوم التطبيقية لدى الإمبراطورية الرومانية . فبالقياس إلى معاييرنا الحديثة ، فإنه لم يتحقق لها أى تقدم عام خلال القرون الخمسة التى أعقبت نقل روما للعلوم التطبيقية التى كانت مزدهرة فى العالم الهلينستى . ولا مراء فى أنه من الممكن أن نعزو حالة الركود هذه ، بقدر محدود ، إلى أثر نظام الرق ، ذلك لأن الرق لا يشجع على الاختراع الذى يميل عادة إلى الاستعاضة عن الجهد البشرى بالآلة ، لأن الرق يوفر مصدراً قليل التكاليف ومتجدداً من الجهد البشرى ، ولقد كان للرق على مر التاريخ أثر كبير على دولاب العمل وعلى الكفاءة البادية فيه ، يبلغ من العمق والفداحة ما كان له من أثر على الأخلاق العامة وعلى الإنسانية جمعاء . ومع ذلك فلا يمكن أن يقوم الرق وحده بالإجابة عن السؤال المطروح إجابة كاملة . فلقد انخفض عدد العبيد فى العالم الرومانى بعد حروب الغزو العظمى التى قامت إبان عهد الجمهورية . فلم يعد هناك من أسواق النخاسة

ما كان على درجة أسواق جزيرة ديلوس من الضخامة . والحقيقة أن الإمبراطورية كانت تتميز فى أوائل عهدها بزيادة الاعتماد على جهد الأحرار من العمال بدلا من العبيد . ولا بد أن هذه الظاهرة بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادى قد هيأت الظروف الملائمة للاختراع ، غير أنه لم يحدث أى تقدم على نطاق واسع بل لم يحدث أى تقدم يعادل على الأقل المراحل المبكرة للانقلاب الصناعى . ولا يكفى أن نعزو ذلك إلى ميل الرومان إلى النواحى العملية وعزوفهم عن التفكير النظرى فإن بعض الاختراعات التى كان يقدر لها أن تعود بأعظم النفع على العالم الرومانى هى على وجه التحديد الاختراعات التى يمكن أن ننتظرها ممن لهم مهارات عملية . فلماذا لم يخترع أى فرد من رؤساء العمال الرومانيين سرجا لا يضيق الخناق حول عنق دواب النقل حتى يكاد يقتلها خنقا بضغطه على قصبتها الهوائية ؟ ولم لم يحدث هناك أى تحسن فى تركيب السفن الرومانية التى كان يتسم بقدر كبير من الاضطراب وعدم الإحكام ؟ وفوق كل ذلك لماذا لم يخطر على أى موظف من موظفى دار سك النقود الرومانية أن يأخذ تلك الخطوة السهلة بأن يلجأ إلى عملية طبع النقود بدلا من سكها ، وهو اكتشاف كان لا بد أن يسفر عن نتائج بالغة الأهمية فى مجال نشر المعرفة ؟ إن فى ذلك نقطة يصعب تفسيرها مثلما يصعب تفسير عجز حضارة بيرو عن اختراع العجلة .

ولا شك فى أن هذا التخلف فى ميدان العلوم التطبيقية يرتبط بقدر ما بتخلف التعليم . فعلى الرغم من الرعاية التى كان يبديها الأباطرة وحرص المجالس البلدية على تأسيس المدارس وتوفير أسباب البقاء لها ، فإن التعليم فى ظل الإمبراطورية لم ينتشر بالقدر الكافى كما لم يكن عميق الأثر إلى الحد المنشود . وما من شك فى أنه كان من بين مواطن الضعف الخطيرة إهمال العلوم الطبيعية والموضوعات العملية ، ولكنه لا يكفى أن نقول كما يقول بعض النقاد إن الرومان كانوا قانعين راضين عن تلقى نمط من التعليم يقتصر

على الناحية الأدبية فحسب . فإن موطن الضعف الحقيقى هو ذلك الاهتمام الذى لم يكن له ما يبرره والذى أحيطت به مادة البلاغة . وكان مرد ذلك اتجاه ينم عن ضيق أفق وقصر نظر إلى تفضيل ذلك الضرب من التدريب المهنى الذى كان يلوح أنه يهىء أسرع سبل النجاح . لقد كان التعليم الرومانى يخرج المحامين والمديرين ومدرسى البلاغة وهو بذلك قد أتاح للرومان قدرات كبيرة على التعبير ودربهم على تذوق الأدب ولقنهم المبادئ الأولى لدراسة قواعد السلوك والأخلاق ولكنه عجز على أن يستحث فيهم الفضول الذهنى كما أنه لم يضف شيئاً إلى المعارف القائمة .

وثمة ناحية أخرى أقل من الناحية السالفة خضوعاً للتقييم الدقيق . وتتمثل فى بعض مواطن الضعف السياسية والعسكرية . ويبرز لنا من بينها عجز الرومان على وضع أساس دائم يحظى بالقبول من جميع الأطراف لينظم تتابع الأباطرة على رئاسة الإمبراطورية . ولو أن مبدأ الوراثة قد لقى القبول لأتى دون شك بكثير من الأباطرة الضعاف الفاسدين ، ولكنه على أية حال كان من الممكن أن يصبح مبدأ واضحاً للجميع ، ولكان من الممكن أن يظهر معه المغتصبون فى ثوبهم الحقيقى . ولو اتبع مبدأ التبنى بصفة دائمة لوقعت هناك منازعات من أجل الخلافة على الرئاسة ، ولكن الاحتمال الأكبر أن ذلك كان سيتم عن طريق مؤامرات وفتن داخل القصر لا بين صفوف الجنود فى ميدان القتال . ولكن الرومان لم يلتزموا على الدوام بأى من النظامين . وعلى ذلك فقد ابتلوا بمساوئ كل من النهجين ؛ فمبدأ الوراثة أتى ببعض الأباطرة الضعاف خلال القرن الأول ، وأدى النزاع على الخلافة وبخاصة بعد عهد كومودوس إلى كثير من المنازعات التى أصابت الدولة بضعف خطير . ولم يقتصر ذلك فحسب على مجرد الخسارة فى القوى البشرية والخسارة فى الموارد المادية ، فلقد استشرى الفساد فى الجيش حين اكتشف أن سلب العالم المتحضر ونهبه أوفر مغنما من الدفاع عنه ضد البرابرة .

إن ما لا يزيد على قرن واحد إلا ببضع سنوات هو الحقبة التى تفصل بين جيش ماكسيموس ثراكس وجيش تراجان غير أنهما كانا يقفان على النقيض تماما فى نواحى الضبط والربط والروح المعنوية والحمية للقتال .

وعلى أية حال فإنه لم يكن من المقدر للنظام الدفاعى الذى وضعه أوغسطس لمواجهة العالم البربرى أن يظل صالحا للعمل إلا إذا ما بقيت روما الدولة صاحبة التفوق العسكرى البين بالقياس إلى أعدائها . ولم يكن من المقدر أن تبقى الأحوال جامدة لا تتغير على طول الحدود ، فلابد أن يكتسب البرابرة الطابع الرومانى ، على الأقل ، فى مجال استيعابهم لطرق القتال الرومانية ولا غرو فقد كان أرمينيوس وآلاريك يخدمان فى الجيش الرومانى كما أن الجيش الرومانى ذاته أخذ ، كما أوضحنا من قبل ، فى اكتساب الطابع البربرى فى اطراد ، وذلك من حيث جنسية جنوده . فإنه فى القرن الرابع ذاته بلغ البرابرة المنخرطين فيه ، مناصب القيادة العليا . وفى مثل هذه الأحوال لم يكن هناك من أمل فى الاحتفاظ بتفوق الرومان العسكرى إلا بالاعتماد على موارد فنية علمية غاية فى السمو والتفوق مثل استخدام الأسلحة النارية . صحيح أن ثمة طائفة من المنجانيقات المختلفة قد أتاحت لروما فى القرنين الثالث والرابع تفوقا من هذا النوع ولكنه لم يكن يحظى بالقدر الكافى من الفاعلية الذى يتيح لها سبقاً واضحاً بينا على إمكانيات العدو . وما إن انتصف القرن الرابع حتى كان بوسع جيش مؤلف من القوط والفاندال والهانيين أن يخوض المعركة ضد جيش رومانى على قدم المساواة ، على أقل تقدير . وحتى فى هذه المرحلة أيضاً ، فقد كان يتوافر للإمبراطورية قدر من الموارد البشرية يفوق ما يتوافر لأعدائها . ولكنه لم يكن من الميسور إعداد هذه القوى البشرية للحرب دون زيادة الضرائب التى أصبحت بالفعل عبئا تنوء به الكواهل .

ولم تكن الضرائب القاصمة للظهور سوى عبء واحد من عديد من

الأعباء التى فرضتها الإمبراطورية فى عهدها الأخير على مواطنيها . فلقد بدأت الدولة منذ عهد دقلديانوس فى الانحطاط والتحول إلى دولة استبدادية تتحكم فى جميع أوجه النشاط وتوجهها بما يتفق ومصلحتها هى وحدها . فقد كان وكلاء الدولة ينتشرون فى كل مكان وكانت تعليماتها ولوائحها تنظم كل وجه من أوجه الحياة . ولم يكن لدى مواطنى الإمبراطورية فى عهدها المتأخر من الوسائل أو الدوافع ما يمكنهم من تحسين مصائرهم ، وقد تجمدوا فى وظائفهم المتوارثة وناءت كواهلهم بعبئين متلازمين هما الضرائب والتضخم المالى ، ونكبوا علاوة على ذلك بالمطالب الحكومية المتصلة من أجل الحصول على قروض وهدايا وجهد بشرى ، وتعرضوا لنهم وجشع جيش عرمرم من الموظفين الفاسدين . وأن السيد ووليبنك Walbank لمحق فيما ذهب إليه من القول بأنه لم يكن أمام أباطرة القرنين الثالث والرابع أى خيار فيما فعلوا إذا ما كان مقدراً للدولة أن تبقى قائمة . والحقيقة أن الإصلاحات التى أدخلوها جعلت من الممكن بقاء الدولة إلى حين ، ولكن ثمن ذلك كان باهظا للغاية ، وهو هدم كل نشاط تجارى وصناعى ، والقضاء على الروح العامة . لقد هبط حال المواطن إلى أن أصبح فرداً لا حول له ولا طول ، ولم تعد الدولة وأجهزتها بالنسبة له أجهزة فى خدمة الجماهير بل أصبحت شيئاً منفصلا مستقلا لا تمثل مطالبها مطالب الشعب أو تمثل مطالب الشعب مطالبها . ولابد أن البرابرة كانوا يبدون فى نظر الشعب أفضل من هذه الحكومة . وما من شك فى أن مطالب الدولة الباهظة كانت هى معول الهدم الأول التى جر إلى سقوط الإمبراطورية الغربية وانهيارها فى النهاية .

بيد أنه بالنظر إلى أن هذه الأحوال ذاتها كانت قائمة فى الشرق ، فلابد أن نتساءل عن السبب فى أنه لم يلق مثل هذا الانهيار . ولقد سبق أن أوضحنا أن العبء الأعظم لغزوات البرابرة وقع على الغرب الذى كان عليه أن يواجه

أبشع الهجمات من جانب القوط والهانيين . ولم يكن فى الشرق ما يماثل مملكة الفرنجة فى الغال ومملكتى الفاندال فى إسبانيا وإفريقية . وأهم من ذلك كما أشار باينيز Baynes أن ما كانت تتمتع به آسيا الصغرى من حصانة نسبية كان معناه أن لدى الشرق احتياطى من القوى البشرية والموارد المادية لا تستطيع إيطاليا أن توفره للغرب . واستناداً إلى هذه القوة الدافعة شن جستينيان فى أوائل القرن السادس هجماته الكبرى التى بعثت الأمل لحظة من الزمن فى استعادة كيان الإمبراطورية .

لقد عرضنا فيما سلف الأسباب التى يعتقد فى الوقت الحاضر أنها تمثل العوامل الرئيسية لانهيار قوة روما فى الغرب . وما من شك فى أنه سيكون من الميسور بتقدم المعرفة تتبع آثارها فى شيء كبير من التفصيل ، وتقدير أهمية كل سبب بالنسبة للآخر ، بل لعله سيكون من الممكن أن نضيف أسبابا أخرى إليها . ولاريب فى أن لهذا البحث أهمية كبرى على مر التاريخ بالنسبة لتلك الأمم التى ورثت الحضارة الرومانية . ولكنه يحسن بنا ونحن مقدمون على هذا البحث أن نجنب أنفسنا خطأ افتراض تفوقنا نحن فى هذا السبيل ، فإن بريطانيا لم تبدأ فى توفير سبل التعليم للجميع حتى عام ١٨٧٠ . وظل الرق قائماً فى الولايات المتحدة حتى الحرب الأهلية . كما أنه قد أصبح على مجتمعنا أن يؤدى ثمنا باهظا حفاظا على حياته . ثم إنه حتى وإن افترضنا أننا قد أوفينا هذا الثمن حتى هذه الساعة فليس هناك من ضمان أن مطالب الدولة التى تفرضها على الفرد سوف لاتصل إلى حد يتجاوز حدود طاقته . فجدير بالذكر أن ذلك التقدم الهائل الذى أحرزه الإنسان فى مجال سيطرته على الطبيعة خلال القرون الثلاثة الماضية لم يصحبه سيطرة الإنسان بدرجة متساوية على نفسه .وهكذا فإنه على الرغم من تفوقنا الذى لاحد له فى ميدانى العلم للبحث والعلم التطبيقى على الرومان ، فإننا نعانى من معضلة لم يكن لهم بها عهد . فليس لدينا ضمان على تفوقنا ،

بقدر معلوم ، على العلوم التطبيقية لدى أعدائنا الألداء . ونحن إذ نحاول أن نصل إلى هذا المعدل من التفوق إنما نجازف بالتعرض لخطر حقيقى يتمثل فى تدمير كل معالم الحضارة تدميرا تاما فوق كوكبنا هذا .

وقد تعيننا معرفتنا بالماضى على أن نظل يقظين ساهرين فى مواجهة الأخطار التى تهددنا . وإن خطر نشوب حرب ذرية يبدو للكثيرين فى الوقت الحاضر خطراً حقيقاً داهما بقدر ما كانت تبدو نهاية العالم قريبة بالنسبة للمسيحيين الأوائل . ولعل ما يهدئ من روعنا أن نذكر أن القرن الثانى لم يكن نذيراً بنهاية العالم بل فاتحة عصر سلالة الإمبراطور أنطونينوس الذى كان عصر رخاء ورفاهية كما أن مجتمعنا أيضاً يواجه أحد أمرين ، إما الدمار وإما الرخاء. والتاريخ الرومانى إنما يذكرنا بأن الرخاء أيضاً ينطوى على الأخطار الخاصة به التى تعد أخطاراً حقيقية على الرغم من أنها مستورة خفية. وثمة تعقيب يقوم شاهدا على مانقول كتبه جريجورى العظيم معلقا فيه على الرخاء الظاهرى الذى كان باديا على العالم الرومانى فى القرن الثانى « لقد كانت الأعمار طويلة والصحة موفورة والرخاء المادى يبسط ظلاله والشعب فى زيادة ونمو، وكان الهدوء والسلام يسودان حياة الناس اليومية ، ولكنه بينما كان العالم نفسه فى ازدهـــار كان الرخاء فى قلوب هؤلاء الناس يذوى ويضمحل » .

تذييل

أسماء الأماكن الحديثة ومقابلها باللاتينية

الاسم الحديث		الاسم اللاتينى	
أجريجنتو	Agrigento	Agrigentum	أجريجنتوم
اليس ستى رين	Alise-Ste.-Reine	Alesia	اليسيا
أريتزو	Arezzo	Arretium	أريتيوم
ارليس	Arles	Arelate	اريلاتى
أوجسبرج	Augsburg	Aujusta Vindelicorum	أوجستا ديندليكوروم
بولونا	Bologna	Bononia	بونونيا
بون	Bone	Hippo	هيبو
بورديه	Bordeaux	Bordigala	بورديجالا
بودابست	Budapest	Aquincum	اكوينكوم
قادش	Cadiy	Gades	جاديس
قرطاجنة	Cartagena	Nova Carthago	نوفا كارتاجو
كاتانا	Catana	Catania	كاتانيا
تشستر	Chester	Deva	ديفا
كيرنستر	Cirencester	Corinium	كورنيوم
كولتشستر	Colchester	Camulodonum	كاملودونوم
كولون	Cologne	Colonia Agrippina	كولونيا اجريبينا
القسطنطينية	Coustantinople	Byzantuim	بيزنتيوم
دوراتزو	Durazzo	Dyrrachium	دوراخيوم
جنيف	Geneva	Geneva	جنيفا
جلوسستر	Gloucester	Glevum	جليفوم
استنبول	Istanbul	Byzantium	بيزانتيوم
لامبسا	Lambessa	Lambaesis	لامباسيس
لينكولن	Lincoln	Lindum	ليندوم
لشبونة	Lisbon	Olisipo	أوليسبو
لندن	London	Londinium	لونديniوم
ليون	Lyons	Lugdunum	لوجدونوم
مينز	Mainz	Moguntiacum	موجنتياكوم
مالاجا	Malaga	Malaca	مالاكا
مارسالا	Marsala	Lulybaeum	ليليبايوم
مارسيليا	Marseilles	Massilia	ماسيليا
مريدا	Merida	Emerita	امريتا
مسينا	Messina	Massana	مسانا

الاسم الحديث		الاسم اللاتينى	
ميلان	Milan	ميديولانوم	Mediolanum
نابولى	Naples	نيابوليس	Neapolis
ناربون	Narbonne	ناربو	Narbo
نيمى	Nimes	نيماوسوس	Nemausus
نيس	Nish	نايسوس	Naisus
بادوا	Padua	باتافيوم	Patavium
باليرمو	Palermo	بانورموس	Panormus
ريمينى	Rimini	اريمينوم	Areminum
ساجونتو	Sagunto	ساجونتوم	Saguntum
ساراجوسا	Saragossa	كايساراوجستا	Caesaraugusta
سوس	Sausse	هادروميتوم	Hadrumetum
سبلت	Split	سبالاتو	Spalato
ستاسبورج	Stasbourg	ارجنتوراتوم	Argentoratum
طنجة	Tangier	تنجيس	Tingis
تاورومينا	Taoromina	تاورومنيوم	Tauromenium
ترانتو	Taranto	تارينتوم	Tarentum
تاراجونا	Tarragona	تاراكو	Tarraco
ترفى	Treves	أوجستا تريفرودم	Augusta Treverorum
تريستى	Trieste	ترجستى	Tergeste
فينا	Vienna	فيندوبونا	Vindobona
روكستر	Wroxeter	فيروكونيوم	Viroconium
يورك	York	ابوراكوم	Eboracum

قاموس المصطلحات

ملحوظة : الاسماء التى ذكرت فى النص فى صيغة الجمع ، ذكرت هنا مفردا وجمعا .

Aedile

(الايديل) موظف عمـــومى فى المدينـــة يشرف على المنشآت العامة والاسواق ونظم المرور وامداد المدينة بالمياه ، وتوجد هذه الوظيفة فى البلدان أيضا .

Ala

(آلاى) فصيلة من الفرسان يصل عددها بعد عصر اوغسطس الى ٥٠٠ أو ١٠٠٠ جندى يتم تعبئتهم من الولايات .

Annona

(أنونا) ومعناها الحرفى « الحصاد » وهى هيئة امداد روما بالحبوب أصبحت لها أهمية قصوى فى عصر جايوس جراكوس . وقام أوغسطس بتنظيمها على أنها مصلحة أميرية .

Censor

(الكنسور) وهو رجل يعين ليقــوم بعمل تعداد للسكان كل خمس سنوات وتقدير قيمة المقاطعات حتى تفــرض الضرائب (ذلك فى عام ٤٤٥ ق.م.) ووضعت قائمة اعضاء مجلس الشيوخ تحت اشرافــه وبذلك أصبح له نفوذ قوى فى عام ٣١٢ ق.م. وفيما بعــد أصبح فى دائرة اختصاصه سلطات واسعة لمراقبة الاخلاق والتصرفات .

Civitates, Civitas

(دويلة) وكانت أثناء الحكم الامبراطورى عبارة عن وحدة محلية ذات حكومة ذاتية وفى الغالب ما تكون هذه الوحدة مدينة ولكن ليس هذا شرطا أساسيا .

Cohortes, Cohors

كانت منذ زمن ماريوس عبارة عن وحدة من الفرقة للتحركات العسكرية وكانت كل عشر وحــدات تكون فرقة من ٦٠٠ جنــدى ، أما فى زمن الامبراطورية فقد أصبح هــذا الاسم يطلق على وحدات المشــاة من الولايات .

Colonate

وهم الفلاحون المستأجرون فى عصر الامبراطورية وخاصة من يستأجر المقاطعات الاميرية .

Colonie, Colonia

(مستعمرة) وهى فى الاصل تعنى استقرار مواطنين رومان أو لاتين فى أرض ما عن طريق مشروع الغرض منه الزراعة أو الدفاع وفيما بعد أصبحت الدولة هى التى تنشىء المستعمرات لاغراض اقتصادية وغالبا ما تكون خارج ايطاليا — وفى عصر الامبراطورية كانت المستعمرات عادة من أجل اسكان المحاربين القدماء .

Coloni, Colonus

وهى تعنى (١) عضو فى مجتمع المستعمرة Colonia
(٢) فلاح مستأجر

Consistorium

وهو عبارة عن مجلس امبراطورى تكون منذ القرن الرابع الميلادى يعقده الامبراطور ويتكون من رؤساء المصالح الاميرية .

Consul

(القنصل) وهى أعلى وظيفة فى عصر الجمهورية وكان هناك قنصلان ينتخبهما الشعب ولفترة طولها عام واحد وكان القناصلة يزاولون سلطات عسكرية نظرا لانهم خلفوا الملوك فى سلطاتهم أما فى عصر الامبراطورية فقد أصبحت القنصلية وظيفة شرفية الى حد كبير .

Consular

(وتعنى قنصل سابق) .

Imperium

(سلطة الامبريوم) وهى أعلى سلطة ادارية يتمتع بها كبار موظفى الجمهورية فى منطقة (وهى الولاية) نفوذهم .

Imperium Infinitum Aequum

(السلطة غير المحدود والمساوية لسلطات الحكام) وهى سلطة ليست لها حدود جغرافية ومساوية لسلطة أى حاكم لولاية .

Iugerum

وهى مقياس رومانى لقياس الاراضى مساوية (٨/٥ الفدان) .

Legatus

وهى تعنى (١) مبعوث .
(٢) نائب عن حاكم لولاية .
(٣) قائد الفرقة الرومانية وذلك فى عصر الامبراطورية .
(٤) حاكم لولاية تابعة للامبراطور .

Magistrate

فى عهد الجمهورية كان هو الموظف التنفيذى فى الدولة ينتخبه الشعب ويزاول سلطاته لمدة عام عادة . وأهم هؤلاء الموظفين هم : القنصل الكنسور ، البرايتور ، الكوايستور ، والايديل .

Master of horse

(قائد الفرسان) وهى وظيفة يقوم الدكتاتور بتعيين شخص فيها ليكون نائبا عنه .

Master of soldiers

جاءت فى أواخر عصر الامبراطورية وهى تعنى القائد الاعلى لقوات المشاة والفرسان . وقد تولاها البرابرة فيما بعد .

(Modii) **Modius**

المقياس العام للمكيال الرومانى ، وهو يعادل ١٠١ من المكيال الانجليزى (وهو ٢ جالون) .

(Municipia) **Municipium**

وهى تعنى (١) مقاطعة ايطالية تتمتع بالحكم الذاتى .
(٢) مجتمع من مجتمعات الولايات يتمتع بالحكم الذاتى وهو أقل مرتبة من (الدويلات (Civitates) التى كانت فى بلاد الغال وبريطانيا .

Oppidum

بلدة أو مجتمع حضرى ، تطلق بالذات على البلدان الكلتية فى بلاد الغال .

Plebs

كتلة المواطنين الرومان عامة باعتبارها طبقة اخرى غير طبقة الارستقراطية (Patricii)

Populares

اصطلاح يطلق بالذات على الحزب الذى يعتمد على تأييد الطبقات الفقيرة ، وذلك منذ القرن الثانى قبل الميلاد . ولكن هذا الحزب كان فى الواقع يقف فى وجه الارستقراطية فيما يختص بمصالح الطبقة المتوسطة .

Praetor

— وظيفة من وظائف الجمهورية العامة ، مجال اختصاصها الاساسى هو الاشراف على العدالة . وكان Praetor Peregrinus امبرايتور الاجانب يفصل فى القضايا التى يكون الزوار والأجانب المقيمون فى روما طرفا فيها .

Primipilaris

كلمة استخدمت فى عصر الامبراطورية وهى تطلق على قائد المجموعة الاولى من الفرقة . وبعد تسريح هؤلاء القادة كانوا عادة يجندون للقيام بخدمات مدنية .

Princeps

كلمة اختارها أوغسطس ليصف بها مركزه فى الامبراطورية باعتباره زعيما للدولة . وفيما بعد انتحل الاباطرة الرومان هذا اللقب لانفسهم عند اعتلائهم العرش .

Proconsul

كان هذا اللقب فى عصر الجمهورية المتأخر يطلق على حاكم الولاية . أما فى عصر الامبراطورية فقد كان يطلق على حاكم ولاية تابعة لمجلس الشيوخ .

Procurator

ظهرت فى عصر الامبراطورية وهى تطلق على ضابط مالي تابع للامبراطورية يشرف على الشئون المالية وشئون المناجم والعملة والمقاطعات فى الولايات .

Publicanus (Publicani)

وهم المقاولون العوام ، وخاصة هؤلاء الذين يختصون بجمع الضرائب من الولايات وكانوا يتمتعون بثراء فاحش فى عصر الجمهورية ، ولكن قل شأنهم فى عصر الامبراطورية .

Quaestor

وظيفة وجدت فى عصر الجمهورية ، اختصاص هذا الموظف الرئيسى هو الشئون المالية .

Tribune

وهو التربيون العسكرى ، قائد جيش احتياطى ، وقد كان هناك سته ترابنة فى كل فرقة أثناء العصور الأخيرة من الجمهورية .

Tribunes (Tribuni plebis)

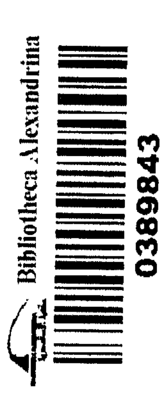
وهم ترابنة العامة ، ضباط ينتخبون ليصونوا مصالح الشعب من بطش الارستقراطية ، وقد كانوا يتمتعون باستخدام حق الاعتراض (Veto) تمتعا فائقا .

محتويات الكتاب

صفحة

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الثمن ٥ر٣٣ قرشا



دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧